

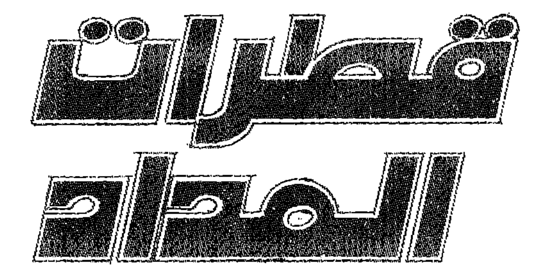
الكتاب السابع عشر
١٢/١٠/٢٠١٧

قطرات المداد

الدكتور محمد رجب البيومى



الدكتور محمد رجب البيومى



كتاب
النادى الأدبى الثقافى



الطبعة الأولى
١٤١٢/٩/٢٥هـ - ١٩٩٢/٣/٢٩م

المملكة العربية السعودية
الرئاسة العامة لرعاية الشباب

النادي الأدبي الثقافي بجدة

ص . ب : ٥٩١٩ ـ ت ٦٨٣٤٦٦٣
الفاكسميلي ٦٨٣٢٥١٢


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـة الكتاب

يقول الأستاذ الدكتور أحمد أمين فى مقدمة الجزء الأول من فيض الخاطر:

« هذه مقالات نشرتُ بعضها فى مجلّة الرسالة، وبعضها فى مجلة الهلال، وبعضها لم ينشر فى هذه ولا تلك، استحسنت أن أجمعها فى كتاب، لا لأنها بدائع أو روائع، ولا لأن الناس ألحّوا علىّ فى جمعها فنزلت على حكمهم، وائتمرت بأمرهم، ولا لأنها ستفتح فى الأدب فتحاً جديداً لا عهد للناس به، ولكن لأنها قطع من نفسى أحرص عليها، حرصى على الحياة، وأجتهد فى تسجيلها إجابة لرغبة حب البقاء، وهى مجموعةً أدلُّ منها مفرقة، وفى كتاب أبينُ منها فى أعداد »

وما قاله الدكتور أحمد أمين أجد صداه القوىّ لدىّ، لأنّى حرصت على جمع هذه المقالات لأنها قطع من نفسى، ولم يلحّ علّى أحد فى جمعها، وهى مجموعة فى كتاب أوضح منها متفرقة فى أنهار الصحف والمجلاّت.

والكاتب معذور حين يستجيب لرغبة ملحّة فى ضرورة جمع مقالاته، لأنه عانى معاناة أدبيّة فى رصد خواطرها. وتتبع أفكارها، وسواء كان المقال ذاتيا يعبّر عن عاطفة خاصة أو موضوعياً ينتهج النهج

العلمى فى البحث النظرى فإن الكاتب يبذل وقته فى نسج خيوط بحثه مدقّقا ناقدا، وأقول ناقدا، لأن كل كاتب يحترم نفسه ينقد كلّ خاطرة يسنح بها فكره قبل أن يذيعها للقارىء، فإذا نفى عنها الشوائب، وصارت مستقيمة فى رأيه سارع بتسجيلها، راجيا أن تجد الصّدى الحىّ لدى قارئه، وقد يضيق بعض الكتاب بنقد آرائهم، وهذا ضيق عقلى لا اعتبار له، لأن الناقد شريك الكاتب فى طريق نضاله القلمى وهو أحرى أن يكون صديقاً موجّهاً، لا عدوّا راصدا.

وبهذه النظرة أرجو أن أجد من القارىء الكريم ما يسدّد خطوة عاثرة، أو يقوّم أعوجاجاً ناشزاً، وعلى الله قصد السبيل،

(د . محمد رجب البيومى)

الهجرة النبوية والشيخ الأعرابى

منذ قررت مصر الاحتفال رسميا بيوم الهجرة المحمدية فى أول المحرم من كل عام، والصحف اليومية، والمجلاّت الدورية تمنح هذه المناسبة الكريمة قسطها الأوفى من التحليل والتفسير، بحيث لو جمع ما كتب فى الصحف لكان مكتبة مستقلّة، ولا أكتمُ القارىء أن أدباء الجيل الماضى كانوا أكثر إهتماماً بهذه المناسبة من أدباء اليوم، إذ كانت لدينا حينئذ مجلاّت أدبيّة كالرسالة والثقافة تُصدر كلّ عام عدداً مستقلاً بذكريات الهجرة وما يجرى مجراها من أمجاد الإسلام على مدّ عصوره المتلاحقة، وبكل عددٍ نوابغُ الفكر العربى من كبار الأدباء يبسطون ويحلّلون، ويؤيدون ويدفعون، ممّا يجعل المناسبة الكريمة ذات صدىً فكرىّ يتجاوب فى أرقى مستوياته، فَيُحيى الشعور، ويَفسح طريق الأمل، ويزيد المؤمنين يقينا واعتصاماً، ولا أنكر أنّ الإذاعات المختلفة تتجاوب بهذه الذكرى محتفلة محتشدة، ولكنّ الثمرة غير الثمرة، والأريج دون الأريج، لقد كان من عجائب الصدف أنّى فى بعض هذه المناسبات، قد استمعت إلى حديث تقليدى عن الهجرة فى إذاعة ما، ثم أدرْتُ المفتاح لأستمع إلى حديث مماثل فى إذاعة ثانية وثالثةٍ ورابعة، وكانت النتيجةُ أنّ المتحدثين جميعاً يتشابهون ويتماثلون، فما فتح الله على أحد بطريف يدل على شخصِيَّته! وكأنَّ الموقف لا يتطلب إلاّ السرّد التاريخى محوطاً ببعض الآيات والأحاديث، مما يعرفه طلبة المدارس فى الصفوف الأولى! أين هذا

كلّه من عددٍ ممتاز من مجلّة شهيرة كالرسالة، تسطع على القراء بما يخلب ويروع.

حديث مشتهر

وقد رأيتُ أن أتحدّث هذا العام عن بعض مواقف الهجرة التى تداولتْها المصادر المتعدّدة فى القديم، والمراجعُ المتداولة فى الحديث، هذا الموقفُ هو موقف الشيّخ النجدى فى دار الندوة حين اجتمع المشركون للتآمر على حياة رسول الله، بعد أن أنتقل المهاجرون من المسلمين إلى المدينة المنّورة، فاستعاضوا أهلاً بأهل، والتف حول الإسلام من تعهّدُوا على نصرته ليلة العقبة مسترخصين دماءهم فى ذات الله! وسيلحق رسول الله بهم فيصبحُ ذا شوكة حربّية تقف للمشركين بالمرصاد، وإذنْ فلا مفرّ مِنْ مُواجهة الموقف فى اجتماع دار الندوة، لتجتمع الكلمةُ المشتركة على أمرِ حاسم.. يدْفعُ النذر الغاشية! وهو مَا سَجلّه الله فى كتابه حين قال:

﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا، ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين﴾ [1].

قلنا إن حديث الندوة ذائعٌ مشتهر، ومع ذُيوعه المدوّى، نجدُه يَحْتاج إلى تعقيب مفيد، يبدّد ما غشيهُ من ضباب ساعدت الكتبُ المتعاقبة على انتشاره، فكيف رُوى هذا الحديث فى أوائل مصادره من كتب التراث.

---

(١) سورة الأنفال آية: ٣٠.

إننا نرجعُ إلى ابن اسحاق فى سيرته فنجدُه يقول ــ ببعض التصرف ــ :

« إن قريشاً اجتمعت فى دار الندوة يتشاورون فيما يصنعون من أمر النبى ﷺ حين خافوه، فغدوْا فى اليوم الذى استعَدّوا له، وكان يُسمّى يوم الزّحمة، فاعترضهم إبليس على هيئة شيخ جليل، فوقفَ على باب الدار، فقالُوا: من الشيخُ؟ قال: شيخٌ من الاعراب، سمع بالذى استعدّتم له، فحضرَ معكم ليسمع ما تقولون، وعسّى ألاّ يعدمكم منه رأى « ونُصح، قالوا: أجل، فادخلْ، فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشرافُ قريش من كلّ قبيلة، من بنى عبد شمس شيبة وعتبة وأبو سفيان، ومن بنى نوفل طعيمة بن عدى، وجبير بن مطعم، والحارث بن عامر، ومن بنى عبد الدار النضر بن الحارث ومن بنى أسد البخترى بن هشام وزمعة بن الأسود، وحكيم بن خزام، ومن بنى مخزوم أبو جهل ومن بطونِ آخرين كلها من قريش!

فقال بعضهم، انّ هذا الرجل قد كان أمره ما كّان، وما رأيتْم، وما نأمنُه أن يثب علينا بمن اتّبعه من غيرنا، فأَجمِعُوا فيه رأيا، قال: فتشاوروا، فمِنْ قائل: احبسوه فى الحديد، وأغلقوا عليه بابا، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه!

فقال الشيخ الاعرابى: لا والله ما هذا برأى، فلو حبستموه لخرجَ أمره من وراء الباب الذى أغلقتموه دونَه إلى أصحابه فلأ وْشكُوا أن يثبُوا عليكم فينزعوه من أيديكم.

ثم تشاوروا، فقال قائل، نُخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلدنا،

فإذا خرج عنا ، فلا والله ما نبالى أين ذهب ، ولا حيث وقع !

فقال الشيخ الاعرابى : لا والله ما هذا برأى ، أما رأيتُم حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبتَهُ على قلوب الرجال ، ولا نأمن أن يحلّ على حىّ من العرب فيغلب عليهم ، ثم يسير بهم إليكم ، حتى يطأكم بهم .

فقال أبو جهل : والله إنّ لى فيه لرأياً ، هو أن تأخذُوا من كلّ قبيلةٍ ، فتىً شاباً جلْداً ، نسيباً وسيطاً ، ومع كل فتى سيفٌ ، ثم يعمدون إليه فيضربونه ضربة رجلٍ واحد ، فيقتلونه فنستريح ويتفرّق دمه فى القبائل كلها ، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ..

فقال الشيخ الاعرابى : القول ما قاله الرجل ، ولا رأىَ غيره ، فتفرّقوا وهم مجمعون على ذلك ، هذا ما جاءَ فى المصدر الأوّل ، وما ردّدَتْه الكتب إلى يومنا هذا ، ونحنُ لا ننكر الإجتماع ، فقد ثَبتَ بنصّ القرآن الكريم ، ولا ننكرُ أنهم انتهوا إلى وجُوب اغتيال رسول الله ! وقد مكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين ! ولكنّنا نتساءل عن إبليس ، وعن الشيخ الاعرابى : الذى تراءى فى صورته ، وهلْ كان ما جاءَ فى الرّواية بشأنه ، ممّا يعقل أن يتردّد دون تعقيب ،

(مؤرخ ناقد)

كان المؤرخ الإسلامى الكبير الأستاذ عبد الوهاب النجار ذا فكرٍ جوّال دءوب ، فهو يقف أمام كثيرٍ من المسلمات ليغْصِف بقرارها

المطمئن ، عن براهين دامغة ، وأدّلةِ حاسمة إذ كان كما قال الأستاذ علي الجارم في رثائه :

لـهُ حـجـجٌ يُـسـمّيـهـا كـلامـا ... ومـا هِـى غير أسـيـاف تُـسَـل
وآراءٌ تـرى فيهـا ابـن بحـرِ ... يـصـول كما يـشـاء ويـسـتـدل

وابن بحر هو الجاحظ ، وحسبَك أن يقرنَ الجارمُ صديقه النجار بالجاحظ ، وقد وقفَ الأستاذ النجار أمام حديث الشيخ الاعرابى موقف المرتاب ، فذكرَ في بحثٍ ضاف نشره مُسلسلاً بمجلة الإسلام ١٣٥٧هـ أنه يستريب أن تُدخل قريشٌ في هذا الأمر إذ لايعقل أن تُدخِلَ قريشٌ فى أمرها إنساناً لاتعلم عنه شيئاً إلاّ أنه اعرابى ، ولِمَ لايكون هذا الاعرابى عينا للمسلمين ما داموا لم يعرفوا شيئاً من أمره فكيفَ أجازوا له التصدّر دون احتياط ؟ ثم إذا كانَ إبليس قد تَزَيّاً بزىّ الشيخ الاعرابى ، فمَنْ أنبأ القوم أنّه إبليس ، ولِمَ لايكون آدمياً ، مع أنّ رؤية إبليس مُستبعدةٌ ، لأنّ الله عز وجل يقول عنه :

﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾

ثم إن الله عز وجل قد سمّى مؤامرة المشركين مكرا ، والمكر هو التدبير فى الخفاء ، فهل يكونُ منه أن يجتمع ممثلو القبائل جميعاً ما عدا بنى عبد مناف ، وفيهم أصهارهُم وأصدقاؤهم الذين يُسارعون فى نقل ما أُتمروا به ، فيفسد المراد ؟

هذا لباب ماقاله الأستاذ النجار، وأنا أضيف إليه ، أنّ الثابت أنّ الاجتماع كان فى دار الندوة ، وهى المنتدى العامّ الذى أنشأه

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٢٧

قصيُّ بن كلاب تجاه البيت الحرام، لتُرسمَ فيها خطط قريش التجارّية، وما يكونُ من عقود الزواج، أو إعلان الحرب، أو عقد التحالف، وكان من شروط روّادها أن يتجاوزَ الواحد منهم سنّ الشباب إلى الكهولة، بحيثُ لا يحضر غير المجربّين من ذوى الحنكة والدهاء، فهل يُعقل أن تُشترَط الشروط الدقيقة فى أصحاب الندوة، ثم يطرقها شيخٌ لا يُعرف من أينْ جاء ليتصّدر المتجمعين، وليكونَ صاحبَ الترجيح فيما يُقال، فهو يعترض على الرأى الأوّل، ويخالف الرأى الثانى، ويختار رأى أبى جهل، فيكون اختياره موضع الحسم الصريح، وهو بعدُ، غريبٌ دخيل!!

إن حديث الشيخ الأعرابى لا يَثْبتُ لنقاش، وأذكُر أنّ الأستاذ محمد لطفى جمعة.. قد قال ـ متهكما ـ بِصددِه فى كتابه (ثورة الإسلام): يظهر أنّ حضور الندوة كان مُباحاً للإنس والجنّ، حتى غشّيها إبليس نفسه، وإذا كانَ شعراء أوربا قد أشْخَصُوا إبليس فى قصّة فاوست لجيته، وهاملت لشكسبير بَعد المسيح بسبعة عشر قرناً، فلا عجب إذا سَبقهم العرب إلى ذلك، وفى اعتقادنا أنّها خرافة تدل على أن زعيم القوم كان شيطاناً.

ومن الحقّ أن نقول إن تعقيب الأستاذ النجار، قد استغلّهُ كاتبٌ لاحق، دون أن يُشير إليه، وكأنّه قد اهتدى إليه من ذات نفسه! وهذا ممّا يجبُ أن يكونَ موضع المؤاخذة، إذ يلزمُ اللاّحقَ أن يعترف بما نقل عن السابق، وهو اعتراف يَصِفُهُ بالدقة والأمانة اللّتْين ترفعانِ من قدره، أكثرَ مما يَرفَعه اختلاسٌ مشبوه.

ومن الطريف أن نذكر أنّ بعض كُتّاب السيرة، وهو الصالحى

صاحب (سبل الهدى والرشاد) قد ذكر فى الجزء الثانى من كتابه فى حديثه عن بناء قريش للكعبة، حين حكّمت رسول الله فى وضع الركن قبل مبعثه الشريف، ما خلاصتُه.. أنّ إبليس قد تصوّر فى هيكل شيخ اعرابى لينهىَ قريشاً عن تحكيم محمد بن عبد الله! واذنْ فلإبليس سابقة أولى فى زيّه الاعرابى عند بعض المؤرخين..

فى القصة

لا حرَج أن يظهر إبليس فى قصّةٍ تتحدّث عن النبى، فقارىء القصةِ يعلم أنّها تحتاج إلى خِيال يُجسّم الحقيقة ويُظهرها فى أجمل مظهر، كما يعلمُ أنّ القاصّ ليس محققاً يفحص الوقائع مؤيدًا أو معارضاً، ولكنّه يختار من الوقائع ما يُضىء الجوانب المظلمة، ومن وسائل هذه الإضاءة ما يَرْفُدُه به الخيال من تصوير جميل، وقد اعترف الدكتور طـه حسين فى مقدّمة على هامش السيرة أنّهُ لا يكتب للعلماء والمؤرخين، لأنه لا يريُد بما يكتب جانب العلم والتاريخ، وهو لا يتحدّث إلى العقل حديث الحقائق التى يقرها العلم، ولكنّه يتحدث إلى القَلْب والشّعور ليثير العواطف، ويذْكى الأحاسيس! وفى ضوء هذه المقررات فَتحَ الدكتور طه مكاناً كبيراً لأبليس فى الجزء الثالث من كتابه، فهو لمْ يقفْ به عند دار الندوة ليلة الهجرة، بل سبق به البعثة المحمدّية، ورسمهُ شيخاً جميلَ المنظر (كذا) فى زىّ أعرابىّ يعترض أبا جهلٍ ليسقيه شرابَ البُغض لمن يسمّى محمدا، وليقولَ له فيما يقول إنه سيجعلُ الناس سواسية لا فرق بين حرّ وعبد، وأنّه سيدعو إلى عبادة الله ويحطّم الأصنام، وقد سمّاه الدكتور طه (أبا مّرة) وجعَل يعدّدُ مقابلاته الكثيرة لأبى جهل، ليملأ قلبه سعيراً ملتهباً، ويصور له نفسه وقد ضؤلتْ

وتلاشتْ جوارما ينتظر محمداً من مجْد ! ثم يصرّح له بأنّه ابن النارمنها خرج ، وإليها سيعود ، لا يعرف غير النار أبا أو أماً .

فإذا جاء الحديثُ عن مؤامرة دار الندوة ، فإنّ صاحب على هامش السيرة لا يزيد شيئاً عن الواقع المتعارَف . وقد كانَ في وسعه أن يمّد بأبى مُرّة حيثُ يجعله صاحبَ السيطرة الكبرى وذا الرأى النّاجع الذى تضَافَرتْ على تأييده البراهيُن ، ولكنه يكتفى بأن يقول :

« وهذا أبو جهل بذل أقصى جهده ، وغاية ما يمتلك من قوّة ، وآزره حليفه أبو مّرة ، فأحسن مؤازرته ، واجتمعت قريش فى دار ندوتها تتشاور فى أمر محمد ، وحضر اجتماعهم أبُو مّرة ظاهراً لهم فى زيّه ذاك ، الذّى كان يراه فيه أبو جهل [وحده] . فلما جعل القوم يديرون رأيهمْ بينهم أخذ أبو مرة يردّ على كل متكلم كلامه ، حتى قالَ أبو جهل مقالته ، فأيدّها أبو مرة كل التأييد ، ولم لاَ ؟ لقد كانتْ مقالة أبُو جهل تُبلغه الغاية التى يسعى إليها ، رأى أبو جهل أن يُنتدبَ لقتل محمد فتىً جلدٌ من كل قبيلة ، من قبائل قريش ، حتى إذا اجتمع هؤلاء الفتيان عَدَوْا على محمد ، فضربوه بسيوفهم ضربةَ رجل واحد ، فإذا فعلوا ذلك ذهب دَمُه بين القبائل ، ولم تِعرفْ بنو عبد مناف عند من يطلبون دمه ، » .

يخيَّلُ إلىّ أن الدكتور طه كانَ مُجْهداً حين بلغ بحديثه مُؤامرة دار الندوة ، والاّ فكيف اتّسعَ خيأله ليتحدث عن إبليس صفحاتِ وصفحاتِ كى يصوّر نفسيّة أبى جهل من خلال حديثه عن مُلهمه وصاحبَ وحيه الشيطان ، حتى إذا انتهى إلى الموقف الذّى ظهر فيه إبليس حيًّا متكلما فى صُحف السيرة ، لم يشأ أن يأخذ من حديثه

المدوّن، ما يمتدّ به إلى تحليلٍ تصويرىّ، يرسم المكنونات الخافية، ويفضحُ الخوالج الكظيمة، كما يفعل كبار القصّاصين، حين يتعمّدون تشريح الأهواء المتضاربة! أتراهُ قد اكتفَى بما أسلف، فآثر الإيجاز؟

(فى المسرحيّة)

ألف الأستاذ توفيق الحكيم مسرحية محمد، لينقل مشاهد من السيرة النبوية فى قالبها الحوارىّ دون تعديل يمس الجوهر، وقد احتاطَ فلْم يجر على لسان رسول الله ﷺ غير ما قال، كما لم يأت إلاّ بما روته كتب السيرة دون تزيّد، وإذا كانت كُتب السيرة قد روتْ حديث إبليس، ومجيئه فى صورة الشيخ الاعرابى فإن الحكيم قد روىَ حديثاً لأبليس مع الحيّة ليلة الهجرة. ولا أدرْى إلى أى مرجع قد اتجّه حين جعل الحيّة ذات موضوعٍ فى هذا المجال، فقد جاء المشهد السادس من مشاهد الهجرة على هذا النحو؟

الحيّة [تصيح] إبليس فى لبوس شيخ من الاعراب!
ابليس : لا تصيحى أيتها الضئيلة.
الحيّة : ماذا جئت تصنع الليلة فى دار الندوة؟
ابليس : أريد محمدا؟
الحيّة : تريد به الهلاك!
ابليس : أريد لنفسى الحياة.
الحيّة : ماذا صنع بك؟
ابليس : يريد أن يغيّر وجه الأرض.
الحيّة : كيف؟

ابليس : نورٌ يخرج من قلبه يضىء الأرض
الحيّة : وما يضيرك فى هذا ؟
ابليس : يعمى بصرى هذا النّور
الحيّة : اطفئه من قلبه .
ابليس : لا سلطانَ لى على مثل هذه القلوب .

الحية : قلبٌ لا ككل القلوب ، إنّى لأذكر أمره فقدْ جاءه الملكان وهو صغير بطست من ذهب ، مملوء ثلجاً ، فأخذاه ، وشقا بطنه ، واستخرجا قلبه ، فشقّاه ، واستخرجا منه علقةً سوداء ،
إبليس : العلقة السوداء !؟
الحية : تلك رسولك إلى كل قلب .
ومضى الحوار فى استطراده . فألمَّ إبليس بدوْر الحيّة مع آدم حين أخرَجْته من الجنة ، ثم انتقل إلى ما كانَ من أمر الندوة مسجّلا ما دار بها من نقاش على نحو ما جاء فى كتب السيرة ، إلى أن أجمعوا على قتل رسول الله باقتراح أبى جهل وارتياح إبليس !

ولا أدْرى ما دَوْرُ الحيّة فى دار الندوة ؟ إذ أنّ دورها الذى ذكرتْه بعض الكتب كان فى غار ثور ، حين لدغتْ رجِلَ أبى بكر ، فتساقطتْ دموعه .

فى الشعر

رحم الله صديقنا وأستاذنا الشاعر الكبير محمد عبد الغنى حسن ، لقد ذَكَر خواطره النبيلة عن الهجرة النبوّية فى قصائد كثيرة تتعدّد بمرور الأعوام ، ومما كتبه فى هذا المجال مسرحيةٌ شعرية ذات فصل

واحد عن مؤامرة دار الندوة، إذ سجّل شعراً ما دار من الحوار بين أبى جهل وأبى سفيان وأميّة بن خلف، ويعنيا هنا ماذكره الأستاذ عبد الغنى على لسان الشيطان، حيث قال مبتهجاً حين شهد حماسته المتآمرين:

هذا مجال الدّس والتفريق	بيْن الصديق الحر والصديق
لاكنتُ من نار ومن حريق	إنْ لم أسِرْ فيهم على طريقى

ثم قال محمد عبد الغنى حسن على لسان إبليس إذْ يردّ على من أمر بترك محمَّد وشأنه:

إنّى أرى صحابةً	من حوله وعدداً
فإنْ تركتْم أمره	اليومَ فقد يغلُو غدا
ناشدتُكم أصنامكم	أنْ تعمِلوا فيه المُدَى
وأن تُريحوا العصر منه	والمدى والأبدا

وهنا قال أبو جهل:

ما كنتَ ياشيطانُ إلاَّ	رَجْع نفسِى والصّدى
لم تُعدُ مافتًى من الرغبة	وُقّيت الهُدى
قصدتُ بالأمس الفتى	وكانَ يغشى المسَجِدَا
أردتُ نَضْغَ رأسه	بحجر فما بدا...!

ولعلّنا نلحظ أن الشيطانَ هنا قد اقترَح القتل، وفى الرواية التاريخية أنّ أبا جهل هو الذى اقترح وإبليس سارع بالتأبيد،

ولا خلافَ يتضح، لأنّ أبا جهل إذا كانَ هو المقترح فقد استجابَ إلى وحى الشيطان الرجيم!

هذه خطوات سريعة عن مؤامرة الندوة، نكتُبها فى مناسبة الهجرة، ولو اتّسع المجال لاستشهدتُ ببعض ما يدُور فى هذا الفلك، وقد يكونُ فيما ذُكر.. بعضُ الغناء عمّا ضاق عنه النطاق.

حافظ إبراهيم أمير الدعابة

يروقك جداً أن تقرأ للأستاذ عبد العزيز البشرى عن صديقه حافظ إبراهيم ، كما يمتعك أن تسمع حافظاً يروى نكات البشرى ، أو يداعبه ببعض الأفاكيه ، فقد ألفت بين الصديقين الكبيرين مشابه أصيلة فى خفة الروح وعذوبة الحديث ودقة الملاحظة وقوة الإحتمال ، حتى تعود الناس أن يتلقفوا عنهما كل نادر رائع من الملح والطرائف ، ومضى صيتهما الجهير فى مضمار الأدب ، وقد تسير بهما الروح الرياضية إلى أبعد أشواطها ، فترى كل صديق منهما يجلس لصاحبه بمرصد من التندر، فهو يعابثه ويغاضبه ويقطع عليه تيار القول بلاذع من الفكاهة أو ساخر من التندر فلا يؤثر ذلك قليلاً أو كثيراً فى دعائم الود المتأصلة أو يهى من وشائج الحب المتعانقة .

بل كثيراً ماننقل هذه المعاتبة من مجالس السمر، إلى منابر الصحافة ، فيكتب البشرى عن حافظ مايضايقه ويكيده إذ يفضل بعض زملائه من الشعراء عليه ، ثم يلقاه ليتبادلا النكات المرحة دون غضب أو اضطغان ، وحين أفرد البشرى له فصلاً فى مرآته الذائعة ، لم يفته أن يتعرض لوصفه بلون ساخر من ألوان الفكاهة العاتبة ، فانبرى يقول عن صفية الأثير وخليله الحميم :

« جهم الصوت جهم الخلق جهم الجسم كأنما قد قد من صخرة من فلاة موحشة ، ثم فكر فى آخر ساعة أن يكون إنساناً فكان

والسلام، أما مايدعى فمه فكأنما شق بعد الخلق شقا، وأما عيناه فكأنما دقتا بمسمارين دقا، وأما لون بشرته والعياذ بالله فكأنما عهد به إلى نقاش مبتدىء تشابهت عليه الأصباغ والألوان فداف أصفرها في أخضرها في أبيضها في بنفسجها، فخرج مزيجا من هذا كله لا يرتبط به واحد بسبب ولا يتصل بنسب، وإنك لو نضوت عنه ثيابه، وألبسته دراعة من دونها سراويل، وأفرغت عليه من فوقها جبة ضافية، وتوجته بعمامة عظيمة متخالفة الطيات لخلته من فورك دهقانا من دهاقين الفرس الأقدمين، فإذا جردته كله وأطلقته في البر حسبته فيلا، أو أرسلته في البحر ظننته درفيلا» !!

بهذه الفكاهة المصورة يتحدث الأديب الكبير عن الشاعر المرموق، ثم يلقاه ليستأنفا الوثوب الشفوى بعد أن فرغ البشرى من هجومه التحريرى!! والقارىء والسامع كلاهما غانم مستفيد. كان الأستاذ البشرى كثير الحلف في مجالسه وأحاديثه، فهو لا يكاد يروى خبراً أو يذكر حادثة دون أن يشفعها عفوا وبدون قصد بكلمة والله. وقد لحظ ذلك صديقه حافظ فانتهز تكرار الحلف من صاحبه بمجلس حافل وروى هذه النادرة:

كان البشرى ينظر في إحدى القضايا الشرعية ـ أيام كان قاضيا بالمحاكم ـ وكان الشهود يتقدمون بين يدى المحكمة شاهدا شاهداً فيدلى كل منهم في القضية بشهادته بعد أن يدلى باليمين، ثم اتفق أن كررت المحكمة على أحد الشهود أن يؤدى القسم فلم يبادر، فإذا بالشيخ البشرى يترك مجلس القضاء ويقف مكان الشاهد ليقول «سأحلف أنا بالله نيابة عنه».

ويفاجأ البشرى بدعابة صاحبة ليضحك مع المعجبين ، ثم يحاذر أن يقسم جاهدا ولكن هيهات ، فكل امرىء وما تعود .

على أنه كثيراً ما انتقم لنفسه من صاحبه فسخر منه بقاذفة لاذعة وكال له الصاع صاعين فقد زارا حديقة الحيوان ذات يوم معا . وبعد انتهاء مطافهما الطويل دلفا إلى الباب ، فقال حافظ للبشرى أمام الحاضرين « حاسب يا أخى أحسن البواب يحوشك عند الباب » : فرد البشرى فى براعة ساخرة « لكن مافيش خوف عليك فيه منك هنا كثير .. » وقد ضحك حافظ لبراعة الرد ضحكة عالية أوقفته عن السير لحظات ..

وقد أجاد الأستاذ البشرى حين تحدث فى مرآته عن فكاهة حافظ فقال : « خفيف الظل ، عذب الروح ، حاضر البديهة رائع البديهة ، رائع النكتة بديع المحاضرة ، إذ كتب لك يوما أن تشهد مجلسه أخذك عن نفسك حتى ليخيل إليك أنك فى بستان تعطفت جداوله ، وهتفت على أغصانه بلابله ، وأشرق نرجسه ، وتألق ورده ، وتنفس فيه النسيم بسحر هاروت ، فأعجب لمن ينشره هذا النسيم كيف يموت » ..

هذه المجالس التى تحدث عنها الأستاذ البشرى كانت مبعث السرور، وميدان الأنس والمتعة لدى من أسعدهم الحظ بمصاحبة الشاعر الكبير إذ كان يفسح المجال للابتسام والمرح ما استطاع ، معتمدا على روحه المرحاح ، وطبعه المؤنس ، ولعل شهرة حافظ فى الشعر ترجع فى أوثق أسبابها إلى مجالس صفوه ، وأمسيات مرحه ، فشاعر النيل بين قرنائه الأفذاذ كان محدود الثقافة ، ضيق الخيال ، عزوفا عن

مطالعة العلوم المثمرة، إلا ما كان من انكبابه على نوع خاص من كتب الأدب العربى ودواوين الشعر وصحف النوادر والطرف، وشاعر يعيش بعقله فى هذا النطاق المتواضع يحتاج إلى سلم مرتفع يصعد عليه ليتوسط سلسلة رائعة من الأفذاذ تضم أمثال شوقى ومطران وشكرى والزهاوى والعقاد وغيرهم من شعراء الثقافة المتفرعة، والتبحر العميق، ولكن مجالس الفكاهة الضاحكة قد اختصرت الطريق أمام الرجل إلى دنيا الشهرة والإقبال، ولك أن توازن فى مجال المقارنة بين حافظ إبراهيم وأحمد محرم مثلاً، لتعرف كيف ساعدت صلات حافظ على ذيوعه واشتهاره بينما قبع محرم الشاعر العظيم فى دمنهور منطويا على نفسه فلم ينل حظوة حافظ ونباهته مع أن ــ محرما رحمه الله ــ كان أرصن ديباجة وأصفى طبعا، وأغزر إنتاجاً من صاحبه، ولكن شاعر النيل سمير القاهرة ونديم العلية من الكبراء والعظماء، طار شعره طيرانا ومشت قصائد أخيه هونا، والدنيا حظوظ وأقسام..

ومن حظ الشاعر السعيد أن أكثر الناس لأوائل عهده كانوا يظنون الشعراء مصادر النكات والغمزات، ومنابع النوادر والأفاكيه لأن الجيل المتقدم من شعراء القرن الماضى كان وافر الحظ فى هذه الناحية، فكان الليثى وأبو النصر وعبد الله النديم ندماء ظرفاء، يجيدون السمر والتندر قبل أن يجيدوا القوافى والأوزان، فاقتفى حفنى ناصف وإمام العبد وحافظ إبراهيم آثار أسلافهم، وأولعوا بالفكاهة والتطرف حتى صاروا أنس المجالس وبهجة الزمان.. وإذا كانوا فى مجاهم الشعرى قد تقدموا بالأدب خطوة، فقد تقدموا فى الفكاهة خطوات..

أكب حافظ ــ رحمه الله ــ على ذخائر الأدب العربى فحفظ كنوزها. وتصيد لآلئها من كتب الملح والنوادر القديمة، ورزقه الله حساً مرهفاً وذوقاً رفيعاً، فامتزج محفوظه بمبتكره، وفاض على لسانه رحيقا مستطابا، وكانت الحياة لعهده هادئة فارغة لم تحفل بشواغل الحضارة، من مسارح وملاه ومنتديات وإذاعات، بل إن سراة النيل فى مبدأ هذا القرن كانوا يترفعون عن ارتياد هذه الأماكن، فاتسعت أوقات فراغهم، وأخذوا يتطلبون السمير المؤنس، والنديم الفكه، والمحدث اللبق، وحافظ أجدر الناس بهذه الأوصاف فتكالبوا على مجلسه، وتدافعوا إلى محضره، وقد شعر حافظ بمكانته المدلة، فباهى بمواهبه، واعتبرها ذخيرة مرغوبة، يتحدث عنها إلى سعد زغلول فيقول:

قل للرئيس أدم الله دولته	بأن شاعره بالباب ينتظر
إن شاء حدثه، أو شاء أطربه	بكل نادرة تجلى بها الفكر

ومعلوم أن لكل مقام مقالا، فما يستطاب من النادرة فى وقت يستهجن فى وقت آخر، وحافظ خير من يعرف ذلك وبقدره، فقد تجيش الدعابة فى صدره فيختزنها اختزانا، ويدخر لها الفرصة السانحة حتى إذا تهيأ وقتها المناسب عطر بها مجلسه فهزت مشاعر سامعيه وتناقلها الجمهور، فقد بلغ حافظاً ــ على سبيل المثال ــ أن إمام العبد يدعى أستاذيته ويقول: لقد خلقت ــ حافظاً وشوقياً ــ فلم يجابه صاحبه بشيء، وانتظر حتى جاء إمام يقترض بعض نقوده، فقال له فى عبث ساخر، أنا كما خلقتنى يا مولاى، وتضايق إمام وأزبد، ولكن حافظاً قد ألجمه ورد دعواه فى هدوء واستخفاف.

على أنه ــ في ميدان تندره ــ يجعل من الاشتقاق اللفظى نكأة للفكاهة الهادفة، فتأتى على لسانه محكمة بارعة تبلغ مبلغها القوى من النفوس فنحن نعلم أن أمين الرافعى ــ رحمه الله ــ قد سخر قلمه ربع قرن فى المطالبة بجلاء الإنجليز. وصادف أن اتفق مع حافظ على التنزه فى وقت معين ولكن أمينا يخلف وعده معتذراً بأنه أخذ شربة ملح إنجليزى فلم تمش معه.

وهنا يفجؤه شاعر النيل صائحاً، يا أمين بك: الإنجليز لا يمشون من أى مكان.. ولا يتمالك سامعه نفسه فيصفق فى إعجاب وطبيعى أن يفهم حافظ قوانين النكات فينتظر الدفاع ممن يهاجه بفكاهته، بل إنه كثيراً ما يقبل هجوم غيره ببشر وإيناس، وهذه روح رياضية حميدة تجبر صاحبها على الاشتواء بنار أوقدها لغيره فتطاير شررها إليه.

شاهد مرة شابا وسيما يسير مع رفيق دميم فقال من فوره للدميم «أبوك السبب مدفعش مهر» فرد عليه الدميم «وأبوك دفع كام؟» فضحك الشاعر ضحكاً عالياً إذ أدرك ما بينه وبين صاحبه من اتفاق.

ومن طرائف الشاعر أنه كان يفاجىء أصدقاءه بما لا يتوقعون، فهو يبدؤهم بحديث جدى ينبىء عن الاهتمام البالغ، حتى ليظن سامعه أنه بصدد نبأ هام يتطلب الإسراع، ثم يستمع فلا يجد غير فكاهة تأخذ طابع الجد ثم لا تقف عند كلمتين أو ثلاث بل تمتد فى معرض حديث متصل، وفى كل جملة منه بادرة لاذعة أو دعابة نافذة، والغريب أن الشاعر لا يظهر من الخفة والابتسام حينئذ ما يوحى بتندره، بل يسترسل ليترك صاحبه متحرقاً ينتظر النهاية بفارغ الصبر حتى تحين.

وتطبيقاً لما ذكرناه ننقل هنا عن الأستاذ عبد الرحمن صدقي ـ إحدى هذه الطرائف المسلسلة التى برع حافظ فى سياقها وإحكامها براعة لاتتفق لكثير من الناس، وهى باطرادها المتماسك وترتيبها المنسجم تغنى عن التعليق، قال الأستاذ صدقى:

«كنت وصديق لى منحدرين فى شارع محمد على فلما صرنا تجاه مقهى دار الكتب وكان يعرف وقتئذ بالقهوة العثمانية، اندفع صديقى ودفعنى معه، فإذا بنا نواجه شاعر النيل حافظ إبراهيم واقفاً على أهبة الانصراف من المقهى فحياه الصديق ثم قدمنى، ولكن حافظ لم يمهله فقال له ذكرتك الليلة البارحة، وهذا أنت. فتهلل الصديق معقباً على الفور كالعادة «خير إن شاء الله خير». قال حافظ «كنت أقرأ الليلة البارحة فى رسالة الغفران ما جاء فى صفة جهنم فذكرتك».. فسأل صاحبى: وماذا يجعلك تذكرنى فى هذا الوضع بالذات؟ فظهر الجد على وجه حافظ وفى نبرة صوته، ثم قال «هو الحق أقول لك، لقد أعيانى تصور زبانية الجحيم كالعماليق فى أيديهم مقامع من حديد يتأهبون هذه الأهبة المهولة، وينتكفون هذا الوقود العظيم، لتعذيب من كان مثلك فى صغر الحجم وقصر القامة وخفة الوزن». فأجاب الرجل «ألا تكف عن هزلك»؟ قال حافظ «ما أنا بهازل فى هذه المرة يا بنى، أنا مشفق عليك، ولو كان أمرك يومئذ يوكل إلىّ، لكان حسبك فى جهنم موقدا من مواقد الكحول الصغيرة «اسبرتو» تتقلب من ذبالته على نار لينة يسيرة، وقبل أن يراجعه زميلى بكلمة أشار حافظ إلىّ وسأله: «أترى زميلك من أصدقاء العقاد؟» وما كاد يسمع الرد بالإيجاب، حتى التفت إلى قائلا: ما أظنك إلا كنت أكثر شباباً قبل أن تعرفه، إن العقاد يعقد على الناس الحياة، إنه لا يدع

شيئاً على حاله فى الشعر وفى مقاييس النقد وفى سائر الأمور نصيحتى إليك أن تنجو بحياتك منه».

ونحن الآن نجد فى النكات العالمية تهكما لاذعا، ونقدا مريرا إذ أن الفكاهة الحاضرة مع سهولتها ولطف موقعها تقوم بنصيبها الوافر فى النقد والتوجيه، وكذلك كانت النكات العربية القديمة ولم تتخلف عنها نكات حافظ، وقد حملت فى طياتها من النقد ما هذب الطبائع، ورقق الأذواق، بل إن الشاعر كان يفهم أن النكتة فى حقيقتها صورة كاريكاتيرية ساخرة، فكما يلاحظ الرسام انحرافا دقيقا فى خلق الإنسان أو تكوينه فيظهره للناس مجوفا مكبرا، فكذلك يهدف السمير المرح إلى الغميزة المستترة فيبرزها فى دعابة ساخرة، بل إن الفكاهى يملك من الخيال والتفنن والاسترسال مالا يملكه المصور، وأقرأ إن شئت قول حافظ فى إنسان ضخم الجثة عظيم البطن..

عطلت سير الكهرباء فلم تجد	شيئاً يعوق مسيرها إلاكا
تسرى على وجه البسيطة لحظة	فتجوبها وتحار فى أحشاكا

اقرأ هذين البيتين لترى من الدعابة والسخرية ما يعجب ويروق. ولعل مما يدهش القارىء أن يكون الشاعر قد ارتجل البيتين ارتجالا مما يؤكد أصالة الفكاهة لديه وقوة النادرة عنده، إذ قهرت فى مدة وجيزة ما يتطلبه الشعر من أوزان وقيود.

والذى يدرس شعر حافظ ثم يستمع إلى نوادره وفكاهته يلاحظ بعداً كبيراً بين الفنين وهما فرعا دوحة واحدة، فشعر ـ حافظ إلا ما ندر منه ـ يمتاز بالوقار والرصانة فقلّ إن تعثر فيه على الانبساط

والتندر، وكان المتوقع أن تغمر الفكاهة نواحيه فيظهر فى لون ضاحك رفاف، ولعل مرد ذلك أن حافظاً تتلمذ فى ميدان الشعر على أساتذة البارودى من أئمة العصر العباسى. وهؤلاء يؤثرون الرصانة والقوة والجرس، ويدخرون التندر والمرح إلى المجالس والمجتمعات، ولو أن ـ حافظاًـ تتلمذ على الشعراء المصريين كالبهاء زهير ومن أتى بعده لظهر الطابع الفكه فى شعره، ولكن الحملة القوية التى وجهت إلى أصحاب البديع المتكلف باعدت بين حافظ وهؤلاء مع أن الفكاهة الأصلية تكمن أحياناً فى طباق مستملح أو جناس عذب، أو تورية لطيفة، مما لاينكره ناقد ذواق، وما ضر البديع غير قوم تكلفوه عن تعسف وجدب وإمحال، فجاءت أشعارهم آسنة كدرة كريهة المذاق، وقد لاحظت أن جل ما قاله حافظ فى صديقه حفنى ناصف يفيض بالمرح والدعابة على غير عادة الرجل فى شعره، وأؤكد أن روح حفنى ناصف قد سيطرت على حافظ فساقتها هذا المساق البارع الفاتن.. واقرأ قصيدة حافظ فى تكريم حفنى لترى من فنون الدعابة ونوادر الفكاهة ماينعشك ويبهجك، حتى لتعجب كثيراً لشاعر يملك هذه الروح الطائرة ثم يقبع بها فى حيز خاص فلا يسمح بانطلاقها فى معارج إلهامه إلا بقدر ضئيل، بل إن ـ حافظاًـ حين رثى باحثة البادية كريمة حفنى ناصف لم تشغله اللوعة الصادقة عن التندر المطبوع فاندفع يقول فى رثائه:

وتركت شيخك لا يعى ... هل غاب زيد أو حضر

فهل ظن صديقه الملتاع ينبسط لهذة الدعابة فى يوم كدر مدلهم تتأجج فيه الأشجان، وبخاصة إذا كانت وفاة نابغة كباحثة البادية

قد صعقت والدها ودمرته حتى أصيب بالشلل الجزئى وحمل إلى حفلة الرثاء فى محفة لعدم قدرته على السير.

ومما يدخل فى هذا الباب ما يروى أن شاعر النيل قد وقف يلقى رثاءه لثروت باشا[1] فى حفلة تأبين، وكان الجمع حاشداً والشعراء مجتمعين لذلك اليوم، وفيهم شاعر البادية المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب، وكان من عادة الشيخ أن يحضر إلى الاحتفالات راكباً حماره، فلما وصل حافظ فى قصيدته إلى أحد المقاطع القوية، سأله الحاضرون الإعادة، وصادف أن نهق حمار الشيخ فى الخارج، فقال لهم حافظ: انتظروا حتى يفرغ حمار الزميل من إنشاده، فانقلبت حفلة التأبين إلى ضحك وضجيج.

هذه نادرة لطيفة ساقها الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف فى مقال جميل نشره بجريدة المصرى عن حافظ إبراهيم منذ أربعين سنة، والأستاذ فهمى خير من يتحدث بلباقة عن حافظ ومعاصريه، وقد ذكر مع هذه الطرفة الرائعة طرفاً أخرى لحافظ نذكر من بينها ما قال الأستاذ:

«كان حافظ ــ رحمه الله ــ لا يحتمل العيش إلا فى جو من المرح، ولهذا كان يبتدع النكتة ابتداعاً، ويخترع لها المناسبة اختراعاً، كان فى مرة يسير فى الطريق العام بالليل فرأى ذلك المصباح الذى تضعه مصلحة التنظيم فى مواضع الخطر، وهو لا يرسل إلا ضوءاً أحمر ضئيلا،

---

(١) هكذا ذكرى الراوى، وأظنها حفلة تأبين إسماعيل صبرى كما سمعت من غير واحد.

فتعمد حافظ أن يدوس على المصباح، فصاح فيه العسكرى هو أنت أعمى تدوس على الفانوس، فقال حافظ ساخراً: أمال تحطو الفانوس فى الضلمة ليه.. والتقى به مرة فى الطريق أحد السائلين، فسأله أن يعطيه قرشاً، فرد حافظ، والله عمرك أطول من عمرى كنت حاقولك كده.

وكان فى مرة بهم بركوب الترام فداس عفواً على قدم أحد الراكبين، فثار فى وجه حافظ ثورة عنيفة، وأخذ حافظ يترضاه ويعتذر إليه، ولكن على غير جدوى، فقد إندفع صاحبنا فى ثورته، يقول لحافظ: أنت تعرف أنا مين وابن مين؟ وهنا لم يطق حافظ صبراً، فالتفت إليه وقال: يا أخى نحن فى شهر يولية، وفى وقت الظهر، والحر أشد مايكون. وأنت تركب مع عامة الناس، فى الدرجة الثالثة وبعد هذا تبقى مين وابن مين» فبهت الرجل وانسل من بين الحاضرين.

وبعد، فقد شغلت فى صباى البعيد بجمع نوادر حافظ، وكان يقاسمنى هذا الشغف صديقى ورفيق صباى الأستاذ محرز أحمد خفاجى، إذ جمع فى ذاكرته النادر الطريف فى هذا المجال، وإنى لأنتهز هذه الفرصة السانحة فأهدى له هذا المقال المتواضع تذكاراً لماض سعيد.

* * *

محمد عبده بين امْتِحانَيْن

قد يحسّ بعض الطّلاب الناهضين، بأمنية تختّلج فى نفسه، إذ يشتهى أن تُطوى سنّى الدراسة بامتحان عاجل يقفز فيه إلى الصف النهائى فى وثبة ظافرة تتيحُ له أن ينال الأجازة العلمية دون انتظار ملول إلى تعاقب السنوات عاماً خلف عام! هذه الأمنية المشتهاة كانت تتحقق فعلا لدى بعض الطّلاب، خلال بعض المراحل التعليمية الغابرة بالأزهر، فقد كان من حق كل طالب مكث حقبةً فى الأزهر طالت أو قصرت، أن يتقدّم لامتحان العالّمية، ومعه شهادة اثْنين من العلماء مدونةٌ فى كتابِ يعرض أسماء العلوم التّى درسها الطالب، ويبيّن أسماء الكتب التى تضمنت هذه العلوم، فإذا تمّ ذلك حُدّد للطالب موعد الامتحان فى مدى قريب، واختيرت اللجنة التى يؤدى أمامها الامتحان شفويّا فحسب، فإذا وفقه الله فقد أصبح عالما مرموقاً يجلس للتدريس بعد أن كان طالبا، وإذا كبا به الحظ، فلديه فرص مثاليات لا تقف عند حصر— فقد يؤدى الطالب امتحان (العالمية) عشر مرات متتالية دون يأس، لأن المنال عسير، والمطمح بعيد..

هذا النظام الإدارى الذى أدركه محمد عبده، قد جاء خلفاً لوضع آخر، حيث كان الطالب الأزهرى يقضى بالأزهر سنوات عدة يطلب فيها العلم على أساتذته كما يشاء، فلا يتقّيد بحضور.. أو

بأستاذ أو بكتاب وإنما يختار ما أراد من العلوم ومن أحبّ من الاساتذة. ويظّل يواصل دراسته.. حتى إذا أحسّ بتمكنه العلمى، جلس للتدريس، وتحلّق حوله الطلاب والاساتذة.. يسألونه جميعاً فى كلّ ما يعنّ لهم من العلوم، وعليه أن يجيب دون تلكؤ، فإذا اجتاز العقبة بسلام، هُنيء وقرّظ، وأصبح شيخاً يجلس ليعلّم وإذا كانت الأخرى، فعليه أن ينتظر حتى ينضج، ولن يعترف بنضجه إلا إذا جلس، وتحلّق حوله الجمع المتحفز للسؤال الحريص، ووفق للاجابة السديدة بإتقان.

وواضح أن الطريقة الأولى أصوب وأتقن، فقد يتعصّب قوم فيلحّون فى الاسئلة، ثم يأبون الإقرار بالصواب، وقد يتساهل آخرون فيقّرون بالفوز مسّبقاً عن تراضٍ سابق، أقول قد، وهى للتقليل، لأن الأمر قد اطرد على العسر الشديد، فالطالب يستعد، ويبذل من العناء فوق ما يتحمّل، والمناقش متحفز متربّص كمن يقف على ثغرة خطرة فى جبهة حربيّة، فهو يحاول أن يتقى الخطر ما استطاع، والناس أضنّ بالثناء فى موضعه، فكيف به فى غير موضعه، وقديماً قيل:

والناسُ أكيسُ من أن يمدحوا رجلاً ... مالم يرَوا عنده آثار إحسان

(محمد عبده)

لم يكن محمد عبده الطالب، النّاشيء تلميذاً مغموراً فى بيئته الأزهرية الخاصة، أو فى مجتمعه المصّرى العام، فقد اشتهر عنه سداد المنطق، وحرية التفكير، إذ كان يناقش ما يقوله شيوخه فى اعتداد،

ويعارضهم كثيراً بما تضيق به صدورٌ أَلِفَتِ الطاعة والامتثال، كما عُرف بمقالاته الناقدة فى جريدة الأهرام، فى وقت كانت المقالات الصّحفية لدى فريقٍ من الشيوخ تْعنى الانصراف عن المتون العلمية والشّروح التقريرية والحواشى المشتهرة حولَ الشّروح والمتون، وكّل ذلك لايُتيح للطالب مجالاً للعلم الحقيقى الذى يُدرسُ فى الحلقات كما يزعمون هذا إلى شهرة محمد عبده بالتلمذة على جمال الدين الأفغانى، والتشبع بآرائه الإصلاحية فى السياسة، واتجاهاته العلميّة فى دراسة الفلسفة والحكمة ومالم يُؤَلَف فى الأزهر من قبل، فكان محمد عبده يُناقشُ أساتذته فى ضوء ما استنار به من آراء جمال الدين، فلا يرى الصدْر المتّسع والرّدَّ الصائب، بل يسمعُ صيحات المروق والسعى إلى الفتنة، وتقليد الملاحدة من أعداء الدين، وفى زملاء محمد عبده من الطلاب من يحسدون مكانته، ويقصّرون عن موهبته، فيسوءهم أن يكون ذا رأى واضح، فى مجتمعه المصرى بعامة، ويتمنْون فى نفوسهم أن ينهجوا نهجه، وقد حال ضعْفهم العلمى، واستعدادهم العقلى دونَ مايبتغون، هؤلاء «يفزعهم نشاط زميلهم النابغة، فيختلقون عليه أكاذيب علميةً، ليست بذات شأنِ لو ذاعت فى بيئة ممحصّة تَستمع إلى الاتجاهين، وتزن المسائل بمعيارها الصحيح، ولكنّ التلاميذَ يختلقُون والشيوخ يصدّقون، وفيهم من تأخذه الحماسة، فيهدد الطالب فى مستقبله، ويضيق بمرآه إذا شهده، ويحذّر منه زملاءه الشيوخ وأبناءه الطلبة، إذْ لا يستقيم للأزهر أمْرٌ إذا نَجح فيه تلاميذ جمال الدين، وأوّلُهم هذا الذى يسير مرتفع الرأس، ويناقش فى ثقة واعتداد.

(محمد عليش)

كان الشيخ محمد عليش من كبار علماء عصره، وله فى الأزهر صوت مسموع، وقد نشأ على الدراسة التقليدية، واعتق آراء تناقلها عن اساتذته، وشرحها لطلابه كما سُطِرتْ فى كتب المتأخرين، وقد جاءهُ أنّ جمال الدين الأفغانى يشرح كتباً غير التى تُدرس بالأزهر، ويُنادى بآراء لا تتفق وما ارتآه شيوخه فى الجامع الأثرى الخالد، كما جاءه أنه يُفضّل بعض آراء المعتزلة، وهم لدى الشيخ عليش ممن لا يوثق بهم فى رأى، فاشتعل غضباً على جمال الدين وتلاميذه، وجعل يتعقبهم فى الحلقات، ضاربا بعكّازه تارةً، وشاتماً بلسانه تارات، وبعض الذين يكتبون عن الشيخ عليش، ينحون عليه بالنقد الصارخ، ويرونه مثالاً للجمود المتأصل، وأنا أراهُ ظاهرة طبيعية لابدّ أن تُوجد، فالعلمُ يحتاجُ إلى المحافظ المتشدّد، كما يحتاج إلى المجدّد المتطلّع، فإذا تسرّع الثانى حاولَ الأول أن يبصّره عاقبة التسرع، وإذا جمَد المتشدّد حاولَ المجدّد أن يزحزحه قليلاً عن مكانه، وبذلك يسير الفكر فى طريق مأمون، ولكنّ بعض المحافظين يشتّطون. وبعض المجددين ينقمون. فتتّسع الهوة بين فريقيْن يحُاريان فى جبهة واحدة، وما أحرىَ الهوّة أن تضيق، بل ما أحراها أن تُمنَع أصلاً فلا تُوجد، وقد كان الشيخ عليش ــ رحمه الله ــ لساناً صادقاً من ألسنة الحق حين قامت الثورة العرابية فأيدّها مُفتياً وفقيهاً، ونازلَ خصومَها بأبلغ ما يملك من الرأى، وحين دارت الدائرةُ على العرابيين لم يتنكّر لهم، بل دافع وعَانَد وتحدّى، ثم سيق إلى المحاكمة وهو فى أواخر أيّامه، فأهمل وأُمتُهن حتى لقى أجله فى مستشفى لم يكترثْ بمقامه، فدُفن فى مشهد ذليل، دون أن يشيعّه غير خدم المستشفى، فهم وحدهم

أهل الوفاء فى زمن خاف فيه كلٌّ مسئول على نفسه! أقول ذلك كلّه قبل أن أسطر خصومَة الشيخ الكبير، لمحمد عبده، فقد بَالَغ وأسرف، لَقيُه ذاتَ مّرة غاضباً منفعلاً. وسأله: علمتُ أنّك ترجّح بعض آراء المعتزلة على ماقاله الأشاعرة، وكانَ محمد عبده دقيق الإجابة، فقال: إذا كنتُ لا أقلّدُ الأشاعرة، فأنا أيضاً لا أقلد المعتزلة! وهى إجابَة تثير الشيخ عليش، لأنه أشعرىٌّ ويرى تقليد الأشاعرة مما يجب ويُلتزم.

الأمتحان أول

تقدَّم محمد عبده إلى امتحان العالمّية سنة «١٨٧٧» وفقاً لقانون الامتحانات، الذى صدر مرسومه سنة «١٨٧٢ م»، وكان على الطّالب أن يُمتحن فى علوم الأصول والفقه والتوحيد والتفسير والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والمنطق، وقد هَزِىء به أساتذتُه الذّين سيتولونَ امتحانه، إذ لم يقفُوا على مبلغ ثقافته المتعّددة، وظنّوا أنّ مَن اشتغلَ بالمقالات فى الجرائد، والخُطب فى المساجد، والمحاورات فى المجالس، لن يَبْقى لديه وقتٌ يتسع لدراسة هذه العلوم، ومن هُنا أخذَ الشيخ عليش ومن لَف لفَّة يُشيعون أنّه راسبٌ لا محالة، وأحسبُ أن مثل هذه الإشاعات إذا تداولتْ وانتقلتْ إلى الطالب.. فإنها تزعزِع ثقته بنفسه، ولكّن محمد عبده استمسَك بإرادته. وأيقَن أن المعركة حاسمة، ولن يخوضَها بغير عزيمة صادقة تجتاح العوائق، وجاء وقتُ الامتحان، فتصدّر شيخُ الأزهر الأستاذ محمد العباسى المهدى مجلسَ النقاش، ومن حوله أعضاءُ اللجنة.

وكلّهم يدور فى فلك الشيخ عليّش الذى صمَّم على حرمان التلميذ مهما أجاب ، ودارت الأسئلة العويصَة يوجّهها من يعتقدون أنّ الطالبَ سينسحب حين يعجز، ولكنّ المفاجأة كانت غير متوقعة ، إذ أجابَ الطالبُ ، فقرَّر ما يرون ، وما سجلّوهُ فى كتبهم ، ثم عقّب بالتنفيد الصارم لبعض المقرّرات ، وشيخُ الأزهر فرحٌ يتألّق وجهه ، ولكن الأعضاء كانوا ينتظُرون فى علمى التوحيد والفقه إجابة لا يتعداها الطالب فأخذوا بمن يُقرر لهم ما يبتغون ، ثم يعقب عليه بعض ما يراه ،

وقد انتظر منهم أن يُعقّبوا على ملاحظاته ، فكانوا ينتقلون من مادة إلى مادة ، ليجدوا بعضَ ما يعجز ، ولعل مما أتاح للطالب أن يفوز ، أنه كان يُفاجىء الأساتذة بما تُلزمهم أن يردوا به عليه إذا خالفوه ، وقد تعودوا أن يقولوا السؤال المحفوظ . ليسمعوا الجواب المحفوظ ، فما بالهم يسمعون ما يعرفون ثم يعقب عليه الطالب بما لا يتوقّعون . لقد طال بلاؤهم بالطالب كما طال بلاءُ الطالب بهم ولعل محمد عبده قد أفصح عن بعض ذلك حين قال :

« عرضت نفسى على مجلس الامتحان فى ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٤ هـ ، وابتليتُ فى الامتحان أشّد أنواع البلاء ، لتعصّب الأكثر من أعضائه مع المرحوم الشيخ عليش ، وكان يُعادينى ــ على الغيب ــ اتباعا لآراء من لا رشدَ عندهم ، من بُلداء الطلبة ، وكانوا قد أجمعوا على ألاّ يمنحونى درجةً ما فى العلم ، وجرتْ أمور قبل الامتحان يطول شرحها ، ولكن كان أمر الله أغلب ، فخرجت من الامتحان بالدرجة الثانية ، وصرتُ مدرساً من مدرسى الجامع الأزهر، وأخذتُ أقرأ العلوم الكلامية والمنطقية » .

هذا ماقاله الشيخ محمد عبده، أمّا كيف حصَل على الدرجة العلمية، فإن رئيس اللجنة الشيخ محمد العباسى المهدى، قد بهر بإجابات الطّالب، واعتراضاته وأظهرَ من دلائل القبول والارتياح ما ضاقتْ به اللجنة أكبر الضيق حتى إذا انتهى الامتحان، وفرغت اللجنة للمداولة صرَّح الرئيس للأعضاء أنّه لم يجدْ فيمن امتحن من قبل، من يصلُ إلى مرتبة محمد عبده. ذكاء وعلما واستنباطاً، واستحقاقاً للدرجة الأولى، فكثر اللّجاجُ، وتعصّب الشيخ عليش طالباً رسوب الطالب، وحين سدّ البابُ بإصرار الشيخ العباسى، تقدّم أحدُ الأعضاء بحلّ وسط، فحواه أن يحُرمَ الطالبُ من الدرجة الأولى إرضاءً للشيخ عليش وجماعته، وينال العالمية من الدرجة الثانية إرضاءً للشيخ المهدى، وكَتبَ صاحبُ الاقتراح قراراً بما اهتدى إليه، ووقعّه، فسارع الشيخ المهدّى بالتوقيع، وتبعهُ الأعضاء على كراهة ظاهرة، وفاز الشيخ بأمنيته إذ أصبحَ معترفاً به، وله الحق أن يدّرس بالأزهر وسواه.

الامتحان الثانى

أمّا الامتحان الثانى فقد صار فيه الطالب الممتِحن من قبلُ فى سنة ١٨٧٧م أستاذاً يَمتحنُ تلاميذه بعد خمسة وعشرين عاماً فى ١٩٠٢م، وكانَ الطالبُ الذى يجلس ليؤدى الامتحان هو الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى الذى صارَ فيما بعد سنة ١٩٢٩ شيخاً للجامع الأزهر، ولطرافة ما جَرى فى امتحان الشيخ الظواهرى نلّمّ بشىء منه، لنعرف الفرق بين امتحان وامتحان.

أصبحَ محمد عبده منذُ رجوعهِ من منفاه عَلَماً من أعلام الإصلاح الدينى فى العالم الإسلامى، وهذه الزعامة الإصلاحية لم تكنْ موضع الارتياح من كثير من العلماء الذين تتلْمذوا على أضراب الشيخ عليش، فجمدوا على مقرّرات لا سبيل إلى التّنازل عنها، ووقفوا بالمرصاد لمسعى الأستاذ الإمام فى إصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية والأوقاف، وفتْح باب الاجتهاد فى مسائل التشريع، وتفسير كتاب الله العزيز على نحو توجيهى يرشدُ الناس إلى الصراط المستقيم، بعيداً عما يملأ كتب التفسير.. من مسائل نحوية وصرفيّة وكلامية وبلاغيّة ومنطقية تسدل حجاباً كثيفاً على معانيه. ومن الذين عارضُوا الإمام فى منهجه الإصلاحى زميله الشيخ إبراهيم الظواهرى شيخ الجامع الأحمدىّ، وأحد شيوخ التصّوف الذائع بين المصريين فى نهاية القرن الماضى، وأوائل هذا القرن، هذا التصوف الذى يرتكز على إقامة الموالد، وزيارة الأضرحة، وتقديم النذور، وترديد الكرامات المنسوبة للأولياء. ممّا قامَ الأستاذ الإمام بمحاربته، ونعَى على محترفيه، والشيخ ابراهيم الظواهرى هو شيخ الجامع الأحمدى، ولهُ فى السيد البدوى اعتقاد كبير، وقدْ نسب أصدقاؤه لبيته من الكرامات الذائعة مالم يصادف ارتياح الإمام محمد عبده، فتباعد ما بين الرجليْن على نحو يستعصى على الوفاق.

وحين تقدم الطالب محمد الأحمدى نجل الشيخ إبراهيم الظواهرى لامتحان العالمية، وعَرف أنّ الأستاذ الإمام سيرأس اللجنة، وقع فى حيرة شديدة، فالطالب منسوب إلى اتجاه أبيه، والإمام ذو سطوة فى السؤال وردّ الجواب، والطالب كما يروى عن نفسه فى مهب الريح.

تُرى ماذا صنع الإمام مع تلميذه، والأمر أمره لأنّ جميع أعضاء اللجنة، يتركون له توجيه الأسئلة ومناقشة الرّدود.

لقد تّحدث الأستاذ الأكبر محمد الأحمدى الظواهرى فى مذكّراته (عن السياسة والأزهر؛ مفصّلا ما جرى يوم امتحانه، فذكر أنّه تهيب الموقف قبل أن يلج حجرة الامتحان، وكانَ من عادة الطلاّب أن يبدءوا بتقبيل أيدى الأساتذة قبل الجلوس، فما كاد يلمس يد الأستاذ الإمام حتى نزعها منه، مكتفيا بلمس أصابعه، ثم فاجأه بأن قال له: لقد سمّاك والدك الأحمدى نسبةً لأحمد البدوى وسنرى ما سيكون من شأن هذا الرجل معك.

قال الشيخ الظواهرى: كان لهذه العبارة مصحوبةً بخطف يده منى أثناء محاولة تقبيلها أثر سيىء فى نفسى، فانقبض صدرى، واسودت الدنيا فى عينى، ولما طلب منى أن ابتدىء الكلام تأخرتُ برهة، ثم تماسكت وأجبتُ بطريقة غير طريقة زملائى، إذا عمدتُ إلى جوهر الموضوع دون تعلّق بالحواشى الزائدة، وأيقنتُ أنّى حُزتُ قبول الإمام، ولكنْ لم يظهر على وجهه ما يدلّ على سروره، فشقّ ذلك على نفسى، وصّممت أن أنتزع منه الإعجاب، فخطَر لى أنْ أعاود الكلام مرةً أخرى فى الموضوع نفسه، فعندئذ قال الشيخ: لماذا تُريد استئناف الكلام، لقد تكلمت كلاماً طيباً جيدا، وعالجتَ البحثَ علاجاً رائعاً، والأحسنُ أن ننتقل إلى موضوع آخر، فكانتْ عبارة الإمام هذه كأنها البلسم الشافى، فاندفعت أجيب بالطريقة التى اخترتها فقال الشيخ إن ترتيب بحوثك وطريقة العرض، ممّا يُعجب ويروق. وسأتخذ معك فى ترتيب الأبحاث طريقاً جديداً، وأخذ

يقلب أوضاع المسائل، ويخرجُ من علم إلى علم، حتى طالَ النقاش بضعَ ساعات على غير المألوف، وحتّى أرهقتُ إرهاقاً جسمانياً وعقلياً فطلبت في نفسي شربة ماء، ولكنّي سكت مهابةً للشيخ، ثم غلبني الظمأ، فطلبت من الشيخ أنْ يأمر لي بشربة ماء، فقالَ الشيخ أنت تستّحق (شربات) لا ماء، فقد أحسنت كل الإحسان، وأرسل في طلب كوب كبير من (الخرنوب) لأشربَ مع أعضاء اللجنة على حسابه، ثم قال: لقد فتح الله عليك يا أحمدي، والله إنّك أعلم من أبيك، ولو كانَ عندي فوق الدرجة الأولى لأعْطيْتك إياها، فكانت عبارته هذه حديث الناس في الأزهر، وأصبحتْ من أسباب سعادتي!

هذا ملخصّ ما قال الشيخ الظواهري في مذكراته، وقد تأثر نفسياً بسلوك الإمام بدءاً حين نزع يده دون أنْ يقبلّها، ولم يدْرِ أنّها عادة الإمام مع الطلاب جميعاً، لأنّه يريد أن يرتفع بهم عن مظاهر الخضوع، ولو كانُوا تلامذة له، أمّا امتناعه عن التقريظ عند الإجابة الأولى فلا شيء فيه، فقد تكون إجابة السؤال الأوّل ممّا يحفظهُ الطالبُ.. ويدري أبعادها مصادفةً، فالأحرى بالممتحن أن ينتظر، وقد انتظر الشيخ حتى تأكد، فاندفع في الثناء.

ومقارنة الامتحان الأول بالامتحان الثاني تدلُّ على إنصاف الإمام وترفّعه فوق الحزازات الشخصيّة، وهذا ما غابَ عن اللجنة الأولى حين ناصَبتْهُ العداء، وصمّمتْ على رسوبه، لولاَ موقف شيخ الأزهر! وشتّان ما بين الموقفيْن!

والطريف أن الأستاذ الأكبر الشيخ الظواهرى قد تابعَ حديثه فذكر أنّ قول الإمام له إنّك أعلم من أبيك صادفَ سروراً من والده، وقال له هذا مما يضاعف بهجتى إذ أتمنّى أن تسبقنى يا بنىّ، وسأذهب إلى منزل الأستاذ فى عين شمس لأشكره، وتعال معى، فذهبا مساء!

وقد يظن قارىء اليوم أنّ امتداد النقاش فى جلسة الامتحان بضعَ ساعات يحملُ بعض التحامل، ولا كذلك لأن الامتحان شفوىّ فقط. وقد يمتّد يوماً كاملاً، بل قد تُواصل اللجنة اجتماعها فى الغد، لبعض الظروف الدّاعية لذلك، وهو تدقيق يُحمد، فليتنا نلتزم الجدّ فى هذه المواقف الحاسمة، لأن التّساهل معها، يُضّر كثيراً، وقد شهدنا من يحملون الأجازات العلّمية، ثم يحارون فى البدهيات، وما جاء ذلك إلاّ بالتفريط المعيب!

هذه صفحة من تاريخ الأزهر القريب، نذكرها اليوم لنستفيد منها عبرة واعظة، لمن يعى ويتأمل. مترحمين على من جاء ذكرهم فى هذا المقال محافظين ومجدّدين.

* * *

مساجد مضطهدة

مكانة المسجد فى المجتمع الإسلامى أوضح من أن يشار إليها بحديث، فهو ملتقى الأرض بالسماء لدى من يتوجه إلى الله بقلب مؤمن، وفيه يشعر المسلم بحقيقته المؤمنة؛ إذ يكون فى أحسن أحواله النفسية، وإن جاز له أن يفكر فى بعض المحظورات استجابة لدواعى الضعف الإنسانى فى لحظة من اللحظات، فإن هذا التفكير المنحرف لا يخطر بباله بالمسجد، لأن ما يوحيه هذا المكان الطاهر من السموّ الخلقى يربأ بكل وافد إليه أن ينحدر إلى ما يغضب الله، لذلك كان المسجد موضع طهارة خلقية، قبل أن يكون موضع حسية بالوضوء، بل إن الوضوء فى صميمه تهيئة نفسية للنظافة الخلقية بعد أن نُظفت اليد والوجه والقدم، فالمتوضىء قبل أن يقدم على الصلاة يحسّ بأثر هذه النظافة النفسية فى كيانه؛ إذ اتخذ بالوضوء سلاحاً باتراً يقهر الشر ويُرد به.

وإذا كان المسجد فى المجتمع العربى الذى يمثل الأكثرية فى الوطن، له هذه المنزلة العالية فى النفوس، فإن المسجد فى المجتمع الذى يضمّ الأقلية فى بلاد الغرب وغيرها من الأمم التى لا تدين جمهرتها بالإسلام، يمثل دوراً أكبر وأشد تأثيراً من دور المسجد ببلاد الإسلام؛ لأنه الملتقى الوحيد لأبناء الإسلام الذين يشعرون فى آفاقه بشدة ارتباطهم بدينهم الحنيف، وهو بهذه الصلة الفريدة ذو تأثير يمتد

إلى كل المناحى الإنسانية فى حياة المسلم، فهو موضع التقائه بصفوة أصدقائه ممن استقاموا على طريق الحق، وهو ناد حافل بالتوجيه الدينى، والانتماء السياسى، والبثّ النفسى، كما أنه رباط الوحدة بين قوم يحتاجون إلى الالتئام المتعاون كى يشد بعضهم بعضا، هذا إلى الاحتفال بالمناسبات السارة الجامعة لذوى الميل المشترك، بل بالمناسبات الخاصة حين تشارك فيها الجماعة أحد أفرادها فى النعماء والبأساء معاً، ومن أعظم مزايا المسجد فى هذا الموطن أنه موئل الضيف الغريب حين يحلّ لأول مرة فى البلد النازح، فما يكاد المسلم يضع قدمه فى عاصمة من عواصم البلاد النائية حتى يسأل عن المسجد، ليتعرف بمن يمدونه بالنصيحة والعون، ويثبتون قدمه على الطريق، فيهيئون له سبل الإقامة المطردة على وجه مريح، فإذا أوذى أخ أو جماعة، فإن إخوانه جميعاً من ورائه، وما هى إلا لحظات ينتقل فيها إلى المسجد حتى يجد المؤازر الناصح والمساعد الحريص.

وقد أنشئت المساجد فى ربوع المعمورة على نحو يبعث على الغبطة، ولكن بعض الذين فى قلوبهم مرض من المتعصبين المفرطين يسوءهم أن تؤدى المساجد رسالتها المسالمة، فأخذوا يتربصون بها الشرور، ويضعون أمامها العراقيل، ومن هؤلاء من يفهم الدين على غير وجهه؛ إذ يرى أنّ محاربة أبناء الديانة الأخرى برهان على إخلاصه لعقيدته، مع أن مبادىء الأديان كلها تدعو إلى الرفق والتسامح والتعاون، ومن يشذ عن هذه المبادىء إنما يخالف الصريح من تعاليم عقيدته، وهو بلاء ينذر بالفجائع الدامية، وقد تعرضت بعض المساجد من أجله إلى مآزق محرجة قد تصل إلى حد الكوارث، حين تسيل الدماء، وتزهق الأرواح، ويضيق المجال عن

الإحاطة ببعض ما ارتكب فى هذا المجال، ولكننا نكتفى بأمثلة ثلاثة، نرى فى مثالين منها قسوة التجبر وفظاعة الاستبداد، وفى مثال ثالث مظهر الاحتيال الخادع فى محاربة العمل المثمر الذى لا يجلب شراً لأحد، حين ترتفع كلمة الله فى بيت من بيوته، أما هذه المساجد الثلاثة فمسجد بابر بالهند، والمسجد الإبراهيمى بالخليل، ومسجد فالديرول بألمانيا، ولا أريد أن أسهب فأوجع، ولكننى أوجز ما استطعت:

١ ــ مسجد بابر بالهند

نذكر هذه الضجة العنيفة التى تسببت فى استقالة الوزارة بالهند بسبب ما اعتزمه الهندوس من هدم هذا المسجد، وإقامة معبد هندوسى مكانه، وما كان لهذه الضجة التى سالت بسببها الدماء وزهقت مئات الأرواح أن تحدث، لو خلت النفوس من التعصب المقيت.

أنشأ هذا المسجد الفاتح التترى الكبير ظهير الدين محمد بابر، الذى غزا الهند وملكها بعد حروب تكللت بالنصر، وارتفعت مئذنته حوالى سنة ٩٣٥ هـ، وصار أكبر مسجد أثرى بناه مؤسس الدولة التيمورية بالهند، وظلت الشعائر تقام فيه عدة قرون، حتى ظهرت الفتنة بين الهندوس والمسلمين، وتعصبت الأكثرية على الأقلية، فأوصد المسجد بدعوى أنه أقيم منذ سبعة قرون على أنقاض معبد هندوسى!! وتحمس القوم لهذه الدعوى، فصمموا على هدمه وإقامة المعبد الهندوسى مكانه، وتلك دعوى لا مثيل لها فى أى بلد من بلاد

الله ؛ لأن الذى يحاول أن يبحث عن أى أثر فى مدى عدة قرون تبلغ السبعة لابد أنه يجده قد تنقل من مالك إلى مالك ، ففى أى منطق يجوز لإنسان أو لجماعة فى القرن العشرين أن تطالب بمكان قد نسب إليها قبل سبعة قرون على وجه الظن لا على وجه التحقيق ؟ لأن أكثر المعابد الهندية كانت ذات بناء متواضع لا يثبت على الأيام ، وقد كتب الأثريون تاريخ هذه المعابد على سبيل الظن لا على سبيل التحقيق .

فمشكلة المسجد مفتعلة ، جعلها المتطرفون من الهندوس وسيلة لإراقة الدماء دون حقّ ، وقد انتصرت لها الأحزاب السياسية فى الهند ، لا لأنها حق فى ذاتها ، بل لاحتواء أصوات العامة فى الانتخابات السياسية ، وقد واجه هذه المشكلة رئيس الوزارة السابق « برتاب سيبخ » بحزم ، فاتخذ موقف الحياد حين أحال قضية المسجد إلى المحكمة العُليا فى الهند لتفصل فى القضية على ضوء الحجج والوثائق التاريخية ، وهذا إجراء منصف ما كان يجوز الاعتراض عليه لو سلمت النفوس من الأحقاد ، ولكن ما كاد رئيس الوزراء يصر قراره بإحالة القضية إلى المحكمة العليا حتى ثار عليه أكثر أعضاء الحكومة ، واستقال سبعة من الوزراء احتجاجاً على مسلك نزيه قام به رئيس محايد لم يتعصب للمسلمين ، ولكن حاول وضع الأمر فى ميزان العدالة النزيهة ، وقد حظى زعيم المنشقين على رئيس الوزراء بشعبية كبيرة ، ونال ثقة الأحزاب الهندوكية ، وعلى رأسها حزب المؤتمر الذى يتزعمه « راجيف غاندى » فسقطت وزارة « برتاب » ؛ لأنه اتجه بالقضية إلى القضاء !

والعجيب أن بعض الساسة أصدر منشورات تقول إنه لاينادى بهدم مسجد «بابر» فقط، بل بهدم.. المساجد التى نشأت فى الدولة منذ حكم «بابر التيمورى»، ولم نجد فى بلاد الإسلام من يستنكر هذا الغضب المقيت، بل وجدنا من يرمون المسلمين بالتعصب، لأنهم يتمسكون بمساجدهم! وتهمة التطرف فى موضوع هذا المسجد بالذات يجب أن توجه إلى الهندوس الذين افتعلوا الفتنة، وتحمسوا لهدم المسجد الإسلامى بغياً دون حق، ولكن الباطل يصير حقاً عند من يسّرهم أن تهدم مساجد الله على رءوس الأشهاد.

٢ ــ المسجد الإبراهيمى بالخليل

شُيد المسجد الإبراهيمى بمدينة الخليل الفلسطينية فى العصر الأموى، على الطراز المعروف فى ذلك العهد، وهو بناء حسن المنظر يحوط به سور مرتفع يتخلله بابان، أحدهما فى الجنوب والآخر فى الغرب، وله منارتان عاليتان طول الواحدة سبعة أمتار، وفى داخله صحن مكشوف كصحن الأزهر الشريف، مع أبنية متجاورة فى الداخل تشبه الأروقة الملحقة ببعض مساجد القاهرة! وقد ظل المسجد إسلامياً خالصاً لاينازع فى إسلاميته أحد، حتى جاءت محنة حزيران سنة ١٩٦٧م، فظهرت فجأة دعوة صهيونية تدعو إلى استرداد المسجد الإبراهيمى؛ لأنه يهودى النشأة، فهو موئل جدهم ابراهيم، وقد دفن فيه يعقوب ويوسف وسارّة وإسحٰق، وتلك افتراءات تكذبها مصادر اليهود نفسها؛ لأن التوراة قد ذكرت أن إبراهيم ــ عليه السلام ــ قد اشترى قطعة أرض لتدفن فيها زوجته، ولم

تقل التوراة إنه أقام بها معبدا، ومقابر الأنبياء من أولاد إبراهيم عليه السلام لم تجمع فى مكان واحد، ولم يأت دليل مشتهر على انفرادها بموضع خاص! أما أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ جدّ موسى بن عمران نبى اليهودية، فهو أيضاً جد العرب ووالد اسماعيل عليه السلام العربى كما هو والد اسحاق العبرى! فلماذا يصر اليهود على اختصاصهم به.. وقد ظهر قبل اليهودية بأكثر من ستمائة عام، والله ـ عز وجل ـ يقول: «ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»، وما قاله القرآن يقوله جمهرة المؤرخين شرقاً وغرباً.

وقد اقتحم الصهيونيون حرم المسجد، وحددوا فيه مكاناً فسيحاً لإقامة صلواتهم، وجعلوا زاوية صغيرة منه لصلاة المسلمين فى أوقات محددة فقط، بينما يظل بصفة دائمة مجالاً لصلوات اليهود، وقد دُمّر فيه كل ما يدل على إسلاميته الواضحة من آيات قرآنية، ومنبر ومحراب مع ما كان يحفل به من المصاحف والكتب الإسلامية، التى استبدلت بنسخ حديثه من نسخ التوراة، وقد أهدرت كرامة المسجد حين جلبت له زجاجات الخمور؛ ليشربها حراس «الكنيس» على زعمهم فى أماكن العبادة وفناء المسجد، ولا أدرى كيف يتفق وجود نسخ التوراة والتلمود مع زجاجات الخمر ومظاهر القصف والطرب!

هذا وقد جاهد الشعب الفلسطينى فى مقاومة هذا الاعتداء الصارخ، ومازلنا نذكر الجريمة البشعة التى دنست المسجد الإبراهيمى الشريف فى أكتوبر سنة ١٩٨٩م حين قام الجنود الإسرائيلون بتمزيق نسخ القرآن بالمسجد، وأطلقوا النار على المصلين فأصيب منهم فى

هذه النازلة سبعة وأربعون مواطناً، وقامت إسرائيل باعتقال سبعة وستين شخصاً ممن تصدوا لمقاومة الاعتداء على الحرم الإبراهيمى، ثم صدرت كتب إسرائيلية تثبت الحق التاريخى لليهود فى المسجد، كما نقلت نسخة قديمة خطية للتوراة إلى المسجد، على زعم أنها كانت فى الأصل بالمسجد الإبراهيمى ثم اختفت منه عدة قرون! ولم يقل أحد كيف اختفت؟ وفى أى مكان كان هذا الاختفاء، وكيف وجدت فجأة، ومن أى موضع! وإذا كانت أقدم نسخة فى زعمهم الآن هى نسخة المسجد الإبراهيمى، فكيف قالوا من قبل إن أقدم نسخة هى نسخة المسجد الأقصى بالقدس؟ ذلك تخبط يدل على المراوغة والاحتيال.

٣ ــ مسجد « فالديرول » بألمانيا

تكثر فى ألمانيا المساجد، وهى تبنى فى الأحياء الراقية، ويقوم على تشييدها كبار المهندسين الذين يتمتعون بالذوق المعمارى، ويحاولون أن يحيطوا البناء بالخضرة الزاهية، والسياج الجميل. وتُشاد هذه المساجد بتبرعات المسلمين من الأتراك والمغاربة والأفارقة واليوغسلافيين والمصريين من الذين يسكنون هذه الديار مع إخوانهم الذين اعتنقوا الإسلام من الألمانيين، لأن هذا الدين القيّم قد وجد طريقه إلى قلوب الكثيرين بعد الحرب العالمية الثانية؛ إذ أقبل الألمان على قراءة ترجمات القرآن فانجذبوا إلى هديه الكريم.

أما مسجد « فالديرول » فله مشكلة خاصة ترددت فى الصحف هناك، واهتم بها الجمهور اهتماماً شديداً؛ لما صحب بناءه من

اعتراضات لا مبرر لها ، حين جمعت الجالية التركية بالمدينة مبلغاً كبيراً لبناء المسجد ، ولا حرج فى ذلك قانونياً ، لأن الدستور الألمانى يكفل للمواطنين جميعاً ممارسة عباداتهم كما يشاءون ، وقد تم البناء على أحسن ما يتصور المشاهد من الإبداع والأناقة ، ولكن المهندس المعمارىّ بالمدينة أمر بإيقاف البناء ، حين رأى مئذنة عالية تأخذ وضعها الطبيعى مدعياً أن المساجد فى جميع البلاد بألمانيا ـ وتبلغ أكثر من ألف مسجد ـ ليس بها مآذن باستثناء عشرة مساجد فقط هى التى يرتفع فيها صوت الآذان من أعلى مكان بالمدينة ، ولابد أن يكون مسجد « فالديرول » ـ فى رأيه ـ خالياً من المئذنة ، التى تشوه المنظر الجمالى للمدينة ، حين تنفرد ناهضة على ارتفاع ستة وعشرين متراً ، وهى حجة باطلة من أساسها ؛ لأن مدخنة المصنع الكبير ترتفع فى المدينة كما ترتفع المئذنة ، وترسل من الدخان ما يعكر الجوّ ، ولم يقل هذا المهندس إن المدخنة تخلّ بالوضع الجمالى فى بلده ، ومما زاد الأمر بلبلة أن بعض المتعصبين ممن رأوا فى إقامة المسجد إساءة لمشاعرهم الخاصة ، قد أيدوا المهندس واستغلوا ما يقوله عن المئذنة ، وكأنه حق عادل ، وحين تأزم الوضع رأى المسلمون أن يطالبوا بتعويض قدره ثمانمائة ألف مارك ألمانى للجالية التركية ؛ لأنها لم تقم المسجد إلا بعد تصريح ببنائه ، وفى بعض الاجتماعات الخاصة رأى المنكرون لتشييد المئذنة أنهم لا يستطيعون أن يمنعوا إقامة المسجد بحكم الدستور الألمانى إذا نجحوا فى منع المئذنة وحدها ، وأنه سيؤدى رسالته فى المدينة ، وهى رسالة ذات توجيه دينى ؛ لأن مكتبته حافلة بالكتب الداعية إلى الإسلام ، ويتوافد عليها القارئون من المسلمين وسواهم لا سيما من طوائف البروتستانت التى تنجذب إلى قراءة الموضوعات

الدينية، وترى فى بساطة العقيدة الإسلامية ما يتواءم واتجاهاتها الثقافية، وقد انتهى الأمر إلى أن ترتفع المئذنة ولكن فى حيز أقل مما قدر لها، وقد تكلف بناؤها خمسين ألف مارك، وأدى المسجد رسالته. وشاء الله أن تكون الضجة التى صاحبت بناءه عامل انتباه إليه، فأصبح مزاراً كبيراً لزائرى المدينة، ومحلاً للتعارف الإسلامى بين الوافدين من شتى ربوع الإسلام.

وبعـــد ....

فقد كان المظنون أن تكون بيوت الله ـ فى شتى الأديان ـ حرمة تنأى بها عن الاضطهاد والكيد، ولكنّ الذين يفهمون الدين على أنه تعصب على دين آخر قد جعلوا من بعض هذه البيوت الطاهرة مذابح رجال، ومجازر شباب، ويزعمون بعد ذلك أنهم يجاهدون فى سبيل دينهم الذى يعتنقونه، وكل الأديان تبرأ من الجرائم الفاحشة، والبغى المريع.

* * *

عمر بن الخطاب أديبا وناقداً

أنصف المؤرخون عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ خليفة عظيماً، فكتبوا الأسفار المتنوعة التى تبرز سياسته الفذة فى حل المعضلات وتوجيه الأمور، ولكن الكثير منهم لم يتعرضوا إلى ما كان له ـ رضى الله عنه ـ من ذوق سليم فى نقد الشعر وقدم راسخة فى تفهم مراميه، مما انتثر فى كتب الأدب عقده، دون أن يظفر بمن يجمع نظامه فى سلك خاص، وهكذا نجد نفراً من عظماء التاريخ قد تعددت مواهبهم، وتشعبت نواحى عبقريتهم فكتب المؤرخون عن أبرز ناحية فى شمائلهم تاركين ما عداها فى ذمة النسيان والخمول!

والحق أن عمر ـ رضى الله عنه ـ كان واسع المحفوظ من جيد الكلام، حتى قال محمد بن سلام الجمحى: «ما عرض لابن الخطاب أمر إلا واستشهد فيه بالشعر» ورجل يملك هذه الثروة من القوافى، لابد أن يكون ذا ولوع بالمعانى الجيدة، والأساليب الرائعة. فهو ينظر فيما يسمعه نظرة الباحث الناقد، ثم يحفظ ما يروقه ويعجبه، مستشهداً به فى موضعه، مثنياً على صاحبه بما يستحق من تقدير.

ولقد كان يقول «أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها فى حاجته، يستعطف بها قلب الكريم ويستميل فؤاد اللئيم» ويقول أيضاً «الشعر جذل من كلام العرب تسكن به ثائرتهم، ويطفأ غيظهم ويبلغ به القوم فى ناديهم «ويعطى به السائل».

ولعل أبلغ ما يؤيدنا فى ذلك أن إسلامه قد هبط على قلبه عن طريق البلاغة القرآنية إذ وفد على أخته ثائراً يهم أن يبطش بها حين أشرق عليها نور الإسلام فهداه حسه الحسن إلى آيات رائعة من كتاب الله يؤخذ بها عقله المفكر وينفعل بها وجدانه الحساس. ويجد لها مذاقاً خاصاً يدفعه إلى الإستزادة حتى إذا لمس نورها فى عقله ووجد حلاوتها فى قلبه ذهب من توّه إلى رسول الله ﷺ سيد بلغاء العرب فأعلن إسلامه! وهكذا كان إيمان ابن الخطاب وليد سحر بيانى يجمع إلى المنطق السديد، نصاعة القول ويغزو العقل ببراهينه كما يغزو العاطفة بروعته ذات القوة والتأثير. وإذا كان الخليل يختار خليله، فإن أبا حفص قد تفرس فى أصحابه فوجد عبد الله بن عباس يروى القصائد الجيدة وينتقد ما يعرض له من أبيات فقربه واجتباه، وكثيرا ما اختلى به الساعات الطويلة يتناشدان ويتطارحان، قال ابن عباس «خرجنا مع ابن الخطاب فى سفر فقال ألا تزاملون؟ أنت يا فلان زميل فلان، وأنت يا فلان زميل فلان، وأنت يا ابن عباس زميلى، وكان لى محبا ومقربا، حتى كان كثير من الناس ينفسون على مكانتى منه فزاملته وأخذ ينشد:

وما حملت من ناقة فوق رحلها ... أبر وأوفى ذمة من محمد

ثم قال: يا ابن عباس، ألا تنشدنى لشاعر الشعراء؟ قلت: ومن شاعر الشعراء قال: زهير، فقلت لِمَ صيرته كذلك؟ قال: «لأنه لا يعاظل بين الكلامين، ولا يتتبع الوحشى، ولا يمدح أحداً بغير ما هو فيه» فعمر يفضل زهيراً على من عداه مبينا أوجه التفضيل، وهى سنة طريفة فى النقد، إذ كان من قبل عمر من الرواة، متى نقدوا

شعرا قالوا إنه برود يمنية تطوى وتنشر، أو قالوا إنه سمط الدهر، أو قالوا إنه مزاد لا يقطر منه شيء، إلى آخر هذه التشبيهات المجملة التى لا تفصل حكما ولا تعلل رأياً، فجاء عمر فى نقده بالتفصيل الواضح والتعليل المقبول.

وليس من الغريب أن يخالف الفاروق ما أجمع عليه كثير من أئمة النقد فى الأدب، فيفضل زهيراً على امرىء القيس، لأن عمر الدقيق يسبر الشعر بعقله فلا يعجبه منه إلا ما جاء متمشيا مع المنطق السليم، فكان نبيل الغرض رائع الحكمة، وزهير حكيم قد يزن الأشياء بميزانها العاقل، فلا يفحش فى غزله، ولا يتعابث فى تصابيه، بل يسوق الحكمة تلو الحكمة رائعة ساطعة تجذب إليها كل مفكر حصيف، أما أمرؤ القيس مثلا فلا نظن عمر يرضى عنه، وجل شعره فى مغازلة الحسان، ومعاقرة الخمور، والاسترسال مع الصبوة إلى أبعد شوط، وهى بعد أغراض لا يهش لها الحكماء من قادة الرأى كعمر بن الخطاب: سمع مرة قول زهير.

فإن الحق مقطعه ثلاث   يمين أو نفار أو جلاء

فأخذ يحرك رأسه فى عجب ويقول فى تبسم: «إنما أراد أن يبين أن مقطع الحقوق يمين أو حكومة أو دية كما جاء به الإسلام.

هذا التدقيق المتواصل فى شعر زهير جعل الفاروق يكرر إعجابه به، ولا ينى يتحدث عنه فى حماسة وإيثار. دخل عليه ذات صباح أحد أولاد هرم بن سنان ممدوح زهير «فسأله من أنت؟ فقال أنا ابن هرم بن سنان فقال عمر: صاحب زهير قال نعم، قال أما إنه كان

يقول فيكم فيحسن؟ فقال الابن: كذلك كنا نعطى فنجزل فتبسم عمر.. وقال قولته الصادقة: ذهب ما أعطيتموه، وبقى ما أعطاكم!

ولقد كان النابغة الذبيانى يلى زهيراً فى المنزلة لدى الفاروق، لأن النابغة أقرب إلى زهير منه إلى امرىء القيس، إذ كان متئد التفكير، شريف الغرض؛ وإعجاب عمر به يرجع إلى ما سمع من أبياته التى تنحو منحى زهير فى المنطق والسداد «لقى عمر بن الخطاب وفد غطفان فقال: أى شعرائكم الذى يقول:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

فقالوا النابغة، قال فمن القائل:

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتآى عنك واسع

فقالوا النابغة، فقال فمن القائل:

أتيتك عاريا خلقا ثيابى على وجل تظن بى الظنون

فقالوا النابغة: قال ذلك أشعر شعرائكم».

وإذن فزهير عنده شاعر الشعراء، أما النابغة فهو شاعر غطفان! وطبيعى أن يكون عمر مع هذا النظر الثاقب فى الشعر قادرا على أن يوجهه حيث يريد، شأن الذين يتبحرون فى مادة من المواد فلا يكتفون بسردها على الوجه المعروف، بل يذهبون فى تأويلها إلى مدى لا يقدر على تفهمه واستنباطه غير المتمرس الحاذق، إذ يأتى إليه

الشعر صريح الدلالة على معنى خاص، فيستخرج أبو حفص منه ما يغيب عن غيره!

وفي حديثه مع النجاشي ما يشير إلى ذلك، فقد كان بنو العجلان يفخرون بهذا الاسم، لقصة كانت لصاحبه في تعجيل قِرى الأضياف، إلى أن هجاهم النجاشي فضجروا وسبوا به، واستعدوا عليه عمر فقالوا يا أمير المؤمنين هجانا أبشع هجاء. فقال «ماذا قال؟ فأنشدوه:

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة فعادى بني العجلان رهط بن مقبل

فقال عمر: إنما دعا عليكم ولعله لا يجاب، فقالوا إنه قال:

قبيلته لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر ليت آل الخطاب كذلك، قالوا فإنه قال:

ولا يردون الماء إلا عشية إذا ورد الوارد آخر منهل

فقال عمر: وما في ذلك، هذا أقل للزحام، قالوا إنه قال:

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعب بن عوف ونهشل

فقال عمر: كفى ضياعا من تأكل الكلاب لحمه، قالوا فإنه قال:

وما سمي العجلان إلا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر: كلنا عبد، وسيد القوم خادمهم.

فهذه الأبيات كلها سب صريح ولكن عمر يتجه بها كما شاء له افتنانه، إذ كان لا يخفى عليه ـ وهو الباقعة الألمعى ـ ما تتضمنه من هجو لاذع، ولعله فى ذلك كما يقول صاحب العمدة «يدرأ الحدود بالشبهات».

كذلك كان الفاروق على علم تام بشعراء عصره يستطلع أخبارهم ويستفسر عن أحوالهم، وربما ذكر له الشاعر فجعل يسأل عن معاشه وأوصافه الجسمية والخلقية، وكأنه يريد أن يفهم شعره على ضوء حياته، قام مرة يصلى الصبح فوجد رجلا قصير القامة أعور متنكبا قوسا، وبيده هراوة، فقال له: أنت متمم بن نويرة؟ فقال نعم يا أمير المؤمنين. فقال: هكذا وصفت لى، فأنشدنى مراثيك فى مالك أخيك، فأخذ ينشده حتى وصل إلى قوله:

وكنا كندمانى جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا ... على طول وصل لم نبت ليلة معا

فقال عمر: والله هذا هو التأبين، ولوددت أنى أحسن الشعر فأرثى أخى زيدا بمثل ما رثيت به أخاك، فقال متمم: لو أن أخى يا أمير المؤمنين مات على ما مات عليه أخوك من الإيمان مارثيته، فقال عمر: «ما عزانى أحد عن أخى بمثل ما عزانى به متمم».

ونحن لو فتشنا مراثى متمم هذا، ما وجدنا أحسن من البيتين اللذين وقف عندهما الفاروق، وفى ذلك الدليل القوى على سلامة ذوقه، ودقة شعوره بمعانى الكلام، وقد جاء بعد عمر من هام بهذين البيتين من أئمة الأدب فكتبها على قبر أخيه.

على أن أبا حفص كان ينفعل إنفعالا شديداً يظهر أثره فى وجهه حين يسمع شعرا يقال فى مناوءة الدعوة المحمدية. فقد أسكت من أنشده شعر أمية بن الصلت فى رثاء قتلى بدر، وكأنه يربأ بالشعر أن ينحط إلى درجة تجعله يحيد عن الحق ويميل إلى الباطل. ولطالما توعد من يقول شعرا فى هذا الموضوع البغيض، حتى إن كراهته لأعداء الرسالة من الشعراء ظلت كامنة فى قلبه على رغم إسلامهم بعد ذلك، فقد كان أبو شجرة بن الخنساء شاعرا مثلها، وقد لحق بأهل الردة وأخذ يقول الشعر فى تحريضهم على أصحاب محمد ﷺ وكان مما قاله:

فرويت رمحى من كتيبة خالد   وإنـى لأرجو بعدها أن أعمرا

ثم لما أخفق فى تحريضه ورأى الناس يرجعون إلى الإسلام رجع إليه صاغرا، وقبل منه ذلك أبو بكر، وعفا عنه فيمن عفا عنهم. فلما كانت خلافة عمر، قال: يا أمير المؤمنين أعطنى فإنى ذو حاجة فقال عمر: من أنت؟ فلما عرفه صاح؛ أى عدو الله! ألست القائل:

فرويت رمحى من كتيبة خالد   وإنـى لأرجو بعدها أن أعمرا

ثم جعل يعلوه بالدرة على رأسه، فطار عدوا إلى ناقته، وارتحل عائدا إلى قومه من بنى سليم، وعمر يكرر البيت فى تهكم واستهزاء.

وكان برغم صرامته فى الحق يعطف على الشعراء المجيدين. وقصة النجاشى السابقة تؤكد لنا هذا المعنى أبلغ تأكيد، وحسبك أن الحطيئة كان يلقى منه ـ على سلاطة لسانه وقبح هجوه ـ كل تسامح

محمود، فقد حبسه عمر ــ رضى الله عنه ــ حين هجا الزبرقان بن بدر فنظم عدة أبيات عاطفية يستميل بها قلبه ومنها:

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ　　زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة　　فاغفر عليك سلام الله يا عمر

فرق له عمر، وأطلقه من سجنه ومنحه دراهم كثيرة على ألا يتعرض لهجو المسلمين.

ولقد شاع فى الناس حبه للشعر وتأثره به أيما تأثر، فعمد كثير من أصحاب الحاجات إلى عرض مطالبهم عليه فى أسلوب شعرى فكان يردهم أحسن رد، قال عثمان بن أبى العاص: كنت عند عمر فأتاه شيخ كبير يسمى أمية ابن حرثان فأنشده.

لمن شيخان قد نشدا كلابا　　كتاب الله لو قبل الكتابا
أناديه فيعرض فى إباء　　فلا وأبى كلاب ما أصابا
فانك وابتغاء الأجر بعدى　　كباغى الماء يتّبع السرابا
تركت أباك مرعشة يداه　　وأمك لا تطيق لها شراباً
إذا غنت حمامة بطن وج　　على بيضاتها ذكرت كلابا

فقال عمر: مم ذاك يا أخا العرب؟ فقال: هاجر كلاب إلى الشام فى جيش الحرب، وترك أبوين كبيرين ولا من عائل لهما: فبكى عمر حتى ما تتبين كلامه ثم كتب إلى يزيد بن أبى سفيان فى أن يرحله، فقدم عليه، فقال عمر: بر أبويك إلى أن يموتا؟

وكان لا يطوف فى شارع أو زقاق ويسمع شعرا ينشد إلا وقف يتسمعه حتى ينقطع الصوت، وله فى ذلك غرائب عجيبة، سمع أعرابية تنشد:

فمنهن من تسقى بعذب مبرد نقاخ فتلكم عند ذلك قرت
ومنهن من تسقى بأخضر آجن أجاج ولولا خشية الله فرت

فعلم ما تريد، وبعث إلى زوجها فوجده متغير الفم، فخيره بين خمسمائة درهم أو جارية من الفيء، على أن يطلق زوجته، فاختار الدراهم وطلقها، وهذان البيتان لا يدرك مرماهما غير من له بصيرة عمر وذكاؤه، ولو سمعهما غيره لظنهما شعرا ينشد وكفى ولكن عمر الدقيق يصل إلى المراد بألمعيته المتوقدة.

وطاف ذات ليلة ببعض خيام المدينة فسمع أعرابية تنشد:

تطاول هذا الليل تسرى كواكبه وأرقنى أن لا خليل ألاعبه
فوالله لولا الله لا شىء غيره لزلزل من هذا السرير جوانبه
وبت ألاهى غير بدع ملعن لطيف الحشا لا يحتويه مصاحبه
يلاعبنى طورا وطورا كأنما بدا قمر فى ظلمة الليل حاجبه
يسر به من كان يلهو بقربه يعاتبنى فى حبه وأعاتبه

فسأل عنها فقيل إن زوجها غائب فى جيش القتال من عام، فذهب إلى ابنته وسألها كم تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: مائة وعشرين ليلة، فأمر أن يمكث المتزوج أربعة أشهر ويستبدل به غيره. ولو أردنا أن نستقصى ما ورد عن عمر من هذا القبيل لطال بنا القول، وحسبنا أن نشير.

على أن ذوق الأديب يظهر واضحاً في قوله ، وكذلك كان عمر ، فقد جاءت عباراته ممتعة ، وردوده بارعة ، مر يوماً بمنزل أنيق فقال : لمن هذا؟ فقيل لعاملك فلان ، فقال : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها . وتنازع عبد الله وعاصم ابناه ، فسألاه أيها أفضل من أخيه ، فقال أنتما كحماري العبادي ، قيل له أي حماريك شر؟ فقال هذا ثم هذا ! وقال : الكوفة جمجمة العرب ، وكنز الأمصار ، ورمح الله في الأرض . وحج ذات مرة وهو أمير المؤمنين فلما مر في طريقه بأحد الأودية المقفرة صاح على مسمع من أصحابه لا إله إلا الله ، يعطى من يشاء ما يشاء ، كنت بهذا الوادي في مدرعة صوف أرعى إبل الخطاب ، وكان فظاً يتعبني إذا عملت ويضربني إذا قصرت ، وقد أمسيت الليلة وليس بيني وبين الله أحد ثم أنشد :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الآله ويفنى المال والولد

وكتب الأدب مملوءة بأمثال هذه الروائع من آثاره حديثا ورسائل ونقدا ، إذ كان ـ رضي الله عنه ـ فذا في سياسته ، فذا في أخلاقه فذا في أدبه ونقده . وما أصدق الخطيئة حين قال فيه :

ما آثروك بها إذ قدموك لها ... لكن لأنفسهم كانت بك الإثر

***

يَأْتَلِقُون على صفحات الهلال

ما أفسح ما يتّسع له هذا العنوان ، إنّ الدّارس المنقّب ليستطيع أن يكتب في مجاله مؤلَّفاً كبيراً من عدة أجزاء ، لأن مجلدات الهلال في سيرها المنتظم في نحو ما يقرب من قرن زاخرٍ بالأحداث ، جيّاش بالحركات الفكرية والسياسية والاجتماعية ، عامرٍ بالأفذاذ من أساطين القلم ، وقادة الرأى . وأساتذة التوجيه الدينى والأدبى والسياسّى ، هذه المُجلّدات الثريّة ببحوثها ومقالاتها ، وتحقيقاتها واستطلاعاتها ، وقصائدها وقصصها فى حاجة إلى جماعة من الدارسين ، كلٌّ وفق تخصصه المنهجى ، ليؤرخوا لمصر والعالم العربى فى هذا القرن فى ضوء ما سطّرتْه مجلداتُ الهلال ، أفيجوز لمثلى أن يكتب هذا العنوان الفسيح ليضم مقالاً واحداً فى بضع صفحات !

ولكنّ عواطف الإنسان تُلزمه أن يُفصح عنها بما ينبىء عن مكنونها المستتر ، فيشير إلى بوارق خاطفة ، تومض ومضاً قد يهدى الطريق لمن يرتاد ، ولا بدّ من تحديد مَنحى مُوجَز مِنْ مناحِى القول ، ليجرى الحديث بين شَطّيْن متقاربيْن كما يتسلسل ماء الغدير فى ضفّتيْن متجاورتين ، وقد اخترتُ أن يكون حديثى عن بعض الأعلام الكبار من قادة الفكر الدينى الذّين أنجبهم الأزهر الشريف ، فأسهموا بجهودهم الحافلة فى عالم الفكر المعاصر ، وكانتْ مجلةُ الهلال أفقا مشرقا تألق فيه كواكبهم الساطعة على فترات تتقارب وتتباعد ، وهم بعدُ من ذيوع السيرة ، وجهارة الصيّت وشرف المنزلة بالمكان الأرفع ،

ولهم آراؤهم الصائبة فى ميادين الإصلاح الدينى، والتحديد البيانىّ والنقد الاجتماعى، وما أحوجنا اليوم إلى أنْ نهتدى ببعض ما سجّلوه، وإنه لكثير حفيل.

(الإصلاح الدينى)

أيُعقَل أن يُذكر الإصلاح الدينى فى الحقبة التى بزغ فيها الهلال ولا يُذكر رائدُ الاصلاح الأستاذ الإمام محمد عبده؟ لقد ماتَ الرجل بعد أن ظهر الهلال بثلاث عشرة سنة، ولكنَّ آراءهَ الاصلاحية أخذتْ تتوالى على صفحات الهلال بعد رحيله إذْ كان من مميزات الهلال أن يختار من أقوال الراحلين ما تدعوُ إليه مناسبة تشغل القرّاء عند ظهور العدد، فترددتْ أقوال «مأثورة» لمحمد عبده ومصطفى كامل والمنفلوطى وباحثة البادية، وجبران خليل جبران وغيرهم من أساطين الفكر فى الصفحات الأولى، وهكذا رأينا آراء محمد عبده تسطع فى أفق الهلال بعد رحيله. كالشمس تغيب مساءً ثم ما تلبثُ أن تشرق.

فى سنة ١٩٣٧ احتلفتْ وزارة المعارف بمرور مائِة عام على إنشائها، وأصدرتْ مجلةُ الهلال عدداً خاصاً بهذه الذكرى الجليلة. وكان ممّا كثر الحديثُ عنه بهذه المناسبة. أنَّ التربية الخلقية لم تَسرْ مع التربية العلمية فى خَطوٍ متوافق، إذ اهتمت الوزارة بكثرة المعلومات دون أن تلتفت إلى تقويم السلوك، وهو أمرٌ سَبقَ أن دعا إليه الأستاذ الإمام بمقال نشره سنة ١٨٨١م، فكان من الأنسب أن تُعيدَ الهلالُ نشر مقال الأستاذ الإمام ليكون صوتاً من عالم الغيب يُنادى بأنّ تربية

النفوس لا بدَّ منها بإزاء تربية العقول . إذ لا تُدرَكُ المعرفة المثمرة إلاّ بعد تحلّي النفس بالصفات الجميلة ، لأنّ الإنسان إذا كان فاسد الأخلاق سُيُسبّب الشقاءَ لنفسه ، ولغيره ، مهما أحاط بُعلومِ الدنيا جميعها ، والخلُق الصحيح ثمرةٌ من ثمار التعليم الديني ، ومن تتبّع قوانين التعليم في الممالك الأوربيّة رآها تبتدئ بالتعاليم الدينيّة ، والاستمرار عليها إلى مدى ستّ سنوات متصّلة ، فتَتربّى لدى الطالبة ملكةٌ خلقية رفيعة تُقرِّبُهُ مِن الفضائل ، وتنأى به عن الرذائل ، وقد شرعت العبادات لتكون وسيلةً إلى تقويم النفس ، ودَفْعها إلى الخشوع والاطمئنان .

في مثل هذه المعاني دارَ مقال الأستاذ الإمام ، وقد نُشر بالهلال مُجاوراً لمقال آخر للأستاذ محمد أحمد جاد المولى تحت عنوان التطورّ الخلقي في مائة عام ، ذَهبَ فيه الكاتب إلى أن تطوَّرنا الخلقي لم يستقر بعد ، وكأنّي بما جاءَ في مقال الإمام وقد نّص علَى وسائلِ الاستقرار ، ودعائم الثبات .

وحيَن اتُّهِم الشّرقُ بالتّعصّب اتهاماً جعلَ النفوسَ تنفرُ من هذا الوصف ، التبسَ الأمرُ على الناس ، فظنُّوا أن كلّ تَعصب مقيتٌ ، مع أنّ التعصّب للخيرِ فضيلةٌ تدفعُ إلى التقّدم ، وتدعُو إلى الاتحاد ، فرأتْ مجلّة الهلال أن تفتتح عددها الصادر في أول يوليو سنة ١٩٣٣ بمقالِ للأستاذ الإمام نصّ فيه على أنّ التعصبَ نسبةٌ إلى العُصْبة ، وهي جماعَةُ المرءِ الّذين يُعزّزون قوّته ، ويدفعونَ عنه الضيم ، وقد أقامَ الله بناء الأمم على التّرابط والتعاون ، والتنافس بين الأمم كالتنافس بين الأفراد ، أعظمُ باعثٍ على بلوغ الأقصى من درجات الكمال ،

فالتعصُّب روحٌ كُلّى يرتقى بالأمة ويدفعُها إلى النهوض، كما أنّه يرفعُ نفوسَ الآحاد عن معاطاة الدّنايا، وارتكاب الخيانات، إذ هو تعصُّب للفضائل لا للرذائل.

أما الكلمة الشهيرة التى نسبت إلى الإمام محمد عبده حين قال، «إنما ينهضُ بالشرق مستبدّ عادل» فقد أعادتْ مجلّة الهلال نشرها بعدد نوفبر سنة ١٩٣٣م فى سياقها المطّرد، الذّى يصوّرُ مفهومها الصحّيح لدى الإمام. إذا التبس على بعض القّراء معنى المستبد فى عبارة الإمام، فحسبُوه الدكتاتور الذى لا يعبأ برأى سواه، رجوعاً إلى المعنى الحقيقى لكلمة «مستبد، ولكنَّ وصفَ المستبدّ بالعدالة يُوجب أن يكون المعنى مجازيًّا، لوجود القرينة المانعة من المعنى الحقيقى، وهى صفة العدل» وقد قالَ الإمام فى تتمة حديثه كما نشرتْه الهلال: إنّ المستبد عادلٌ لا يخطو خطوةً إلاّ ونظرتُه الأولَى إلى شعبه الذى يحكمه. فإنْ عَرَضَ خّطٌ لنفسه، فذلك فى النظرة الثانية، لأنّ الحاكم أكثرُ لقَوْمه ممّا هو لنفسه، فهو يُكره المتناكرين على التعارف، ويقهرُ الجيران على التناصف.

ونحن بمنطوق هذه الكلمات لا نشمّ رائحة استبدادٍ من إنسان يعملُ لقومه لا لنفِسه. ويلتزمُ بالعدل الصريح حين يُلزِم المتخاصمين بالتّصافى، ويُجبرُ معشره على الإنصاف؛ فعلى الذّين يأخذونَ كلمةً من السيّاق، أنْ نَقول لهم، لا تقفُوا عند قول الله (لا تقربوا الصلاة) بل أتّموا النص الشريف.

هذا بعض ما نتمثل به للأستاذ الإمام، ونحن نعلمُ أن تلاميذه الكبار قد ترسّموا خطوه الإصلاحى وسطعت أرواحهم فى شتّى

المجالات الفكرية على صفحات الهلال، وكأنها زهرةٌ من بستانه، أو عبيرٌ من زهرته، ونكتفى فى المجال الدينى بتلميذين جهيرَيْن من تلاميذه تبوَّءا مشيخة الأزهر عن أصالة واستعداد، هما الأستاذ محمد مصطفى المراغى، والأستاذ مصطفى عبد الرازق ـ رحمهما الله ـ.

أما الشيخ المراغى فهو أقرب تلاميذ محمد عبده شبها به، إذ كانتْ له مهابة أسد، وجلال ملك، وفقه إمام، وكان منطقه الفصل فى كثير من العلم والسياسة والتشريع، وقد تبجحّ قوم بمهاجمة الأديان، فكتبَ الأستاذُ بمجلة الهلال (يناير سنة ١٩٣١) مقالاً منطقيّا عن الإخاء الإنسانّى فى الإسلام، ذكر فيه أن عوامل التفرّقُ تجبر الناس على الخضوع للغرائز الهابطة، وتدفعهم إلى الأثرة والغيرة والخوف والشك مما يباعدُ مسافة الإخاء العالمى، وقد شاهدْنا الهولَ الهائل من حروبِ طاحنة دَمَّرت قوى الإنسانية. ولن يُجدى التقدمُ الفلسفى والسبقُ العلمى عنها شيئاً، ولكنَّ العقيدة الدينية ذات نفع طيب فى هذا المجال، لأنّ الأديان تعتمد فى الإنسان على أصْل راسخ من غريزة التديّن، تدفعه إلى الثقة بأنّ العالم مجموعةٌ متناسقةٌ تَسُودُها قوةٌ مدبّرة حكيمة . . ترقبُ النيّات وتحكمّ الضمائر، وتجزى الناسَ بالخير والشر، هذه القوةُ هى الحاسمةُ فى ترجيح نوازِع الفضيلة وكبح جماح الرذائل، والرجوع إلى غريزة التدين يرفعُ الإنسانَ إلى ما فوق الإعتزاز باللّون والدم والحياة والطبقة، لذلك نجدُ الإسلام يعنْى بفكرة الأخوة الإنسانية، ولم يقم وزْنا لشرف المولد وكرم الجنس لأن معيار التفاضل عنده هو التقْوى.

هذه سطورٌ قليلةٌ تُوجزُ مقالاً هادفاً ذا معانٍ إنسانية سامية، وله

نظائر مماثلةٌ سجلّها الأستاذ الإمام على صفحات الهلال، ولعلّ من أهمها حديثة الضّـافى حين تولى مشيخة الأزهر للمرة الثانية، إذْ طَلعَ على القراء بنظرات صائبة حول دور الأزهر فى المجتمع الإسلامى، وعن الرابطة الإسلامية ومدى تأثيرها، وعمّا ينقص العالم الإسلامى من أسباب النهوض، وموقف المسلمين من الحضارة المعاصرة، وأىُّ أعلام الإسلام أولى بالتقديم، وهى عناصر حديث شامل تشير إليه ولا تفصحُ عنه، فإذا التمس القارىء مكانه فيجده فى عدد يونية سنة ١٩٣٥ من مجلة الهلال.

وإذا كان المراغى يمثل الطابعَ الإصلاحى فى تطبيق آراء محمد عبده فإن خَلَفَه الأستاذ الكبير مصطفى عبد الرازق يمثّل الطابع الفلسفّى من تفكير الأستاذ الإمام، وقد ترجم رسالة التوحيد إلى اللغة الفرنسيّة مع زميل باريسىّ، وساعدتْه ثقافتُه الواسعة على أن يكتُب بحُوثا فلسفية دقيقة. نشر بعضها على صفحات الهلال، وقد كان من سماته الأسلوبيّة فى مجال البحث العلمى أنْ يكثر من النصوص المتقابلة. ومثل هذا المنحى قد يثقل على قارىء مجلّة دورية. ولكنّ الهلال تعلمُ أنَّ قراءها من الخاصة، فاتسعتْ صفحاتها لبحوث دقيقة كتبها الأستاذ فى مجال النظر الفلسفى، ونشير هنا إلى بحثينْ طريفينْ تحدّث مصطفى عبد الرازق فى أولها عن الفلسفة الإسلامية فى ضوء النهضة الحديثة مبيناً المقصود من هذه الفلسفة وموضحاً أغراضها وصلتها بعلم الكلام، وقد ألمّ بوجهة المستشرقين فى دَرْس هذه الفلسفة حين جعلوها نقلاً للفلسفة الغربيّة القديمة دون تجديد، مخالفاً هذا النظر الضيق حيث امتدّ بالفلسفة الإسلامية لتشمل علومَ الكلام وأصول أحكام الفقه، وهى من صميم الفكر الإسلامى

الذى لم يشتبه مع الفكر اليونانى فى لبابه الصميم، وكان الباحثُ من التسامح بحيثُ حاط النَّظر المخالفَ بما يشبه الاعتذار، وهذا خُلقٌ فلسفى عملّى نعهُده لدى الصفوة من المترفّعين، أمّا البحث الثانى فقد تسلسل فى عدّة أجزاء من الهلال سنة ١٩٣٢ لتكتمل حلقاته في وحدة متآخية تبحث عن مذهب العلم الحديث في الدّين . والعلاقة بينها، وبداية الاهتمام بهذا البحث عند علماء اللغات، والبسيكولوجيّن، وعلماء الاجتماع، محّددا وجهة النظر الإسلامية المسْتقلّة، وهذه البحوثُ وإن أخذتْ طابعَ الفكر المجرّد فإنّها ذات صلةِ بالإصلاح الدينى، لأنّ معرفة الأصول الصحيحة للدين الحق تهدى إلى الطريق القويم..

التجديد البيانى

من اللاّفتِ للنظر أن صّيحات التجديد البلاغى دوّتْ على صفحات الهلال قبل يرنَّ صداها فى القاعات الجامعية. لأنّ الهلال قد سبقت الجامعة المصرية القديمة بسنوات عدّة، فحفلت أعدادها ببحوث عن النقد الأدبى، والأسلوب البيانى، كانت طليعة موفقة لما جدَّ من تجديد فى هذه الدراسات، ثم جاءت الجامعة المصرية الجديدة فحفلت بهذه الدراسات فى تؤدة مطمئنة. لأنّ الاجتهاد العلمى لايؤتى ثمره بينْ يوم وليلة ولكنّه، بذور تكمن فى باطن الأرض أمداً طويلاً حتى تنشقَّ التربةُ الصالحةُ عن عودٍ أخضر يأخذ فى النمو شيئاً فشيئاً، حتى يشبّ وينمو ثم يُورق ويزدهر ثم يؤتى أكله الطيب. ومن بشائر ما كتبته الهلال فى هذا المجال مقال السيد

مصطفى المنفلوطى عن البيان وصلته بالطّبع، ومدى التكلف لدى من يظنون الجزالة البليغة فى الغرابة الحوشيّة، دون التفات إلى الفطرة المطبوعة على اليسر والسلاسة، وقد مهّدت المجلّة لهذا المقال الرائع بقولها «ليس فى كتابنا من هو أجدر بالتكلم عن البيان من أمير البيان السيد مصطفى لطفى المنفلوطى، وانا لنود أن يطلع على هذا المقال البديع كلُّ أديبٍ من أدبائنا، وكلّ متطلّع إلى احتراف الأدب من شبابنا».

أما أولى الصيحات المرنّة فى عالم التجديد البلاغى فقد دَوَّى بها صوتُ الأستاذ على عبد الرازق فى بحثيْن ضَافيين بعددىْ الهلال (أبريل ومايو سنة ١٩٣١) حيث ألقى نظرةً صادقة على البلاغة العربيّة فى حاضرها وماضيها، ثم ما يجب أن تكونَ عليه فى مستقبلها. وللأستاذ الكبير على عبد الرازق عهدٌ بالتدريس البلاغىّ. إذ ألْقَى على طلاّب الأزهر فى العقد الثانى من هذا القْرن عدة بحوث بلاغية جمعها فى مؤلفَّ لطيف تحت عنوان (الأمالى) ومازالتْ خواطره البلاغية تعتاده على رغم انصرافه للبحوث التشريعية مُصيباً كانَ أوْ مخطئاً حتى هتف ببحثه عن البلاغة على منبر الهلال، فأشار إلى نُبذ من أقوال السابقين. وحدّد عناصرَ الجمال فى الأسلوب الأدبى موضّحاً بلاغة القرآن والحديث، ومُتسائلاً عن التجديد البلاغى المنتظر، معترفاً بما فى اللّغة العربية من مُرونة لا تكادُ تُعرف فى لغة أخرى، إذ تُساعدُ هذه اللّغة على أن تشتّق من الكلمة الواحدة عشرات الكلمات، وقد وسعت صنوفَ الحضارات المتعاقبة، ولاقتْ فى عُصور الانحطاط صُنوفَ البلاء ثم خرجتْ منها حية سليمة، وهى

فى لغات العصر الحاضر أقدمها وجوداً، وأصلبها عُودا، وأمجدها تاريخا، فلا بُد أن تُرسم لبلاغتها طُرق التجديد.

ثم ثَنىّ الكاتبُ المبين الأستاذ عبد العزيز البشرى، وهو أقربُ المعاصرين شبهاً بالجاحظ. جَلْجلة أسلوب، ورقّة إحْساس، وسطوة حُجة، ولُطف مدخل، ثَنَّى البشرى بمقالٍ ضاف نشره الهلال (يناير سنة ١٩٣٦) تحت عنوان (ثورة على علوم البلاغة) كان خلاصةً محاضرةٍ ضافية ألقاها الأديب الكبير فى الجامعة الأمريكية، بدأها بتجربة طريفة له مع زميل درس كتب البلاغة أربعين عاماً ثم أتى بالمُضحك الركيك حين تكلّف صوغَ الشعر، لينتهى إلى أنّ البلاغة طبعٌ وذوق وفِطرة، وليستْ مصطلحات تُحفظ، ثم مَضى يُحدّد السير التاريخى للتأليف البيّانى ازدهاراً وانحطاطاً لينتهى إلى أنّ البلاغة باعتبارها فنًّا هى أثرُ الملكة، ومظْهر قدرتها. أما باعتبارها علماً فهى عصارةُ ما خرجَ بالاستقراء للإحساس والأذواق من دَواعى الحسن والقبح فى فنون الكلام. وإذا كان الفنّ يتطوّر، والبلاغة فنّ، فلابدَّ من تطويرها، لتكونَ أشبه بالنّقد القائم على التَّفطّن والتذْوق، بحيثُ تتطوّر مع تطور الأفْهام والأذواق.

ولم تذهبْ صيحةُ البشرى هباءً، بل وجدتْ صداها لدى الأستاذ أمين الخولى، فَعقّبَ على مقالِ البشرى، بمقال كاشفٍ بالهلال يشير إلى أنّ دعوةَ الكاتب للتجديد تجد تحقيقها الآن فى كلّية الآداب بالجامعة وأنّ الأستاذ الخولى يدرسُ البلاغة المتطوّرة على نحوٍ يُرضى المعاصرة الراعية، وهذا حقٌّ لأنّ للأستاذ الخولى مدرستَهُ الأسلوبيّة التى خَطَتْ بالدراسات البلاغية خطواتٍ سديدةً، والبلاغةُ فى عُرف

هذه المدرسة هى (فنّ القول) وللأستاذ أحمد حسن الزيات والأستاذ أحمد الشايب بحوثٌ بلاغية تؤازر هذا الاتجاه وتثريه.

(النقد الاجتماعى)

أمّا مجال النقد الإجتماعى فى مجّلة الهلال.. فقد نشط فيه علماؤنا الكبار نشاطا يغبطون عليه، وأذكر أنّ الكاتب الاجتماعى الكبير الأستاذ محمود أبو العيون كانَ صاحب سبق ظافر فى هذا المجال، إذ كانت مقالاته الاجتماعية تتصل متلاحقة لتكشف عن هنات يراها المنغمسون فيها يسيرة، وهى عند الله كبيرة، والأستاذ أبو العيون مظلومٌ حقّ الظلم من تلاميذه الذّين لم ينهضوا لجمع آثاره الكثيرة فى أمهات الصحف والمجلاّت، فلَعَلّنا نلفتُ إليه مَنْ يحرصون على تقدير العاملين.

لقد كانَ الكاتب الاجتماعى جريئاً فى كل ما يكتب، وهو بَعدُ خطيبُ الثورة المصرية، وصاحبُ الكلمة فى منبر الأزهر حين كان الموجّه الصادقَ للأحرار، لقْد تحدثَ (عن الدّين ورجال الدين) فى مجال التّحليل الاجتماعِى لمّا جدّ من أوضاع تخالفُ الروح الإسلامية، فلم يُغفل إخوانه العلماء من الملامة على تقصير لحقهم بشأن رسالتهم إذ اسْتسْلم أكثرهم للواقع المحزن، دونَ اكتراث. وقال فى صراحة نادرة (مجلد الهلال سنة ١٩٤٢) «تستطيع أن نجَهر بالقول بأن النفوس تبلّدت فلم تعُدْ مستعدةً لقبول المعانىِ الرّوحية السّامية، لأن زيْف المدينّة قد رَانَ على النفوس، وزادَها تبلدا أنّ عناصرَ الهداية المستمدة من أصول الدين قد ضَعُفت وسائلها، فلم نَرَ مِنْ بيننا تلك

القدوَة الصالحة.. التى كانَ يتّسمُ بها العلماء ورجالُ الدّين من قبل، واختفت وجوُهُ أولئك الغرّ الميامين من رجال العلم العاكفين على إصلاح حالهم، وحال طلبتهم فى سماحةِ وكرم».

ويقول فى مجال آخر: (الهلال نوفمبر سنة ١٩٣٣):

«لقد نَفذ القحطُ الخلّقى والانحلالُ الأدبى إلى كّل الجماعات والطبقات، فأينًا يكون الهادى، وأيّنا يكون المهتدى، إنّ العناصر الرشيدة التى كانت تتزعم الأقوام، وكانت مصدراً للفضيلة. ومبعث هدى للخلق الكريم، تنكّبت الطريقّة المثلى، وشاركت الطبقة الدنيا فيما يصدر عنها من المثالب، وليس لها من عاصم، لأنّ النفوس نشأتْ قاحلةً من أصول التربية الصحيحة ومن الخير لمصر أن يكون بها رجلُ دين على جانب كبير من الذكاء والثقافة اللائقة بمقتضيات عصر العلوم والمعرفة. فقد قضى الزمن الذى كان يهيبُ فيه الزعيمُ الدينى، فتخضعُ له الوجوه، وأصبحت المهمة شاقة مجهدة، تتطلب العزم البصير». كما أنّ أبا العيون نادى بأن تتعلم الفتاة بالأزهر قَبْل أن يتحقق ذلك بأكثر من نصف قرن، فكتب فى عدد نوفمبر سنة ١٩٣٤ من مجلة الهلال مقالاً توجيهيّا يدعو فيه إلى هذا الاتجاه، ويُعلن أنّ ذلك ليس غريبا على الأزهر، إذ كانت الفتياتُ يتقّدمْن فى الزمن القريب إلى نُيل شهادة العالمية بالأزهر، وقد سافرت لطنطا لجنة علّمية سنة ١٩١١ لتمتحن طلبة العالمية، ومن بينهم فتاةٌ دارسةٌ تسمّى فاطمة العوضية، وكان موضوع امتحانها فى علم الأصول مُحددًا فى باب (لاتكليف إلا بفعل) وهو مَن أغمض الأبواب تعقيداً واستشكالا، والمقال ممتع طريف.

وآبو العيون لم يكنْ وحده من كتّاب الأدب الاجتماعي بمجلة الهلال، بل كَان له زملاء كبار من أدباء الأزهر وعلمائه نذكر منهم السيد مصطفى المنفلوطي وعبد العزيز البشرى ومصطفى عبد الرازق، ومحمد أحمد عرفه، وكلّهمْ بارعُ اللمحة، صادُق النظرة، مستقُيم المنهج، ومحاولة الاستشهاد ببعض ما سجّلوه مما يضيق به المجال ولكّنى أختار جزءاً من كلمة عامرة للأستاذ مصطفى عبد الرازق قال فيها متحدثاً عن المرأة [مجلد الهلال سنة ١٩٣٥م]:

«إن للمرأة خواصّ تجعل أثرها فى تشييد صرح الحياة وتزيينه أقوىَ من أثر الرجل، فالمرأة بحكم وظيفتها الطبيعيّة فى تكوين الجنين تُبرز للحياة الإنسانَ الحى كأنما تقّده من كيانها، وطبيعيٌّ أن يفيضَ قلبُ المرأة بالحبّ والحنان لهذا العالم الإنسانى الذّى تكادُ تَشعر بفطرتها أنّه ثمرةٌ من ثمارها وأنّ حياته مستمدة من حياتها.

على أن فى فطرة المرأة نوعاً من السحر والجمال والخلابة يسمُو بأهل الفن إلى مايبدعونه من الآثار. وتُلهم الشعراء روائع الشعر، وإذا كانَ جمالُ الحياة فنًّا وشعراً، وحبًّا، فإنّ المرأة هى التى تبنى كل ما فى الحياة من معانى الجمال».

أعود فأقول، إن مقالاً واحداً لايُبلغنى ما أريد، فهل اكتفى ببعض عن بعض، وإذا اكتفَيتُ فهل يكتفى القارىء الرشيد؟.

* * *

شاعر يودع الحياة فى صمت

قرأت قصة للكاتب الروسى الأشهر « أنطون تشيكوف » يتحدث بأسف ومرارة عن نصيب العلماء العاملين من الشهرة. وقد برع الفنان الكبير فى تصوير تلك المرارة الأليمة التى يحسها العبقرى حين يجد نفسه هباء مضاعفا بين صعاليك أغبياء يتسنمون المجد الذائع والشهرة العالية سواه، وبطل القصة مهندس مختار يتحدث عن نفسه فيقول نقلاً عن ترجمة محمد السباعى.

« أنا مهندس بارع أتيح لى أن أنشىء فى روسيا ثلاثين قنطرة من أفخم القناطر وأن أزود خمس مدائن بمصانع المياه والغاز، وأن أؤدى أعمالاً هندسية خطيرة فى عدد من عواصم أوربا ولى تصانيف شتى فى العلوم الرياضية، فأنا فى طليعة من يشتغلون بفن الكيمياء فى العالم وقد اكتشفت عدة من الأحماض والقلويات والجواهر الكشافة ولو شئت ألقيت اسمى منقوشا على صفحات كتب الكيمياء بمعاهد الدراسة خارج روسيا وقد ارتقيت إلى درجة مستشار هندسى، وهأنذا أصبح قاب قوسين أو أدنى من القبر ثم لا يعرفنى أحد..

وتابع المهندس المغمور حديثه يقول « إننى منذ بضعة أعوام أنشأت قنطرة عظيمة فى بلدة كذا وأقيم احتفال علنى لافتتاحها فألقيت الخطب والمقالات وجعلت أنتظر إذ ذاك ترداد اسمى وأتخيل الأبصار ممتدة نحوى والأعناق متطاولة إلىَّ. ولو علمت الغيب لأرحت بالى من

كل هذا العناء والقلق، فقد احتشدت الجموع وجعلوا ينظرون لكل شيء غيرى ثم شوهدت حركة غير عادية فى الجمهور وأعقبها كثير من الهرج والمرج وتهامس الناس وأومضت على وجوههم ابتسامة ارتياح وماج بهم المكان واضطرب فقلت فى نفسى ربما عرفونى ولكنى علمت بعد لحظة أن سبب هذا الالتفات ظهور ممثلة تافهة محدودة الطاقة يتبعها حاشية من أسرى الغرام تشق عباب الجماهير كالباخرة المزينة وراءها الزوارق والعوامات، والسفهاء المغفلون يشيعونها بألحاظ الصبابة والهيام.

وانتهى الحفل وخرجت جميع الصحف تتحدث عن المهرجان وحضور صاحب الفخامة محافظ المدينة وفئة من كبار الموظفين. وكان من بين الحضور الممثلة الطائرة الصيت قرة الأعين ونزهة النفوس تختال بين الصفوف فى حالة أرجوانية موشاة تكاد من فرط حسنها تأكلها القلوب وتشربها الضمائر، أما أنا فعلىَّ العفاء وفى سبيل الشيطان تعبى وإلى جهنم وبئس المصير».

هذه الفقرات من قصة رائعة ذكرتها فى مقدمة حديثى عن شاعر كبير بفنه ضئيل بسمعته وصيته فارق الدنيا فما سمع به أحد، وراح كما عاش حزيناً متوارياً تاركا وراءه من روائع الشعر وجميل البيان مالم يتركه مئات المشهورين من رواد المحافل، ومتملقى الصحافة وعشاق الهتاف والضجيج.

منذ أربعين عاما نقلت إلى بعض المدارس الثانوية فى الصعيد الأوسط بجمهورية مصر العربية فى «أبو تيج» وكان الجو غريباً علىَّ فأخذت أتقرب إلى من أتوسم فيهم الثقافة والمعرفة ومن بينهم

أصحاب الجرائد المحلية ذات الصبغة الإقليمية الضيقة! وأنا سيىء الظن بها ــ ولا أدرى لماذا ــ.

ولكن فراغ المكان يجبرنى على الإتصال بالناس، فوقع فى يدى عدد من أعداد هذه الصحف لا يزيد حجمه على ثلاث ورقات لمحت من سطورها قصيدة شعرية ظننتها سلفاً لشاعر مبتدىء يعالج النظم فلم أحرص على الاستفادة منها! ولكن الورقات الثلاث لا تحمل غير الإعلانات وحوادث الإقليم وقصيدة الشعر فاضطررت إلى قراءتها، وراعتنى بل أذهلنى شهد الله أن أجد نمطاً رائعاً من البيان لو نسب إلى شاعر عظيم كعباس محمود العقاد مثلا ما شك فى نسبته مثقف! وكانت القصيدة تصف موكباً جنائزيا لشهيد جندى وقد ابتدأها صاحبها الأستاذ محمد عثمان الصمدى بقوله:

طلعوا به ملقى عليه دم ... فوق المناكب لفه العلم
حشدت حوالى ركبه زمر ... لله محتشد ومزدحم
أبقاهم الموت الزؤام له ... أهلاً تؤلف بينهم رحم
ملأوا السبيل فما ترى رجلا ... إلا له بأخيه مصطدم
لم يبصروا للخطو موضعه ... فيه فكم من موطىء قدم
حف الجلال بهم فذ طلعوا ... طلع الردى المرهوب والعدم
لا ينبسون وفوق أوجههم ... حزن على القسمات مرتسم
سبق الركاب على جلالته ... جند إلى صفين قد قسموا
يمشون مشى مكبلين وما ... عرفوا الكبول ولا لها لزموا
لم يطلقوا فى السير خطوهم ... لكن بأوضاع الأسى اعتصموا
ألقوا لظهر الأرض أوجههم ... فكأنما اعتزموا الصلاة همو

وسرى الذهول إلى مشاعرهم	فكأنما غشاهمو حلم
البعض ينقر طبلة فترى	ثكلى تصيح أسى وتلتدم
والبعض يعزف من ملاحنه	نغما فيغرى بالأسى النغم
عجبا لموسيقى استجبت لها	متأسيا وصحا بها الألم
قد أيقظت ذكرا مروعة	فى النفس نسى لذعها القدم
فأحس طورا نوح منتحب	يبكى فيخذل صوته اليتم
وأحس حينا رجع ولولة	هوجاء تستشرى فتلتزم
تعلو مروعة مفجعة	وترق حينا ثم تحتدم !

كانت القصيدة ذات أثر قوى فى نفسى فاستعدتها مرة ثانية وثالثة ثم سألت صاحب الجريدة عنه ـ وهو ضعيف الثقافة محدودها ـ فقال إنها (لخبطة) رجل مهووس (هكذا والله) يغمره دائما بالشعر ولا ينشره إلا حين لا يجد شيئاً ينشر. فقلت معتجبا إن هذه القصيدة من أجمل ما قيل فى موضوعها. فتضاحك الرجل وقال فى استهتار: إن الناظم (ترزى عربى) لم يتعلم فى مدرسة وهو يبعث بشعره للصحف الكبيرة فترفضه. ولو كان جيداً كما تقول لرضيت به صحف القاهرة. فتألمت كثيرا لما سمعت، وحرصت على أن أقابل الشاعر فى بلده البعيد. ويممت شطره راكبا المطايا وعابرا نهر النيل من أبو تيج حتى وصلت ساحل سليم. وكان اللقاء.

فاجأنى الشاعر بمنظره ودكانه معا، فهو أشعث الرأس مغبر الثوب تحسه صوفيا من أبناء الطريق قد اعتصم بالتقشف والزهد ورأى فى المركب الخشن والعيش الجاف متاعه اللذيذ، أما دكانه الصغير فلا يضم غير ماكينة الخياطة وصوانا خشبيا تتناثر فوقه أوراق الكتب

وأقشة الزبائن. فأسهبت فى تقريظه وجال بنا الحديث كل مجال فلمست اطلاعا دقيقا على شتى ضروب المعرفة العربية من أدب وفلسفة وتاريخ وتصوف، وكان يلقى بآرائه عفو البديهة فيتضح بها من الألمعية الثقافية مالا يدرك عند قارىء دارس فحسب. بل مايدرك عند نابغ متطلع وآلمنى كثيراً أن أشهد عن ملابساته الاجتماعية وظروفه المعاشية مايوجع ويسىء.

لقد عاش مع أوشاب من الجهلة ينكرون عليه حقه فى قراءة الصحف ومراسلاتها. ومن شدا منهم بعض المعرفة لسعته عقارب الحقد فأرجف به وادعى أنه ناقل ينسب لنفسه مايقوله للناس. وقد حانت بعض المناسبات لذيوع اسمه نسبيا فى إقليمه لولا أن محاربة النبوغ قد ترصدته، فنهضت أمامه عوامل قاسية لم يستطع إزاحتها، ولكنى تأملت موقفه، ووعدته أن أكون عضده الأيمن بجهدى الضئيل فاتصلت بأستاذى الكبير أحمد حسن الزيات ففسح له مجال النشر بالرسالة، وأذكر أنه كتب بها خمس مقالات ثم فاجأه النحس حين احتجبت الرسالة فجأة ومعها الثقافة أيضاً فنهض السد المنيع أمامه كما كان.

وقد قدم لى فى الزيارة الأولى ديوانه الشعرى (فى المحراب) مطبوعا فى نسق مناسب، وذكر لى فى مرارة قاسية أنه أرسل إلى حملة الأقلام فى الصحف الجهيرة نسخا تبلغ الثلاثين فما شرفه ناقد بسطر واحد أو تفضل عليه بالشكر فى خطاب خاص. فعجبت لهذا النكران المتأصل يضرب بأسداده حول هذا النابغة فما يتيح له بصيصا من نور، وإذ ذاك عكفت على دراسة الديوان الرائع وكتبت بحثا أدبيا عنه نشرته مجلة الرسالة الغراء بتاريخ ١٧ مارس سنة ١٩٥٢ وفيه أقول

« ومن الخير أن نكشف عن المميزات التى تظهر فى شعر الأستاذ محمد عثمان الصمدى ، وقد يكون أهمها ما نلمسه لديه من عمق التحليل وقوة التحليق وجزالة الصياغة . وتلك هى الأركان الثلاثة التى ارتفعت بديوانه الجميل ومما يزيد فى قيمتها الأدبية أنها تطرد فى سياق واحد ، فلا تختلف ميزة عن أختيها فى قصيدة من قصائد الديوان ، بل تظهر ثلاثتها متجاورات متآخيات .

وإذا كان الشاعر فى جميع قصائده متشائماً متضايقاً برما بما حوله من الناس والأحياء ، فهذا مما لا يؤاخذ عليه فى شيء ، لأن لكل إنسان آماله وأحلامه . ومهما أحث السير نحو أهدافه فلن يقرب من مثله وأشواقه ، وهنا تكون الحسرة الموحية بالتشاؤم والقلق لدى أكثر الشعراء ، وقد يكون الحظ التعس مولعا ببعضهم فيقف لهم بالمرصاد ينغص عيشه ويكدر حياته وينقله من الخفض الناعم إلى الجدب الموحش ، ويجسم له أشجانه لتلوح شاحبة قاتمة ، وتبيت طيلة ليلة عابرة أمام عينه تشرد نومه وتهيج بلابله . وصاحب الديوان أحد هؤلاء الساهدين الرازحين تحت أعباء الشجون . وهو حين يتحدث عن هواجسه الأليمة يريك عجيبا أى عجيب إذ يصف البوم الذى ينعب فى صدره مولولا ، ويسمعك الصخب الهائج فى ظلمة الليل بين أطواء الضلوع . وقد سكتت حركة الأحياء والأشياء ويريك الأشباح المتواكبة أمامه .

وقد ملأت مسامعه بالزمازم والرعود وأسلمته إلى ذكرياته البعيدة والقريبة فبعيدها ضعيف الجرس حار الأنة ، وقريبها صاخب ملحاح شديد اللوعة والغرام ، والصمدى فى حيرة مقلقة بين البعيد

والقريب، هذه الحيرة التى فجرت شاعريته الثرة فانطلق يقول فى قصيدة كبيرة:

يلــف الدجى منى مراح بلابل ... ومـثـوى شجون لا تريح جثوم
لها صخب خلف الضلوع مبعثر ... فمن ناعب يذكى الأسى ويغوم
كأنى ناى فى يد الليل جائش ... بما فـى الـورى من رائع ودميم
إذا أذهب الليل الحياة أعادها ... قيامى على أعبائها ولزومى
ألا شد ما أوقرت نفسى بفادح ... أنـوء بـه تحـت الـظـلام جسيم
وأشباح ليل ما تنى فى هتافها ... أذنت لها من بعد طول وجوم
ففى الشرق منها هاتف بزمازم ... وفـى الغرب منها هاتف بهزيم
وطـورا يـشـق الـلـيـل داع مرزأ ... بصوت من البعد السحيق سقيم
له أنة حرى على ضعف جرسها ... كـأنـة مـصـدوع الـفـؤاد كليم
وتصخب طوار حين أصغى لها معا ... فأمسى كأنى فى مناحة بوم
من الطارق الملحاح بابى وللكرى ... يد فى الدجى ألوت بكل نؤوم

وكثير من الناس يسهرون الليل ساهمين محزونين يفكرون فى حظوظهم العاثرة، وسيجدون صورة ما يعتادهم من الشجن والرعب فى هذه الأبيات، ونظائرها من الديوان، وكم للنفس من خلوة رهيبة، تكتنفها الوحشة، وترتعد لها الفرائص الصلاب، ولا فرق بين المسير فى غابة رهيبة نائية، وبين التسرب فى أعماق الشجون، وتذكر المصائب والويلات، والحزين من هواجسه فى مأسدة عالية الزئير، مرتفعة الصياح، فليس عجبا أن يسمع الشاعر فى وحدته الساكنة مناحة البوم، ورنين الأنات، ويرى توائب الأشباح أسرابا خلف أسراب!

وقد استعان الأستاذ الصمدى بخياله المجنح الطائر، فنظم ملحمة طويلة يصف بها يوم البعث كما ينطبع فى مخيلته، ولم يشأ أن يصور حلقات سريعة لما يتخيله من الحوادث والوقائع فحسب، بل أراد أن يبرز فلسفته فى الحياة والناس فى جو من الإيحاء والإبهام، ولم يفارقه تشاؤمه المرير قيد لحظة، بل ظل يطفر بين سطوره من بيت إلى بيت دون أن يخلد إلى الراحة والاطمئنان، بل إن الملحمة تدور حوله رائحة غادية .. فحين نفخ إسرافيل فى الصور، ونهضت الرمم البالية من الأجداث، وهبت هبوب الدبا فوق الموج والأعشاب، ودبت الحياة على الأرض من جديد، حين كان ذلك، فزعت الملائكة فى السماء، وجعلوا يتساءلون عن هذا البعث فى قلق وإشفاق؟ كيف حان على غير أهبة؟ وما مصيره وعقباه؟ ولأى غاية كان؟. ولجأوا إلى إسرافيل يستفسرون عما صنع من جليل الخطوب حين نقر فى الناقور، وقد توجسوا الشر إذ أنذرهم ببعث الآدميين من جديد، وظنوا الأظانين بأبناء حواء، واندفعوا يقولون فى حسرة وإشفاق.

رويدا ملاك الصور ماذا تقوله ... أهبوا على الطبع القديم المدابر
إذن سوف ينضون السلاح كعهدهم ... غلابا على الأخرى غلاب المغاور
فلن يجنحوا للسلم والطبع قائد ... يجاذبهم حرص النفوس الغرائر
غرائز غشت تحتها مشرق الحجى ... ورانت على الأبصار فوق البصائر
وليس الحجى كالطبع فيهم مؤصلا
ولكنه للمرء إحدى المفاخر
مضى الناس طرا ما ألموا بقدسه ... سوى نفر منهم قلال عباقر
وسائرهم أسرى الغرائز حظهم ... عليهن من مأثوره حظ تاجر

وهذه النظرة الجاحدة للإنسان تجد ما يبررها لدى الشاعر من واقع عيشه، وظروف حياته، فقد نازعه بعض الموسرين منازعة قضائية، واغتصبوا منه ظلما مالا يجوز أن يقربوه فى شىء، والتبس الأمر على القضاء فأيدهم بسلطان القانون، ولم يجد الشاعر غير القريض ينفس به عن ذات صدره، ويبثه تباريحه ومواجعه، فامتلأ ديوانه بهذه القذائف الصائبات. وقد وفق الاستاذ الصمدى فى ملحمته هذه توفيقاً حميدا، فبرزت ميزته الثانية فى التحليق مع الخيال إلى القمم والأجواز، فلم يبرز يوم البعث، دون مقدمة تمهد له وتؤذن به، فالأثير يدوى بأصداء خفاف عوابر، والأفق موحش يتجاوب فيه الصدى تجاوبا مرهوبا، والسكون الشامل يدفع الأحشاء إلى حركة تؤذن بالانفجار، والأثير يتجاوز الخفق ــ بعد قليل ــ إلى الزمجرة والقصف، والضباب يتدجى على الثرى فى تكاثف والتحام، والدخان ينتقل مع الريح كالدخان المتصاعد من المباخر العاليات.. والسحاب والسديم والبحار تأخذ فى مرآة الشاعر صورا مهتاجة فزعة.. تجد هذا كله حين ننصت إلى قوله فى مقدمة ملحمته الجيدة.

أذنت إلى خفق الأثير وقد هفا	يدوى بأصداء خفاف عوابر
وللأفق حولى وحشة أولت بصدى	وضوح شهاب عابر فى الدياجر
سكون تكاد النفس توجس خلفه	حشا مستفزا بانفجار مخامر
على صفحتيه ما بنى نبض منذر	كنبض سراج فى السموات ساهر
لآنست إرهاصاً لأمر مروع	وراء أسارير الأثير المواثر
فلو أن مذياعا يبين ما انطوى	عليه لأجلى موجه عن زماجر
وما هى إلا أن تدجى على الثرى	ضباب إلى غيم على الأفق سائر

وصعدت الأرض الغبار كأنه　　على الريح مذروراً دخان المباخر
هنا السدم قد ذرت هنا السحب بعثرت　　هنا طافر ينزو إلى جنب طافر

وتمضى القصيدة إلى نهايتها فى هذا السياق الرصين .

والقارىء يغتبط كثيراً ، لأن الجزالة لا تصرف الشاعر عن سبحانة النائية ، ومهامهه الشاسعة ، ونحن نرى عشاق التحليق والطيران من الشعراء يسرعون إلى مطارحهم النائية ، ويرتقون إلى أجوازهم العالية فى أسلوب لا يرضى عشاق الرصانة والأسر، فالتعبير مفكك غير متماسك ، والتركيب مضطرب فاتر

واقرأ ما لدينا من الشعر الحديث فى الملاحم والأساطير. فلن تجد للرصانة أثراً يرضيك ، بل إنها فى مذهب أصحاب الملاحم ضرب عتيق من التقليد المظلم ، الذى يتعذر أن يجد سوقه الرائجة فى هذا الأفق الطليق وقد دفعهم إلى هذا الاتهام القاسى ما يجدونه ــ غالباً .. لدى أنصار الجزالة من ضيق فى الثقافة والخيال والتحليل ، إذ أن قصائدهم ــ فى الأكثر ــ تضطرب فى نطاق ضئيل من المعانى المتوارثة الشائعة ــ وإذا جنحوا إلى الابتكار الشائق فلا يتجاوزون حدود الاستعارة والتشبيه مما يتعلق بالبيت أو البيتين ، لا أن يعم الابتكار فكرة القصيدة ، وأغراضها وأوزانها ، فتكون له الدقة والطرافة والتوثب ، وقصيدة الشاعر عن يوم البعث محاولة طيبة لتقريب الشقة بين المذهبين المختلفين ، وإن كنا ندعو الأستاذ الصمدى إلى التخلص قليلاً من بهارجه اللغوية ، التى تبرز بوضوح فى صفحات ديوانه فقارىء الشعر لا يصبر على مراجعة الهوامش كقارىء المنطق والفلسفة ، ولكنه يريد فاكهة عذبة مريحة ، يلمس فى يديه نعومتها

الشفافة، ويرى بعينه صورتها الخلابة، ويذوق بفمه حلاوتها المشتهاة، وهذا ما تحول دونه ألفاظ المعاجم، فى بعض الأحايين، ومعاذ الأدب أن يفهم القارىء من هذا الرأى أننا نتنكر للجزالة والأسر، بل نسير معها إلى أبعد شوط وأقصاه، ولكننا لا نراهما فى حاجة إلى الألفاظ الغريبة عن السمع والعين والفؤاد، وأكثر ما لدينا من شعر الديوان سائغ رائق، قد خلص من الغرابة والإيحاش.

وقد لاحظت أن الشاعر ــ أقر أم لم يقر ــ متأثر فى بعض قصائده بشاعرية الأستاذ العقاد، فقد أخذ عنه حبه للتعليل والتدقيق، ورغبته فى جدله العقلى المترف الذى يندس إلى أغوار الحياة، فيجد فيها مادة للتفلسف والمقارنة، وهذا لا يعيب الشعر فى شىء ــ كما يرى السطحيون ــ ما دام ملموسا واضحاً أمام الذهن البصير، بل يرفعه إلى مستوى شامخ تتواثب فيه العواطف والعقول، وقد ظهر هذا التأثر فى كثير من قصائد الديوان، كنجوى الأمل، وعلى رفات البشرية، والله والوجود، وإن لم يلحق الصمدى بأستاذه العقاد فى الدقة والصدق والإقناع، بل وقف منه عن كثب يطارحه ويحاكيه، واقرأ دعوة الشاعر إلى خداع النفس، والهروب من الحقائق، وتناسى الواقع، لتلمس الشواهد الدالة على ما ندعيه فى مثل قوله:

قد ضقت بالحق الصراح	فمن لنفسى بالهراء
والعيش عبء قادح	إن لم يموه بالطلاء
أحبب بآلك لامعا	عندى وإن لم ألق ماء
إن كنت لم تنقع صدى	فسواك يغرى بالظماء
حسبى بأنك مالىء	عينى سحرا بالرواء
يا أيها الأمل المنمق	من أفانين الغباء

إنـى لـقـيـت بك الـسـعـادة وهـــى حـــظ الأغـــبـــيـــاء
لـــو أن لــــى لـــبـــا لمـــا آنـــســـت فـــى أفـــن هـــبـــاء
أنـــا لـــو وثـــقـــت بـــظـــلـــهـــا فـــعـــلـــيـــك يـــا عـــقـــل الـــعـــفـــاء

هذا ، وقد عاش الشاعر فى الريف فخصه بكثير من خواطره ، فهو يصف طبيعته الفاتنة وسحبه وبروقه وغمائمه ، ويشارك أهله ما يجدون من عواطف وأحاسيس ، فيرثى أقطابه وذوى الوجاهة فيه ، ويرسم ألواحا بديعة للجمال المشترك الموزع بين المروج والحسان والغدران ، مما يزين جوانب الريف ويجلو حنادسه المتراكمات ، وتعجبنى نظراته الاجتماعية الصادقة ، وخلجاته الإنسانية التى التمعت متوهجة فى آخر قصيدة «من صور الريف» فهو يحدثك عن تعس العقل وشقائه ، حين لا يجد بدأ من الخضوع للأوهام والأضاليل ، بعد أن كابد الداء العضال وأعوزه الشفاء عن طريقه الطبيعى للعلاج ، فيلجأ إلى التمائم والرقى والتعاويذ . على يد أناس جهلة مماسيخ ! رامياً بآخر سهم فى كنانته ، وذلك قصارى ما يستطيع .

وجاء شيوخ الحى والكل ناهض بـإبـلالـه مـن دائـه المـتـفـاقـم
ومـسـوا بـأيـديـهـم يـديـه وأقـبـلـوا يـلـوكـون بـالأفـواه رجـع الـهـمـاهـم
وقـال كـبـيـر الـقـوم خذ هذه الرقى فنطها على اسم الله فوق الجماجم
ونـطـت بـأعـلاه، التمائم والـرقـى علـى سوء ظنى فى الرقى والتمائم
ورب فـتـى لم يـعـصـم العلم نفسه فـيـلـقـى بها ضعفاً إلى غير عاصم

وهـذه الـوثـبـات الـرائـعـة نظائر متناثرة فى صفحات الديوان ، وقد يجمح بـنـا الـيـراع إذا تـنـاولـنـاهـا ببعض التشخيص فى هذا النطاق الضيق المحدود .

هذا قليل مما نشرته قديما بالرسالة عن الديوان، والحق أن مأساة الشاعر ترجع بوجه خاص إلى شدة إحساسه بنفسه فهو حاد اليقظة، لماح النظرة بعيد الغور يرى الضئيل التافه فى وضوح ساطع كما يرى الجليل الشامخ. وقد رزق روحا قوية تعشق المثل العليا وترى فى مقترحات الفلاسفة وأمانى الحكماء فى الخلوص من الشرور مناخا لمنازعها وأهوائها، وقد ساعدته قراءاته على تفهم المدن الفاضلة كما تراءت فى أحلام الفلاسفة، واشتد تخيله الجامح حتى تصور هذه المدن الخيالية واقعاً ملموساً، يجنح إليه بفكره حين يكربه مأزق العيش وتسيره ضرورة الحياة ورغائب الغرائز. إنه ليتحدث عن نفسه الشفافة كما تتراءى له فيهتف:

بری الله نفسی من معان رفيعة وسوى سواها من تراب أديم

فليس بها كالناس فى الأرض حاجة

ـ على رغمها ـ إلا رضاع فطيم

ضرورة حى والحياة مغارم وإمساك جسم كالهباء هديم

فيالك نفساً موسق الله ذوبها قصيدة شعر فى السماء نظيم

يضوع كضوع الطيب لا نستبنه عيون ولكن ملء كل شميم

نسيم الصبا دون الرياح جناحها فيا لنسيم سائر بنسيم

سمت فوق آفاق السماء ورفرفت على أنهر من أنجم وسديم

تشع كإشعاع النجوم على الدجى وتأفل فى جسمى أفول نجوم

ألا فلتمسنى حين يعييك من أنا لدى عالم ضاحى الجمال وسيم

ففى مثل أفلاطون مهوى منازعى ومثوى لداتى من أخ وحميم

حقائق لا يقتاس هذا الورى بها ومن ذا يسوى منجباً بعقيم

هذه النفس الحساسة تعاظمها أن تجد الجحود الكافر فى بيئتها الجاهلية! إذ أن صاحبها ــ وياللأسف ــ كان يعيش بين أمشاج من الجهلة يقيسون النبوغ الأدبى بشهادات المدارس وإجازاتها العلمية، فكل متخرج فى مدرسة عالية أو كلية جامعية صاحب عقل وفضل، ولو كان آلة صماء حفظت بلا فهم وكتبت فى الإمتحان، كما حفظت ثم خرجت إلى دنيا الناس فى أمية فكرية نكراء! أما صاحب المهنة المتواضعة فى محله الصغير فمحال أن يكون نابغة يقرأ كتب الفلسفة وينظم قصائد الشعر!! وقد كان على الأستاذ الصمدى أن يرتفع بمشاعره عن أقيسة هؤلاء ــ لو ملك من نفسه شيئاً ــ وهيهات! فالشاعر كالزهرة العاطرة عليها أن ترسل الأريج المنعش، ولا عليها أن ينشقه الناس فمتى كان إنتاجه الرائع قويا فى نفسه فليس يؤذيه ألا يعترف به الأدعياء!! وهو لاشك يعرف أن السعادة ينبوع يتدفق من النفس، وفى استطاعته لـــو اتكـــأ كثيراً على نفسه ــ أن يفلسف نظراته إلى الحياة فلسفة تهون من أحزانه مهما قست البيئة وتعس الحظ، ومالنا نذهب بعيداً، ونحن نرى الرجل الغربى يتخرج فى أرقى جامعات انجلترا وفرنسا أو ألمانيا أو أمريكا، ويشاهد من أسباب المدينة وازدهار العمران ما يجذب كل فؤاد. ثم نراه بعد هذا المنشأ المزدهر يرحل إلى أواسط أفريقية أو استراليا ليقضى زهرة شبابه وكهولته بين أناس لايعرفون من هو!! فيخضع لتقاليد غير تقاليده ويأكل ويلبس غير ما عهد وهو سعيد بتضحيته!! ولن تكون ساحل سليم ــ موطن الشاعر ــ أعظم فداحة من قبائل الهمج فى طبقات الجهل والوثنية والضباب. أقول ذلك بلسان الواعظ فقط، وإلا فأنا أعلم أن الذى يعوم فى البحر ويكابد اللجج المائجة

لا يعقل منطق المصطافين على الشواطيء والضفاف!! وكم للحياة من مفاجآت تزلزل معها معاقل النصح والإرشاد.

لقد تلقيت نعي الشاعر على غير انتظار، فهرعت إلى ديوانه التمس بعض العزاء بقراءته، ولا أدرى لماذا أخذت أثناء قراءتي الأخيرة للديوان أحس ببعض المعانى الخاصة، مما لم يتح لى أثناء قراءته من قبل، إذ أن إحساسى اللاذع بفقده قد نضح على الأبيات صورا ذات طابع خاص! بل إننى حين قرأت قصيدة (على رفات البشرية) (أرثاء أو هجاء) شعرت لأول مرة أن الشاعر يرثى نفسه وحده ولا يعنى بالإنسان فى قصيدته تلك مطلق إنسان يتنسم ريح الحياة! وقد غلبنى هذا الشعور حتى كدت أسمع من وراء الغيب صوت الصمدى يترنم بالقصيدة أو يبكى بها ـ مراعاة للمقام ـ جسده الصريع، وهو فى مطلعها يهتف بهذه الأبيات:

أأفضى المطاف إلى غاية	نمتك على الخلد لله جارا
بلى قد طويت إليها المدى	فخضت الظلام وجبت النهارا
لبست الشباب قشيب الاهاب	فأمسيت تزهو به مستطارا
ولم تدر أن الصبا عارة	ترد وشيكا إلى من أعارا
مشى فى عروقك مشى الشوا	ظ على القضب تندى مياها حرارا
فما زلت تأثم فى ظله	وتسقى الكؤوس دهاقا غزارا
إلى أن أفقت على وافد	مضى بالعقار وأبقى الخمارا

ثم مضى الصمدى يتحدث عن الشيب بعد الشباب وكيف تتقلب الحياة فى المرحلة الأخيرة إلى سأم ضائق يرى فيه الضحى الساطع

كالظلام الدامس وتظهر فيه البلادة الواهنة وقارا متكلفا، والإنسان متقلب بين شقى الرحى يضل السبيل، وترمى به الطرق عبر الشعاب التائهة إلى أن يبلغ المرفأ الأخير فتأكله الحياة لتعيش هى بغيرة، وهى فى كل آونة تشيع راحلا تقتات منه فتجعله معبرا مهينا لخلودها الدائم وقد برع الشاعر براعة فائقة حين خاطب ابن الحياة وهو فى رأيى أعم من الإنسان فربما شمل الحيوان والجماد وسائر الكائنات:

ألا ما لأمك ثكلى تبيد	كبار بنيها وتفنى الصغارا
فلم تنض يوما إزار الحداد	ولم تتبدل سواه إزارا
لقد صدقتنا بلاغ النذير	لو انا أعرنا النذير اعتبارا
فيالك أما ولودا ثكولا	ملأت القبور بنا والديارا
أمن أجل خلدك فوق الثرى	أكلت بنيك الضعاف الحيارى
تخذ تهمو معبرا تعبرين	إلى الخلد فيه الدهور الكثارا
وقوك الفناء فلما قضوا	وقوك بأبنائهم الانهيارا
قذفت بهم فى صحارى الوجود	ففاضت لجينا وسالت نضارا
همو أثلوك وأثلتهم	أفانين فوق رمال الصحارى
وقد آثروك بما تؤثرين	نفثت لظى فاستجابوا أوارا
سريت بأوصالهم مسعرا	يهيج اللهيب ويذكى الشرارا

وتلك فلسفة عالية حقاً! لم يتصيدها الشاعر من أقوال الفلاسفة، ولكنها صدى تفكير جواب تندفع خواطره شاردة حتى تكون كياناً بارزاً فى حقائق الوجود فالحياة الأم تبيد بنيها كل صباح ومساء وتلك حقيقة ماثلة! وهى تستمد بقاءها من هذه الإبادة المتصلة! إذ أن أولادها يفدونها من العدم، وحين ينقطعون عن الوجود ستنقطع بدورها

فتموت! وهم بعد يعمرونها فى كل مجال ، وهم نار الكون ولهيبه ينفثون اللظى ويشبون الأوار ليتقد شباب الحياة فى كل زمان ، على أن أروع ما اتجه إليه الشاعر فى هذه القصيدة هو مخاطبته سليل التراب الفقيد من بنى الإنسان وقد قهر الحياة بلقيا الحمام فأصبح بالموت آمنا طوارق الحدثان وفجاءات الأيام ، إنها لأبيات خالدة مؤثرة يصح أن نوجهها نحن إلى الشاعر بعد أن انتصر على حياته البائسة الجاهدة بالموت فاستراح كثيرا من حقد التافهين ولغو الجاهلين ، وأصبح فى قبره أمنع من أن يصله إنسان بشقاء :

سليل التراب مضى ما تخاف	فخل الحفاظ هنا والحذارا
قهرت الحياة بلقيا الحمام	وأحرزت فوق مداها انتصارا
فقل للزمان يرد الجماح	ويثنى الجياد ويطوى الشفارا
لقد بت منه لقى حفرة	أجل وأمنع من أن تضارا
أطل عليها جلال البلى	يرد المغير ويحمى الذمارا
فلو قد علمت بأن الردى	إليه المقادير تعنو صغارا
تبينت كيف هزمت الزمان	وكيف وقاك البلى الاندحارا

صديقى الشاعر الفقيد . لقد عجزت عن رثائك ، فرثيتك بقصيدتك الخالدة . وهى بعد من أجمل ما قيل فى باب الرثاء .

* * *

الطّائرةُ فى خيال العربى القديم

إذا كانت الفتوحُ العلمية فى العصر الحديث قد أبرزت الطائرة إلى عالم الوجود، تشقّ عباب الجو لتقطع آلاف الأميال فى زمن يسير، فإن الخيالَ العربّى فى الزمن القديم كان يحلم بالطائرة، إذ يراها فى أفِقِ تصّوره، ترتاد الأفَق من شرق إلى غرب، والأساطيرُ اليونانية قد حكتْ صورَ الانتقال فى آفاق السماء، فصّورتْ أحلام الشعراء، وأوهامَ القاصّين أبدَع تصوير، وكذلك الأساطير العربيّة قد أسهمتْ فى هذا الإبداع الخيالى إسهاماً نجد أثرَهُ فى كتب التراث الأدبى، والتراث الشعبى معاً، مما يدلّ على وحدة التصور الإنسانى مهما اختلف الزمان والمكان، لأن العقل الجوّاب يسبحُ فى ارتياده منتقلا من المعلوم المحسوس إلى المجهول المتخيّل، ومتى وقف المتصّور عند حدّ. والخيالُ المجنّح مهما شطّ مداه لاينتقل من فراغ، ولكنه يجعل من الحقيقة خيطا رقيقا، يأخذ فى مدّه وتقويته، حتى يصير سُلّما عالياً يرتقى به إلى أبعد أجواز الفضاء.

(الشاعر العاشق)

لن تجد ذا قدرة على الابتكار الخيالى فى عالم الوهم الشعرى أقوىَ من شاعرٍ عاشق، تنأى عنه حبيبته فى مكان سحيق لايستطع أن يقاربه، يتمنى لو كان طائرا ذاَ جناحيْن يشق أجواز الفضاء ليصل إلى ليلاه فى سرعة البرق الخاطف! لقد كان العباس بن الأحنف

الشاعر العباسى الملْتاع ، هائماً بمعشوقته (فوز) وقد انتقلْت من بغداد إلى المدينة! ويابُعد مابين المدينة وبغداد فى زمن كانت الإبلُ وحدها أداة الانتقال ، وقد نظر العباس إلى مجموعة من (القطا) وهو نوع «من الحمام يطير فى آفاق بغداد ، فسالت دموعه ، لأنّ الحَمام يستطيع الطيران كيف يشاء ، والشاعر لا يستطيع فاندفع يُخاطب سرب القطا الطائر، يسأله عن التى تعيرُ جناحها إليه ، ليصبح طائراً يطير» وكمْ كان جميلاً من الشاعر أن يتوهم أن الحمامة قد ردّتْ على سؤاله وأظهرت استعدادها للإعارة ، بل اظهرتْ أن كّل السِّربْ الطائر ، مستعدٌ لهذه الإعارة . وأىّ قطاة تتوانى عن هذا المطلب ستعيشُ بذلّ. وسيُكْسر جناحها لئلا تطير، وإذا عرفنا أن الحمَام لدى العشاق رمز الشوق واللّهفة فإننا لا نستغربُ هذه الإجابة المرحّبة من ذات الجناح ! يقول العباس بن الأحنف :

بَكَيْتُ على سِرب القطا إذ مَرَرْن بى ... فقلتُ ومثلى بالبكاء جدير

أسِرْبَ القطا هَلْ مَن يُعير جناحه ... لعلّى إلى مَنْ قدْ هويتُ أطير

فجاوبنى شادِ علَى خيزرانة ... ألا كلّنا يا مستعير نُعيرُ

وأىّ قطاة لا تعير جناحها ... تعيشُ بذل ، والجناح كسير

شاعر عالم

إذا كان العباس بن الأحنف شاعراً عاطفيّا فحسب، فإن العباس ابن فرناس شاعر عالم معا، فهو يستمعُ إلى نبضات وجدانه. كما يستمعُ إلى قضايا فكره، في توازنٍ دقيق، وقد نشأ في الأندلس في عهد الدولة الأمويّة. واتصل بالأمير محمد بن عبد الرحمن الداخل فحظى عنده حُظوة ترتكز على ما لديه من مواهب متعدّدة، لأنّه أولُ من ابتكر صنَع الزّجاج من الحجارة. وقامَ بتجربة ناجحة شهدها الأمير الحاكم متعجباً مُثْنيا، وكأنّ نجاحه في صنع الزجاج الحجرى، قد أمدّه بثقة كبيرة في مواهبه، فاهتدى إلى أن تصنع آلة تُعادل السّاعة المائية التي وفدْت من الشرق إلى الأندلس وبعد محاولات علميّة اخترع آلتّه البديعة المسماة (المنقالة)، وهي آلةٌ زمنية تُحدد أوقات الصلاة بالنهار، وتقسم الليل أقساماً ثلاثة، حتى يأذن الفجر بالشروق.

ولكن هل يقفُ عند الزجاج (والمنقالة). انه طمح إلى أن يطير، والطيورُ ذات أجنحة تساعدها على الصعود والهبوط، فلماذا لا يكْسُو نفَسه بجناحين من ريش يطيرُ بها، لقد حاولَ ذلك في مسافةٍ محدودة لا تبعدُ عن الأرض قليلاً فارتفعَ بالريش إلى الأعلى. وهنا توجّه إلى الأمير محمد وأعلن أنه سيطير في الجّو في موعد حدّده، وانقلبت قرطُبة حائرةً فيا تسمع، وتجمّع الناس من كّلِ صوب ليروْا معجزة هذا الذى صنَع الزجاج من الحجارة. وحدّد مواقيت الصلاة بالمنقالة! وكان يوماً مشهودا حين حرّك العبّاس جناحيْه، ونشر ريشه صاعدا في الفضاء، وأخذَ يرتفع شيئاً فشيئاً والناس منبهرون، يشاهدون

ولا يصدّقون، ثم هبطَ شيئاً فشيئاً، فاختلّ توازنُه وسقط مُصابا برضوضٍ كثيرة، والناسُ بين راحم وشامت. وكان الشامتون أكثَر وأصْخَب، إذ يَعِزُّ على الخاملين أن يعترفوا بنبوغ النابهين، بل يرون من واجبهم أن يُطفئوا كّل بريق يُومض، ورجَع العباسُ إلى منزله حَزيناً، ولكّنه لم يترك التفكير فيما أصابه، فجعل يتقلّبُ على فراش المرض، وذهنه ممتلىءٌ بِمَا كان، حتّى اهتدى إلى أنّهُ نَشَرَ الجناحين، ولم يحسب حساب الذيل، لأن الطائر يستعين بريش الذيل فى حفظ توازنه ساعة الهبوط، وكان فى نيته أن يُعاود الكّرة لو سلم ولكن الأجل سبقه.

على أن فكرته لم تمت. فالذين يتحدثون عن العالم اللّغوى الشهير اسماعيل بن حماد الجوهرى صاحب معجم الصحاح فى الّلغة. يقولون إنّه كان نادرة زمانه ذكاءً وفطنةً واتقاد خاطر، وقد أصدرَ من المؤلفات العلمية ما بَوّأه مكانَ الصدارة فى عصره، ولكنّه فكّر فى أن يطير، قال ياقوت فى ترجمته: «إ اسماعيل انتقل إلى الجامع القديم بنيسابور، فصعد إلى سطحه. وقال: أيها الناس، إنى عملت فى الدنيا عملاً لم أُسبق إليه، وضمّ إلى جَنْبَيْهِ مِصراعىْ باب، وتأبّطهما بَحبْل، وصعد مكانا عاليا من الجامع، وزعم أنه يطير، فوقع مَيتاً».

وكلام ياقوت يدل على أن الجوهرى لم يسمْع بما قام به العباس بن فرناس من قبل، لأنه قال: سأقوم بعملٍ لم أُسبق إليه، كما أنّه لو عرف تفصيل ما قام به ابن فرناس لاهتدى إلى ريش الطيور بدل هذا الخشب الثقيل، ولاحتاط فجعل ريشاً لذيله، جوار جناحيه وإذنْ فالرجل مبتكر، تلاقت خواطره وتواردتْ مع مبتكر سابق بقرطبة!

وطبيعيٌّ أن يشمت؛ من اجتمعوا لرؤيته، وقد قال ياقوت بصدد هذا الحادث إنه قد اعترتْه وسوسة؛ والوسوسة أسهل تفسير لعملٍ جرىء ضخم لا يقدم عليه موسوس بل مفكّر خطير.

بساط الريح

وهل بساط الريح غير طائرة تطير؟ لقد شاقَ الأقدمين أنْ يطير إنسانٌ فى الجو مع جنوده وحاشيته فاخترُعوا بساط الريح، ونسبوه لسليمان عليه السلام، والقرآن الكريم يذكر أن الله ــ عز وجل ــ قد سخّر الريح لسليمان تجرى رخاء حيث أصاب، ولكنه لم يذكر بساطا يطير، إنما ذكر ذلك أصحابُ الخيال من القدماء فتصوّروا لسليمان بساطاً، ووصفوه حين قالوا إنه بساط من الخشب له ألف ركن، وفى كل ركن ألف بيت تحمل جند سليمان من كلّ نوعٍ، وتحت كل ركن ألف جنّى يحملون ذلك الشىء الخشبى حتى يطير، ويرتفع فى الجو، ثم تسير به الريح إلى أقصى البلاد.

خيال رائع، قام لدى بعض الناس مقام الحقيقة، وقد وقفَ أمامه الأستاذ عبد الوهاب النجار مؤلف قصص الأنبياء حائراً دهشاً، فتساءل، لماذا يكون للبساط ألف ركن، وفى كل ركن ألف بيت؟ لو أنّ من تحدثوا عنه ذكروا أنه عشرون ذراعاً أو مائة لكان الأمر مقبولاً، ولكنه فى هذا التصّور الهائل يحتل مساحة فسيحة لا توجد فى بيت المقدس، ونحن نعلم أن أسفار سليمان ــ عليه السلام ــ مع جنوده كانت على الأرض لا على الريح، لأن الله قد قصّ علينا قول النملة حين شاهدت جنده الكثيف: يا أيها النمل ادخلو مساكنكم

لا يحطمنّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، وما كان سليمان وجنوده ليحطموا النّمل وهم محمولون فوق البساط ، ثم قال الأستاذ النّجار، إن البساط بهذه الصورة تكفّل بها تبرّع الناس بذكر الغرائب عن الأنبياء ، وحبهم للتزيد فى هذا المجال، وأنا أقول إنّ تشوّقَ الناس فى القديم إلى اجتياز الأفق كما يجتازه الطير، قد ساعد على تصوّر البساط تصوّراً مقتضباً فى بادىء أمره، ثم مازال حديثه يعظم ويمتد حتّى أصبحَ له ألف ركن، وفى كل ركن ألف بيت، وتحت كلّ ركن ألف جنّى، والطريف أن أمير الشعراء أحمد شوقى حين أراد أن يصف الطائرة فى عصرنا هذا، بدأ قصيدته بقوله:

قمْ سليمانُ بساط الريح قاما	ملك القوم على الجوّ الزماما
صار ماكان لكم معجزةً	آيةً للعلم آتاها الأناما
قدرةٌ كنت بها منفردا	أصبحتْ حصّة من جدّ التزاما

ومعجزات سليمان كثيرة، ولكن ليس بينها بساط الريح كما يقول أمير الشعراء .

(العفريت الطائر)

ولن ينتهى حديث سليمان بانتهاء حديث البساط ، لأنّه سألَ عمن يأتيه بعرش بلقيس من سبأ إلى بيت المقدس ، فقال عفريت من الجنّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وإنى عليه لقوىّ أمين ، هذا قولُ وحده، بعث خيالاً وثّاباً لدى مؤلفى القصص فجعلوا يذكرون مقدرة الجن وأنهم يحملون الناس ويطيرون بهم فى كل أوج .

وكتاب ألف ليلة وليلة كان ذا سهم وافر فى إذاعة قُدْرة العفريت على الطيران حاملاً ماشاء من الكائنات ومن أراد من الإنس، ونحن نعلم أن كتاب ألف ليلة وليلة قد غذّى الخيالَ الأوربى، وأمدّه بأجنحة قويّة، وبذلك أخذ روائيوّ الغرب ينسجون على منواله، ويطيرون فى أجواء طار فيها هذا الكتاب، والحقُّ أنّ مؤلف القصة فى الزمن الماضى كان فى حاجة إلى استهواء القارىء بالغرائب، ومفاجأته بما يدهش، ولا يجد شيئاً أطرف من عفريت يحمل مجموعة البشر ليطير بها فى الآفاق، وقد قلتُ إن المؤلف فى الزمن الماضى كان فى حاجة إلى المفاجأة بالغرائب، لأنّ مؤلف القصّة اليوم قد تغيرّ مفهومه الأدبى كثيراً، بحيث أصبحت الأسطورة لديه رَمزاً لواقع فحسب، مع أنها كانت فى الماضى حقّا واقعيّا لدى بعض الكتّاب والقرّاء، ولهمْ مقدرةٌ عجيبة فى إثبات ما يستحيل ومايتعثر، ومن الأحداث، نختار من كتاب ألف ليلة وليلة ماجاء فى اللّيلة السابعة والخمسين بعد الثلاثمائة، حيثُ دارت أحداثها حول رحلةِ يعتزمُ بها مغامرٌ أن يرحل إلى أرض واق الواق، وهى جزيرةٌ نائية جداً، كما أنّها منيعةُ الحصون، شديدة القلاع، ولا سبيل إلى الوصول إليها دون معجزة، وقد جاءت على يد شيخ يسمّى أبا الريش، له قدرة على تسخير الجنّ، فطلبَ من خدمه أن يحضروا له عفريتاً هو دهنش بن قفطش، فاقترب الشيخ أبو الريش منه وهمسَ فى أذنه بكلمات لم يسمعْها غيره، فحرك رأسه دلالة على السمع والطاعة، ثم التفت الشيخ إلى من يُريد السفر. وقال له اركبْ على كتف هذا العفريت، وإياكَ إذا سمعت تسبيحَ الملائكة، وهو محلّق بك فى أعالى السماء أن تفتح فمك مسبّحاً مثلهم، لأنّ هذا يؤدى إلى هلاك

العفريت، وهلاكك تبعا لذلك، وسوف يهبط بك فى اليوم التالى وقت السحر فى أرض بيضاء، نقية، مثل الكافور، ثم ينصرفُ إلى سبيله، فلا تخف من شىء، وامض حتى تصل، فقال سمعا وطاعة، وودّع القوم وركب على كتف العفريت دهنش، فانطلق طائراً مكتفياً بذكر الله بقلبه، ومازال حتى وصل إلى جزيرة واق الواق.

هذا مُجمل القصة والطريف فيها أن العفريت لم يحلّق براكبه فى الجو فقط بل تجاوز الجو إلى غيره ولكن شتان بين واقع وخيال .

(الرخ الطّائر)

ومازال الشوق إلى ارتياد الفضاء يلهب أخيلة الفنانين من الشعراء والقاصين، وأحدُ من كتبوا قصة ألف ليلة وليلة قد اهتدى إلى ابتكار هذا الطائر الخرافى ليكون طائرة تحمل مئات الناس، وحديث الرّخ عجيب غريب، لأنه يبسط جناحيه فى مساحة شاسعة من المحيط المائى فيخيّل لراكبى السفن أن أمامهم جزيرة أرضية وسط المحيط، فيسارعون إلى الانتقال إليها، والتنزه فى شعابها، ويقيمون أياما يأكلون ويشربون وينامون، ثم يحسّون بسخونة محتملة، ثم بحركة تبدأ خفيفة لطيفة، فيتعجبون، وما تمضى لحظات حتى يتهيأ للطيران، فيحمل كلّ من جاء من السفن، ويطير به فى أجواز الجو الفسيح حتى يحط فى محيط آخر، فيصبح جزيرةً أرضية كما كان من قبل، أما الذين انتقلوا من الشرق إلى الغرب على جناح الرّخ فما أكثر دهشتهم حين يجدون أنفسهم فى مكان جديد لا يعلمون عنه شيئاً، وقد احتال القاصّ ففسح لبعضهم طريق النجاة!

وإذا كان الرخ طائراً خرافيا، فإن بعض كتب الحيوان فى التراث القديم ذكرته على أنه حقيقة، وأنّه يقيم فى جزر بحر الصّين، ويبلغ طول جناحه الواحد عشرة آلاف باع، وقد ترك بيضةً من بيضاته كبيرة الحجم، فأخذها بعض الناس وشقّوها ليأكلوا ما بها، ثم جاء الرخ كأنه سحابة عظيمة، فجعل يلقيهم بالأحجار ليهلكوا انتقاماً لبيضته التى تحمل فرخه الصغير، ويعطفُ صاحب الأسطورة على مشاعر الناس فيُنهى القصةّ بأن الحجر قد وقع بعيداً عن رءوس القوم فنجوا ــ بفضل الله ــ .

رحلة إلى طباق الأرض

وإذا كان الضّد يذكر بالضّد، فإننا نتساءلُ هل فكّر الخيال العربى فى رحلة إلى أطباق الأرض السفلى كما فكّر فى الارتقاء إلى أجواز الفضاء العليا؟ والجواب أن العربى القديم قد اعتقد وجود (عبقر) وهى مثوى لشعراء الجن الذين يُلهمون شعراء العرب، وحديث هؤلاء مشهور تُغنى الإشارة إليه عن التفصيل، أمّا القصّةُ البديعة إليه تُسمّى (التوابع والزوابع) فقد كتبها ابن شهيد الأندلسى متحدثاً عن صديق له من الجن صحبةُ إلى باطن الأرض ليجول معه فى ديار عبقر. وقد قال ابن شهيد إن صاحبه الجنى كان يجتابُ الجوّ فالجّو، ويقطع الدوّ فالدوّ، حتى يصل به إلى مقّر الملهمين من الشعر، ومعنى هذا ان فى باطن الأرض جوًّا فضائيا، كالجو الذى تطير فيه الطائرة فى السماء عندنا، ثم أخذ ابن شهيد يستمع إلى من ألهموا امرأ القيس وطرفة وأبا تمام والبحترى وأبا نواس. كما استمع إلى من ألهموا الجاحظ وعبد الحميد الكاتب وبديع الزمان الهمذانى

من الكتّاب ، وهذا غريّب طريف ، لأن الكتّاب ليس لهم جنّى يلهمهم الآ عند ابن شهيد فحسب ، وكان الكاتب ذا قدرةٍ فائقة فى تصوير المكان والبيئة وفق من يتحدث عنه . فهو يقول إن الجنّى الذى ألهم أبا نواس ، كان يجلس فى دير حنّة (تحت الأرض طبعا) . وهو دير «عظيم تعبقُ روائحه. وتفوح نوافحه ، وأقبلت نحوهُ الرهبان مشدودة بالزنانير ، قد قبضتْ على العكاكيز بيض الحواجب واللّحى ، إذ نظَروا للمرء استحيا ، مكثْرين للتسبيح ، عليهم هدى المسيح ، فقالوا : أهلا بك من زائر ، ما بُغْيتُك ؟ فقال : صاحب أبى نواس ، فقالوا : إنه فى شرب المحرم منذ أيام عشرة ، وما ستنتفع به .

هذه خواطر متناثرة عن الطائرة فى خيال العربى القديم ، أما الطائرة فى خيال الشاعر المعاصر فلها حديث آخر.

* * *

بين حفنى ناصف وحافظ ابراهيم

لم يكن الأستاذ الإمام محمد عبده أستاذ الأزهريين وحدهم، فقد كان أرباب البيان فى عصره من فرسان الشعر والنثر يؤمون ندوته، ويتلقون عنه دروس التفسير فى الرواق العباسى، وكان من بين هؤلاء حافظ إبراهيم وحفنى ناصف.

أما حافظ فأشهر من أن نشير إليه بقول، وأما حفنى ناصف فأحد أئمة العلم والأدب فى مفتتح هذا القرن، تعلم فى الأزهر ودار العلوم، وتنوعت ثقافته فكان من قضاة المحاكم الكبرى فى مصر ومن أساتذة الأدب وأساطين المفتشين بوزارة المعارف ثم أستاذاً بالجامعة المصرية، حيث تخرج على يده أكثر المجيدين فى البحث والتأليف، وقد اشترك مع حافظ فى خفة الروح وحلاوة الفكاهة وذيوع النادرة، وحين انتقل الأستاذ الإمام إلى جوار ربه أقيمت له حفلة تأبينية كبرى بمصر، ألقى فيها حفنى مرثيته التى مطلعها.

لم لاتجيب وقد دعيت مرارا　　　يكفى سكوتك أربعين نهارا

وقد ابتدأها ابتداء مسرحيا، حيث نادى يامحمد ست مرات قبل أن ينشد قصيدته فلفت الأذهان لفتاً مثيراً ثم بدأ بقوله لم لاتجيب.

وقد سلك حفنى فى مرثيته مسلك العاقل المتزن الذى لم تشغله الكارثة عن متابعة أدوار الإمام فى الإصلاح الدينى والسياسى

والاجتماعى، فأخذ يسردها فى سهولة قديرة، وكانت روح الجد تسيطر على نظره فلم يجنح إلى ما عهد فى شعره من الجناس والتورية والطباق، بل غمره الموضوع الحى بانفعاله الواضح فارتفع عن مستوى هذه النكات، وأخذ يتحدث فى اتئاد فى حاجة المسلمين للإمام الفقيد إذ يناضل عن شريعة الإسلام مناضلة العاقل المكين فيصون الدين من شبه الأعداء ويذب عن آى الكتاب مدافعاً هجمات المتخرصين، ومفسراً فوائد الآيات بعذب البيان وروائع التأويل، ثم يعمد إلى الخرافات والبدع فيبين بعدها عن روح الإسلام ويدعو العلماء إلى العمل تحت راية الحق مناصرين متآزرين، وملتفتين إلى طبيعة العصر وضرورة الإلمام بتياراته السياسية وآرائه العلمية وثقافته الوافدة من بلاد التقدم مجادلاً بالتى هى أحسن، وناهجاً فى التعبير البيانى نهج أئمة الأدب فى أزهى العصور.. حتى أعاد للعربية مجدها وللأسلوب البيانى روعته وتأثيره ونفاذه، هذا إلى جانب مسعاه فى الخير لإعانة أهل المسغبة وقضاء حاجات السائلين والتمسك فى الإصلاح الدينى مسعى الغيور على تحقيقه مرشداً إلى وجوه الإصلاح ومنافذه.

كل ذلك قد جاء به الشاعر فى براعة نادرة إذ كان فى مرثاته القوية مؤرخاً وشاعراً فى آن واحد، حتى لتعجب له كيف اختصر جهود الإمام فى أبيات روائع يصلح كل بيت منها أن يكون عنواناً لباب يكتب فى مؤلف خاص بتاريخ محمد عبده، وإليك بعض ما قاله فى رثاء المصلح العظيم.

من ذا يناضل عن شريعة أحمد	ويذود عن أكنافها الأخطارا
ويصون دين الله عن شبه العدا	ويرد غارة من به يتمارى

ويجيء في تفسيره بعجائب ... ويذيع من مكنونه الأسرار
ويطهر الإسلام مما شابه ... ويزيل عن غدرانه الأكدارا
ويذكر العلماء ألا يغمضوا ... عما اقتضاه زمانهم أبصارا
ويجادل الأسرار بالحسنى فلا ... ينفك حتى يصبحوا أخيارا
ويجدد العربية الأولى وقد ... صارت بغفلة أهلها آثارا
ويعيد للإنشاء سابق مجده ... ويشيد في أنهاره ما انهارا
ويرد أعواد المنابر جذلة ... لا تحسد العيدان والأوتارا
ويحث أهل المال أن يتوسطوا ... في البذل لا سرفاً ولا إقتاراً
يقضي حوائج سائليه فلا يرى ... في نفسه سأما ولا استكبارا
ويظل بالاصلاح مغرى كلما ... وجد السبيل إلى صلاح سارا
حتى كأن عليه عهدا للعلا ... أن يصلح الأخلاق والأفكارا
إن كان فينا مرشد يقوى على ... ذا العبء أوسعنا له الأعذارا
أولى فأولى أن تفيض نفوسنا ... هلعا ونسعى للمنون بدارا
لا خير بعد محمد في العيش إن ... كانت نفوس الخالفين صغارا

أما حافظ إبراهيم فكانت مرثيته أقوى ما قيل في الامام ، لأن عاطفته الذاتية نحو استاذه كانت من الانفعال والتوقد بحيث جعلته يرثي بدموعه وزفراته قبل أن يرثي بمعانيه وأوزانه ، وقد قال فيما قال:

سلام على الاسلام بعد محمد ... سلام على أيامه النضرات
على الدين والدنيا على العلم والحجا ... على البر والتقوى على الحسنات
لقد كنت أخشى عادى الموت قبله
فأصبحت أخشى أن تطول حياتي
لقد جهلوا قدر الإمام فأودعوا ... تجاليده في موحش بفلاة
تباركت هذا الدين دين محمد ... أيترك في الدنيا بغير حماة

تباركت هذا عالم الشرق قد مشى ... ولانت قناة الدين للغمرات
زرعت لنا زرعاً فأخرج شطأه ... ونبت ولما نجتن الثمرات

وكما قال حفنى ناصف :

إن كان فينا مرشد يقوى على ... ذا العبء أوسعنا له الأعذارا

فإن حافظاً قد فصل فى القضية ، وجهر بأن الشرق قد أقفر من مصلح يسد فراغ الإمام فصاح متحسراً .

مددنا إلى الأعلام بعدك راحنا ... فردت إلى أعطافنا صفرات
وجالت بنا تبغى سواك عيوننا ... فعدن وآثرن العمى شرقات
وآذوك فى ذات الآله فأنكروا ... مكانك حتى سودوا الصفحات
لقد كنت فيهم كوكباً ذا غياهب ... ومعرفة فى أنفس النكرات

والقصيدة جذوة مشبوبة أوقدها حزن حافظ على أستاذه ، فقد روى معاشروه أنه كان ينظمها وهو يبكى من حرقة الألم وشجاها المؤثر مما يمنع ماقاله الأستاذ محمود مصطفى فى كتاب (الكلمات) من أن حافظاً أعدها قبل الوفاة بأمد إذ توقع موت الإمام فى مرض ميئوس من شفائه ، ولعمرى لقد ظلم الناقد شاعر النيل ، فمثل قوله يصدق على مرثية تقال فى راحل ثرى استرضاء لأولاده وزلفى لديهم بما قال ، فناظمها يبذل الجهد مفتعلا شتى المعانى كى يلد أبياتاً وراء أبيات ، أما مرثية حافظ للإمام فصرخة رنانة ارتفعت من سويداء قلب جريح لترن فى سمع الزمان أشجى الرنين ، وقد توهجت عاطفة حافظ فى كل بيت من أبيات المرثية ، إذ تحدث عن جهاد الإمام فى

التوفيق بين الدين والعلم والعقل (فأطلعت نورا من ثلاث جهات) وأشار إلى مواقفه الرائعة من أمثال هانوتو والمتهجمين على الإسلام حيث أورد .. حججهم مورد التنفيذ والبطلان، فكم ليلة جافي فيها الكرى ونبه صادق العزم ليرصد للمفترين شباة يراع ساحر النفثات .. ثم يغلب الشاعر حزنه فيهتف صارخاً:

فيا سنة مرت بأعواد نعشه ... لأنت علينا أشأم السنوات
حطمت لنا سيفا وعطلت منبرا ... وأذويت روضا ناضر الزهرات
وأطفأت نبراسا وأشعلت أنفسا ... على جمرات الحزن منطويات
رأى في لياليك المنجم ما رأى ... فأنذرنا بالويل والعثرات
ونبأه علم النجوم بحادث ... تبيت له الأرواح مضطربات
رمى السرطان الليث والليث خادر ... ورب ضعيف نافذ الرميات
فأودى به ختلا فال إلى الثرى ... ومالت له الأجرام منحرفات
وشاعت تعازى الشهب باللمح بينها ... عن النير الهاوى إلى الفلوات
مشى نعشه يختال عجبا بربه ... ويخطر بين اللمس والقبلات
تكاد الدموع الجاريات تقله ... وتدفعه الأنفاس محترقات

وهي قصيدة تداولها الرواة بمصر حتى طبقت الآفاق، وكان من المصادفات العجيبة أن الذين قاموا بتأبين الاستاذ الإمام جاءوا في الالقاء على هذا النسق إذا ابتدأ الحفل الشيخ أحمد أبو خطوة وتلاه حسن عاصم باشا ومن بعده حسن عبد الرازق باشا فقاسم أمين بك فحفني إبراهيم، وقد مات الأربعة الأولون واحداً واحداً على حسب ترتيبهم يوم التأبين، وجاء النوبة على حفني بك فكتب إلى حافظ يقول:

أتـذكـر إذ كـنـا عـلـى القبرستة | نـعــدد آثــار الإمــام ونــنــدب
وقـفـنـا بـتـرتـيـب وقـد دب بيننا | ممـات عـلـى وفـق الـرثـاء مـرتـب
أبـو خـطـوة ولـى وقـفـاه عـاصـم | وجـاء لـعـبـد الـرازق المـوت يـطـلـب
فـلـبـى وغـابـت بـعـده شـمـس قـاسـم | وعمـا قـلـيـل نجـم محـيـاى يـغـرب
فـلا تخش هـلـكـا مـا حـيـيـت وإن أمت | فـمـا أنـت إلا خـائـفـاً تـتـرقـب
فـخـاطـر وقـع تحت الـقـطـار ولا تخف | ونم تحـت بـيـت الـوقـف وهـو مخـرب
وخـض لجـج الـهـيـجـاء أعـزل آمـنـا | فـإن المـنـايـا عـنـك تـنـأى وتهـرب

وكانت ملاحظة جذبت انتباه حافظ جذبا قوياً مع ما تخللها من الفكاهة الطريفة، إذ ظهرت خفة روح حفنى فى دعوته صاحبه إلى الوقوع تحت القطار والنوم تحت جدار المخرب فى منازل الأوقاف، وخوض المنايا فى الحرب دون سلاح فإنه لن يجد الموت حتى يسبقه إليه، فإذا حقت عليه الكلمة فما هو إلا خائف يترقب، وقد أقيمت حفلة تكريمية لحفنى فى بعض مناسبات الترقية الوظيفية بالوزارة، تحدث فيها العلية من الأدباء والشعراء وجاء دور حافظ فقال يمازح صديقه.

أخـشـى عـلـيـك المـنـايـا | حـتـى كـأنـك مـنـى
إذا شـكـوت صـداعـا | أطـلـت تـسـهـيـد جـفـنـى
وإن عـراك هـزال | هـيـأت لحـدى وقـطـنـى
وإن دعـوت لحـى | يـومـا فـإيـاك أعـنـى
عـمـرى بـعـمـرك رهـن | فـعـش أعـش ألـف قـرن

وهو بذلك يشير إلى المصادفة العجيبة التى عناها حفنى فى أبياته السابقة، ولم ينس شاعر النيل أن يمازح حفنى بذكر فقره المدقع أيام

كان طالباً بالأزهر يقرأ الحواشى والشروح ، ويطالع الشمنى وابن جنى، ويأكل العيش والمش مع زميله محمد سلطان ، ويتساءل عن مثقال حبة من لحم أو سمن فلا يجد..

لم ينس حافظ ذلك حين قال :

ولا أقـــول لحــــفــــنـــى ... مـــاقـــيـل قـدمـا لمـعـن
لا تنس عـيـشـاً تـولـى ... مـــابين شـــرح ومتن
ولـى شـبـابـك فـيـه ... مـــا بين مــد وغـــن
وذقـت مـن «جاء زيد» ... ومـن شروح «الشـمنى»
ومـن حـواشـى الحـواشى ... عـلـى مـتـون ابن جنـى
أيـام سـلـطـان يـلـهـو ... بمـشـه ويـغـنـى
يـبـيـت يـقـطـع مـا لم ... أسمّـــــه أو أكـنـى
أيـام يـدعـوك حـفـنـى ... مـن الحـيـاة أجـرنـى
مـن لـى بـدرهـم لحـم ... عـلـيـه حـبـة سـمـن

ثم يموت حفنى ، فيتحقق حافظ قرب الكارثة ، ويرى نذر الموت تلاحقه ، ويبدأ برثاء صديقه وكأنه يرثى نفسه هو حين يقول :

آذنـت شمس حياتى بمغيب ... ودنـا المنهـل يـا نـفس فطيبى
قد مضى حفنى وهذا يومنا ... يـتـدانـى فـاسـتـثـبى وأنيبى
قـد وقـفـنا ستة نبكى على ... عـالم المشرق فى يوم عصيب
وقـف الخـمـسـة قبلى فمضوا ... هكذا قبلى وإنى عن قريب
وردوا الحـوض تـبـاعـا فـقضوا ... باتفاق فى مناياهم عجيب
هـدأت نـيـران حـزنـى هـدأة ... وانطوى حفنى فعادت للشبوب

ذاك ما كان من أمر هذه المصادفة بين الشاعرين، تلك التى خلدها الأدب، وتناقلها الناس فكانت مثار الذكرى، وحافظ بعد ممن يقدّرون حفنى، ويؤثرون مودته فى وفاء وإخلاص، وقد كان شريكه فى سرائه وضرائه يهنئه إذا أصاب الخير، ويواسيه إذا ألمت به الكوارث، وحين ماتت باحثة البادية كريمة حفنى ناصف وهى زعيمة النهضة النسائية فى أيامها وفارسة الشعر والنثر بين الفحول من الكاتبين، كانت مرثية حافظ لها ثناء عليها وعلى والدها المفجوع وقد جمع بينهما إذ ذكر فضل الوالد على الناشئين وفضل (ملك) على الناشئات، وتحدث عن نثر حفنى ونثرها مفصلا مواقف ملك الرائعة فى الحياة الاجتماعية والأدبية بمصر، وقد أسال الدموع حين صور فجيعة الوالد فى كريمته تصويراً مشجياً إذ كان:

كالفرع هزته العواصف ... فانثنى ثم انكسر
ثملا ترنحه الهموم ... إذا تحامل أو خطر
قد زعزعته يد القضا ... ء وزلزلته يد القدر
أنا لم أذق فقد البنين ... ولا البنات على الكبر
لكننى لما رأيت فؤاده ... وقد انفطر
ورأيته قد كاد يحرق ... زائريه إذا زفر
ورأيته أنى خطا ... خطوا تخبل أو عثر
أدركت معنى الحزن ... حزن الوالدين فما أمر
صبرا أبا ملك فإن ... الباقيات لمن صبر

وهو شعر حى يحمل لوعة الشجى ويصور حرارة الحزن فى هدوء نبرة وسماحة تعبير، وفى المجال متسع لبقية من الحديث عن حفنى وحافظ فإلى حين قريب.

الغجر شعب الموسيقى والرقص والرحلة

تفد على القرى فى فترات متباعدة قوافل متنقلة، تطلق ماشيتها ودوابها، وتنصب خيامها الساذجة، وتهيىء طعامها على الطريقة البدائية ثم تطلق عقائرها بالغناء، وتجعل من الرقص والتصفيق ملهاة دائمة لا تكاد تنقطع، وكثيراً ما يلجأ رجالها إلى الحقول فيختلطون بالفلاحين ثم يرجعون بما يثقل أكفهم وظهورهم من الخير والإحسان بعد سمر طائب. وتفكه جميل! أما النساء فيتسللن متفرقات إلى الأكواخ المتواضعة والمنازل الصغيرة «فيضــــر بن الرمــل» ، وقد يقمن بختان الفتيات ودق الوشم على الأذرع والسيقان، ولهن لهجة غريبة تميل إليها الآذان، لا لرخامة صوت أو نعامة جرس، بل لما توحى به من غموض فى ألفاظها المبهمة، ومعانيها المحيرة. وسرعتها المتدفقة كأنها شلال يهدر. ثم لما تنطق به ملامح القائلة من ثقة جازمة، وإيمان عميق.. هؤلاء هم الغجر الذين لا يخلو منهم قطر فى الشرق والغرب على السواء.

والغجر فى أوربا وآسيا وافريقيا ليسوا على نظام واحد فى العادات واللغة والدين والتقاليد، فمنهم المتحضر الذى جذبته مدينة القرن العشرين، فنقلته من بداوته الساذجة إلى مستوى مشرف مقبول ومنهم البدائى الذى لا يزال يتخبط فى نزواته وجمحاته، دون أن يعصمه عقل راجح. لذلك نجد اختلافاً كبيراً فيما يكتبه الأوربيون عن هؤلاء. فقد نجد كاتبا يسرد من مشاهداته وتجاربه ما يناقض حديث

كاتب آخر شاهد وجرب وعلل، والسبب فى ذلك واضح إذ أن كليهما يروى ما شاهد ولابس. فمن رأى الغجر فى أسبانيا مثلا دوّن مشاهدات مشرقة، ومن رآهم فى المجر تحدث عن أكثرهم حديث المستهزىء الساخر، إلا أن الذى لاشك فيه أنهم صائرون لامحالة إلى الرقى والتحضر فى وقت قد يقصر وقد يطول.

والراجح أن الغجر ـ ويقال لهم النور أيضاً ـ قدموا إلى أوربا من أواسط آسيا. ومن الهند بالتحديد.

وقد روى ابن الأثير خبرا يستفاد منه أنهم (الزط) الذين أوقدوا نار الفتنة فى البصرة على عهد المعتصم العباسى فحاربهم وتتبعهم، ونفى منهم نحو ثلاثين ألفاً بين رجل وامرأة وصبى إلى قرية من قرى الثغور المتاخمة للعدو ليكونوا فى الخطوط الأولى للدفاع.

وقد أغار الروم عليهم وأسروهم جميعاً، فتفرقوا فى أوربا. هذه الرواية الشرقية تجد ما يظاهرها فى الروايات الغربية، ولا يهمنا أن نتتبع التطور التاريخى لهؤلاء القوم بل نسجل ظواهر ملموسة لديهم فى كل زمان ومكان. فهم ـ شرقيون وغربيون ـ لا يعترفون بالحدود الجغرافية. ويموجون فى كل رقعة تنبسط أمامهم ولا يهمهم أن تختلف عليهم مناطق الحرارة والبرودة، والخصب والجدب، أو تباعدهم عن جيرانهم فوارق التقاليد والمثل، ما داموا طوائف يأنس بعضهم إلى بعض، ويقتسمون الرزية والفرحة معاً.

وقد تعرضوا فى تاريخهم الأليم إلى اضطهادات متتابعة، فقررت فرنسا وبعض دول أوربا نفيهم وتشريدهم مع التنكيل بمن يتخلف

حرقا وغرقا وذبحا ، ونحن نعذرهم الآن إذا اتخذوا لأنفسهم الحيطة فتربصوا الشر من الناس ، فدماؤهم المتوارثة تحمل فى عناصرها ما كابده الأسلاف من ظلم واضطهاد ، أضف إلى ذلك أنهم كانوا حربا على أنفسهم فى بعض الأحايين ، فكانوا إذا نزلوا بلدة ــ ولا يزالون كذلك ــ يختطفون ما تقع أيديهم عليه من دجاج وطير ونبات . وسبب ذلك اختلاف وجهات النظر بينهم وبين الناس ، فأكثر طوائف الغجر لا تعترف بالملكية الفردية .

وترى الخير فى الوجود نهبا مشتركا بين الأفراد ، فإذا مد أحدهم يده إلى ممتلكات غيره فلا يرى ــ فى اعتقاده ــ حرجا يكفه عن السطو والإستلاب ! ولقد بدد تطور الزمن هذه المعتقدات من نفوسهم فأصبحوا يؤثرون الحيطة ، ولا يسطون على شيء مجاهرة بل ينتهزون الغفلة السانحة ، فإذا لم تتهيأ الفرصة للسرقة أثروا القناعة بالكفاف ، وروح السلب والنهب هذه هى التى جعلت الناس يضربون بهم المثل فيقولون لسيىء المعاملة « نورى » .

وقد لجأوا إلى الحرف المتواضعة فهم يحذقون صنع السلال والقلل والسكاكين والأجراس ، وكثيراً ما تكون المواد الأولية لصنع الخيام والأوانى البدائية وتجارة الماشية أبوابا مشروعة للرزق ، إلا أنهم ــ رجالا ونساء ــ يحترفون التنجيم والعرافة احترافا عجيبا ، فالغجرية التى تقرأ الكف لم تنل حظا قليلاً أو كثيراً من المعرفة ، ولكنها ذات فراسة فطرية تتغلغل بها إلى الأعماق ، فهى تتقدم إلى زائرها فى شجاعة ويقين ، ثم تندمج معه فى حديث متشعب ، تتوقظ له منافذ تفكيرها . فتفهم من دخائله وأسراره ما يمدها بنصيب وافر من التخرصات

المعشوقة، فتظل تنسج له آمالا عذبة، وتخدره من همومه تخديرا لذيذا يفقد به حرصه فيناولها الأجر السخى، ويحرص على التردد عليها كلما حزبه أمر أو تطلع إلى مستقبل مجهول، وعلماء النفس فى أوربا الذين شاهدوا هؤلاء المنجمات ودرسوا اتجاههن فى التأويل والتحليل يبدون دهشة فائقة لما يلمسون لديهن من براعة وزكانة، ويعجبون للنظرة الساذجة كيف تمنح أصحابها هذا النظر الصائب دون دراسة وتثقيف.

وبعض الكتاب يجمعون نوادر النور الشاذة ثم يصدر حكمه على الجميع وفق ماجمع وتتبع، ونحن نرى فى تسجيل ذلك شططا بالغا، إذ أن النور يدينون بدين جيرانهم فى الأعم الأغلب فلابد أن يعصمهم الدين من الحيوانية الساقطة. أو لعل ذلك كان منذ قرون متباعدة لدى فريق منحرف يمثل الاستثناء النادر، ولا يمثل القاعدة الكلية لدى هؤلاء وفوق ذلك فللقوم عادات متوارثة لدى الزواج والطلاق، وتأصل هذه العادات المتوارثة يعصم من الشذوذ الرهيب!

وبمقارنة هذه العادات بغيرها، يتضح لنا شبه كبير بين مسلك هؤلاء ومسلك الزنوج وبعض قبائل الهنود الحمر أيضاً، ففى انجلترا تتقدم الفتاة النورية إلى الفتى الذى تختاره زوجاً لها، وتقدم له خيطاً أحمر، أو تدفع نحوه بكعكة لذيذة، أو تقدم إليه حلية ذهبية، ولا تفعل ذلك إلا إذا ذهبت إلى كاهنة محترفة فكشفت عن طالعها، وأكدت لها صحة الزواج ورفاهيته، وللفتى أيضاً أن يبدأ بخطبة الفتاة، فيعلن إليها رغبته بأن يضع فى سترته منديلين أحمرين، ويتقدم نحوها، فإذا أخذت أحدهما، فقد اختارته، وإذا فرت من وجهه وأرسلت شعرها المسترسل على وجهها فقد رفضته.

وأنت تلحظ من ذلك ما تتمتع به المرأة من حرية وانطلاق ، فهى فى أكثر الحالات تختار من تريد كما تريد ، فإذا وقع الاختيار دون أن تتقدم به ، فهى صاحبة الأمر المطلق فى الرفض والقبول ، ومن الطريف أن الخطيبة تشك إصبعها بإبرة ليتساقط دمها على الأرض ثم تجمع التراب الممتزج به ، وتقذفه إلى النهر ، فيكون كفيلا بدوام السعادة ويمنع ما قد تجىء به الأيام للزوجين السعيدين من شرور وأهوال ، وإذا نسيت إحداهن أن تفعل ذلك فهى تترقب الشر فى كل يوم وليلة ، فإذا حدث ـ ولابد أن يتكدر الصفو يوما ما ـ أرجعت السبب لهذه اللحظة المنكودة التى نسيت فيها أن تشك إصبعها بالإبرة ! لحظة الخطبة فى أسعد الأوقات .

أما ما يحدث لدى الوفاة فهو أعجب وأمتع ، فإذا مات إنسان ما فى خيمته فلابد أن يشق جانب منها لتخرج منه الجثة دون غيره ، فلا تعود روحه فزعة مرة أخرى كما لو خرجت الجثة من الباب المعهود ، وإذا تعجل أحدهم الأمر ، ومر بالجثة دون شق جديد فان القلق النفسى يزلزل الأعصاب زلزلة اليمة ، فيتصور أصحاب الخيمة أشباحاً تتحرك ، وطيوفا تروح وتجىء ، ثم تغمرهم الأحلام بأهاويل مفزعة فيذهبون إلى المقبرة ثانية ، وينتزعون الجثة لتخرج من شق جديد !

وقد كان حرق الجثة عملاً شائعاً يوم أن قدم هؤلاء من الهند ونقلوه فى أوساط مختلفة تأثر بها أكثر المدنيين ، إلا أنهم الآن يدفنون موتاهم فى قبور محترمة تكلل بالزهور والورود .

ويتناوب القوم حراستها فى أيامها الأولى لتأتنس الروح فى المثوى الجديد ، والغريب حقاً أن أهل الميت يجمعون بعد وفاته كل ما خلفه

من أموال ومتاع ويقومون بحرقه وإتلافه ليسبقه إلى الدار الآخرة فيتمتع به هناك، وهنا تطفح الخسائر الباهظة إلى حد مستغرب؛ إذ أن بعض هؤلاء وبخاصة تجار الخيول والعربات أثرياء وموسرون، فإذا قام أقرباؤهم باتلاف ما يملكون فلا تسل عن الثروات الضائعة، والكنوز المبددة أدراج الرياح؛ وإذا كان الغجرى فى المجر أو انجلترا أو النمسا متوسط الحال أو رقيقه فالخسارة بعده محتملة، ولكن ما ظنك بالغجرى الأسبانى المتحضر وهو يمتلك الضياع والقصور؟ وقد نشرت بعض الصحف الأجنبية صورا مؤسفة لعربات فاخرة تحترق أو تهشم قبل الإحراق كما تهشم «قلة» من الخزف أو قدر من النحاس، وقد لا يكون الأمر فى ذلك شائعاً لدى الجميع؛ ولكنه ظاهرة غريبة تتطلب التسجيل.

وللنور فنونهم الجميلة، تتضح فيما يصنعونه من الأوانى الخزفية، والأجراس الحديدية، والصور للعذراء والمسيح، أما الرقص والموسيقى والغناء فقد أصبح كل أولئك مجال دراسة فنية لكثير من عشاق الألحان، بل إن موسيقيى المجر يحرصون على استلهام الموسيقى النورية، واتخاذها مصدرا للابتكار والمحاكاة، ولولا ما يبديه الغجرى من الصخب والضجيج ـ كالزنجى ـ لاستطاع أن يمتع الأسماع بألحان شجية ذات تأثير وتعبير، على أن الذكاء الخارق الذى يتميز به المنجمون والعرافون من هؤلاء قد فاق كل اعتبار، ولهم حيلهم الباهرة فى التخفى والتستر عند إجتياز الحدود بين دولة ودولة، ومن أذكيائهم المهرة من يتخلصون من الجمارك المالية تخلصا يدفع إلى العجب والإعجاب، وأطرف ما قرأت فى ذلك أن غجريا ماهرا أراد أن يسافر بخنزيرين مذبوحين دون أن يدفع رسومهما الجمركية،

فأجلسهما فى المقعد الخلفى لسيارته وألبس كلا منهما قبعة بالية وقميصا رثا، ووضع برقبتهما رباطين للعنق! وحين تعرض له أحد رجال البوليس الأسبانى أفهمه أنهما غجريان أكثرا من الشراب حتى فقدا الإحساس! وقد نظر إليهما الشرطى متأففاً! وقال: غجر كالخنازير! والفكاهة الجميلة فى هذه النادرة أن الشرطى يشبههما بالخنازير فقط دون أن يفطن إلى اتحاد المشبه والمشبه به، لما يعلمه سلفا من قذارة الغجرى ودمامته! وفى ذلك من البلاهة والتغفل مالا يجوز على غجرى خنزير! فكيف يجوز على شرطى مدرب نشيط؟.

إن الغجر مظلومون من الناس جميعاً، وقد قرأنا ولمسنا لكثير منهم بعض المحامد فى دنيا الأخلاق، كالشجاعة والرجولة والكرم والسخاء، فبعضهم يعتبر الضيافة واجبا يوميا فلا يكاد ينقطع عنه الناس! فلماذا لا نعترف لهم بالحسنات الجيدة كما نتندر عليهم بالهنات المحرجات.

شاعرة هندية مسلمة

شاعرة هندية مسلمة، شغلت الدنيا، وفتنت المثقفين فى القرن السابع عشر وترجم ديوانها إلى الإنجليزية فبهر المثقفين فى الغرب، ونقل أكثره إلى العربية فرأى قراؤها نمطا رفيعا من البيان يَنْضَحُ بعبير الإسلام، أما اللغة الفارسية فقد سعدت بالشاعرة حقّاً، لأنها نظمت أشعارها بهذه اللّغة المحظوظة، كانت الشاعرة تلميذة لشعراء فارس العظام، ففتنت بفريد الدين العطار، وسعدى الشيرازى وعمر الخيام، ولكن شاعرها المفضّل كان حافظ الشيرازى، فقد استهواها فيما أبدعت من شعر رقيق، ولكن أثر حافظ يترقرق فى شعرها كالسُّكّرِ فى الماء تتذوقه دون أن تراه.

أسرة ملكية عريقة

زين النساء أميرة نشأت فى مهد النّعمة، رأت مجد جدّها الامبراطور شاه جهان وحظيت حينا ما بعطف والدها الامبراطور (أورنجزيب). وهى حفيدة ملوك الإسلام الكبار فى الهند، حفيدة جدها الأكبر (بابر) وحفيدة (جيهان جير) وحفيدة (شاه جيهان) وكلّهم ملوك عظام لهم مجدٌ حافل وكفاح شهير، وقد نشأت فى كنف والدٍ غيور يشتغل بالحروب ويعيش متوتر الأعصاب، غضوبا عنيفا بمخالفيه ولم يكن يبتسم إلا حين يخلو بابنته الشاعرة (زين النساء) حيث كانت برق السعادة الذى

يلوح لعينيه بين ظلمات الليل المتراكم، وبين جلجلة الرعود الصاخبة، لذلك منحها ما تبتغى من السعادة المادية، وإن قسا عليها فحرمها أجمل ما كانت ترد، وأحلى ما تمنت أن يتحقق، حرمَها الرجل الذى اختارته، ومنعها راحة النفس التى لم تُغن عنها اللآلىء الثمينة والقصور الشاهقة والحدائق الناضرة الغناء.

نشأة ممتازة

ظهرت بوادر النبوغ على الأميرة حين استطاعت حفظ القرآن الكريم فى سن الثامنة، وقد ابتهج والدها بما أحرزته من تفوق علمى فى طفولتها اليافعة، فأقام احتفالاً كبيراً حضره الوزراء والأعيان، ومنح الدولة أجازة، عطلّت بها المرافق الحكومية والمدارس التعليمية يومين، وسارت الجنود فى مواكب الاحتفال ابتهاجاً بنبوغ الأميرة، ووفد الزائرون الكبار على القصر الملكى مهنئين، وكان هذا التقدير الباهر دافعا للأميرة الصغيرة إلى أن تعكف على الثقافة الإسلامية فقرأت الحديث النبوى، وحفظت سيرة الرسول، وكانت تفهم العربية فهما جيدا، فاستطاعت أن تقرأ أمهات الكتب فى تراثنا العلمى، ونظمت الشعر بالعربية ولكن استاذها الفارسى (رستم غازى) أخذ يهجّن شعرها العربى ويقول ان نبوغها سيكون فى الشعرالفارسى، وكانت فى سن الخامسة عشرة، فوقعت تحت تأثيره، وانصرفت عن قراءة دواوين الشعر العربى، على حين حشد لها استاذها عشرات الدواوين الفارسية، وكان البلاط الملكى مليئاً بمن يجيدون الفارسية ويحرصون على قراءة أشعار الأميرة، فرأوا من ابداعها الشعرى ما خَلَبَ وفتن، ولكنّ ثقافتها الدينية قد ظهرت فى انتاجها الأدبى

فقالت شعراً كثيراً فى مدح نبى الإسلام، وفى الحنين إلى مكة قِبلة الإسلام، ومن حسن حظ العربية أن أكثر ماقالته الأميرة ترجمة إليها الأستاذان عبد اللطيف النشار، وحسين محمود البشبيشى. ونحن ننقل عنهما مانستشهد به، وكانت التّرجمة عن الانجليزية لا الفارسية، فاعجبْ لشعرٍ عالمّى تتنازعه اللّغات المختلفة ويتهاداه المثقفون فى الشرق والغرب على اشتياق.

حنين إلى الحجاز

حين حنّت الشاعرة الأميرة إلى الحجاز مهد الإسلام، لم تصغْ حنينها الوجدانى صياغةً تقريرية تضعف حرارته المشبوبة، ولكنّها أرسلت جذواتها المشبوبة فى رسائل إلى الذى تحدثه عن أشواقها الروحيّة كما بثّته لواعجها الإنسانية فهى تخاطبه بمثل قولها:

يا ناعماً بالمنام ... جهلتَ شجو الغرام
أيّامُ همٍ طوالٍ ... أواه من أيامى
متبوعة بليال ... مريرة الآلام
كأنها فى سراها ... تَمْضِى لغير ختام
هنا مكان صلاتى ... وها هنا محرابى
فأين مكّة منى ... يا حيرتى واكتئابى
هل من دواء لدائى ... وهل شفاء لما بى
مواجعى وهمومى ... كثيرة الأسباب
ورحلةٌ يا حبيبى ... تقودنى أنت فيها
لقد طوينا صحارى ... ولم نزلْ نطويها

إلى الحجاز فهذى نهايةٌ تشتهيها
شقّت علينا ولكن هى التى نبتغيها

وأمثال هذه الجذوات المشتعلة مما يتوهج فى ديوان الشاعرة حنيناً إلى مكة، ولك أن تدرك سموها النفسى، حين لم تنس فى عهد الصبا والأحلام أشواقها العالمية إلى مواطن الإلهام والهداية، وقد دَرَست الفتوحَ الإسلامية فبهرها أن تمتد راية الدين إلى آفاق المعمورة ثمّ عادت إلى ما روى من خطب الرسول وأحاديثه فرأت فيْضاً من الحكمة النبوية نقَع غليلها ومحا ظمأها فهتفت بما تحس حين قالت:

يا نبيّاً ظَلّلَتْ رايتُه هذه الدنيا طوالَ الحقبِ
دينكَ السمح حَوَى فى لحظةٍ سؤدد الفرسِ ومجد العربَ
شفتا المبعوث لما افترّتا كافترار الورد عن نفْحٍ يضوعْ
جرت الحكمة من بينهما منطقاً عذبا بترجيعٍ بديع
لمْ تخصَّ الناس لا بل فتنت طائر الروض فغنّى وطرِبْ
أىّ حسن وجمال بارعٍ اترىَ الألفاظ صيغتْ من ذهبْ

وفى هذا الأفق المشوق، طار جناح الأميرة الشاعرة فاستشرقت أجواء عالية ذات سنى وسناء، وكان الامبراطور شاهجان والد (أورنجزيب) قد خطب حفيدته الأميرة الشاعرة زين النساء إلى ابن عمها الأمير (دارا) وكان الأمير من علو الهمة ورهافة العاطفة، ورقة الشمائل بحيث أحبته الأميرة وجعلته فارس أحلامها، ونظمت فى حبّه قصائد رقيقة تنفح بعبير الشوق وكان مما قالته مترجمةً عن أثر هذه العاطفة الخفاقة فى قلبها.

فـيــك يــا قــلــب وحــشــة وحـشـة الـبـيـد فـى الـغَـلَـسْ
طــاف بــى الحــب فــانجـلـت وحــشــة الـقــلـوب وانُـتَـنَـسْ
أصــبــح الــقــلــب جـنّـة عــنــدهــا الأنــس يــلـتـمـس
لــو تحــوّلــت يــا أحــا سـيـس قــلـبـى أغــانـيــا
لــغــدا الحــب نــغــمــة تــتــرك الــسـمـع صـابـيـا

غير أن الريح قد جاءت بما لا تشتهى السفن، إذْ كان والد الأميرة قاسيا جبارا، يظن الظنون السيئة فى أقاربه جميعا وقد قتل أخاه وسجن أباه، وأحسن أنّ (دارا) خطيب ابنته ذو تطلّع إلى الرئاسة فخافه على ملكه، ولم يكن فى احساسه صادقا إذ كان فى استطاعته أن يجذبه لنفسه فهو صهره وابن أخيه ولا مانع أن يرث العرش من بعده ما دام قد حرم الأبناء! وأنّى لطاغيةٍ مثله أن يفكر هذا التفكير إذ أنّه استجاب إلى هواتف الشر فَدَبّرَ مكيدة للأمير الشاب، وذهبَ صريعاً إثر سمّ قاتل شرَبهُ بتدْبير الامبراطور، وعرفتْ ذلك الأميرة فجن جنونها، واعتزلت الناس حقبةً طويلةً، وحاول والدها استرضاءها فكانت تنفر من لقائه، ولكنّ الأيام تُبرىء الجراح، فبعد شهور تفرغت زين النساء إلى تنسيق حديقتها وأمرتْ باستحضار شتى الزهور المختلفة والاشجار المتنوعة والطيور المتعددة لتملأ فراغها فى هذا الفردوس الّذى اصطنعتْه اصطناعاً ليملأ وقتها بالنهار، فإذا جاء الليل خلت إلى دواوين الشعراء لترى فى مآسى السابقين وأنين المقجوعين ما تتأسّى به، فالحزين يتأسى بالحزين وقد تحدثتْ عن حديقتها التّى خلبت المشاهدين بمنظرها البهيج فقالتْ، وكأنها تحلم مخاطبةً حبيبها البعيد.

أسـأل الله لا الـثـراءَ ولا الـحُـبّ ولــكــنْ حــديــقــة مـكـنـونـة
أشتهــى أن أعــيــش فيهــا وإيــا كَ قَـريناً فـى الحبّ لاقـى قـريَـنة

ثم تحلت المأساة الثانية حين ذهبت إلى (لاهور) مع والدها، وكان حاكم المدينة (عقيل خان) فارساً شاباً شاعراً، عرف أنباء الأميرة، وروى شعرها، وتَسَامَعَ بحديث جمالها، فاشتاق أن يراها وحالفه التوفيق فلمحها على سطح القصر قبيل الفجر فى غلائلها البيضاء تكتب الشعر تحت مصباح أخضر جميل فجن بها شوقاً، ثم علم بخروجها إلى بعض البساتين لترى مظلّة من الرخام، أقيمت على نسق ظريف، فتخفّى فى زى بستانى أجير، وحمل الفأس والمكتل وأخذ يشذب الزهور ويرمقها من بُعد في شوق عارم ثم تجرأ وراسلها بالشعر، وقد أعجبت به الأميرة فردت عليه من البحر والقافية، ولابد لمثل هذه العلاقة أن تشيع، ولابد أن ينشط الواشون إلى الامبراطور الجبار، فأقام الأرصاد حتّى داهمه مع الأميرة يتناقشان فى الأدب لافى أمور القلب، وكانت هذه كبرى الجرائم لدى الوالد فقتل الحاكم شر قتله، اذ عذّبه عذابا شديداً حتى لفظ أنفاسه، ولم يعبأ بدموع ابنته التى يئست من حياتها، وأغلقت الباب عليها شهورا طويلة مستسلمة للدموع، وقد نظمتْ هذه الحقبة أفجع ما نظمت من أشعار الألم والأسى! وحُقّ لها! فقد تعددت المأساة، وضاعف الجرح الجديد أحزان القلب الذى لم يكن يلتئم به جرحه القديم، ولم تتكسر النصال على النصّال، بل توغلت جميعها فى أعماق الأعماق.

محاولة فاشلة

كانت لزين النساء مربية فاضلة ذات أدب ودين وحياء وقد ترعرعت الأميرة على يديها معتزة بتوجيهها الأدبى، وسلوكها الخلقى،

فرأى الامبراطور أن تذهب (مياباى) وهو اسم المربية إلى تلميذتها لترغبها فى الزواج من إنسان اختاره الامبراطور دون أن يحوز قبول الأميرة، وأن تحدثها عن طاعة الوالد وضرورة الاقتران، وأن تعلمها أن عصيان هذا الأمر يثير غضب الله، وكانت الأميرة من الفصاحة بحيث علمت أن المربية مأمورة تمثل دوراً فُرض عليها، دون أن تعتقده فهشتّ لها فى أدب ثم كتبت لوالدها تقول إنها تفرغت لرضا الله حقّا، إذ تبرغت بكل ما تملك من حلى للفقراء، وأنها خصّصتْ دخلها السنوى وقدره ٤٠٠,٠٠٠ روبيّة للنفقة على المحتاجات وتهيئة من يُردنْ الحج ممن لا يقدرون على نفقة الارتحال. كما جعلت رواتب شهرية لأسر فقيرة تشمل الأرامل والأيتام، وقد ثار الوالد الذى لم يعهد أحداً يخالف أمره، فأمر بسجن الأميرة، واعتقلها سريعاً فى موضع لا يبعث على الارتياح، ولكّنها قضت شهور السجن دون اعتراض حتى يئس والدها فأطلقها وفى نفسه شجون فاستسلمت لترتيب مكتبتها العامرة وجعلتْ تطلب ما تسمع عنه من المؤلفات، وتأنس حين ترى المكتبة تنمو وتزيد وكأنها وجدتْ فى متعة العقل شفاءً لأسى القلب أو هكذا تخيّلت، غير أنّ ذكرياتها كانت تَهيج وتحتدم فلا تجدُ غير الشعر يطلق ما تجمع فى صدرها من أوار محتبس ولولا ما نظمته لاحترقت بما يتأجج فى جوانحها من تباريح ولعل الأميرة كانت تتخيل حبيبها الراحل ماثلاً بين عينيها فتناجيه قائلة:

يا جمالاً مثلهُ ما شهدتْ — أعينَ العالم فى دنيا الشبابْ
أينَ لا أينَ طريقى أقتفى — أثر الأقدام فى داجى التراب؟
قلبى المجروح أدماهُ الهوىَ — فتنزى قطراتِ من دم
فانظر الآن تشاهد عجبا — زهرا أنتج تحت العندم

زهــراتٌ يــافــعــاتٌ نــبــتــتْ من عـروقٍ فـجّـرتهـا الحسـراتْ
مـوضُـع الأشـواكِ لـمّـا دسـتـه نـبـتَ الـزهـر مـكـان الخطوات

الخاتمـــة

وكان لابدِ أن تمرض الأميرة الحزينة رازحة تحت وطأة الآلام، وقد اهتم والدها بما تقاسى من أوجاع النهاية، فأحضر لها خير الأطباء، ولكنّ أجل الله لا يؤخر إذا جاء، ففاضت روحها الطيبة وأصّر والدها على أن تدفن فى حديقة الزهور.. لتكون وردةً بين الورود، وبالغ فشيدّ لها قبراً من المرمر تعلوه قبة من ذهب! وليست فى آخرتها تحتاج إلى شيء من هذا المعدن النفيس، انما احتاجت فى حياتها إلى العطف الحنون فحرمته! حتى إذا قضتْ عمرها فاضت دموع الوالد القاسى حين لايجدى البكاء! وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل.

* * *

من غزل المرأة قديماً

شعر المرأة فى مجموعه قليل ضئيل ، فأنت تجد الموسوعات القديمة تزخر بأشعار الرجال فى شتى الأغراض ، دون أن تطالع ـ إلا ما ندر ـ للمرأة غير البيتين أو الثلاثة فى الفصل الطويل ، ولا يرجع ذلك إلى غبن أو تقصير فى جنب المرأة كما يتوهم فريق من الناس ، بل لأن المؤلف يحرص على أن يختار لقرائه أنفس ما وقعت عليه عينه من رائع الشعر، وبديع القول ، والمرأة وإن أجادت فى كثير من الأغراض الشعرية فالرجل بلا شك أكثر منها إجادة ، وأكمل توفيقا ، فالمؤلف حينئذ معذور..

والغزل بنوع خاص لم يظفر فى القديم بنصيبه الذى يستحقه من المرأة بل كان غرضا عزيز المنال قامت دونه العوائق ، وتكاثفت أمامه السدود ، وذلك طبيعى إذ نظرنا إلى البيئة الشرقية القديمة التى ترعرعت فيها الفتاة العربية ، وعلمنا أن من الواجب إذ ذاك عليها أن تقف إزاء عواطفها القلبية صامتة مفحمة مهما اعتلج صدرها بالشوق ، واستعر فؤادها بالحنين ، وإلا فنحن نرى من السابقات من تَظْمَنَ القلائد البديعة فى مختلف أغراض الشعر ما عدا الغزل ، فقد أمسكت عنه حواء أو كادت ، ولم تحلق بجناحها الشاعر فى أجوائه الفسيحة لأن الرقابة القاسية من الغُيَّر قد أخرست الألسنة الشادية ، وألجمت الطيور الصادحة ، رغم ما نعرفه عن المرأة من شعور دافق وإحساس مشبوب! ولنا أن نستدل على ذلك بما نجده الآن من روائع الغزل

النسوى فى عصرنا الحديث بعد أن تبدلت الأوضاع ، وأصبحت المرأة المثقفة تثبت وجودها فى دنيا العلم والأدب والفن ، إذ عفى على التقاليد الصارمة روح من التفاهم المتعاطف ، المقدر لرغبات النفوس المحلل لمنازع الغريزة ، الشارح لخوالج العاطفة ، مما كان معه غزل المرأة استجابة قوية لنداء الطبيعة ، وحصادا ناضجاً لبذور الحياة ! ونحن فى هذا المجال لن نتعرض إلى شاعرات هذا العصر. فروائعهن ذائعة مشتهرة ، ولكننا نرجع القهقرى إلى ألحان بعيدة ترددت فى همس ناعم ، وبقيت أصداء منها على خفوتها الرقيق تنتقل فى رحاب الزمن من جيل إلى جيل .

ونحن نعلم جيداً أن بثينة صاحبة جميل ، وأميمة فاتنة ابن الدمينة ، وليلى معشوقة قيس ، قد كن شاعرات مجيدات ، فليت شعرى أين ما نظمنه من الغزل الرقيق ؟ مع ما يعترف به التاريخ من تفانيهن فى العشق ، وجنونهن فى الحب ، اللهم إلا أن تجد لكل واحدة مقطوعة ضئيلة لا تتناسب مع ما يتأجج فى صدرها من لهيب !

وإذا كان الطائر يجنح إلى الترنم فى خلسة مواتية مهما نصبت حوله الشباك الوثيقة ، وقامت فى وجهه الموانع المتزاحمة فإن الأسفار الأدبية قد حفظت لنا جمرات مشبوبة من غزل المرأة الرائق وهى ــ على قلتها ــ تعطيك فكرة تامة عن القيمة العقلية للمرأة ، وتوقفك على كثير من الإنفعالات النفسية التى تكابدها الفتاة إذا احترقت فى سعير الغرام . والواقع أن المرأة فى كثير من أحوالها لم تلج باب الغزل صريحة سافرة بل تلثمت بكل ما ملكته من براقع . فكان غزلها فى الغالب تلميحا يهديك إلى الطريق ويجعلك تسير فيه وحدك دون

أن يرافقك في خطواتك ، وقد تجد من يسلبها الوجد رشادها الناصح . فتنطق بما يجيش في صدرها واضحاً سافراً دون أن تتلثم بلثام عائق ولها من شعورها الدافق ، وغرامها المتقد ما يبرر لها الغزل والتشبيب لدى نفسها ــ وإن أنكرتها التقاليد ــ .

وصاحبة التلميح أديبة ذكية تعرف من أين تؤكل الكتف ، فقد استغلت عنصر الحنين إلى الوطن أثمر استغلال . فاعتمدت عليه في التنفيس عن صدرها ، والتعبير عن خوالجها ، لما تعلم من الصلة الوثيقة بينه وبين الغزل وهي بذلك قد أخمدت الفتنة الثائرة ، وأغمضت العيون المتنمرة ، ثم ــ هي في الوقت نفسه ــ قد أفهمت حبيبها كل شيء فأدرك من حنينها الذائب ما يتقد في أحشائها من شوق .. وهذا في الواقع مطلب عزيز ، تبذل العاشقة جهدها الجاهد في تحصيله ، فَلِمَ لا تصل إليه عن طريق الحنين .

ونحن نرى أيضاً عاشقات مدنفات قد اشتهر في الملأ شوقهن العارم ، فما احتمله قريب أو صديق ، بل عمد كل والد إلى فتاته فحملها إلى وطن غريب ، وعقد قرانها في بلد نازح ، وهنا ترسل النائية حنينها إلى الشاعر لمسارح الصبا وملاعب الشباب ، وأنت حيث تقرأه لا تجد غير غزل مقنع قد أهدى إلى الحبيب الأول ففهم منه كل شيء ولك أن تعتبر من هذا النوع قول القائلة :

ألا أيها الركب اليمانون عرجوا ... علينا فقد أضحى هوانا يمانيا
نسائلكم هل سال نعمان بعدنا ... وحب إلينا بطن نعمان واديا
فإن به ظلا ظليلا وموردا ... به نقع القلب الذى كان صاديا

فهل صحيح أن الشاعرة تقصد ماء نعمان، وظله الظليل ومورده الرائق؟! لو كان ذلك وحده ما أحست بهذه الحسرة المتأججة، واللهفة المشتعلة، وما اهتدت الشاعرة إلى قولها الرائع «به نقع» (القلب) الذى كان صادياً!.

ونظائر هذه الأبيات تدلنا على فطنة المرأة، وذكائها اللماح، وتؤكد لنا أن الحب كالزهرة الناضرة، لابد أن يعبق أريجها فى كل مكان تحل به وهل كان الحنين غير عبير فاتن ينعش الأفئدة ويبهج النفوس؟!

وكثيرا ما تفر المرأة من الحنين إلى الكناية والرمز، وهى فى ذلك تقتدى بالرجل فتسير وراءه خطوة خطوة، ولكن أى رجل تتبع؟؟ إنها تعمد إلى شاعر سدت أمامه المسالك، وصلصلت فى كفه القيود، فتتجه معه فى اتجاهه، ما دامت ظروفه القاسية كملابساتها العنيدة، وإذا كانت المرأة تعتقد فى قرارة نفسها أن الرجل أحزم منها وأعقل، فإنها تسلك طريقه مطمئنة إلى السلامة واثقة بالنجاة..

ولعل أصدق مثال نقدمه للقارىء، هو حميد بن ثور الهلالى فقد كان ممن برح بهم العشق فأرسل قصائده الغزلية سافرة عارية، ولكن الحاكم يقف فى وجهه منذراً مهدداً، فيمنعه من التغريد الساحر، وهنا يلجأ الشاعر إلى الكناية المقبولة فيتغزل فى السرحة مطنبا فى محاسنها الفاتنة وقد وفق فى اختياره، فالسرحة ذات منظر جذاب، وثمر شهى، ونسيم منعش مريح وكل ذلك مما يذكر العاشق المدنف بمعشوقته فيتمثلها أمام عينيه إذ يقول:

أيا طيب رياها و يا حسن طعمها إذا حان من شمس النهار شروق
وهل أنا إن عللت نفسي بسرحة من السرح مسدود عليَّ طريق

والشاعر بذلك التلميح قد نفس عن صدره ولم يجعل لأحد سلطاناً عليه، ثم هو قد فتح الباب على مصراعيه لكثير من بنات حواء فعلية بنت المهدى شقيقة الرشيد قد علقت غلاماً لها يسمى طلا، ونظمت فيه من الرقائق الأنيقة ما هو جدير بأمثالها من المثقفات الناعمات، ولكن هرون يقف أمامها وقفة يتحدى بها الفن، فلجأت إلى التغزل فى السرحة مقتدية بجميد إذ تقول:

أيا سرحة البستان طال تشوقى وما لى إلى ظل لديك سبيل

ثم تطنب فى وصفها الساحر فتجلس على ناصية الإبداع والإفتنان وذلك منها طيب جميل.. وفى رأيى أن هذه الحيطة جميلة مقبولة تسير مع الأخلاق النبيلة فى مهيع واحد، وإن كان من الشاعرات السذج من تبالغ فى الحذر والحيطة، فتعلن لك أنها قد أمنتْ بذلك ما عسى أن يوجه إليها من ملامة أو نقد ثم تصرح بما يثير حولها الشكوك، ويجعلها مضغة تلاك فى الأفواه، ودونك قول أم ضيغم البلوية.

وبتنا خلاف الحى لا نحن منهمو ولا نحن بالأعداء مختلطان
وبتنا يقينا ساقط البرد والندى من الليل بردا يمنة عطران
نذود بذكر الله عنا من الصبا إذا كان قلبانا بنا يجفان
ونصدر عن أمر العفاف وربما نقعنا غليل القلب بالرشفان

وأنا لا أدرى ماذا يفيدها ذكر الله بعد أن نقعت غليل القلب بالرشفان؟ وماذا يغنى العفاف بعد أن باتا فى مكان قاص خلاف

الحى؟ اللهم إن هذا احتراس أدى إلى افتضاح ولكن فيه رائحة الطمأنينة على كل حال.

ومن العاشقات من تصرح للملأ فى حنينها الوجدانى بتقوى الله عز وجل واستحياء بعض العواقب، ولكنها تعتصم بالعقل فلا تتورط فيما تورطت فيه أم ضيغم، بل تسير فى سبيلها المملوءة بالشوك يقظة محاذرة، تتجنب العواقب، وتتجافى عن المزالق حتى تنتهى من المسير بسلام، والتفت معى إلى قول عاتكة المرية:

وما طعم ماء أى ماء تقوله	تحدر من غر طوال الذوائب
بمنعرج من بطن واد تقابلت	عليه رياح الصيف من كل جانب
نفى جرية الماء القذى عن متونه	فما إن به عيب يتاح لشارب
بأطيب ممن يقصر الطرف دونه	تقى الله واستحياء بعض العواقب

ثم صارحنى رأيك هل لاحظت عليها تورطاً وانزلاقاً كأم ضيغم أو وجدت فى قولها ما تشم منه رائحة الريب الآثم، الحق أنها كانت لبقة ماهرة فيما نظمته، وأنا لا أدرى لماذا تذكرنى أبياتها بأبيات أخرى تتفق معها فى الطريقة، وتخالفها فى التفكير. ونحن لا يهمنا أن يكون الإطار من نوع مألوف بل نحرص على أن تكون الصورة جديدة والريشة بارعة كما جاء فى قول ضاحية الهلالية:

وما وجد مسجون بصنعاء عضه	بساقيه من صنع القيون كبول
قليل الموالى مستهام مروع	له بعد نومات العشى عويل
يقول له السجان أنت معذب	غداة غد أو مسلم فقتيل
بأكثر منى لوعة يوم راعنى	فراق حبيب ما إليه سبيل

فأنت ترى أن الطريقة الأولى هي الطريقة الثانية، ولكن معنى عاتكة مكرر معاد. أما أبيات ضاحية فذات تصوير مبتكر لا تستطيع أن ترجع بها إلى قائل متقدم، ثم هي تصور لك جزع المرأة من السجون ورهبتها من القيود، وليت شعرى إذا لم نلمس إحساس المرأة في شعرها العاطفي فمن أى نبع دافق نستقيه؟ أما قوة التعبير فبارزة بوضوح في كلتا المقطوعتين.

هذا نزر قليل يشير إلى الغزل المقنع في شعر حواء، فإذا تركناه إلى الغزل السافر، هذا الذى قالته العاشقة لتذيع غرامها على رؤوس الأشهاد فينقله عنها البعيد والقريب، دون أن تخشى ملامة أو مسبة، بل تقدم جريئة على تحمل ما يتهددها في موقفها الجريء. فإننا نجد منه الرائع الطريف.

ونحن في هذا المجال لن نتعرض إلى غزل الجوارى مما تناقلته أمهات المصادر، لأننا نبحث عن النسيب الصادق الذى يضطرم بالعاطفة المشبوبة، ويتأجج باللوعة المشتعلة، وأكثر ما بأيدينا من غزل هؤلاء لا يهدف لغير الإغواء والتغرير، بل كثيراً ما يهبطن إلى مستوى لا يرضى عنه خلق.

فأنت لا ترى في أكثر شعر الجوارى مواربة أو كناية، بل تجد نفسك أمام صراحة فاضحة، ومنطق مكشوف ـ إلا فيما ندر ـ كأن تقول إحداهن وهو أهون ما يمكننا أن نستشهد به:

إنى لأرجو أن تكون معانقى	فتبيت منى فوق ثدى ناهد
وأراك بين خلاخلى ودمالجى	وأراك دون مراجلى ومجاسدى

وأنا لا أنكر أن هذا تصوير صادق لما تنشده الجارية من أمل لذيذ، فهو من هذه الناحية قول صادق يرتكز على الإحساس الآمل والشعور المتمنى، ولكن أدعو الشاعرة أن تبرز عاطفتها تلك، فى سياق فنى، يعتمد على اللمحة الموحية، حتى تطرب قارئها بروعة الإيحاء، لا أن تمضه بوقاحة التصريح.

وقارىء الغزل النسوى يرى التصريح فى نسيب المرأة فى مجموعه أقل من التلميح، فقد قرأت فى هذه الأيام أكثر ما روى قديماً لحواء من رائق التشبيب، فلم أجد التصريح إلا فى حالات خاصة تخفف من حدته، وتشفع لقائلته أتم شفاعة، وهى فى جملتها لا تكاد تخرج عن حالات ثلاث:

الحالة الأولى ــ وهى الجديرة بالإشفاق ــ تكون غالباً عندما تفقد المرأة صوابها الراشد، وفكرها المتيقظ ــ فتندفع فى تيار الحب أعنف اندفاع وأقساه، ولا تعود تفكر فى غير الشخصية المسيطرة على منافذ إحساسها، القابضة على زمام فؤادها، وما ظنك بمن ترسل أشعارها الذائبة ناطقة بجنونها الشقى، غير عابئة بما يلقاه بها الأقربون، من صنوف الايذاء والتعذيب كشقراء بنت الحباب فقد قاست غرامها الطائش أبرح المقاساة وطالما انهال عليها والدها بالسياط المحرقة تشوى الإهاب، وتمزق الأعضاء وهى بعد لا تنسى فى جحيمها المشتعل حبيبها يحيي بن حمزة بل تهتف:

أأضرب فى يحيى وبينى وبينه	مهامه لو سارت بها الريح كلت
ألا ليت يحيى يوم عيهم زارنا	وإن نهلت منا السياط وعلت

وكأني بوالدها وقد رحمها بعض الشيء فبعث إليها صواحبها لائمات، عاذلات راجياً أن يثوب رشادها العازب إلى وكره، فتنسى ما تهذر به للغادى والرائح، ولكن أمل الحباب ينطفىء خابياً حين يجد ابنته تصيح فى آذان اللائمات:

سأرعى ليحيى الحب ما هبت الصبا وإن قطعوا فى ذاك عمداً لسانيا
فقد شف قلبى بعد طول تجلدى أحاديث من يحيى تشيب النواصيا

وهناك من المدنفات من لا تفرق بين النافع والضار، فهى إذ تصطلى بجحيم الشوق اللافح، لا تجد من تطلعه على خبيئة سرها غير والدها العنيف مع أن الأب ـ لو عقلت الفتاة ـ أول من ينبغى أن يكتم عنه هذا النبأ المزعج، وخاصة إذا كان من قساة البدو، وجفاة الأعراب، كوالد الخنساء التيجانية، تلك التى علقت شاباً من بنى خفاجة يدعى جحوشاً، وقاست فى حبها العارم ما أقض مضجعها، وشرد نومها، فكتمت أمرها عن صواحبها وبعثت إلى أبيها التيجان تقول فى غير اكتراث:

وإن لنا بالشام لو نستطيعه حبيباً لنا «يا تيحان» مصافياً
نعد له الأيام من حب ذكره ونحصى له «يا تيحان» اللياليا
فليت المطايا قد رفعنك مصعدا تجوب بأيديها الحزون الفيافيا

وكأنها لا تكتفى بإزعاج والدها، بل تتمنى أن يقود بنفسه مطاياه مصعداً إلى جنوب الشام، ليكون رسولها الأمين إلى جحوش الحبيب، والغرام جنون فاضح، يولد الغرائب، ويأتى بالمتناقضات!!

أما الحالة الثانية: فلها من الظروف والملابسات ما قد يبررها لدى المنصف إذ تكون العاشقة ثيباً مطلقة، فلا تؤاخذ على هيامها مؤاخذة غيرها من العذارى الناهدات، بعد أن انخرطت فى سلك الزوجات، ولديك أم الضحاك المحاربية التى أمسكت عن الشعر الغزلى، حتى طلقها زوجها، وارتحل عنها إلى مكان نازح، فهاج بها الشوق واندفعت تقول:

سألت المحبين الذين تحملوا ... تباريح هذا الحب فى سالف الدهر

فقلت لهم ما يذهب الحب بعدما ... تبوأ ما بين الجوانح والصدر

فقالوا شفاء الحب حب يزيله ... على الفور أو نأى طويل على الهجر

وما الحب إلا سمع أذن ونظرة ... وحنة قلب عن حديث وعن ذكر

وهذا قول هادىء متئد، ولكن صاحبته لا تلبث أن تكشف نقاب الحياء دفعة واحدة بعد أن يستبد بها الهجر فتعبر عن الحقيقة المكظومة بشعر عذب رقيق.

وإذا كنا نعلم أن الشعر مرآة صاحبه، ونعلم ثانية أن النفوس مختلفات متشابهات، فهناك المتئدة الصابرة، والعجول المتسرعة، ثم هناك من صارعتها الأزمات واكتنفتها المحن، فأجبرتها على الاستهتار والنزق.. إذا كنا نعلم ذلك فغير عجيب أن نرى أم الضحاك المحاربية تنطق بلسان الغريزة الفاضحة عن أهوائها العارمة! وهى بعد مطلقة مجفوة هانت على زوجها الأول فهانت كذلك على الناس.

ونعرج على الحالة الثالثة، وهى كثيراً ما تتكرر أمامنا من حين إلى حين، فقد تكون المرأة عاشقة صبة، فتجاهد نفسها فى إخفاء ما تكابده مجاهدة قاتلة، ثم تمر الأعوام وراء الأعوام فإذا الشابة العاشقة تصير عجوزاً شوهاء ذات أولاد وأحفاد، وإذا ذاك لا تبالى بنقد، أو تحفل بتجريح، بل يطيب لها أن تجلس مع العذارى الناهدات، قارئة تاريخ قلبها الحافل بالعجائب والغرائب، دامعة على صباها الغارب، وشبابها المرحوم، ولا عليها فى ذلك ما دام الجميع يتهمها بالهتر والتخريف، وما دامت قريبة من القبر؛ فهى هامة اليوم أو الغد، وأى نقد يوجهه إلى شمطاء شهربة، تدب على العصا، وتمشى بها مشى الأسير المكبل كعشرقة البدوية إذ تقول:

جريت مع العشاق فى حلبة الهوى ... ففقتهمو سبقاً وجئت على رسلى
فما لبس العشاق من حلل الهوى ... ولا خلعوا إلا الثياب التى أبلى
ولا شربوا كأساً من الحب حلوة ... ولا مرة إلا شرابهمو فضلى

ومع ما فى هذا القول من الصراحة التامة، فإذا إذا قيس بشعر الرجل كان جميل الأثر طيب الوقع؛ فنحن نرى الإباحيين من فساق الشعراء كامرىء القيس والفرزدق وبشار يطنبون فى ذكرياتهم الماجنة، إطناباً غير حميد، ولولا أننا لا نريد أن ننشر هذا اللون من الإفك، لذكرنا على سبيل الموازنة بعض ما قيل وقد تكون الشاعرة مضطرة إلى التصريح بما يعجز عن بيانه اللفظ ويقف دونه الريق، فتأتى بالمعنى الجلى، فى تركيب قوى، دون أن يصدمها المسلك الوعر، ويجبهها الواقع المرير، فقد راود توبة بن الحمير الخفاجى صاحبته الأخيلية فأشاحت عنه غاضبة، ثم أرادت أن تفهمه موقفها

النبيل، فلم يستعص عليها القول المحرج حين قالت:

وذى حاجة قلنا له لا تبح بها ... فليس إليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه ... وأنت لأخرى صاحب وحليل
تخالك تهوى غيرها فكأنما ... لها فى تظنيها عليك دليل

ولعمرى قد بلغت من التأتى الهادىء شأواً لم يصل إليه معن بن أوس، حين اصطدم بصخرة كصخرتها العاتية. فقد كان فى جاهليته على صلة بأم مالك خليلته، فأتت كعادتها إليه بعد إسلامه فقال من أبيات:

ولست كعهد الداريا أم مالك ... ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل
وعاد الفتى كالكهل ليس بفاعل ... سوى الحق شيئاً فاستراح العواذل

شتان ما بين القولين وإن اتفق المراد!! ولليلى هذه مراث جيدة فى توبة كانت تصلها بقليل من الغزل الرائق فتطرب النفوس فى موقفها الحزين، ويهمنا أن نعرض مثالاً لنسيبها الدامع إذ تقول فى معرض الرثاء:

هو المسك بالأرى الضحاكى شبته ... بدرياقة من خُمْر بيسان قرقف
فيا ألف ألف يوم تأتى مسلماً ... فألقاك مثل القسور المتطرف

وهناك من العاشقات غيرها من أبدعت كثيراً حين نهجت نهجها الجذاب فقالت فى معرض الرثاء الغزلى:

هو الأبيض الريان لو ضربت به ... نواح من الريان زالت هضابها

وهكذا تكون الدموع مسرحاً للتشبيب البهيج!!

(وبعد) فهذه شذرات خاطفة تجلو لنا طرائف من الغزل النسوى القديم. وهى جذور قوية لدوحة سامقة نراها اليوم فى شعرنا النسوى المعاصر دانية القطوف ممتدة الظلال..

* * *

نابليُون بونابرت والتّاريخ العبّاسى

لم تكن عبقرية نابليون بونابرت وقفا على معاركه الحربيّة، وانتصاراته السياسية وحدها، ولكنها تمتّد إلى ابداعه الأدبى الذى اتجه إليه فى مطلع حياته كاتبا، ثم شغلته مطامحه السياسية عن الكتابة دون القراءة، إذ كان لايترك الكتاب فى فترات راحته، بل ربما كان الكتاب الأدبى واحته الخضراء فى صحراء الحياة، وقد يستبعد القارىء أن تكون الحياة صحراء بالنسبة لنابليون، ولكنّ واقعه النفسى يؤكد أنه كان مع ضجيجه الصاخب يعيش فى وحدة نفسية لا تملؤها أبهة المجد. وعظمة السلطان، وفى ذلك عزاء أى عزاء للذين يقاسون فى أعوامهم المديدة لفح الهجير، ظانيّن أنّ ذوى المكانة يتفيأون وارف الظلال وما دروا أن الإنسان الطّامح من آماله الشاسعة المتجددة فى ظما لا يرتوى، وسغب لا يشبع، لقد قربت الشقة كثيراً كثيراً بين المحظوظين والمحرومين.

وقد ترك نابليون فيما ترك من آثار أدبيّة ثلاث قصص كتبها فى مطلع حياته، وظلّ حريصاً على بقائها فى حوزته دون أن يسمح باذاعتها حين ضجّت الدنيا بأمجاده، وحين آذنت شمسُه بالمغيب أسلمها إلى الكردينال فيش فى طبْعتها الأولى المحدودة، ثم ظهرت قصة رابعة عثر عليها أديب بولونّى، فاكتمل انتاجه الفنى بقصّته «كليون وأوجينى»، وقد فكّرت متسائلاً كيف أهمل نابليون هذه

القصّة عن عمد، فلم يضمّها إلى ما حرص على إبداعه لدى «فيش» ثم أدركت من مطالعتها أنها تكشف أسرار إخفاقه العاطفى، إذ صورت غراماً عاصفاً كان البطل فيه صاحب الكلمة، وهو إيحاء عكسى لما أخفقَ فيه قلب القائد حين أحبَّ لأول مرة «أوجينى» فى «مارسيليا» وتوسّل إليها بما يملك من أرق المشاعر ولكنّها تأبّت عليه، فكتب هذه القصة، لا ليذكر إخفاقه بل ليمحوه فى دنيا الخيال حين عزّ عليه أن ينتصر عاطفيّا في أرض الواقع، ومَن كان ذا نفس متعالية كنابليون لا يسهل عليه أن يعترف بإخفاقه، ولكنّه نسى أنّ رسائله العاطفية قد كشفتْ حيلته اذ سجّلت مثل قوله لأوجينى:

«إنّ الحياة حلم رقيق، لا يلبث أن يذوب كالضباب، وإنى أشعرُ بهياج عاطفىّ، وما شعرتُ بمثله قبل هذا اليوم، ولئن طال الهجر لاقتلّن نفسى، ولا رمينَّ بهذا الجسم تحت عجلات العربات».

ومقال اليوم يقصر على قصة واحدة من القصص الثلاث التّى حرص نابليون على بقائها، تلك هى القصّة التاريخية التى تتحّدث عن ثائر خطير، ظهر فى عهد الخليفة «المهدى العباسى». فادّعى الزعامة، وجمع الحشود الهائلة فى بلاد فارس ليُزلزل الخلافة العباسية، وقد نازلتْه جيوش متوالية فانتصر عليها، ثمّ عبأت الدولة كلّ جهودها الجبارةّ حتى انتصرتْ عليه تلك هى قصّة المقنع الخراسانّى التى كتبها نابليون فى مطلع شبابه، وإذا تركنا الحكم على أثرها النفسى الفنّى، فإننا لا نغفل دلالتها الخطيرة على اتّجاه نابليون الطامح إذ اختار شخصية جبارة تخطت حدود العقل حين ادّعت الزعامة مترفعة عن

حقيقتها الإنسانية، ثم جمعت حولها آلاف الآلاف من الناس مستسلمة طائعة، أيكون تسجيلُ هذه الظاهرة بقلم ضابط عسكرّى ناشىء مؤشراً يُحّدد اتجاهاً نفسيّا تنمو بذوره الأولى فى لفائف الغيب، وإذا كان المقنع قد أخفق، فلبس الإخفاق فرضاً محتوماً فى منطق شابّ مندفع. إذْ يستطيعُ أن يتجنّب الخطأ فى طموحه المشْرئب. وليس معنى ذلك أن كل قاص يتحدثُ عن بطل تاريخى يكون معبراً عن نفسه، ولكنّ الناقد الذّى يربط البدايات بالنهايات يستطيع أن يسجّل من الملاحظات ما يجد محلّه من التقدير والالتفات.

الحدث التّاريخى

أما الحدث التاريخّى فى واقعه المروىّ بكتب التاريخ الإسلامى خاصّاً بالمقنع الخراسانى. فموجزه أن هذا الآفك الوصولّى قد انتهز مقتل أبى مسلم الخراسانى ليؤلّب الجموع بالمشرق، كى يأخذوا بثأر البطل الصريع لا حبّاً لأبى مسلم. ولكنْ محاولة اسْتغلال مُغرض لشعور غاضب، تضطرم بجذوته النفوس، إذ لم تُعرف بها شم بن حكيم، وهو الملقبُ بالمقّنع صلةٌ شخصّيةٌ بأبى مسلم من قبل، ومن هو أبو مُسلم فى منطق المقنّع؟ إنه إنسانٌ حلّتْ فيه الروح التى حَلّت من قبل فى آدم، ومن تلاه من الأنبياء، فأبى مسلم الخَراسانى، فالمقنّع الخراسانى!! واذنْ فالثائر الوصولّى فى بدء أمره يحمل من روح الإله، لقدْ صَدّقت العامة من أتباعه ما حكاهُ عن تَسلسل هذه الروح منذ آدم، ثم رأى بعدَ أنْ تزايد خطره أن يقفز قفزةً أخرى، وقد كانَ أبرص أعور، دميماً، فاتّخذَ لَوجْهِة قِناعاً من الفضة لا يُفارقه فى اجتماعاته، فترتسم صورته البيضاء فى صفْحة الأفق، ويقول الناس

إن هذا المرتسمُ هو بذر المقنّع، وهو نظيرُ بدر السماء، وكأنّه اهتدىَ بذلك إلى معجزة خارقة شلتْ وجُوه التفكير لدى قوم سذّج فاعتقدوها مؤمنين، وقد عناها أبو العلاء المعرّى حين قال:

أفِقْ إنّما البدرُ المقنع رأسُه ضَلالٌ وَغيٌّ مثل بدر المقنع

ثم الْتفَّتْ حولَه الجموعُ من الصّغد، وبُخارى وسمرقند، وقزوين، وأمرهم، فخرّوا طائعين، وطبيعيٌّ أن يفزعَ الخليفة المهدى لما بلغه من شأنه، فسيّر له الجيوش بقيادة أبرع قواده، ولكنّ المعارك تدور فتهْزَمُ جُيوش الخلافة مرةً تلو مرة، وكل انهزام يؤكّد لأتباع المقنّع صدْق زعمه فيتزايدُ الخطر، وتنتشرُ الآراء الضالة التى تُبيح سلبَ الأموال وهتكَ الأعراض، فتفاقمَ اللهيب اشتعالاً، حيثُ يضطر الخليفة إلى ارسال جيش يضم «٧٠٠٠٠» مقاتل بقيادة معاذ بن مسلم فيضرب الحصار على قلعة كشّ، التى يعتصم بها المقنّع، ويوالى الفتك المستبسِل بجنود المقنّع حتّى يعجزوا عن المقاومة، فضجر أكثرُهم، وطلبوا الأمان وفروا سالمين ليتركوا الطاغية معتصماً بقلعته مع نفر من ذويه.

قالت كتُب التاريخ، ولمّا شعر المقنّع بالهزيمة أشعلَ النار فى القلعة، وأحرقَ كل ما فيها من الدّواب والمتاع والثياب كيلا تكون عونا للمهاجمين، إذا احتلوّا الحصن واستولوا على نفائسه، ثم أمر بحفر خندقٍ وأشعل به النّار، وأذابَ ما لديه من معادن الذّهب والفضة والنّحاس، ثم جمَع أصحابه ونساءهَ، وأهله وسقاهم السمّ لتصعد أرواحهم إلى السماء فماتوا جميعاً، وألقَى بهم فى النّار المشتعلة كيلاً يمثّل أحدٌ بجثثهم وكان آخرَ من شرب السمَّ بعد تابعية، وهكذا انتهتْ

حياة هذا الآفك، دونَ أن ينتهى صدى دعوته إذ انتشرَ من أتباعه من زعم أنّه قد أباحَ لهم ماقد حرّم الاسلام، وتكونت فرقٌ تالية من فترات مختلفة لتُرهق الدولة بمحاربتها، متخذةً اسماء جديدة وكلها ذات زندقة وإلحاد.

قصة بونابرت

اشتهرتْ قصة المقنّع الخراسانى فى أوربا فيما ذاع من أحداث الشرق العجيب بطرائفه ونوادره، وقد كانت مجالاً لوحى الشاعر الانجليزى الشهير توماس كور، حيث عبّر عنها فى بعض ماروى من شعره، وإذا كان نابليون قارئاً واعياً فقدْ عرف هذه القصّة قبل أن يعرفها توماس إذ كتبَها سنة ١٧٨٧م وتوماس طفل فى الثامنة من عمره. ولعله اهتدى إليها بوحى نابليون لأن طبْعتها قد تمت سنة «١٨٢١م» فى عام وفاة نابليون، ولابدّ أن تذيع شرقاً وغرباً بذيوع الحديث الممتد عن القائد الكبير، تأليفاً وتحليلاً واستيعاباً، وسنورد ترجمة القصة ببعض التصرف عن مجلة الرسالة ١٦/٣/١٩٤٢، حيث عربها الاستاذ/ ابراهيم عبدالحميد زكى.. تعريباً يجيزُ لنا أن نعتمد على جوهره الخالص، خشية الإطالة ليتضّح مدى تأثر نابليون بتاريخ الشّرق العربى، كما تأثرّ بتاريخ الغرب الأوربى دونَ أن ينْحصر فى حيزٍ خاص.

قال نابليون.. وكانَ الرجل طويل القامة، فصيح اللسان فادّعى أنه صوت الله على الأرض، وقال إنّ الواجب أن يكون الناس جميعاً من حيث المراتب والثروة سواء، واستهوىَ هذا، القانون أفئدة الدّهماء فَهرِع إليه ألوف من الناس، ولما رأى الخليفة خطر هذه الثورة عقَد

على خنقها فى المَهْد ولكنّ جيوشه كانتْ تلقَى الهزيمة، فازداد بذلك أنصارُ (حكيم) يوماً بعد يوم، وبينما كان هذا الدعى فى أوج مجده، إذا به يُصاب بمرضٍ شديد نتيجة الجهد الذّى بذله فى المعارك التى خاضها، فلما خفّت وطأة المرض، ونال الشفاء أيقَن أن حُسْنهُ قد ذَهَبَ ولم يَعُدْ خير الرجال وأوسمُهم، إذ كان قد عمى وخبا إلى الابد ضوء عينيه الرائع، ولما أحسّ بأن هذا التشويه الطارىء قد يفقده السيطرة على أتباعه والتأثير فيهم، رأى أن يحجبه عن أعينهم بقناع من فضة وضعَه على وجه، وجعلَ يخطب مؤثّراً بفصاحته. فَظَل الناس مأخوذين بعذوبة بيانه وكان يعلل لهم إخفاء وجهه عنهم بأنّه يخشى عليهم أن تبهر أعينهم ذلك الضوء الفياض الخارق للطبيعة، ولكنّ هذه الحال لمْ تَدمْ طويلاً إذ أصيب أتباعهُ فجأة بهزيمة منْكرة على أيدى جيوش الخليفة، فكانت الهزيمة صدمةً عنيفةً له، حين هجره كثير من أنصاره، وتراجع مع من بقى معه إلى مدينة محصنّة ذات أسوار عالية، ولكنّه لم يلبث قليلاً حتى أحدقَ به الجيش البغدادىّ فكان تجاه موقفين، إما أن يموت، وإما أن يحدث له ما هو أسوأ من الموت وهو الأسْر. فجمع أتباعه وخطبهم قائلاً:

«أيها المؤمنون لقد اختارنا الله لإعادة بناء هذه الأمّة، واسترجاع مجد الإنسان، فلماذا إذن يثّبط من عزمنا، ويلقى اليأس فى قلوبنا، فى الليلة البارحة والناس نيام سجدت لله طويلاً ودعوته فى حرارة، قلت لقد رعيتنى وحميتنى هذه السنين الطوال، فهلْ أثمت أو أثم أحد من أتباعى حتى تتخلى عنى، فسمعت صوتا يقول يا حكيم. إن أتباعك الذين حافظوا على عهودهم، وظلوّا معك يناصرونكَ فى ساعة الحرج، أولئك الذين سأنجيهم وأنصرهم، وأولئك هم الذين

سيقاسمونك غنائم أعدائهم انتظرْ حتّى يبزغ القمر الجديد، فإذا بزغ فمرهم فأمرهم أن يحفروا خنادق فى الأرض ليسقط فيها أعداؤهم، ويهلكوا» ففعلوا، وحُفرت الخنادق، ومُلئت بالمعادن المصهورة والزّيوت والنيران، وعندئذ أقام حكيم حفلاً كبيراً دعا إليه أنصاره، فأكلوا وشربوا، ثم وقعوا صرعى بتأثير ماشربوا من السمّ الزعاف، فرميت جثثهم فى الخنادق لتلْتهمها النيران، وحين تصاعدتْ أعمدة اللهيب قفز حكيم وأتباعه فاحترق معهم، وتقدمت جيوش الخليفة فلَمْ تلق من أثر، غير حظيّة واحدة من نساء حكيم بقيت على قيد الحياة».

موازنة بين الواقع والقصة

لاندرى أقَصَدَ نابليون أن يكتب قصّة المقنَّع الخراسانى بلسان المؤرخ أمْ يكتبها بلسان الأديب، لأنه لم يلتزم النّص التاريخى المتداول حتى يُعدّ مؤرخاً؟ كما لم يُفسحْ مجالَ التحليل والتخيّل والتصوير حتى يعد أديباً، على أنّنا لانعرف أىّ نص ذاع فى أوربا حيث كتَبَ نابليون قصّته حتّى نعرف إذا كان التصرّف فى النقل من عنده أم سبق به سواه ممن رَاقَهُمْ أنْ يحدثوا بعض التبديل فى الأحداثْ. لقد جعل نابليون عنوان قصته (المقنع) وهو فى الأصل العربى، لم يقف عندَ حد الادعاء بل تجاوزها إلى ما هو أكبر، أتكون دعواه غير معقولة فى رأى نابليون؟ حتى يتجرأ عليها المقنّع؟ كيف وقد ذكر الكتاب المقدس فريقاً من البّشر ساقهم التجبّر الطاغى إلى هذه الدعوة كالنّمروذ صاحب إبراهيم، وفرعون صاحب موسى، فهى إذن غير مستحيلة استناداً لمنطق التاريخ، ولكن الكاتب الأديب قد ادّعى أن

المقنع صوت الله فى الأرض فحسب، ثم إنّ الرّواية التاريخية أثبتت أنه كان أعور أبرص دميا منذُ نشأته، وكلّ ذى عاهة جّبار، فما ظنُّك بذى عاهات معدودات، ولكنّ نابليون جعل صاحبه يُصاب بالمرض بعدَ أمدٍ ما نتيجة للجهد المضنى الذى بذله فى المعارك التى خاض غمارها، وهذا المرض أفقده حسنه ومظهره، بل اذهبَ نور عينيه فصار أعمى، مما دعاه أن يلبس قناعاً من فضة يضعه على وجهه معللاً لذلك بأنه يخشى أن يبهر جماله الأبصار فتعشى العيون انبهاراً مما تشهد من الضوء الخارق للطبيعة، مع أن الثابت تاريخياً أن القناع كان شعوذةً وتدجيلا، حيث يصعد به ليلاً على الجبل لينعكس ضؤوه على صفحة الافق، ومنْ هنا ضُرب المثل فى التمويه ببدر المقنّع كما ألمح لذلك أبو العلاء المعرّى، لعلّ نابليون قد استبعَد أن تنطبع صورة القناع منْ فوق الجبل على صفحة الأفق فتحاشاها لتكون الحادثة أقرب إلى التصديق، كما أنّ الكاتب قد أجرى على لسان المقنع خطبةً لم ترد فى كتاب، إذ ذكر أنه قد اخْتيرَ لإعادة بناء الأمة، واسترجاع مجد الإنسان، فمن ذلك الذّى اختار المقّنع؟ إنّ قول المقنع فى خطبة نابليون مخاطباً ربه، إنما هو تصورٌ مسيحىّ، وإن كان المقنّع قد قال كما أرادنا بليون مخاطبا ربّه، لقد رعيتنى وحميتى هذه السنين الطوالة فهل أثمتُ أم أثم أحدٌ مْن أتباعى، حتّى تخليتَ عنّا، فإنّ الثابت التاريخى أنّ المقنع لم يستمر فى دعوته سنين طوالاً لأنّ مُدته الزمنية فى دعواه أوْ ما دونها لم تصل إلى تمام الثلاث من السنوات فأين هى السنوات الطوال.

لقد ختم نابليون قصته بقوله (قصّة لا يكاد يصدّقها العقل لغرابتها وهى تبيّن المدى البعيد الذى يذهب إليه الناسُ أحياناً طمعاً فى

الشهرة وبُعد الصيت). وهو ختامٌ يدل على أن الكاتب كان مؤرخاً لحادثٍ وَعَاد فرأى فيه ما يُستغرَب ويهول، ولعلّ التحوير الذى وقع فى رواية نابليون لم يكن من تصرّفه الشخصى، بل أوجده تضارب الرّوايات الأوروبية قائلاً عن قائل، حتى ابتعد عن الحقيقة فى بعض النقاط، وذلك يعنى أنه كان ملتزما بما انتهى إليه كل الالتزام، وذلك مجرد احتمال.

أدب كبير

قرأت أن الناقد الفرنسى الكبير (سَانْت بوف) يُعُدّ نابليون أكبر خطيب عرفه عصره، محتجّا بروائع خَطَبه التى دفعتْ جنوده إلى الهجوم على أضعاف أعدادها عدة، وعدداً، وبأنّه خاطب الهرم فى مصر خطاب الشاعر الأديب لا القائد المغامر، كما قرأت أن الكاتب الفرنسى (جاك نفيل) سطّر صفحات تشيد بأدب نابليون، وامتّد اعجابه إلى كلّ آل بونابرت جميعاً إذا كانوا فى رأيه أرباب بلاغة وفرسان بيان، وحياةُ نابليون الحربية كانت عائقاً لانتاجه الفنىّ، وإنْ لم تَعُق قراءتَه الأدبية لروائع الآثار العالميّة شعراً ونثراً، ولولا هيامه الذاتّى بالأدب لما كانت هذه الروائع رفيق خلوته، وزاد وحدته، وتلك عجيبة حقا، لأنّ وحدة هذا المغامر المتوثب من ميدان إلى ميدان، لا تتسّع للأدب بمال، إذ يجب أن تكون مجالَ تخطيط حربّى، وتدبير سياسى، إلا إذا كان الشعور الأدبى من القوة بحيث يقهر الضرورات الحافزة لتفسح المجال لترويح نفسىّ يكون نسيما منعشا فى أشد لفحات الهجير، هذا إلى أنّ الإمبراطور قد فقد الصديق المخلص الذى يستحق ثقته الغالية حين تفيض همومه فى جنبات صدره،

وتتطلّب أذنا تعى، ولساناً أميناً يشير، فليكن الكتاب صديق الوحدة ونديم العزلة فى أويقات تمرّ سريعا كبرق يلمع بين متكاثف الغمام، وقد ظلّ نابليون محتفظا بنتاجه الأدبّى طيلة حياته لأنه فى رأيه قطعة حيّة من نفسه وفورةٌ ساخنة من دمه، فهو إذن جدير بالصون والاعتزاز.



عثمان زناتي شاعر مجهول

كنا نقرأ فصلا أدبيا من فصول رحلة الأندلس التي كتبها البحاثة المغفور له الأستاذ محمد لبيب البتانوني بك فوجدناه يستشهد بقول القائل :

إذا ما التقى ذوشملة عربية بذى عجمه فالكل فى النطق أعجم

فحسبنا الشعر لقائل من شعراء العصور الأولى ، لأن أمثال البتانوني بك لايستشهد بشاعر معاصر إلا إذا كان شعره ذائعا غير مغمور، وقد أخذت أتساءل عن الشاعر فأخبرني المغفور له الأستاذ محمد هاشم عطية مؤرخ الأدب الجاهلي وأستاذه بدار العلوم وكلية اللغة العربية لمناسبة طارئة أنه صديقه القديم الشاعر عثمان زناتي ، فألححت عليه أن يقول شيئاً عنه فلم يتفضل ، إذ كان يشرح لنا حينئذ دالية طرفة بن العبد ، وكأنه آثر ألا ننتقل فى الدرس من قائل إلى قائل .

ومرت أيام فوقع بين يدى شعر جميل للأستاذ أحمد الزين ، يذكر فيه شعراء عصره، ويخص كل شاعر بيتين أو ثلاثة أو أربعة ، تشرح اتجاهه الشعرى فى نصاعة ووضوح ، فطربت حين وجدته يذكر عثمان زناتي ويقول عنه:

ولا تنسيا عثمان إن قريضه يعيد لنا عهد البداء ويذكر
يؤرقه برق الغضا ويشوقه نسيم على أزهار (توضح) يخطر
فذاك أمرؤ أهدته أيام وائل لأيامنا فالجيل للجيل يشكر

وإذن فعثمان كلاسيكى ينحو نحو المتقدمين فى إيثار الجزالة العربية، واللهج بأماكن البادية التى ترددت فى التراث العربى القديم، فهو قريب من عبد المطلب والكاظمى، وحمزة فتح الله على اختلاف فى الصياغة يختلف غرابة وسهولة عند هؤلاء، ولكن طابعه العام متحد فى حنينه إلى آفاق العربية وأمجاد الإسلام السالفة، لقد كنا على شيء من الحق إذن حين حسبنا الأستاذ محمد لبيب البتانونى بك يستشهد بشعر قديم.

ومرت الأيام مرة أخرى، فوقع فى يدى عدد الرسالة (٤٠٩) فوجدت الدكتور زكى مبارك يكتب مقالاً عن شاعر العراق وعالمه (السيد محمد سعيد الحبوبى)، ثم يختمه بعنوان جانبى هو (زناتى) يقول إثره.

مرت إشارة «فى مقاله عن الحبوبى» إلى الشاعر زناتى عند الحديث عن الشعراء الذين عجز عن مجاراتهم الحبوبى، فمن هذا الشاعر المصرى المجهول؟ هو الشيخ أحمد زناتى أحد أساتذة اللغة العربية، وكان الشاعر الثانى بعد شوقى فى نظر أستاذنا الشيخ محمد المهدى (أستاذ الأدب بالجامعة المصرية القديمة)، وكنا نحفظ له فى عهد الحداثة قصيداً نخاله مبتدأ بهذين البيتين:

أرقت وأصحابى خليون نوم	وما أنا ذو شوق ولا أنا مغرم
ولكن هما بين جنبى شبه	على ذوى القربى عفا الله عنهم

وقد أرجع إلى البحث عن آثار هذا الشاعر بعد حين، الشاعر الذى عرفه العراقيون وجهله المصريون» هذا ما قاله مبارك، ولكنه

جعل الشاعر أحمد، لا عثمان، فهل هما شخصان شاعران لا شاعر واحد؟ لقد بدأت المسألة تتعقد بعض الشيء، ولكن الدكتور وعد بالحديث عنه فى مقال مفصل.

فلأتابع أعداد الرسالة فقد ينجلى على صفحاتها بعض الرأى، وكان ما توقعته، فقد بادر الأستاذ الكبير أحمد العوامرى يقول بالعدد التالى مباشرة (٤١٠) تحت عنوان زناتى ما نصه:

(فى العدد ٤٠٩ من الرسالة الغراء مقال للدكتور زكى مبارك ذكر فيه «الشاعر المصرى المجهول الشيخ أحمد زناتى» الشاعر الذى جهله المصريون وعرفه العراقيون». فليأذن لى حضرة الدكتور أن أنبهه إلى أن الشاعر الذى يعنيه هو الشيخ عثمان زناتى الذى درس فى الأزهر وسلخ وقتاً غير قصير من حياته مدرساً للغة العربية بالمدرسة الحربية، ولا يزال كثير من أصفيائه يتحدثون بمناقبه ويروون شعره ويتمثلون به وكان ـ رحمه الله ـ بين الفئة الممتازة من شعرائنا الذين ازدانت بهم أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن، ولم يبالغ الشيخ محمد المهدى فى أن عده الشاعر الثانى بعد شوقى، قد رويت لى منذ حقبة طويلة بعض قصائده ومقطوعاته فأحسست من الرصانة والجزالة شيئاً كثير الشبه بشعر المتنبى والبحترى وأبى تمام.

وليتنى كنت قد دونت إذ ذاك ما سمعت فإنى والله لشديد الأسف على أن أفلتت منى الفرصة، على أنى عظيم الرجاء أن يتاح لأنجاله، وهم على ما بلغنى من صفوة المثقفين، أن ينشروا هذا التراث حتى يضيفوا إلى ثروتنا الشعرية فى تلك الحقبة من تاريخ الأدب فنا ممتازا، أما الشيخ أحمد الزناتى بك فأخو شاعرنا .. الخ).

هذا بعض ما ذكره الأستاذ العوامرى. وقد أكد أن عثمان الزناتى من كبار الشعراء فى العصر الماضى، وأن الأستاذ محمد المهدى لم يبالغ فى شيء حين جعله الشاعر الثانى بعد شوقى. ومثل هذا الشاعر الأزهرى الكبير جدير بقراءة شعره واستظهاره، ولكن متى؟ وكيف؟ لقد صمت أنجاله فلم يجيبوا دعوة العوامرى إلى نشر تراث الشاعر؟ أتراهم لا يقدرون على نشره، وهم من صفوة المثقفين؟ أم أن الشاعر نفسه قد ساعد على ذلك حين أهمل جمع الديوان فغاب فى خضم النسيان؟

ومن حسن الحظ أن أجد بعض شعر الرجل إذ وقع فى يدى الجزء الثانى من مجموعة شعرية تحت عنوان شعراء العصر جمعها محمد صبرى سنة ١٩١٢ ـ ولعله الدكتور محمد صبرى السوربونى فيما بعد ـ وقد ضمت نماذج جيدة لبعض شعراء العصر من أمثال الزهاوى والكاشف، وحسن القاياتى والشبيبى وعثمان زناتى وعبد المحسن الكاظمى واليازجى والحداد، وقد لزم صاحب المجموعة أن يقدم لكل شاعر بتعريف موجز، وكان مما قال عن زنانى ص ٨١ من المجموعة:

«هو عثمان بن زناتى بن سراج بن مدين، ينتهى نسبة إلى الحسن بن على رضى الله عنهما. ولد فى ذى الحجة سنة ١٢٧٩ هـ حفظ القرآن فى بلده: بنى عبيد، وهى قرية من أعمال مديرية المنيا، وهاجر إلى القاهرة سنة ١٢٩٢ لتلقى العلوم بالجامع الأزهر، وكان له ميل فطرى إلى حفظ أشعار العرب، وأبتدأ بقول الشعر بعد هجرته إلى القاهرة بثلاث سنوات تقريبا، ولم يهج أحداً قط، ومدحه قليل وترك الشعر بعد الثلاثين إلا ما دعت إليه الضرورة، وتعين مدرساً للغة

العربية فى مدرسة باب الشعرية الأميرية، ثم نقل منها فى ١٨٩٨ م إلى المدرسة الحربية ومازال بها إلى اليوم (يعنى سنة ١٩١٢ وهى التى طبعت فيها المجموعة) أما شعره فلا يحتاج إلى تقريظ، وقد أفادنا هذا التعريف الموجز أشياء هامة، فالشاعر عربى صريح النسب إلى الحسن بن على وكل ثقافته الأدبية أزهرية محضة، أصلها فى نفسه هيامه الفطرى بحفظ أشعار العرب، وقد ترك الشعر بعد بلوغه الثلاثين، وإذن فجل ما ترك من تراث سامى به الفحول حتى عد عند المهدى والعوامرى معا ثانى الشعراء بعد شوقى، قد صاغه فى طور شبابه الأول، فكيف به إذا ثابر على الشعر، وأعطاه حظه الوافر من الاهتمام وهو بهذه المنزلة العالية فى البيان؛ أما أخلاقه النفيسة فذات شمم نادر إذ لم يهج أحداً، ومدحه قليل فى عصر كان المديح فيه باب الشهرة والذيوع والمنصب والمال. ويخيل إلى أن ترفعه الخلقى قد صدف بنفسه عن قول الشعر، إذ رآه لدى كثير من زملائه مطية الملق والتزيف، وكأنه آثر ألا يذكر مع قوم يسيئون لفنهم فى رأيه أكثر مما يحسنون، وإلا فكيف استطاع أن يسكت أحاسيسه النابضة بالشاعرية الجزلة؟ أيكون قد أصيب فى حياته بما أورثه الزهد فى كل شىء حتى فى الشعر، والصيت والتأليف وما يتوهمه الشعراء من بقاء الذكر وخلود الحديث؟! إن ما روته (المجموعة الشعرية) من قصائده ليوحى بغضب حبيس يشتعل فى صدره ويصور نقمة مريرة على ملأ من مخالطيه، ومنهم ذوو قرباه الذين يتحدث عنهم فيقول:

أرقت وأصحابى خليون نوم　　　وما أنا ذو ثأر[1] ولا أنا مغرم

(١) روى الدكتور مبارك أنه قال: «وما هو شوق ولا أنا مغرم» وهو تحريف ظاهر لأن الشوق هو الغرام ففيم التقسيم؟

ولكن هما بين جنبى هاجه   على ذوو القربى عفا الله عنهم
فإن بك حلمى مد أعناق جهلهم   فلا زلت فيهم يجهلون وأحلم

هم ثلموا عرضى لغير جريرة   سوى أنهم منى وأني منهمو
يطول على الليل إن طال ليلهم   ومهما يطل ليلى فهم عنه نوم

إذا أنا أتهمت استقلوا فأنجدوا   وإن أنا أعرقت استقلوا فأشاموا
وضعت دوائى فوق موضع دائهم   ولكن من الأدواء ما ليس يحسم

إذا كان لا يرجى شفاء لعلة   فترك التداوى بالعقاقير أحزم
ولم أرقى الدنيا شقيا بأهله   كان لهم مجدا إذا تم هدموا

وما أسفى أنى بنيت فقوضوا   وأنى إذا أعربت فى القول أعجموا
بل أسفى أنى إذا مت قبلهم   أضيموا ولم أسمعهم إن تظلموا
يحول الثرى بينى وبين دعائهم   ولا يؤذن الموتى بأن يتكلموا
بنى أمنا لا تنكرونى وأجملوا   فإنى وإن أنكرتمونى أخوكم
فلا رحم موصولة قد قطعتها   ولا رحما مقطوعة قد وصلتم
وإنى لسيف تضربون بحده   فإياكمو أن تغمدونى فتهزموا
حللت لكم فى ندوة المجد حبوتى   فهل كان ذنبى أن شهدت وغبتمو
وبوأتكم من صهوة العز مقعدا   فلما تبوأتم سهرت ونمتموا
أعيذكم بالله أن يغلب الهوى   على أمركم أوتقطعونى فتندموا
سأضرب فى الآفاق شرقا ومغربا   وأنجو برحلى حيث لا الحر يهضم

وهى صرخة لاهبة تذكرنا بصرخة المقنع الكندى التى يقول فيها :

وإن الذى بينى وبين بنى أبى   وبين بنى عمى لمختلف جدا
إذا أكلوا لحمى وفرت لحومهم   وإن ضيعوا عهدى حفظت لهم عهدا

واتفاق التجربة بين شاعرين لايعني تقليد اللاحق للسابق كما يتوهم قوم يقعدون للاتفاقات النفسية كل مرصد، إذ أن توارد الخواطر النبيلة أو الهابطة على ما يناسبها من المعاني حقيقة ملموسة، وأقول ذلك تمهيدا لعرض ما أفاض الزناتي من انتوائه هجرة الناس في مجتمعاتهم المغرضة لاجئا إلى صحراء قاحلة تقفز من الإنس، وتعمر بالوحش. فقد يظن بعض الناقدين أن الشاعر يسطو على الشنفرى في لاميته المعروفة حين ترك الناس وأنس بوحوش البادية فجعلها أهلا وأصحابا؛ وليست المسألة سطواً ينقل فيه شاعر عن شاعر ولكنها أحلام تتشابه وتتماثل، فقد ضاق الزناتي بمجتمعه الذي يتألب فيه ذوو قرباه عليه فكيف بالبعداء من الناس؟ إنه ليجنح إلى عالم ناء عن كل إنسي، ولن يكون ذلك في غير الصحراء القاحلة ذات الوحوش والطيور، فهو إذن شعور يعتاد كل ضائق بأهله وذويه، وإذا أفصح عنه شاعر كبير فلا يوصف بالسطو لأنه أعاد تجربة قد عاناها سواه، كما يعانيها هو ساعة جاشت خواطره بالنقمة وحب الفرار، وإذا كان الشاعر ممن يعيشون بعقولهم الفكرية في عهود البداوة، يصدرون عن دواوينها ويتعمقون صورها وأخيلتها، فلابد أن ينسج على منوال ما يحب ويألف، لا لأنه يقلد، ولكنه يتنفس في أفق خاص، ويشم عبيراً يرتضيه في زهور معينة لا يبلغ سواها مبلغها من نفسه، فالزناتي إذ يصور اعتزاله الناس إلى مرابع الوحش في البادية إنما يعبر عن أحلام اليقظة التي ترتسم في الخواطر، وإن لم تتحقق في عالم الواقع، فهو صادق أتم الصدق بالنسبة إلى شعوره الخاص حين يقول:

وما العز إلا ظهر مخطومة لها ... بعرض الفيافي جولة وتوسم
وليس لنا حادٍ سوى رجع صوتها ... كفى بصداها حاديا يترنم

فآونة أهوى بجنبي للحصى ... وللرمل أخرى إنني لمنعم
وخير الحشايا في الجبال حشية ... من الرمل يستلقى عليها المهوم
أخوض بها لج السراب وحولنا ... من الوحش أسراب روائع هوّم
وذى لبد ملء الفجاج زئيره ... تكاد له أصلابه تتقصم
رأى رجلاً قد لبد الجهد شعره ... وأظفاره مشحوذة لا تقلم
فما شك أنى ضيغم غير أنني ... إذا قلت لم يفهم ولوقال يعجم
إذا ما التقى ذوشملة عربية ... بذى عجمة فالكل في النطق أعجم

وقد أضيف إلى هموم الشاعر بذوى قرباه همومه بأمانيه، فقد كان كما يلوح من أشعاره الباقية ذا آمال في الرخاء والسعة ليرضى حاجة الكرم في نفسه، وليكون دوحة يستظل بها زائروه وقاصدوه، ولكنه موظف محدود الراتب، يؤمه القاصدون فلا يبرهم بما يتصوره من أمجاد الأريحية وشمائل الفتوة، فيستشعر مرارة أليمة تتجسد في وهمه حتى تكدر صفوه وتؤرق خاطره، وقد أبان عن بعض ذلك في قوله من قصيدة طويلة روتها المجموعة الشعرية أيضاً مع قصيدتين أخريين:

حلبت الدهر أشطره إلى أن ... ملأت من التجاريب الوطابا
سأسعى ما استطعت فإن غنياً ... رجعت حمدت للمسعى الإيابا
وإن أحرم وما قصرت جهدى ... فلا لوما علىّ ولا عتابا
ولكن حاجة الأحرارعندى ... تكلفني التأوب والذهابا
إذا أنا لم أكن همومجنا ... (فلا كعبا بلغت ولا كلابا)
وقائلة وقد أودى بمالي ... سخاء قد ملكت به الرقابا
بسطت يديك بالجدوى إلى أن ... قبضت بيسط كفها الترابا
وما يدريك أن غداً سيأتي ... بما لا تستطيع له غلابا

أمعتذر إذا استجداك قوم أناخوا دون ساحتك الركابا
يشق عليك جوبهمو الفيافى وقد رجعوا وما ملأوا والعبابا
فلا أنت امرؤ مثرٍ فتسخو ولن تستطيع دونهمو حجابا

وهى أخلاق هتفت بها أعراقه العربية العلوية، وغذتها أحاديث الكرم البطولى عن أجواد العرب فى الجاهلية والإسلام، مما يؤكد أن من تراث العربية ما يدفع إلى النبل السخى والهمم البعيدة، ولو شئنا أن نستطرد فى تحليل ما بقى من شعر الزناتى لامتد القول دون انقطاع، ولكننا نجتزى هنا بما يشير إلى موهبته، ولا نعلم إلى الآن إلى أى مدى تنفس به العمر، ومتى ودع دنياه؟ ولكن شعره يؤكد أنه تجاوز مرحلة الشباب إلى الشيب، حيث يقول من أبيات نختم بها هذا المقال:

ألا رحم الله الشباب فطالما ركبت به فحل الهوى وهو مقرم
فكم هتكت عذراء أستار هودج لتنظر من هذا الفتى المتلثم
ومحصنة ودت، على حب بعلها وقد أعجبتها لمتى، لو تئيم
فأصبحت لا أرجو مودة عانس وكانت قبيل الشيب باسمى تنعم

* * *

أوّليّاتُ الشّعْرِ الحَلَمَنتيشى

ازدهر هذا النوع من الشعر ازدهارا خصيباً فى النصف الأول من هذا القرن ، ثم خبا شعاعه بعد رحيل عميده المغفور له الأستاذ حسين شفيق المصرى دون أن يترك ولىّ عهد يقوم على إمارة هذا الشعر، ونحن نعرف أن الاستاذ المصرى لم يكن وحده الكوكب الساطع فى هذا الأفق إذ كان يزاحمه الاستاذان الكبيران محمد الههياوى وَمَحمود بيرم التونسى مزاحمة النّظراء ، وما منهما إلا له مقام معلوم فى هذا اللون الفقير، وكان لهؤلاء الكبار تلاميذ ممتازون نذكر منهم محمد مصطفى حمام وطــه حراز وعبد السلام شهاب ونفراً من شعراء مجلة البعكوكة التى كان يقوم على رئاستها محمود عزت المفتى!! ولو جُمع المختار ممّا قال الأستاذ والتلاميذ لكان لنا عدة دواوين شعرية تصوّر جوانبَ هامة من الناحيتينْ السياسية والاجتماعية. لأن الشعر الحلمنتيشى ألصق بأهواء العامّة من الشعر العربى المترف ، وقد صاغه قائلوه ليرويه المثقف والأمىّ معا ، لهذا كان له تغلغل فى نفوس البسطاء ممن لا يستطيعون الارتقاء إلى أوج شكرى ومطران والعقاد ، من كبار شعراء التجديد ومازال المعاصرون لنهضة هذا الشعر يروُون بعضَ ما راج منه وازدهر على صفحات مجلات الكشكول والسيف والفكاهة والمطرقة والاثنين والبعكوكة. بل لا يزالون يحنون إلى أن يظهر نابغة من طراز الأستاذ حسين شفيق مصرى ليعيد الكرة ثانية وما ذلك ببعيد .

تسمية غربية

ولا أدرى كيف اشتهر هذا اللون من الشعر بهذه التسْمية التى لا أعرف على وجه اليقين مأتاها، وان كنّا نعرف جميعا مدلولها، والذى أظنّه ظنًّا لا يصل إلى الاطمئنان المستقر أن الأستاذ حسين شفيق المصرى قد نسب هذا الشعر إلى ندوة (الحلميّة) نسبةً على غير قياس عربى. وقال إنها نسبةٌ تجمع بين العربيّة والعامية معاً فى لفظ واحد، وهو ما يدل على مضمونه، وندوة الحلّمية كانت مأوى الكبار من شعراء هذا العصر إذ كان يؤمها الأستاذ محمد الهراوى وهو عمدة النّدوة بعد رحيل الشيخ محمد عبد المطلّب أما حسن القاياتى فصاحبُ الجاه الكريم، إذ كان يسقى الرواد جميعهم على حسابه ومن بينهم حافظ إبراهيم وأحمد الزين وحسين شفيق المصرى وزكى مبارك ومحمد الأسمر، فى هذه الندوة كان الشيخ عبد المطلب يروى الشعر البدوى الجزل، ويرفض أن يروى السهل الهين من شعر العربية نفسها، على حين كان الأستاذ حسين شفيق المصرى على أصالته فى الشعر العربى يعابثه بنظم هذا الشعر المطعم كما سمّاه صديقنا المرحوم الدكتور كامل شاهين، وهى تسمية موفقة لم يقدر لها أن تذيع. وأخذ حسين شفيق المصرى ينقل ما يذيعه فى هذه الندوة إلى صحف الفكاهة.. تحت عنوان (الشعر الحلمنتيشى) هذا ما أظنه بصدد هذه التسميّة، ويحضرنى ما ذكره الأستاذ محمد الهراوى عن ندوة الحلمية فى رثاء صديقه واستاذه الشيخ محمد عبد المطلب حيث قال:

فلِلّه بالحلّميّتين مجالس	تضم شتات الفضل والأدب العدّ
وأنت تغنّينا حداء كأننا	على النوق فى بطحاء مكة أو نجد
وتهتف بالأشعار من حضريّة	إلى عهد فهرٍ فى البداوة أو فهد

وتلقى علينا الشّعِرْ منك نعده تَحَدّرَ من عليا معدّ ومن أزد

وحين رحل الأستاذ محمد الهراوى أشار الأستاذ أحمد الزين فى رثائه إلى ندوة الحلمية قائلاً :

كأنك اليوم بالحِلْمّيتينْ على ما قد تعوّدت لا خلفٌ ولا ملل

تظلّ بين وفود الزائرين بها وفدٌ يحلّ ووفدٌ بعد يرتحل

تُصفى إخاءك مَنْ عقوا ومن حفظوا وتمنَحُ الوّد من ضنُّوا ومَنْ بذلوا

أوليَّة هذا الشعر

حين نريد أن نعرف البذور الأولى لهذا الشعر فى حقل الأدب، نجدُ أقوالاً نحار فى تأكيدها. وأذكر أن أخى الأستاذ الكبير كمال النجمى وكان رئيساً لتحرير الهلال ذكر فى مقالٍ له بعدد أغسطس سنة ١٩٦٦م. مِنْ مجلة الهلال تحت عنوان (الضحك فى الشعر الحلمنتيشى) ما يمَيلُ به إلى أن البذور الأولى لهذا الشعر قد نبتتْ فى العصر المملوكى والعثمانى، ولكنّى أحب أن أرتفع بهذه البذور إلى الحقل العباسى فى عصر أبى نواس؛ ومعلوم أن عصور الجاهلية وصدر الإسلام وبنى أمية لم تكن ذات لغة عاقية تختلف عن الفصحى فى شَأن، بل كّلها ذات لغة واحدة هى لغة الحديث والأدب معا فليس من المعقول أن يوجد الشعر المطعم فى حقل يشتمل على نبات واحد ولكن المعقول أن يبدأ التطعيمُ عند اختلاط الألسنة وجريان العربية على ألسنة الأعاجم من فُرس ودَيْلم وهنود، وقد جَرت العربية مختلطةً بغيرها فى العصر العباسّى الأول. وكُتُب الجاحظ وأضرابه حافلةٌ بالأسماء الجديدة لمستحدثات الحضارة، وفى

مجال الشعر نجدُ البذور الأولى لهذا اللّون من الأدب عند أبى نواس وشركائه.. من ذوى التبذل، حين يُحاكون لغات الجوارى، فى غزليّاتهم الماجنة فيتظرّفون بمحاكاة بعض الحروف، حين تنقلب السّين (ثاء) والظاء ذالاً، وهو تحريف مقصود، يدُخل العامية فى الفصحى دُخولاً مُسْتَمْلَحاً بين شعراء هذا المنْحى. وللحسين بن الضحاك مشابُه فى هذا المنحى، أمّا الشاعر الماجن المعروف بالكندى المَنْجى فقدْ مرّ بدير (مارماعوث) وَوجد من مال إليه، وعشق مُنادمتهُ فأخذ يقلّد لهجته، وينطق الطاووس بالثّاء لا بالسين، ويقول عن الناقوس «الناقوث» وسجل ذلك فى مقطوعاتِ ذائعة.

والشعر المطعم على ضربين ضربٌ يقتصر فيه الشاعر على بعض الألفاظ العاميّة دُون أن ينظر إلى أصل يحتذيه، ونوعٌ يهدف فيه الشاعر إلى قصيدة فصيحةِ مشهورة فيُباريها بقصيدةِ مطعّمة تختلط فيها العاميةو بالفصحى، وهو النوع الأعمّ الأغلب، وسنختار لكلّ نوعٍ منهما ما يدلّ عليه، واختيارُ قصيدةِ لمُباراتها لا يَغْنى شيئاً من مفهوم المعارضة، إذ المعارضة الشعرية اصطلاحا لا تكون إلا فى الشعر الفصيح أصلاً وفرعا. أما المباراة فهى أقربُ الألفاظ لما نُريد من مناظرة الشعر الأصيل بالشعر الهجين.

البهاء زهير

أفْلحَ البهاءُ زهير حين جعل الفصحى من الطواعية واليُسر، بحيث تجذبُ كل قارىء إليها، إذْ جَاءَ بضرب مِن السهْل الممتنع، يعبّر عن أدق الخوالج فَى سُطوعِ وشفافية، وهو بذلك قد ألغَى الفوارق بين لُغتين تقتربان حيناً وتبتعدان حينا آخر. ولو وَجدَ البهاء من يخلفُه فى

أسلوبه التعبيرّى لوجد العامةُ فى الشعر المصرى ما يَجدُونه فى الزجل العامى، لأن الجدار الناهض بين اللغتين قد ارتفعَ على يد البهاء ارتفاعا أزال الحدود، ومحا الحواجز، وأىَّ قارىء لا يفهم مثل قول البهاء:

مِنَ اليوم تعارفْنَا ... ونطوى ما جرى منا
ولا كانَ ولا صارَ ... ولا قلْتُم ولا قلنا
وانْ كانَ ولابدّ ... مِن العُتب فبالحسنى
فقد قِيل لنا عنكم ... كما قِيل لكمْ عنّا
كَفى ما كان من هجرِ ... فقدْ ذُقتم وقد ذقنا
وما أحْسَنَ أن نرجع ... للودّ كما كُنّا

والذى نَعْنيه من حديثنا فى هذا المجال، هو أنّ البهاء قدِ استأنسَ العاميّة فجرّتْ على لسانه فى مثل قوله (ولا كان ولا صَار) (وإن كان ولا بدّ) وأعنى بِعامية هذا اللون، جريانه على ألسنة العامّة مع أنّه عربى فصيح، وللبهاء نظائر شجعَ فيها الناظمينَ على اقتحام ما يدورُ على ألسنِة العوام، نجد ذلك فى مثل قوله:

إياك يدْرى حديثا بيننا أحد ... فهمْ يقولونَ «للحيطان آذانُ»

وقولـه:

كلّ ما يرضيك عنى ... «فعلَىَ عينى ورأسى»

وقولـه:

حاشاك أن ترضى بأنْ ... أموت فى الحب «غلط»

وقولـــــه :

وكــــانــــت بــيـــنــــنــــا طــــاق ... فــــهــــا نحـــن ســـدناهـــا

« ستذكر قولِي والزمان طويل »

فعبارات « للحيطان آذان » و(على عينى ورأسى) و(أمُوتُ فى الحب غلط) و(الزمان طويل) و(فها نحن سددناها) من ألفاظ العامة المشتهرة ، ولا أدلّ عليها من قوله أيضا :

كــلّما قــلــتُ اســتــرحــنــا ... جَــاءنَــا الــشــيــخُ الإمــامْ

والبهاء زهير بما قدّم من أمثال هذه العبارات قد أسهم ــ دون قصد ــ فى تنْمية الشعر المطعّم ، إذ قرّبَ اتجاهاً من اتجاه .

ابن سودون المملوكى

وابن سودون مثل « آخر لمن تَعمدّ العاميّة فى شعره ، دُون أن يقصد محاكاة قصيدة سابقة ، وهذا الرجل الهازل الذى ألف كتاب (نزهة النفوس ومضحك العبوس) . وحَشّاه بما يميل إلى الإسفاف كان فى نشأته الأولى طالبَ فقَه وحديث وتفسير ، ثم اختِير إماماً لمسجد يخطب الناس ويعظهم ، ولا أدرى كيف حادَ عن طريق الجدّ الصارم إلى الهزل العابث فانقلب متظرفا يُضحك الناس ما استطاع ، وقد اشتهرت له أبيات يقول فيها :

عــجــب عــجــب عــجــب عــجــب ... بَــقــرٌ تَــمْــشــى ولهــا ذنــب

وَلَــهــا فــى بــزيــزهــا لــبــنٌ ... يــبــدُو للــنــاس إذا حــلــبــوا

والــنــخــل يُــرى فــيــه بــلــح ... أيــضــا ويُــرى فــيــه رطــب

والمركبُ مع ما قد وسقت في البحر بحبل تنسحب
والناقة لآمِنْقارها والوزة ليس لها قتب

وقد أضحكْت هذه الأبيات مجتمعها الذى قيلت فيه. وَمَوْضِعُ المفارقة فيها أنّ الشاعر يتعجب من الشيء الطبيعيّ الذى جاء على أصله، إذْ كان العجبُ غير مستغرب مثلاً -مِنْ بقرِ لاذَنَب لها ولالبن، ومن نخل لايثمر، ومن مركب لاتسير في البحر، أما أنْ يتعجب الشاعر في غيرِ موضع العجب، فلا أدْرى أى براعة فيه إلا أن يكون الشاعر أخا حماقةِ يُخاطب الحمقى، وقد أسهمَ فى الشعر المهجّن حين جاء بأشعار حشاها بالعاقية، ويظهر أنّ تأثيره قد امتدّ إلى ما بعدّ وفاته، لأن الشيخ يوسف الشربينى وهو هازل آخر قد أشادَ به فى كتابه (هز القحوف) وأشار إلى طريقته، واختار له أبياتاً من الشعر المطعّم تدّل على أن لها نظائر نُسبت إلى ابن سودون، ولَم تصل إلينا بَعْدُ، ومما أختاره من شعره المطعم قولُه من رثاء يبكى فيه والدتَه بكاءً هازلاً، وأنا أفهم أن يكون الهزلُ فى الهجاء أوْ فى المداعبات الإخوانية أو فى الغزل عند أرباب السُجون، أمّا أنْ يكُون الهزل فى الرثاء، وفى رثاء الأمّ بالذات فهذا لايقبل حتى فى مجتمعه الذّى يرعى حُرمة الأمْ مهمَاعرفَ السخف عن نجلها وكأنّى بابن سودان وقد نظم الرثاء لاليعبّر عن شعور حزين بل ليُضحكَ من ينتظرون منه الإضحكاك فنّم عن عاطفةِ بارة. وإذا كان الشاعرُ ممن يجيدون الشعر الفصيح، فإنّ من الأحرى أنْ يرتفع بوالدته عنْ مستوى الإضحاك ساعة الرحيل، وقد قدم الناس للعزاء، وفى ظنهم أن الهَازل سيجدّ إذْ وقعت الواقعة وأزفت الآزفة، ولكنْ سار على نمطه الهازل حيَن قال:

لموتِ أمّي أرىَ الأحزان تحنيني ... فطالما الحَنانُ لحسنِ تحييني

وطالما دلّعتني عند تربيتي ... حتّى طلعت كما كانت تربّيني

إن قلتُ (نمْنم) تَجيء بالأكل تُطعمني ... أو قلت (أنبو) تَجيء بْالماء تسقيني

وهذا الضَّربُ من الشعر، هو الشعر المهجّن بعينه، وهو عند ابن سودون متواضعٌ لا يرتفع إلى مستوى اللمحة البارقة، والروعة الآخذة، ونظلمه حين نطالبه بأنْ يشذ عن طبيعة عصرِه لأنّ الشعر جميعه إذ ذاك عربيّه وهجينه كان فى مستوى يستدّر الإشفاق ففيم الملام؟

أمّا الّذينَ قَصدوا والمحاكاة تقليداً واحتذاءً لقصيدةٍ مشهورة فكثيرون، ولعلّ أول من بدأ هذا الضرب من التقليد شاعرٌ يعرف (بصريع الدلاء) واسمه فى أكثر الروايات محمد بن عبد الواحد. وهو معاصرٌ لأبى العلاء المعرى وقد حاز قبوله وقال عنه الشاعر الفيلسوف بيتاً لا يخلُو من تعاطف وهو:

دُعيتَ بصارعٍ فتداركَتْهُ ... مبالغةٌ فَرُدّ إلى صريع.

وأبو العلاء لا يترك عبثَه بقضايا النحو، ونرجُو أنْ يكون صريعَ الدّلاء قد فهمَ ما يقصده شيخُ المعَرة من انتشاله من الانحدار إلى الارتفاع. وقد كانَت لمِقْصُورَةِ ابن دُريد العالِم الشاعر الراوية شُهْرة مدوّية فتداولتها الألسنةُ لما حوت من روائع الحكمة، وغرائب الأمثال، ودارتْ حولها الشروح والمحاضرات، وقد نَحَا فيها ابنُ دريد مَنْحى زُهير فى حِكمِته، لولا أنّه أفرط وبالغ حتى قلب المَقْصُورة إلى وعظ ناصح، والناسُ دائماً يلهجون بأبيات الحكم، ذات التّجارب الدالّة، فلا عجب أن اشتهرت المقصورة، وتحدث الناسُ بمثل هذه الأبيات، منها:

من ظلَمَ الناس تحامُوا ظُلمه		وعزّ عنهم جانباه واحتمى
من لم يعظه الدهر لم يَنفعهُ ما		راحَ به الواعظُ يوما أو غدا
من لم تفُده عِبر أيامُه		كان العمَى أولى به من الهُدى
من عارضَ الأطماع باليأس رنت		إليه عينُ العزّ من حيث رنا
والناس ألفٌ منهمو كواحد		وواحد كالألف إنْ أمرٌ عنى

هذه الحكم العاقلة شاء صَريع الدلاء أن يُحاكيها فى مقصورةٍ هزليّة قال فيها :

من لمْ يُرِدْ أن تنتقبْ نِعاله		يحملها بكفّه إذا مشى
من دَخلت فى عينه مسلّةٌ		فاسألهُ مِن ساعته عن العمى
من أكل الفحم يُسَوّدْ فَمَه		وصار صَحنُ خده مثل الدجى
من صفَع الناس ولم يَدعْهم		أن يصفعوه فعليهم اعتدى
من طَبخ الديك ولا يذبحه		طَارَ من القدر إلى حيث يشا
من شَرب المُسْهِل فى فصل الشتا		أطال تَرديداً إلى بيت الخلا
من نَاطح الكبش يفجّر رأسه		وسأل من مفرقه شِبْهُ الدّما

ثم ختم القصيدة ببيت كريه يذم به مقصورة ابن دريد، وكان أولى بما قالّه صريُع الدّلاء أنْ يموت لساعته ولا يرويه أحد، ولكّن الناس يحفلون بالساقِط الهابط، كما يحفلُون بالسّامق المحلق، فطارت لأبيات صريع الدلاء شهرةٌ، وتَرجم له المؤرخون مثل ابن خلكان وإبن شاكر والثعالبى والذهبى وابن كثير والسيوطى، وكلهم تحدث عن مَقْصورته الهزلية، والعجيب أنّ له شعرا فصيحا جادًّا أرفع مستوى من شعرِه الهازل، ولكنْ قَبعَ فى الصحائف الجفّوة لا يرَويه أحد واحتشد

المترجمون لمقصورته، فطارت شهرتها طيرانا، وهكذا نجد حسناء تختفى، وشوهاء تتألق!

ومهما يكن من شيء فقد كان صريع الدلاء أول من هجّن الشعر الفَصيح، وإذا لم يستعمل اللفظ العاقى فقد قرّب منه حين أهمل بعض قواعد النحو، وحينَ أنحدر بمعابثه إلى مستوى سطحّى قريب. ونختم حديثنا بشاعرٍ كبير، احتفَل بالشعر المطعم عن أصالَة، وأفرَط فيه إفراطاً لفت إليه الأنظار، وقد انفردَ بين شعراء جيله بهذا اللون الأدبى، وأكاد أجزم أنّ حسين شفيق المصرى وأضرابه من روّاد الشعر الهجين فى هَذَا العصر، قد تأثروا بعامرَ الأنبوطى حين قَرءوا تاريخ الجبرتى، وعرفوا اتجاه هذا الأديب المفنّن، فالأنبوطى، من شعراء العهد العثمانى الأخير، وقد ماتَ قبل الحملة الفرنسية بثُلث قرن، ولكنّ الجبرتى ضمن له الذكر بما نشره من شعره فنبّه الناس إلى فنّ طريف، لقد حاكى الأنبوطى قصائدُ مشتهرة فى عصره، فنقلَها من غرض إلى غرض، ونكْتفى بمثالين مما قاله معارضا الطغرائى، وابن الوردّى، إذ لكلّ منهما لاميّة رائعة.. حازت شهرة مدوّية فسَمَتْ همة الأنبوطى إلى تقليدها، ويطول بنا القول لو استَشْهدنا بالأصل والفرعِ، ولكنّنا ننقل عن الطغرائى من قوله فى لاميّة العجم:

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل	وحليةُ الفضل زانتنى لدى العطل
فَيم الإقامة بالزوراء لا سَكنى	بها، ولا ناقتى فيها ولا جملى
ناءٍعن الأهل صفر الكف منفرد	كالسيف عرّى متناه عن الحلل
فلا صديّق إليه مشتكى حزنى	ولا أنيس إليه منتهى جذلى
أريدُ بسطة كف أستعين بها	على قضاء حقوقٍ للعُلا قبلى

ونقارن ذلك بقول الأنبوطي من قصيدة طويلة :

أَنا جِرُ الضأن ترياق من العِلل ... وأصحن الرزّ فيها منتهى أملي
فيمَ الإقامة بالأرياف لا شبعي ... فيها ولا نُزهتي فيها ولا جذلي
ناء عن الأهل خِالي الجوف منقبض ... كمُعدم مات من جوع ومن فشل
فلا خليل بدفع الجوع يرحمني ... ولا كريمَ بلحم الضأن يسمح لي
أريدُ أكلاً سمينا أستعينُ به ... على العبادات والمطلوب من عملي

فإذا تركنا الطّغرائى إلى لاميّة ابن الوردى نجده يقول فى مطلعها :

أعتزِل ذكر الأغانى والغزلْ ... وقُل الفصلَ وجانبْ مَن هزلْ
ودع الذكر لأيام الصبا ... فلأيامِ الصّبا نجم أفل
واهجر الخمَرة إن كنت فتىً ... كيف يسعى فى جُنون من عقل
لا تقلْ أصلى وفصلى أبداً ... دائماً أصلُ الفتى ما قد حصل

ونجد عامر الأنبوطي يقلدها فيبدأ بقولة من قصيدة :

اجتنبْ مطعومَ عدس وبصلْ ... فى عشاءٍ فهو للعقل خبلْ
ودع البيسار لا تعُنْ به ... تُمس فى صحةِ جسم منْ علل
واحتفلْ بالضأن إنْ كنت فتى ... زاكى العقل ودعْ عنك الكسل
من كبابِ وضلوع قد زكتْ ... مَضْغُها يَنفى عن العين الزّغل

وبعد : فقد جعلتُ هذا المقال توطئةً لابد منها للحديث عن الشاعر الأديب الفنان حسين شفيق المصرى ، لنعرف كيف جرىَ بهذا اللّون إلى مدى فسيح فياح .

نخلتا حلوان

للشعراء إلهام خفى يعرج بهم إلى ملكوت رفيع ، فهم يرون الكائنات الماثلة فى صور حية متخيلة . وقد يقف الشاعر أمام رسم ماحل فيحاوره ويجادله ، ويجعل منه إنسانا يفصح عن شكاته ، ويبين عن طواياه ، وإذا كنا نحمد الكاتب الذى يصور مشاعره تصويرا صادقا فيعرض لقرائه ما يختلج فى صدره من إحساس فى أسلوب مرسل طليق ، فنحن بلاشك نعجب بالشاعر الذى يتصور عواطف غيره فيفصح عنها إفصاحا مشرقا ، وقد يدقّ تصوره فيتغلغل فيما حوله تغلغلا عميقا ، فإذا مر بقصر سامق ، أو شاهد دوحة باسقة ، منحهما جانبا من الإحساس البشرى الدافق ، ثم يعبر عما يتخيله من شعورهما المزعوم فيجمع إلى خفة الشعر غرابة التشخيص وطرافة التفكير .

والحقيقة أن الشاعر يخلع إحساسه ـ فى اكثر مواقفه ـ على ما حوله ، فإذا كان مبتهج النفس ، منبسط الأسارير ، تصور ما أمامه من نبات أو حيوان كذلك ، فرسمه فى صورة مرحة سارة ، أما إذا كان ملتاع الفؤاد منقبض الصدر ، فإنه ينقل عن شعوره لوعة الأسى وبرم الانقباض ، وقد تهتف حمامة على فنن ناضر فيسمعها شاعر حزين فجعه البين فى أحبائه ، فيتصور هتافها نوحا مريرا ، وقد يسمعها شاعر مرح ممتع بأصفيائه ، فيتصور هتافها غناء ساحرا ينعش الأفئدة ويسرى عن النفوس .

وسنتحدث عن نخلتين عجيبتين بسقتا فى ناحية متواضعة بحلوان (فى آخر سواد العراق) ، وقد لبثتا حينا من الدهر يمر بهما الناس فى الغدو والرواح ، فلا يسترعيا انتباه إنسان ، حتى نزل بهما مطيع بن

إياس الليثى ، وكان شاعرا متمكنا يسلك بقرضه فجاجا متشعبة ، فتحدث عنهما حديثا جازت به الركاب ، وتناقله الرواة ، فتسامع به الوزراء والخلفاء ، وقد دارت الأيام على النخلتين فطوتهما عن الوجود منذ ألف ومائتى عام ، وبقى حديثهما فى شعر مطيع معطرا بعبير الهناء !

لم يكن مطيع هداراً لجبا يجذب بروعته الأبصار.. كالإقيانوس الصاخب بل كان شعره ينحدر رقيقا عذبا كالغدير المترقرق، وذلك شأن من يقصر فنه الشعرى على الغزل الرقيق والطريف، فلا يحيد عنها إلى المدح إلا فى ظروف خاصة تفرضها المحاباة، وتقتضيها الطاعة فى عصر تطلع فيه الأمراء إلى المدح والإطراء. وكانت حياة اللهو والمرح قد غمرت مطيعاً بمباهجها الفاتنة، فاصطحب الجلساء، ونادم الظرفاء، وتحفز إلى أسراب الكعاب يسارقهن البسمات، ويخالسهن الصبوات، غير أن الدهر لم يفلته من كيده، فقد أوقعه فى غرام جارية فاتنة تحت يده، فلكت عليه فؤاده، وتخطفت أزمة رشاده، ثم حزبه الخطب الملم، فاضطر إلى بيعها اضطراراً، وهام فى الآفاق على وجهه، فقذفت به النوى إلى حلوان، ثم برح به الشوق إلى حسنائه، واشتعل الحنين فى أحشائه، فنظر فيما حوله ذات اليمين وذات الشمال، فرأى عن كثب نخلتين متجاورتين ترتفعان فى الأفق إلى مدى شاهق، وقد هبت بها رياح منعشة، فرنحت عطفيها، وحاولت أن تضمها ضماً ببرد الغلة وينقع الشوق ، فاشتبكت فروعهما السامقة فى أجواز الفضاء وقتاً غير قصير !

منظر عاطفى أخاذ، عصف بالشاعرعصفاً عنيفاً، فتذكر ملاعب الصبوات وعهود المسرات، وحسد النبات على التئام شمله، واكتمال

صفائه، وكأنه تصور للنخلتين آذانا تسمع، وعقلا يفهم ، فأخذ يحدثها عن تقلبات الدهر، وفتكات الأيام، ثم استشهد بنفسه على صحة ما ادعاه، فذكر جاريته الحسناء، وكيف كانت تذهب شجونه وتسرى همه، غير أن الزمان لا يبقى على أنس، فاستل روحه من يده، ووقف له بالمرصاد أنّى سار، وهو لابد سيقف للنخلتين موقفه منه فتبدلان وحشة بعد أنس، وثنائياً غب لقاء. وهكذا يتشاءم تشاؤما يرفه عن خاطره، ويبرد من لوعته، وفى النفوس من يلحقها الألم الممض فتشتعل من الغيظ اشتعالا، حتى إذا لحق بغيرها من الأشياء سرى عنها بعض الشيء وأخذت تعتبر وتتأسى بالمصاب الجديد. ولقد علل مطيع نفسه بما سيلحق النخلتين ــ قبل وقوعه ــ فبردت جوانحه، وطفق يصف شجونه المتحاربة، إذ يقول:

أسعدانى يا نخلتى حلوان	وابكيالى من ريب هذا الزمان
أسعدانى وأيقنا أن نحساً	سوف يأتيكما فتفترقان
ولعمرى لوذقتما ألم الفر	قة أبكاكما الذى أبكانى
كم رمتنى صروف هذى الليالى	بفراق الأحباب والخلان
جارة لى بالرى تذهب همى	ويسرى دنوها أحزانى
وبرغمى أن أصبحت لا تراها	العين منى وأصبحت لا ترانى

وإذن فقد روّح الشاعر عن نفسه، وأزال بوعيده المنكود، ونحسه الأشأم بعض ما يغاديه من الوساوس. وكأن النخلتين قد أصاختا لشعره فأسعدتاه بما يريد، أو هكذا تخيّل ذلك، فخف إلى بغداد بارد الصدر، وقابل صديقه حماداً فأسمعه ما قال فى النخلتين من الشعر، وعبّر عن سروره مما تخيله من الإسعاد والعون. وتمضى الأيام فى سيرها الرتيب، فيحيا قوم بالرفاهية والأمن، وآخرون --- بسياط

ملتهبة، فتصهر الأفئدة، وتحرق الجلود، ومنهم حماد صاحب مطيع، فقد ثارت به عاصفة هوجاء كادت تطيح بحياته، فتذكر شعر صاحبه، وخف إلى سدرتين مائلتين بقصر شيرين، وهو يظن كل الظن أنها ستسعدانه، وستمثلان دور النخلتين. وينظر حماد إلى السدرتين الشاخصتين فلا يحس براحة، فينقلب إلى منزله ساخطا ناقما، ويجمجم بحروف حزينة تألف منها هذان البيتان:

جعل الله سدرتى قصر شير ... ين فداء لنخلتى حلوان
جئت مستسعداً فلم تسعدانى ... ومطيع بكت له النخلتان

والواقع أن مطيعا رغم تحامله على القرينتين الآمنتين، قد أسدى إليها يداً بيضاء، فقد نبه من خمولها المستكين، وذاع شعره فى الناس فأخلصها من أزمتين حادتين، فقد مرّ الخليفة الباطش أبو جعفر المنصور بالعقبة ذات يوم فوجدهما تزحمان الطريق، وتعوقان القوافل المحتشدة عن السير بضع ساعات، فأمر باستئصالها فى غير هوادة؛ ولكن أبيات مطيع ترنّ فى أذنيه، ويتقدم إليه أحد أعوانه فيقول فى تضرع ذليل: أعيذك بالله يا أميرِ المؤمنين أن تكون النحس الأشأم الذى عناه مطيع فى قوله:

أسعدانى وأيقنا أن نحسا ... سوف يأتيكما فتفترقان!

فيتراجع المنصور الجبار عن قصده، يخشى أن يزيل النخلتين فيتناقل الناس أنه النحس الأشأم. ثم يستعيد الأبيات فيثنى عليها فى لباقة ويهش لذكرى مطيع فيخصه بجانب من الاطراء، وذلك ظفر عظيم للنخلتين، وكسب هائل لشاعر مستكين.

وسيعجب القارىء حين يعلم أن خليفة جباراً كالمنصور يرتاح إلى ماجن خليع كمطيع.. مع أنه فوق سيرته الداعرة قد صاحب الخلفاء الأمويين، وغرق فى لجج من نوالهم الجزيل، مما يهيج عليه أبا جعفر، بل يوجب أن يلتمس من جنونه العابث مقتلا يرديه، فيمحق نديم أعدائه ونجى خصومه، ولكن أتيح للشاعر فرصة مكنته من التزلف للمنصور، فاستل سخائم صدره، وبدد غياهب مقته، فقد اختفى الشاعر حقبة طويلة فى مطلع العهد العباسى، حتى إذا علم بما اعتزم عليه المنصور من مبايعة ولده المهدى بالخلافة، كشف عن نفسه اللثام، ودلف إلى الحفل الحاشدة فى جرأة، ثم صاح فى الناس بأضخم صوت وأعلاه، فزعم أن بعض المحدثين روى أن رسول الله ﷺ قال: «المهدى منا محمد بـن عبد الله، وأمه ليست عربية» والجمهور فى كل زمان ومكان كالأطفال يؤمن بالترهات ويدين بالأباطيل، فصفق للراوى الآفك، وصدق ما قاله بدون تمحيص. ولم يخف على أبى جعفر افتراء مطيع، ولكنه وجد لكلامه ثمرة نافعة، فغمره بعطفه وأمنه على نفسه، فقر القلب الواجف، ونام الطرف الساهد، وأنس الهائم الشرير.

ولقد مات أبو جعفر، وقام بالأمر من بعده ولده المهدى، وكان ذا شغف بالرحلات المتنوعة، فوصفت له حلوان، فأصدر أمره بالمسير إليها، فأخذت زينتها ولبست من التنميق حلة زاهية، وبالغ العمال والصناع فى زخرفة المكان زخرفة تليق بالزائر العظيم، ثم حانت ساعة القدوم، فحضر الخليفة فى ملأ من سماره وندمائه، وامتد بساط الأنس فصدحت المزاهر وعزفت القيان؛ وكان فى المغنيات جارية أديبة تدعى «حسنة» فجالت ببصرها فرأت عن كثب نخلتى حلوان،

وقد بقيتا على العهد متجاورتين متصافيتين فلما جاء دورها فى الغناء انطلقت تصدح بقول ابن أبى ربيعة:

أيا نخلتى وادى بوانة حبذا ـ إذا نام حراس النخيل ـ جناكما

ودار الخليفة ببصره فرأى نخلتى حلوان، فعلم أن جاريته تعنيها من طرف خفى، فأراد أن ينغص عليها صفاء الحفل فقال. لقد خطر لى أن أقطع النخلتين فإنهما يزحمان الطريق، فصاحت الجارية «أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون النحس الأشأم الذى تنبأ به مطيع». فتبسم فى عجب وقال لمغنيته الجميلة: أحسنت فى رأيك، والله لا أقطعهما ما حييت، ولأوكلن بهما من يتعهدهما بالسقيا والإنعاش ثم عين لهما ساقيا مخلصا، فما زال موكلا بهما حتى مات أمير المؤمنين.. وانتهت الأزمة بسلام. ولكن أى شىء يبقى على الأيام؟. لقد عصف الدهر بأطواد شامخة رسخت أصولها فى باطن الأرض وناطحت قمتها الجوزاء، فهل يبقى على نخلتى حلوان؟ لقد فاجأهما النحس المشئوم على يد الرشيد، حيث هاج به الدم مرة فى حلوان فأشار عليه طبيبه أن يأكل جمار نخلة فارعة، فبحث أعوانه لدى الدهاقين فما تيسر لهم الدواء، ففزعوا إلى إحدى النخلتين فقطعوها فى عجلة وأتو بالدواء للرشيد. ومرّ الخليفة بالنخلة الباقية فى إحدى روحاته فتذكر أبيات مطيع، ووقف فى مكانه واجما ساهما، كمن ارتكب محظوراً خطيراً لا يمكن تلافيه، ثم قال فى حسرة كظيمة: عزيز علىّ أن أكون النحس المفرق، ولوددت أنى لم أذق الدواء ولو قتلنى الدم بحلوان.

واهًا لمطيع!! لقد جعل الرشيد يتحسر على استئصال نخلة

واحدة، وكأن قتل ــ بدون جرم ــ إنسانا ينبض بالحركة، ويعيش بالحياة كما أتاح للنخلتين حديثا يروى مدى الأحقاب، وجعل منها مادة دسمة للشعراء، فنظم أحمد بن ابراهيم الكاتب فى رثائهما أبياتا دامعة، وارتفع بها شاعر آخر إلى مرتبة عالية؛ فوازن بينهما وبين عاذلين من بنى الإنسان، والتمس لهما العذر فى رفق ملموس (١) فهل كان يدرى مطيع حين نظم أبياته أى قصة عجيبة مثل فيها الفصل الأول وختم الرشيد فصلها الأخير؟.

أجل لقد كتب الشاعر لنخلتيه تاريخا يطالعه القراء كما يطالعون ترجمة عظيم مثل دوره ثم لقى حتفه فترحم عليه الجميع.

ارحم الغصن لاتنله بسوء   قد يحس النبات كالإنسان

* * *

(١) يقول بعض الشعراء :

أيها العاذلان لاتعذلانى   ودعانى من الملام دعانى
وابكيالى فإننى مستحق   منكما بالبكاء أن تسعدانى
إننى منكما بذلك أولى   من مطيع بنخلتى حلوان
فهما تجهلان ما كان يشكو   من هواه وأنتما تعلمان

مصطفى كامل والجامعة المصرية

تابعت ماقِيل وما نُشر عن احتفال جامعة القاهرة بعيدها الماسىّ، فسرّنى أن تُعْرَض هذه الصفحة الوطنية من تاريخ النهضة العلمية فى مصر، كما فرحتُ بما لمستُ من إنصاف القائمين على تأسيس الجامعة من أمثال الأميرة المحسنة فاطمة إسماعيل تلك الّتى تبرعتْ بِحُليّها الذهبية، وبالمسافات الشاسعة فى أرقى موضع من أماكن البلاد، لكن ينهض الصرح الجامعىّ فى أعظم مكان، وكانت الاشادة بها فى هذا العهد واجبا مفروضا تحتّمه أخلاق العلم، ودافعا حافزاًلِهمَمِ من لدينا الآن من كبار الأثرياء الذين يجمعون قناطير مقنطرةً من الذهب والفضة، ثم لا تسمَحُ أيديهم الكزّة بزادٍ قليل يُضىء منارة العرفان كما سمحت الأميرة الكريمة بوابلٍ دافقٍ صاب الأرض فأتى أُكله ضعفين فاستحقت أن يقول أمير الشعراء فى رثائها :

يا جزَعَ العلم على ... (سكينة) الموقّره

من ذا يُواسِي هذه ... الجامعة المستعبره

لو عشتِ شدتِ مثلها ... للمرأة المحرره

قرنت كل حجر ... فى أسّها بجوهره

مفخرة لبيتكم ... كم قبلها من مفخره

لكنّ إنصاف هذه الأميرة قد قابله إجحاف بجهد الزعيم الوطنى الكبير مصطفى كامل، حيث كان الرائد الحقيقى للجامعة المصرية

حين صدع بالدعوة إلى إنشائها قبل أن يفكّر الرسميّون في إيجادها.
ولا أنكر أن اسمَه الكريمَ تردّد مرةً واحدةً على لسان إنسان عظيم، ولَكنْ أنكر أن يغلّف الصمت ألسَنةً وأقلاماً خاضتْ في تاريخ الجامعة وتعدّتْ مُصْطفى كامل فلمْ تذكر فضله الأثير في صفحات من المجلات والجرائد امتلأت بالغث والسمين، وكانَ من حقّ التاريخ أن يُشاد بفضل الزعيم الشاب وأن ندون مأثره في سبيل الجامعة، وأن تُشرق الصحفُ بنور وجهه جزاءً وفاقاً لبطلٍ جادَ بنفسه في سبيل مصر، والجود بالنفس أقصى ما يستطيع بَطلٌ أن يفعل حتى لقد صدق فيه قول شوقي:

ياصبَّ مصر وياشهيد غرامها   هذا ثَرَى مصرٍ فنمْ بأمان

بين محمد عبده ومصطفى كامل

إذا افترقت مناحي الجهاد بيْن الرجليْن العظيمين.. في أكثر من موقف، فقد إلتقت في الناحية التعليمية حيثُ ذهب المُصلحان إلى أن تربية الشباب تربيةً علمية هي أقوى مراحل الاستقلال الحقيقّي فَدعا كلاهما إلى إنشاء المدارس الحرّة بعيدة عن سطوة المستشار الانجليزي في وزارة المعارف، ولم يترك مصطفى كامل مناسبةً تحين دون أن يكتب، وأن يخطب مناديا بتأسيس المدارس من علمّية وفنيّة حتى لبىّ دعوته نفرٌ من كرام الأثرياءَ، وقد انتهز الفرصة حينَ تبرع حسين القرشوللي بإنشاء مدرسة الحلمية سنة «١٨٩٩» فحضَرَ حفل افتتاح المدرسة ليُلقي خطبةً رنانة في تمجيد هذا العمل الكبير، وأخذَ

يعرض تاريخ المدارس من عهد محمد على، وبيّن أثر النهضة العلمية حيئنذ فى قوة البلاد السياسية، ويأسف على ما قام عباس الأول من تعطيل مدارس الوطن، جهلاً بدورها الحسّاس، داعياً الأغنياء إلى استدراك ما فات بالاقتِداء بِمنشىء هذه المدرسة فاستجاب له نفرٌ من كرام المواطنين، وأنشأوا بباب الشّعرية مدرسةً مماثلةٌ رأوا أن تُسمّى المدرسة باسم مصطفى كامل، وبعد ثلاثة أشهر من افتتاحها تركوا رعايتها إلى الزعيم الشاب، فلم يشأ أن يتخلّى عن مسئولية تُضاف إلى أعبائه الكثيرة، ونَشر فى جريدة المؤيد مقالا يقول فيه:

«إنى أعلَم أن حِمْل المدرسة ثقيل، وأتعابها كثيرة، ونفقاتها طائلة، ولكنّى قبلت القيام عليها بكّل ارتَياح أملاً منى فى خدمة الوطن العزيز وترقية لمدارك الناشئين ثم اتجّه الزعيم وجهةً صريحة حين أعلن أن مدارس أوربّا تهتم اهتماماً بارزاً بالدّين المسيحى، ولذلك فإنّ مهمته الأولى أنْ ينهض بالدّين الإسلامى فى هذه المدارس لترقية العاطفة الدينية.. عند التلاميذ، كما يجب النهوضُ باللغة العربية، وتقديمها عن كلّ لغة، ولابدَّ من نفع أبناء الفقراء بأن يكون ثُلُث الطّلاب منهم يتعلمون بالمجاّن، وقد هتف حافظ ابراهيم بجهودِ مصطفى التعليمّية وألقَى قصيدةً فى الاحتفال العلمّى بنهضة مدرسة الزعيم قال فيها:

فيا أيها الناشئون اعملوا	على خير مصرَ وكونُوا يدا
ستُظْهِر منكم ذواتُ الغيوب	رجالاً تكون لمصر الفدا
لك الله يا مصطفى من فتىً	كثير الأيادى كثير العدا
سيهتف باسمك أبناؤنا	إذا آن للزرعِ أن يُحصدا

وكان من الطبيعى أن يُفكّر مصطفى كامل فى التعليم العالى، بعد أن رأى جهوده فى إنشاء المدارس الابتدائية والثانوية تُؤتى ثمارها، وهو يعلم أنّ الاحتلالَ سيُحارب إنشاء هذه الجامعة، لأنّه يريد موظفين من حملة الابتدائية والكفاءة لشغل المرافق الحيوّية فى الإدارات والمصالح فحَسب، ولا يريدُ جامعةً تعوّد الطالب المصرى على استقلال الفكر وتُلهمه مبادىء الحرية والعّزة والاستقلال، وتوقفه على التجارب العلمية فى المعامل ليغدو مُسلَّحاً بذخيرة العصر. لا يُريد الاحتلال هذه اليقظة الفكْرية لأبناء مصر، ولكنّ زعيم الشباب يَرى حيوية الجامعة وضرورتها المحتومة لمن يريدون الجلاء التّام، والاستقلال الحرّ فارتفع صوته فى ١٩٠٤/١٠/٢٦ منادياً بالتبرع لانشاء الجامعة. ثم اهْتَبلَ سانحة الاحتفال بالذكرى المئوية لمحمد على باشا فدعا إلى انشاء كلية محمد على، ولفظ الكلية مطلبٌ متواضع تحتمه الظروف المحدودة لواقع البلاد، إذ كان يرجُو أن تكون الكلية نواةً لأخواتِ لها تتبعها واحدةً واحدةً، وهذا مَا كَانَ مِنْ بعدُ ــ حين بدأت الجامعةُ بكلية الآداب، لتضّم إليها المدارس العالية الأخرى تحَت أسماء جديدةٍ تُشارك فى نهوض البناء الجامعى، وفَسحَ المجال فى جريدة اللّواء لمناقشة المشروع، وقدْ أيدّه الكبار من أحرار الرجال، ونهض الموسرون للتبّرع فجمعوا ثمانية آلاف من الجنيهات. وهذا المبلغ فى أوّل القرن كافِ لبناء قصر عظيم، ولكن دسائس الاحتلال قد نصبت حبالها للعاملين، فوقف مشروع الاكْتتاب فجأة، وأخذ الزعيم يحثُّ الهمم دون يأس، وفى هذه الأثناء وقعت (حادثة دنشواى). وانصرف مصطفى كامل للتنديد عالميا بمأساة هذه القرية كشاهدٍ فظيع على مساوىء الاحتلال، وبذل من الجهد الجبارّ ما كانَ له

مُوضعَ الزلزال فى مقاعِدِ الاحتلال، حتى سقطَ كرومر، ورأت انجلترا أن تُبدّل سياستها باستدعائه غير مأسوف عليه، وأجمعت البلاد على تكريم مصطفى كامل لما بَذلَهُ، من جهد جبّار، حتى أسقط الطاغية المتجبر، وتدافعت التبرعات الغزيزة لاقامة حفلة تكريم لَهُ على نحو مثالىّ يُصبحُ حديث الناس، وتواترت الأنباء إلى مصطفى وهو فى باريس فرأى أن تتوفر الجهود الواسعة لا لتكريمه بل لانشاء الجامعة، بحيث تكون التبرعات الجديدة مضافةً إلى التبرعات السابقة فتكون منها ما ينهض انشاء الجامعة التى هى مطرح آماله ومنطلق أمانيه، لذلك كتبَ إلى زميله الزعيم المجاهد محمد فريد بك خطابا مؤثّراً بتاريخ ١٩٠٦/٩/٢٤ يقول فيه بعد المقدمة:

«ما شعرتُ لحظةً واحدةً فى حياتى بأنّى مستحقٌ لِشىء من الألتِفاف أو الشكر لدِفاِعى عن حقوق مصر ومطالبتى باستقلالها، لأنّى أَقوم بغرضٍ مقدس وما خطوتُ إلى اليوم الخطوة الأولى فى سبيل إسعاد مصر التى امتلأت رحابها بعظام الأباء والأجداد، وأىّ فضلٍ لمثلى، وأصغر جندى فى الجيوش يُلقى علينا أكبر درس وأسمَى عظة، لأنّه الحامل الراية الوطنية المدافعُ عن شرف مجده، فإذا كانَ هذا شأن كل فردٍ من أفراد الجيش، فكمْ تكون واجباتُنا نحن نحوَ الوطن عظيمة جسيمة» إلى أن قال رحمه الله من خطَابه الطويل:

وخيرُ هدية اقترح عليكم تقديمها للوطن العزيز والاقة المصرية المحبوبة، هى أَن تَقومَ اللجنة التّى شُكلت بدعوة الأمة كلها، وطرق باب كّل مصرى لتأسيس (كّلية) أهلّية تجمُع أبناء الفقراء والأغنياء على السواء وتُهيىء للأمة الرجالَ الأشداء الذينُ يكثرون فى عداد

خدامها المخلصين ممّن لا يخافون فى الحق لوما ولاعتابا . هذه هى الهديّة الوحيدة التى يليق بالمواطنين الصادقين أهداؤها لمصر، وليذكر الذاكرون أن بيْن أبناء الفقراء الذين سدّ الاحتلال فى وجوههم أبوابَ العلم والنور رءوساً لو تحلتْ بالعرفان لكانتْ فخر مصر على وجه الزمان . إنّ الكلية الجامعة هى البناء الذى أدعو المصريّين جميعا إلى تشييده . وما أكبر سعدى لو ساعدتْنى الأيام على وضع حجر فيه » .

العمل الحاسم

وقد قُوبِل خطاب مصطفى كامل بحماس متدفق ، وأخذ الناس يفكّرون جدياً فى ضرورة إنشاء الجامعة ، لأنّ الخلاص من الاحتلال لن يتّم بدون رءوس مفكرة تحارب بسلاح العلم والمعرفة ، وكانت مأساة دنشواى أكبر حافزٍ على التفكير فى إنشاء الجامعة ، فتألفتْ لجنةٌ لتأسيسها ، واجتمعت لأول مرة بمنزل المغفور له الزعيم سعد زغلول ، وكان مستشاراً بمحكمة الاستئناف ، وتبرع مصطفى بك الغمراوى بمبلغ كان النواة لِمَا تَلاَه ، وكان سعد وقاسم أمين هما الرأس المفكر للمشروع . ثم تَعين سعدٌ وزيراً ، فقامَ قاسم أمين مقامهُ فى الدعوة إلى المشروع حتى خَرج من ضيق الخيالَ إلى فضاءِ التنفيذ .

لم يستطع الزعيم سعد فى منصبه الرسمى أن يعمل على إتمام المشروع لأنّ المستشار الانجليزى يناوئه ويضع فى وجهه العراقيل ، ومن وجهة نظر سعد أن يجدّ فى إصلاح المدارس ، وهى حقيقةٌ واقعة ، ليترك أصْدقَاؤهُ فى حرّيتهم المطلقة يواصلون جهدَهم فى تأسيس

الجامعة. وهذا ما اعترض عليه مصطفى كامل حين وجه نقْداً صريحاً إلى وزير المعارف يتعجُب فيه كيف يتحّمس لتأسيس الجامعة وهو مستشارٌ فى محكمة الاستئناف. ثم يترك حماسه فجأةً بعد أن يصبح وزيراً للمعارف وهو بمنصبه الجديد أشدّ قرابةٌ وأمسُّه آصرةً بالدعوة إلى إصلاح التعليم، وهو عجبٌ له ما يبرره، لو كان سَعد وزيراً فى حكومةٍ حرة مستقلة. ولكنّه فى رأيى ينقذ اليومَ ما يستطيع إنقاذه، ويترك لأبناء الغد أن يَسْتكملوا المسير على أنّه بذل جهده قدر المستطاع كما سيلى.

وَأعْجبَ ما يدْهشنى من ذوى الانصاف والإصالة أن يغمطُوا جهودَ ذوى العمل الجاد، والحّمية المخلصة. وقد وضح هذا الغَمْط المجحف فيما كتبهُ بعضُ المؤرخين عن نشأة الجامعة إذ تجاهلُوا الحديثَ عن جهودِ الزعيم الشاب مصطفى كامل تجاهلاً تاماً، بحيث ألمّوا بكلِ صغيرة وكبيرة فى دور التكوين، وتركوا من رفع الراية، ونادىَ بالبدءِ، وجمَع التبّرعات، وشجّع المكتتبين، وأنا أعهد فى الدكتور محمد حسين هيكل إنصافاً وَحيدةً أكثر فأكثر، ولكنى أراه من وجهة نظرى ــ فى ما يكتبه عن مصطفى كامل وسعد زغلول معاً يسلك سبيلاً أعذره فى الاتجاه إليه، لأنّ الكاتب بحكم بيئته وثقافته واتجاهه الغربى يُصدر عن وجهة نظر تجد المعارض، وان لمْ تعدمِ المؤيد، وقد ألمّ بحديث انشاء الجامعة فى الجزء الأول من مذكراته السياسية، فقال فى حديثه عن وزارة مصطفى فهمى التى سلخت من عمرها ثلاثة عشر عاماً خاضعةً لمشيئة الاحتلال وجده: «إن الطبيعة المستنيرة بدأتْ تملّ هذه الحالة من الركود، وجعلت تدعو إلى إصلاح جوهرى، رأت القيام به ضرورةً به للارتفاع بالمستوى القومى

إلى حيث تُكاتِفُ البلادُ غيرَها من الأمم المتحضرة، كان قاسم أمين قد دعا إلى إنشاء جامعة مصرية أهلية، إيماناً بأن التعليم العالى الصحيح هو الوسيلة الأولى والأخيرة لرقىّ الأمة، وكانَ على يوسف قد دعا إلى أن يكون التعليم بمراحله المختلفة باللّغة العربية، وكانَ تعبيره الذى تناقله الناس هو أنّ تعليم العلم بلغة أجنبيّة ينقلُ العلّم إلى طائفةِ من الأمة، وأنّ تعليم العلم بلغة الأمة ينقلُ الأمة كلها للعلم، وينقل العلم إلى الأمة كلها».. وكانَ أول وزير رَحبّ المصريون بدخوله الوزارة سعد باشا زغلول، إذْ كان مستشاراً فى الاستئناف وكانَ صديقا حميا لقاسم أمين بك، وكانَ قاسم قد اختارَه رئيساً للهيئة التى تألفْت لإنشاء الجامعة المصرية الأهلية، وكانَ لورد كرومر يرَى فى إنشاء هذه الجامعة مالا يتّفق مع سياسته.. فى أن الغرض من التعليم فى مصر هو تخْرج موظفين للحكومة، لكنّه لم يستطع التصريح بهذه المعارضة من غير أن يجد مسوّغا لتحويل التيار إلى ناحيةِ قومية أخرى، لذلكَ بدأت أبواقه تذيع أنّ نشر التعليم الأولى بين طبقات الشعب أجدَى على البلاد من إنشاء الجامعة وأخذتِ الحكومة تشجّع إنشاء المكاتب، فلما عُين سعد زغلول وزيرا للمعارف. فقِيلَ أن الغرض من تعيينه أنْ يترك رئاسة مجلس الجامعة اضعافاً لهذا المشروع «ص ٢٢ جـ ١».

وهذا الكلام قد ظلّم مصطفى كامل حين أغفل أقلّ إشارة إلى جهده، وقد واصلَ الدعوة إلى إنشاء الجامعة ثلاث سنين دأبا، كما ظلم سعد زغلول حين جعله فى مظهر من يُحارب إنشاء الجامعة، وإنْ جعل الكاتب ذلك بصيغة التمريض وهى (قيل) فهو أخفّ لهجة من الاستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى رحمه الله، إذ جزم بهذا الأمر جزماً

كان مدعاةَ العجب حين ذكر فى ص ٤٠١ من كتابه عن مصطفى كامل قوله عن سعد زغلول:

«وقد تَبينّ أن انسحابهُ من رئاسة اللجنة (لجنة انشاء الجامعة)، كان تحقيقاً لرغبة الاحتلال لكى يهبط المشروع، وقد أصابه الركود فعلاً بعد انسحابه من اللجنة وبخاصّةِ لأن الحكومة خلقت فى هذا الحين بإيعاز من الاحتلال حركة إنشاء الكتاتيب فاستحث الأعيان فى مختلف الجهات على التبرع لها معارضاً بذلك مشروع الجامعة».

ردّ حصيف

وإذا كانَ الواقع الصريح يُنصِف مصطفى كامل ممّن أهملوا جهاده الحاث فى سبيل إنشاء الجامعة، فإن سعد زغلول وقد تبنّى الدعوة إلى إنشاء الجامعة وترأس لجنة التبرعات قَدْ وجدَ من يُنصفه فى قلم مؤرّخه الكاتب الكبير الأستاذ العقاد حيث قال ردّاً على ما قاله الاستاذ/ عبد الرحمن الرافعى فى مقال جيد نشره بمجلة الرسالة ١٩٣٩/٢/٢٠م.

«أما الحقيقة فهى أن الحكومة تبرعتْ بالمال واعترفتْ بشهاداتها، شهادة الجامعة ــ كما تعترفُ بشهادات المدارس الأميرية، وسألنا سعد فى ذلك فقال فى بيان نَشَرْناهُ فى كتابنا عنه: «كل هذا والذين يريدون إخراج الجامعة من قبضة الحكومة قد يجهلونَ أنها دفعت مرةً واحدة خمسة أضعافَ ما دفعه المتبرعون فى أنحاءِ القطر المصرى بأجمعه، وليس هذا كلّ ما أمدّت به الحكومة هذه الجامعة، فانّ اعتبارها مدرسةً منتظمة، وقبولَ شهاداتها بين بقيّة الشهادات المدرسيّة

يُنشّط الناسَ فى الاقبال عليها إقبالاً لا تظفر بمثله إذا كان الغرض منها مجرّد تحصيل العلم وتوسيع العقل، وربّما لا ننسى أن بعضَ هؤلاء كان يطلب من الحكومة إعانَة المشروع ماديا، فرفضهمُ الآن إشرافها عليه، بعد أن أدّت الحُكومةُ ما طلبوُه منها عن الغرابة بمكان».

هذا بعضُ ما يقُال عن الجهود المباركة فى إنشاء الجامعَة، وقد أردنْا بهذا المقال أن نُنصف جهد الزعيم مصطفى كامل فى تأسيس الجامعة، فاطرّد الحديث إلى إنصاف زعيمٍ مماثلٍ هو سعد زغلول. ولكلّ منهما مكانه المرموق، وجهدُه المشكور.

وإذا كان تاريخ الجامعة فى مدى خمسة وسبعين عاماً فى حاجةِ إلى كتاب علمّى موثق لا يكتفِي باللقطات الصحفية والصور الرسمية، فإنّ على من يتصدّرون لتأليف هذا الكتاب أن يرصدُوا كلّ خطوة من خطوات البناء الأساسى، وهم حينئذ لا يغفلون جهد مصطفى كامل، ولا يجحفون بسعد زغلول.



أديبة فرنسية تناصر تقاليد الشرق
« مدام دى سان بوا »

نذكر كثيراً من كاتبات الغرب، ونَتَباهَى بهنّ إذ زُرْن مصر أو العراق أو المغرب، وكتبْن بعض الملاحظات المسموعة عن المرأة الشرقية، وإن شئتَ فَقُلْ عنِ المرأة المسلمة، وليس المهمّ لدْينا أن يكتبْن الزّور والإفك عن عالَمٍ لم يَعرفنه، فهذا ما نَتقبلُه بالترحيب والابتهاج، جرياً على سنن من قال:

لئن ساءنَى أنْ نلتِنى بمساءةٍ ... لقدْ سرّنى أنّى خطرت ببالكِ

ولذلك نُكْثرُ من الحديث عنْهن، وتظهرُ الصّحفُ والمجّلات حافلةً بأخبارهن، وصُورهن، ومآدبهنّ وأحاديثهن، حتى ينقضى الموسم وتعوُد الزائرةُ مودّعةً بأسمْى مظاهر الاحتفاء، وكأنَ زيارتها كانتْ وساماً يلمعُ على صدر، أو أكليلاً يُضىء فوق جبين!

ولكنْ! نَرى فى الجهة المقابلة، أديبةً كبيرةً، ذاتَ إلهام جاذِب فى آفاق الشعرِ والرسمِ والأدب، تفدُ إلى مصر مُعْجبةً بِروحِ الشرق، فتُنشِىء مجلّةً راقية تشيد بعظمة المرأة العربيّة، وتفتحُ منزلَها الرحبَ لاستقبال الزائرين والزائرات مِن بنى جنسها، لتُطلعهم على ما يجهلُون من شيمِ العرب، وتقاليد المسلمين، ثم لا ينقضِى يومٌ من أيامها الحافلة دوَن أن تشغله بقصيدة عامرة، أو لَوْحةِ مصوّرة، أو تاريخ صُادق، أو

تحليلٍ اجتماعِيّ لبعض الظواهر التى تجتذبُ الانتباه، وهى تُصدر المجلّة على نفقتها، وتستقبلُ الزائرين بِأَرْيَحِيّتهَا وتُواسى الراجين بمالها، ثم تنقضى الأعوام، وترحلُ إلى ديارها فلا تجد مَن يذكر جهادها الحافل، ومآثرها البيض! لأن مجلتّها كانتْ عربيَّةَ الرّوح، فرنسيّةَ الحروف، ولو كُتِبتْ بحروف عربيّة لظنّها القارىء صادرةً عن جمعيّة إسلاميّة، أو كليّة أزهرية! وهذا وحده هو الذى جَعلَ ذكرَها مندثِراً، وتاريخَها مهملاً، ! أفَلَوْ كانت مجلتُها تسيرِ على النّقيض المُعارض! أن أفيمحو النسيان أثرها لدى النقّاد فى الشرق والغرب!؟ إننا حينئذ نُؤْخذُ بِدوِىّ الرعد، وقَرْعِ الطبول!

حفيدة لامارتين

لم يكن لامارتينُ من شعراءِ فرنسا فحسب، بل كانَ من شعراء العالِم، لأنّه رُزِق من رَهافة الحسّ وقوّة الشعور ما استطاعَ به أن يرسم الطبيعَة فى لوحات شعرية لا تُوجدِ عند سواه، كما تغلغَل بهذا الحِسّ المرْهف إلى أدِقّ الخلجات المستترة فى أعمقِ الأعماق ليجعلها سافرة الملامح وضيئَةَ القسمات، وقد فتُن بالشّرق، وهامَ بربوعه فانطلَق عدةَ مرات إلى لبنان وسوريا، ونزلَ فى ضيافة الأمير اللّبنانى بشير مُكرّماً مبجلاً، وأقطعَهُ السلطان عبد المجيد أرضاً بالأناضول، وقد اعترفَ بأنّهُ من أصلٍ عربّى إذ أنّ أجدادَه من عربِ الأندلس.. الّذين نزلُوا جنوبَ فرنسا، وأقامُوا بها، ثم اختلُطوا فيا بعدُ بمن جاءوُا من أسْرَى العَرَب فى الحروب الصليبية، فبنوا لآل مارتين قَصْراً على الطّراز العربى، وكلّ ذلك عَرفَتْهُ حفيدتهُ (مدام دى سان بوا) التّى عشقت الشرق، وفتُنت بتقاليد العرب، وقد هبطت إلى شتّى الربوعِ العربّية

زائرةً متطلعة، وهامتْ بآثار العَرب فى الأندلس، فرسمتْ مشاهدها فى لوحاتها، وترجمتْ عن عواطفها الصادقة فى شعرها، ثم رأتْ أن تستقرّ بمصر، لأنّها فى رأيها أولُ قطرٍ يمثّل الروح العربيّة المتوثّبة، واتخذتْ من حلوان مقرّاً دائماً حيث نزلتْ فى قصر محمد بك أنسى بشارع سيد أحمد باشا، وجعلتْ منه سفارةً أدبّية للتعارف الأخّوى بين مثقّفى فرنسا، وأدباء مصر، وقد نَزَل ضيفاً عليها الدكتور (مارد ريس) المستشرقُ الفرنسى الذّى نقل (ألف ليلة وليلة) إلى الفرنسية.. فقرأ فصولاً كثيرةً من ترجمته عليها، واستمَع إلى ملاحظاتها فى إعجابها، وهى بعدُ زوجة وزير مرموقٍ من أشهر وزراء فرنسا وأثريائها، وقد أُتيح لها من الثروة ما أقدمتْ به على إصدار مجلّة شهرية فى مصر تُسمى (فينكس) لتكون دفاعاً مخلصاً عن حقوق الشرق المهضوم، ومجابهةً سافرةً للاستعمارين الانجليزى والفرنسى، اللذين كانا يحتلاّن ربوع الشرق العربى فى عدوان لامبرّر له، ولولا تَدهوُر الحالة الاقتصاديّة بفرنسا، الذّى ضاءلَ من محصولها المادّى هناكَ، لاستمّرت المجّلة فى تأدية رسالتها، وقد عطفَت على كثير من أدباء مصر.. الذى ينظمون الشعر بالفرنسية ويكتبون القصّة كذلك، فقدّمتْهم إلى دُور النشر الفرنسيَّة، ومن أظهر هؤلاء الشاعر فولاذ يكن نجل الشاعر الكبير ولىّ الدين يكن، حيث زكّتْهُ لدى القائمين على النشر بباريس، فنشرَ ديوانه (أغاريد شاب شرقى)، وكتبتْ عنه الصحف المتخْصصة مشجّعة، وقالَ عنه الكاتب الفرنسى (بول ريبو) إنّه نظير بيرون، كما نَشرَ فولاذ بوساطة (مدام دى سان بوا) كتاباً عن (سعد زغلول والد الشعب).. حين انتقل الزعيم إلى جوار ربه سنة ١٩٢٧، وكلّ ذلك يتضاءلُ جوار كلماتها القوية عن المرأةِ المسلمة،

وموازناتها النّاقدة بينها وبين المرأة الغربيّة، التي اندفعت إلى التيار الصاخب، حيثُ حملها الموج الهادر بعيداً عن الاستقرار العائلي، وتُوشك.. المرأة المصرية أن تفْعل ذلك!! هذا ماقالْته الكاتبة سنة ١٩٢٧ وكرّرته على مدى أعوام، حيث سجّلت آخَر صيحاتها الناقدة بمجلة المعرفة سنة ١٩٣٣، أمّا أنّ المرأة المصرية توشك أن تفعَل ذلك، فما أسرعَ مافعلت، بلْ ماأكثر ماباهت بما فعلت، ولعلّ القارىء فى شوق إلى بعض آراء هذه الكاتبة ذاتِ النظر الإنسانى البعيد.

بين الشعر والنثر

تفرّقُ جيّداً (مدام دى سان بوا) بين اتجاهَيْها الأدبيّين، نثراً وشعراً، فهى فى قصائد الشعر تميل إلى الرمزّية الغامضة، وتُغلّفُ أفكارها بضباب يحجبُ كثيراً من المعانى، وقد ذَكَرَ ناقِدُوها أنّ هذا الغموضَ وليدُ اتّجاه صوفّى يجعلُ الرّمز دليلاً يُومىء إلى مايتعذّر كشفهُ من الأفكار البعيدة، لذلك لم يجْد ديوانها الشعرىّ ذيوعاً على المستوى العام، إذ اقتصَر تداولُه على مجموعةِ خاصة، ترى أنّ الشعر لايُسفِر عن وجهه، بل تُومضُ معانيه بيْن الآونة والآونة، كما يلتمِع البرق الخاطف وسطَ غيمٍ متكاثف، والشعُر فى هذا الاتجاه ينقلبُ إلى أحجبة، ومعلومٌ أننا نقرأ الشعر لنستمتع، لا لنفكّ الألغاز، ونستوضَح الأحاجى! أما أسلوبُها الكتابّى فقد آثر الوضوحَ السّاطع، لأنّها فى مقالاتها الصّحفية كانتْ مُصلحةً هادية، ومناقشةً بارعة، ولن تبرزَ وجهاتُ الإصلاح اجتماعيا وسياسيًّا إلا فى ضوء المنطق الصريح،

والحجةِ الكاشفة، فمدام دى سان بوا، تتحدثُ مثلاً عن حرّية المرأة فى الإسلام فتجابه الموضُوعِ فى لبابه الصّريح، إذ تبدأ بتحليل المراد من كلمة (الحرية) التى خدعت الأبصار بلفظها المعسول، حتّى إذا ذهبَ الخداعُ فى ضوء التمحيص الهادف، رأيْنا الكلمة الخادعة قد فقدتْ مدلولها، إذِ انْبَعثتْ كلمة الحرية فى الغرب لِيرتكَب تحت ستارها أبشع المظالم المروعة.. وأفدح الأخطاء المهولة ما تقشعِر له الأبدان، والغربُ هو الذى نقلَ هذا الزيف الخادع إلى الشرق، فانطلقَ الأغرارُ من بنيه يحاربونَ تقاليده الأصيلة باسم هذه الحرية، وكانت النتيجةُ أن اندفعت المرأةُ المسلمة إلى محاكاة الأزياء الخليعة فى الملبس، والمبالغة فى ارتياد أماكن اللهو. وإقامة موائد الإسراف الذّى لا يخلو من تبذّل، مع أنّ المرأة الفرنسية الصميمة لا تذهبُ إلى هذه الأماكن إلاّ فى مناسباتِ محدودة، تذهبُ مع أسرتها للترويح، لا للّهو العابث وإثارة البطالات!

تقول الكاتبة الفرنسيّة: إنّ مسألَة السّفور ليست بذات قيمة فى نفسها، أمّا الشىءُ الأكثرُ أهميّةً فهو رُوح التعليم التى تأمرُ بارتداءِ الملابس المحتشمة، وتلك هى النقطةُ الجوهريّة، فقد تكون هيئُة المرأة. ومشيتُها الخليعة، ونظراتُها المثيرة، أكثر أهمية من الملبس المثير. وهذا ما يُشاهد كثيراً.

لقد افتتنت المرأة المسلمة بمظهر الحرية الكاذب، ولو حاولت أن تُفكّر جديّا، لعلمت أنّها تملكُ قسطاً وافرا من الكرامة لمْ تبلغْه المرأة الغربيّة، فهى بفضل تعاليم الإسلام أصبحت بعيدةً عن متاعب الحياة ومقاصد الرجل العابث!

يقولون إن المرأة الغربيّة لها الحرّيةُ الخالصة فى اختيار زوجها، وهذا أمرٌ يحتاج إلى وقفة متأمّلة، لأنّ هذه الحرية فى الغرب لا تقع إلاّ فى النادر! إذ أنّ أمر الزّواج فى العائلات الأوربّية تحكمُه العلاقات الأسرّية، والثروةُ المادّية، والمركزُ الاجتماعى، وفى ضوء ذلك يتمّ الاختيار، وإذنْ فالغربّية محكومةٌ بالأوضاع الملزمة فى اختيار الزوج! وما يتمّ عقده سريعاً فى غفلة الأسرة لا ينتهى إلى سعادة، بلْ ينتهى إلى تأزّم مثير، لأنّ الزواج فى المسيحية رابطةٌ مقدّسة، والطلاقُ متعسر! فكيف يتم الهناء مع الشقاق؟

أما تعدّد الزوجات فليس الأصل فى الإسلام، ولكنّه الملجأ عند الضرورة، وإذا لمْ تعرف المجتمعاتُ الأوربيّة هذا التعّدد بطريقته المشروعة، فإنها للأسف قد عرفتْ ما هو أشدّ ألماً وأنكَى عاقبة، لأنّ العلاقات غير الشرعية بين الرجل والمرأة فى أوربا شائعةٌ، يراها المجتمع ذاتَ حّقٍ فى الوجود، حتّى أنّ رجال الأخلاق هناك لا ينكرونها، بل يعتبرونَها حقاً مشروعاً للمرأة، وبناءً على ذلك فالأطفال غير الشرعيين يُعتبرون من أبناء الأسرة! وإذنْ فأيها أكرم؟ أن نعترف بالتعّدد، أوْ أنْ نلجأ إلى الخليلات؟

(عمل المرأة)

ومن حق الكاتبة الاجتماعية أنْ تُوضّح آراءها، وإنْ وَجدتْ مجالاً للخلاف فى بعض اتجاهاتها، فلا يمنعُ اختلافُ وجهات النظر أن نُسجّل لكلّ ذى رأي رأيه كما قرّرهُ وكرّره، وقد أكّدت (مدام دى سان بوا) أن عادات الشّعب الأمريكى قد تغلغلتْ فى أوروبا، لأنّ

الفرق كان ضئيلاً جداً بين المرأة الغربيّة والمرأة المسلمة قبلَ الحرب العالمية الأولى، إذ لَمْ تكنُ المغالاةُ فى الأعمال المهنية من طبيعة المرأة الأوربيّة حين ذاك، كما لم يكن انتشار صالات الموسيقى والسينما والرقص، والملابس القصيرة الفاضحة كما هو الآن فى زيادة نموّه، وسعِة اطّراده، وكلّ ذلك ترف مادىّ لا ينتمى إلى الجمال الروحى فى شىء، ولا شكّ أنّ جشع النفس ورَغبتَها الشديدةَ فى المال هُما اللذان دفعا المرأة المعاصرة إلى العمل خَارج البيت، ففرّتْ من قيود الزوجية الرقيقة إلى قيود ثقيلة، يُحكمها صاحبُ المصنع، ورئيس العمل إحكاماً لا انفلات منه، ولأجل أنْ يستر المجتمعُ هذا الرّق الجديد اخترَع ما سمّاه (شرف العمل) وأىّ شرفٍ فى الانكبابِ على الآلات الحديديّة فى المصانع فى حَذر تامٍ، خيفة أن يقع التقصيرُ، فتعانى المرأة من التقريع مالا يُمكن أنْ تراهُ مع الزّوج مهما احتدّ واشتطّ، على ما فى ذلك من إجهادٍ للقُوى الجسميّة للمرأة، وهى بطبيعتها غيرُ مهيأة للنهوض بهذه الأثقال، ثمّ عليها بعدَ ذلك كله أن تَرجع فى المساء إلى المنزل لتبدأ عملها كزوجةٍ فى إعداد الطّعام، وتنظيف الملابس، وغسلِ الأطباق، لقد كانت القسمةُ طبيعيّةً بين المرأة والرجل، حين وُكِل إليه أن يكسبَ خارج المنزل وَوُكِلَ إليها أن تعملَ داخلهُ، أما الآنَ فمَنَ الذى كَسب؟ الزوجُ أم الزوجة!! وحتى لو لجأتِ المرأة إلى الأعمال الخفيفة نسبيًّا مثل الكتابة.. على الآلة الكاتبة. أما تشعرُ بالسأم المفرط فى الانزواء ساعات متوالية فى مكتب ضيّق.. لتكررَّ عملاً لا لذة فيه، لقاء أجر يضيع أكثره فى ضروريات هذا العمل نفسه،!! والصداقِ! الصداق الذى تأخذهُ المرأةُ المسلمة عند زواجها! قدْ عدّه كتّاب الغرب ثمناً مُستْتراً لها،

فهى إذنْ تُشترىَ به، وكأنّها سلعةٌ تجارية! وهذه مغالطةٌ إذ لوْ جازَ لنا أن نعتبَر الصداق ثمناً تجارياً، بالنسبة للزوجة، لطبقْنا الأمَر على المرأةِ الغربيّةِ حين تُقدم (الدوطة) للرجل عند الزواج، فكأنهَا بهذا المنطق تشتريه وتعتبرُه سلعةً أيضاً، والحقّ أن كلا الأمرْين باطل! والرجُل هو المؤهّل للكسب المادىّ، فمن الطبيعّى أن يُقّدم الصداق دونَ اعتراض، وإذا كانت المرأةُ الغربية تُقدّمُ الدوطة على أنّ تكون ملكاً لها إذا تمّ الفراق، فهذا الشرط غير متحقق، لأنّ الزوج يَدَّعِي أنّه بذله فى حاجاتِ الزوْجة، وهو غير ملزم، بأن يشرَحَ فى أىّ شىء بذلَ هذا الصداق! ولكنّ المرأة المسلمة تُبْقِى فى ذمّة الزوج ما يُسِمّى بمؤخّر الزواج، وهو مُلزَمٌ بالوفاء، ويُحاكَم إذا تأخّر على وجه السرعة، فكيفَ تجوز المقارنة بين المسلمة والغرْبية فى هذا المجال؟.

وتنصح الكاتبة المرأة المسلمة فتقول:

«علَى النسّاء الشرقيات أن يدرُسن علم التاريخ بتوسّع، وحينئذٍ يعرفْن تمام المعرفة أنّ الشْعبَ الذّى كانت له هذه العظمة، وذلكَ التاريخ المجيد، يجبُ ألاّ يجعل نفسَه مطيّةً لمدنيّة أخرى.. أقلَّ من مدنيته، أو يقتفى أثر حضارةِ فقدت مثلها الأعلى منذ آخر العصور الوسطى، وصارت متميّزة بتغلبّ الروح الفردية الشريرة، التى نشأتْ من انتشار العلوم التجريبية المادّية، فكانت أقرب إلى أن تكون مِعْولَ هدم».

(وراثة الميول)

كانت (مدام دى سان بوا) تصف نفسها بأنّها حفيدةُ الشّاعر لامارتين، مع اعترافها بأنّها ابنةُ ابنة أخته، وليست ابنة ابنته، إذ ترى

أنّ درجة القرابة واحدةٌ بين بنت البنت، وبنت الأخت، على أنّها وحدها دونَ ذوات الدرجة المتفقه، هى التى ورثتْ طباعَ الشاعر وميوله، فقدْ هامت بالشرق كما هام، وإذا كانَ الشاعر الكبير قد تنقّل فى بادية الشام، وعاشر العرب والأعراب.. مصطحباً كلبه الوفّى، فإن (مدام دى سان بوا).. حينَ سكنتْ حلوان، سَرَّها أن ترىَ خيام الأعراب فى العشرينيات منتشرةً فى البراح الممتدّ حول الضاحية، فسارعتْ إلى التعرف بهم، وحملتْ من الملابس والحلوى ما جعلها محّببة إلى الرجال والنساء والأطفال جميعاً، وكانتْ تركب الدّواب، ويسير وراءهَا أعرابىٌّ ممّن تغمْرهم بسخائها، ولا تكادُ تنقطع عن زيارة الخيام أسبوعيًّا، إذ ترى من البَساطة فى التعامل، واليُسر فى المعيشة، والسّذاجة فى التفكيرِ ما يدفعُها إلى حنينٍ متّصل إلى دُنيا البراءة التى لا يغمرها جدْولُ الضّرْب بأرقامِه الحسابية. وأسهمه المالية، وقد أهداها شيخُ العرب كلْباً نظيفاً. فآثرتْه بالرعاية، واتخذتْه حارسَ المنزل، حتّى إذا تركتْ حلوان عزّ عليها أن تهجره، فحملْته إلى الفندق صديقاً وفياً، وحارساً شجاعاً! أتُراها تذكرتْ كلَب لامارتين الذّى يقعى تحت رجليه فى تمثالِه البرونزىّ الناهض بأحد ميادين باريس! وما اختارَ التّمثالُ هذا المشهد إلاّ ليصّور إعجابَ الشاعر الكبير بالحيوان الوفى الأمين.

وناحية جـديـرة بالتأمل فى آراء الأديبة الكبيرة، فقد علمت أن قصة رُوفائيل التّى أبدعها لامارتين قد انتشرتْ طبعاتها فى البلاد العربيّة مُنذ ترْجَمها الأديبُ البليغ الأستاذ أحمد حسن الزيات، فلاقتْ من السيرورة والذيوع مالاقتْه قصص المنفلوطى عن مجدولين والشاعر والفضيلة وغيرها، وكان المنتظرُ أن تبتهجَ بما تركتْه القصّة من

أثرٍ كبير، ولكنّها قالت إنّ روفائيل لا تمثّل لامرتين فى نُضوجه الفكرى وعُمقه النفسىّ. لأنّها تحفل بأحاسيس شابّ متسرعٍ لم تصْقَله التجربة، وكانَ الأولَى بالزيات أن يختار أثراً آخر من آثار الشاعر الكبير، وتلكَ صراحةٌ محببة من الحفيدة، ولكّننا نذكر تعقيباً على رأيها أنّ فى قصة رُوفائيل من الإبداع الفنى ما يرتفعُ بها إلى مستوى الأعمال الباقية، وحسبُها أنها حبّبَتْ الطبيعة إلى آلاف القراء، لأنّ إلحاح روفائيل فى تصوْير مشاهد الغروب والشروق، ومسارح البحيرات والأنهار، وروائع المروج والغابات، وقِمم الهضاب والجبال.. قد جعلَ من الطبيعة الصامتة صديقاً لمن فَقَد الصديق! وحَسبُ القارىء المنفرد أن يرىَ الأُنْسَ فى لوحاتِ الطبيعة، فيتخذّها صديق وحدته، وأنيسَ وحشته! وهو مَكسبٌ عزيز، هذا إلى التحليل الدقيق لأرقّ المشاعر، وألطف الأحاسيس، مع الفطنة اللطيفة للمعانى الصامتة، الناطقة فى الإشارة الخاطفة، والنظرة الشاردة والالتفاتة العَجلَى، لقد عاشت الكاتبةُ الشاعرة فى مصر لتؤدىّ رسالةَ الحقّ والخير والجمال فبلغَت ما أرادتْ. وأوجبتْ علينا أن نذكر نضَالها الأدبى بأوفر معانى التجلّة والإكبار..



بين المازنى وطه حسين

كان المازنى خفيف الظل، فَكِهَ الروح فى كل ما يكتب. ومعاركه النقدية ذات نكهة خاصة تشف عن روحه. وأنت تعجب حين تقرأ له بحثاً ناقداً يتجه إلى تقرير أصول أدبية جديدة، فتجده متبسطاً رقيقاً شفافاً، وكأنه يتحدث فى مجلس سمر، لذلك كانت مقالة المازنى شديدة الإغراء لقارئها وإن خالفها كل المخالفة؛ لأن المقالة لديه ليست مضموناً فحسب، ولكنها مضمون يترقرق فى غدير صاف عذب، وإذا كانت هناك قسوة ما يضطر إليها اضطراراً فى بعض أوقات انفعاله، فإن القارىء يستسيغها راضياً، بل إن من يتوجه إليه المازنى بالنقد يحاول استساغتها، مجتهداً ألا تترك فى نفسه أثراً أليما، ولا أذكر أن المازنى ــ رحمه الله ــ فى نقده الأدبى الذى امتد قرابة ثلاثين عاماً فى أمهات الصحف، وكبريات المجلات، وفيما انفرد بإصداره فى كتب خاصة قد عنف على أحد من منقوديه غير المنفلوطى وشكرى وطـه حسين، أما المنفلوطى فكان زعيم المقالة الأدبية المتصدر فى زمنه، والمازنى الشاب يحاول هدمه مندفعاً بحماسة شاب.. يحمل المعول متحديا الرءوس والقمم، وهو فى أعماقه يعرف مكانة صاحبه، ويرى الشجاعة كل الشجاعة أن يذيع قولاً فيه. وأما عبد الرحمن شكرى فقد أثار صديقه الحميم عليه إثارة غاضبة حين تحدث عن سرقاته، وكتب المقالات الغاضبة فى تجريحه، والمازنى هو الذى أصدر كتاباً عن حافظ إبراهيم مقارناً بشكرى ليجعل شاعر النيل

لاشيء أمام صديقه، وكان ينتظر منه بعد ذلك أن يكون رفيقاً به، فلا يهب عليه إعصاره المتتابع فى السفور وفى عكاظ وفى مقدمة الجزء الخامس من ديوان شكرى، ولكن شكرى قد عنف واشتد، فاضطر المازنى إلى أن يهاجم ويدفع، وأتى بما لا قيمة له لدى الحكم النزيه، على أنه ما لبث أن تذكر قديم الصحبة فأخذ يعتذر ويأسف، وجعل يشيد بشكرى ويعترف بأستاذيته. ولكن قلب شكرى النافر كان كالزجاجة المكسورة لم يجبر لها صدع.

أما نقد المازنى لطه حسين، فهو موضع حديث اليوم، ولا أدرى حين أكشف عن بعض اتجاهاته. كيف أصور هذا الهجوم المتصل الذى والاه المازنى على طه فى غير مجاملة! ولا أدرى مرة ثانية لماذا كان الدكتور طه حسين ضعيفاً جداً أمام المازنى والعقاد معا! فهو يحاول جهده أن يحنى رأسه للعاصفة كى تمر، وعهد القراء بطه أنه مندفع متقحم عنيف، يشنّ الغارة تلو الغارة على خصومه، ويتحدث عنهم بأبلغ ما يملك من أساليب الزراية، وقد يقف موقف الأستاذية من زملاء يشاركونه اللقب والوظيفة والبحث فيتكلف أشد ضروب التكلف ليوقعهم فى الحرج، ولكن المازنى يلح عليه بالهجوم الطاعن، ويعاود الإلحاح فى إصرار، وطه يسكت عنه كما يسكت عن العقاد!!

لقد كنت أعتقد قبل أن ينتقل العقاد إلى رحمة الله حين أرى اندفاع طه لتزكيته وتقريظه فى كل ما يقول، فإذا اضطر إلى المعارضة بحث عن أرق الأساليب وأشفها نقاء كى يبدى معارضته الباسمة فى أدب خجول، كنت أعتقد حينئذ أن طه حسين مؤمن فى أعماقه بالعقاد، فهو لا يجد سبيلاً الى معارضته إعجاباً بمذهبه

الفكرى شعراً ونثراً، ألم يبايعه بإمارة الشعر دون أن يطلب العقاد هذه الإمارة ألم يتحدث عن وحى الأربعين، ومطالعات فى الكتب والحياة.. حديث من يرى بين يديه أرفع النماذج للأدب الحى؟

ولكن هذا الاعتقاد قد تبدد حين وجدت طه حسين يهاجم شعر العقاد بعد وفاته، ويتنكر للعبقريات بعد أن قرظها، وكانت إحدى عثراته أمام القراء! إذ هم يعلمون سابق رأيه فى صاحبه أيام كان ذا قلم يبتر ويستأصل، فما بالهم اليوم يلمسون دخاناً كثيفاً كشف عن نار تتقد! إن عهدى بالدكتور طه حسين أن يكون حازماً حريصاً، ومن مقتضيات الحزم الحريص أن يسكت عن نظيره بعد رحيله! وقد أدركه الضعف الإنسانى، أو قل.. قد غلى المرجل الحبيس فأطلق لاهب الشرار!

ولكن موقف طـه مع المازنى قد اختلف؛ لأن المازنى وإن رحل مبكراً عن الحياة فقد ترك خلفه صديقه الأثير عباس محمود العقاد، ولن يجرؤ طـه أن يتحدث عن المازنى، وهو يرى إخلاص العقاد، ويحاذر انتقامه. بل لا أريد أن أظلم الدكتور طـه حسين فأغضى عن مكرمة نبيلة آثر بها المازنى ــ رحمه الله ــ بعد رحيله، إذ كتب فى الأهرام يطالب الحكومة بمعاش لأسرة المازنى أحد أعلام البيان فى عصره، ثم شاء الله أن يتولى الدكتور طـه حسين وزارة المعارف فى حكومة الوفد فيبادر إلى تقرير معاش مجز للأسرة، وتلك مكرمة نبيلة حقاً، يجب أن تسجل للدكتور طـه فى حق زميل نانه بقوارص النقد كثيراً فطوى الضلوع على ألم، ولاذ بالصبر دون صيال.

كان الدكتور طه حسين قد ابتدأ عهده الأدبى بجريدة السياسة

ناقداً حاداً، وكان أكثر ما يكون حدة مع من يرى فى أخلاقهم عزوفاً عن الصيال والمصارعة كالدكتور أحمد ضيف، وهو رائد حقيقى من رواد الأدب المعاصر، جاء بآراء سديدة سبقت فى إلقائها وطبعها كثيراً من آراء الدكتور طـه التى رددها من بعده فى دوى صاخب، وأنت تعجب حين تقرأ كتابى الدكتور أحمد ضيف فتجد الكثير مما قاله الدكتور طـه من بعده قد قيل فى إيجاز محكم، وتواضع عازف، ولكن الدكتور طـه قد قسا عليه قسوة تذكرنا بقسوته الشديدة على الأستاذ علام سلامة حين أخذ يتهكم ببحث علمى كتبه عن مدلول كلمة الأدب وتطورها، والأستاذ علام سلامة أحد الذين ناقشوا الدكتور طـه حسين يوم أخذ الدكتوراه من الجامعة المصرية برسالته عن أبى العلاء، فهو منه بمنزلة الأستاذ، ومهما قصرت بالأستاذ الشيخ علام سلامة ظروفه الثقافية عن الاطلاع على ما قرأه الدكتور طـه حسين فى باريس، فليس من اللائق أن يترفع عليه تلميذه متهكماً متندراً، وكأنى بالدكتور وقد أمن صولته كما أمن صولة الدكتور أحمد ضيف فاستعلى وتزيد. أما حين تعرض للعقاد فى تحليل كتاب المطالعات فكان كالذى يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، وما يكاد يهم بنقد حتى يمهد له ويعقب عليه بالثناء! وظل هذا ديدنه الدائم معه، وأذكر أنه تعرض لكتاب (رجعة أبى العلاء) بعد زمن طويل فى الثقافة، فأخذ عليه قارىء فاضل[1] ما رأى فى نقده من خفوت وحذر، وكتب بمجلة الثقافة يقول موجهاً الحديث إلى الدكتور طـه حسين:

---

(١) هو الأستاذ على زكى بك وكيل مديرية القليوبية (إذ ذاك) ص٤٢ من العدد السادس من مجلة الثقافة ١٩٣٩/٢/٧.

«لكننى أراك قد خرجت على مألوفك حين عرضت لكتاب الأستاذ الكبير العقاد (رجعة أبى العلاء).. الذى أعرف له منزلته من الأدب، ومقامه الفريد فيه، عرضت له مترفقاً محاذراً مجانباً صراحتك المدوية، متجاوزاً الهوادة واللين إلى طبقة أدنى إلى الدعابة والرخاوة التى لم يمح أثرها من نفسى ما لأسلوبك البديع من حلاوة وطلاوة».

وقد ردّ الدكتور على ناقده الصريح فقال[٢]: من كلام هادىء تخفى سطوره من المعانى ما يستشفه القارىء الحصيف: «وليس على الخصومة العنيفة بينى وبين الأستاذ العقاد فى الأدب من بأس، أن تبدأ بالدعابة واللين والنقد الرقيق، فرب لمحة أغنت عن صراحة، ورب إشارة أجزأت عن عبارة، والأستاذ العقاد بعد رقيق الحس دقيقه، وهو أرق منى حساً، وأدق منى مزاجاً، يضيق بالنقد ويتأثر بلذعه أكثر مما أضيق وأتأثر، لا يكاد يقرأ فصلاً فى نقد كتاب من كتبه حتى يسرع إلى الرد وإلى الرد الذى يتكلف فيه التأويل والتحليل، فالخير كل الخير فى أن نطرق عليه الباب فى رفق، وأن ندخل عليه بعد أن يأذن لنا فى رقة وظرف، والله يعلم بعد ذلك كيف يكون مقامنا عنده، وكيف يكون انصرافنا عنه؟».

لقد أفصح الدكتور عن ذات نفسه، وأوضح تهيبه من العقاد بما لا يحتاج إلى تعليق، والحق أن العقاد ــ رحمه الله ــ كان ذا إنسانية رفيعة، إذ أدرك شعور صاحبه نحوه فأراحه من هجومه مقدراً مجاملته المتصلة! وكنت أعتقد أن المازنى لن يقل دماثة عن العقاد.. فهو

---

(٢) العدد نفسه ص ٤٢.

بطبعه الساخر أكثر تسامحاً، ولكن ترصده للدكتور طـه حسين بكل سبيل مما يضاف إلى شجاعته، ومما يؤكد أنه يتسامح مع منقوديه طبعاً لا تطبعاً ولوشاء أن يعنف لوجد من قلمه الجراءة الواثقة، على أن المازنى فى نقده يصدر عن اتجاه أدبى يعتقد صحته، فهو لا يناقش فى الجزئيات الصغيرة بل يتعرض للفكرة الكاملة فيناقشها مبينا ما يراه من انحرافها، وقد استشعر فى أعماقه ما استشعره العقاد من مجاملة طـه والرفيق به، وتعرض لصراع نفسى بين عقله وقلبه إذ يتذبذب بين المسالمة والهجوم، وقد كشف للقارىء سريرته حين قال فى كتاب (قبض الريح) (٣) تحت عنوان (الأساليب والتقليد):

«عزيز علىّ أن أنازله ـ أى الدكتور طه حسين ـ فإنى أنطوى له أوصرت أنطوى له على الحب والاحترام، وليتنى ما عرفته ولا خالطته، إذن لبقيت يدى حرة ترتفع حين تشاء وتهوى بكل قوتها على رأس كتابه فتهشمه، أو لا تضيره وتوهى عظامها، على قدر ما فيه من مناعة وقدرة على المقاومة.. وإنى لأتمرد أحياناً على هذه العلاقة التى توثقت عراها بيننا ويتقمصنى عفريت النقد الذى لا يحابى الأصدقاء ولا يجامل الأوداء، فأرفع بالفأس كلتا يدى، وأشب عن الأرض، وأهم بالضربة تفلق اليافوخ، فيطالعنى وجهه الساكن، وجبينه المشرق، وهو جالس إلىّ يحادثنى، ويقاسمنى ما أعانيه من المضض، ويحمل عنى شر شطريه، فتهى قبضتى، وتفلت الفأس، وتهوى ذراعى إلى جانبى، وتتملكنى عاطفة فنية تجعلنى أقول: خسارة، نعم من الخسارة أن أحطم هذا الرأس؛ فإن فى الجبين التماعاً، وفى العظام قوة، وفى التركيب متانة..».

---

(٣) قبض الريح ص ٣٦ ط الشعب ـ ١٩٧١ م.

هذا بعض ما اشتجر فى نفس المازنى من صراع ، ويخيل إلىَّ أن المازنى كان يعتقد فى قرارة نفسه أن طه حسين يجامله فى الظاهر ليأمن نقده ، فهو يجالسه ويحادثه ويقاسمه آلامه عن سياسة حاذقة لا عن حب خالص ، لذلك اتجه إلى مخاصمته فى عنف ! وكان الأحرى به أن يترك العنف إلى الرفق ، ومثل المازنى فى يسره الهين يستطيع أن يقول ما يشاء دون أن يرمض صاحبه وأن يوجعه ، بل مثله من يستطيع أن يقدح وكأنه يمدح لو آثر الرفق حقاً بصاحب الوجه الساكن ، والجبين المشرق ، واخال المازنى الرقيق قد لمس عنف طه الصارخ بمن لا يستطيعون مقاومته ، وبمن يستأسد عليهم الدكتور فى غير مجال الوثوب ، فصمم على أن يأخذ بثأرهم منه ! وعلى أن يثأر بسطو عنيف ، والتكبر على المتكبرين من البشر عزة علياء . كان الدكتور قد نشر حديث الأربعاء تباعاً فى السياسة وفى غيرها ، حتى إذا أراد جمعه فى أجزاء متتالية ذكر فى مقدمة الجزء الأول أنه يقدم مباحث متفرقة .. وما هى بسفر أو كتاب ، ولن يجد القارىء فيها هذه الفكرة القوية المتحدة الواضحة .. التى يعبر عنها المؤلفون حين يؤلفون كتبهم ، وأنه لم يعن بهذه المباحث العناية التى تليق بكتاب يعده صاحبه ليكون كتاباً حقاً ، وأنه يعلم أنه شديد النقص محتاج إلى استئناف العناية والنظر ، وقد أنكر المازنى على صاحبه أن يعترف بنقص كتابه ثم يخرجه هكذا محتاجاً إلى إكمال ، وأن يستخف بقرائه فلا يجدهم أهلاً لأن يتكلف من أجلهم البحث العلمى الدقيق إذ كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا ، ويقول المازنى فى صراحة للدكتور: « لو وسعك هذا الذى تقول إنك تتجنبه (وهو التحقيق الدقيق) لما أحجمت عنه ، ولا صدك الإشفاق على رءوس القراء والترفق بأدمغتهم

ولو كان فى جعبتك ما هو أغلى وأثمن لما طويته عن العيون ولا احتلت وتلطفت وألححت فى عرضه ولرفعته قبلنا فى كل ناحية» (٤) . وكأن المازنى أراد أن يهون نقده فقال : «وليس الدكتور وحده هو الذى يفعل ذلك فإننا جميعاً مع الأسف هذا الدكتور، وما منّا إلا من يتظاهر بأنه قادر على خير مما يصنع.. وليس من مسكين مغموط الحق غير جمهور القراء، نكتب لهم طلباً لإعجابهم والتماساً لثنائهم ونشدانا للشهرة واستفاضة الصيت، ثم تأبى لنا طباعنا المنكرة إلا أن نجعل الاستخفاف بهم وسيلتنا إلى اكتساب ذلك، يعرض أحدنا على القراء بضاعة مزجاة فإذا عوتب أو نوقش اعتذر بالسوق، وأنها لا تتحمل إلا الخسيس الرخيص من الأصناف (٥)» .

والحقيقة أن كل كاتب ــ مهما عظم قدره ــ يكتب البحث فى فترة، ثم يراجعه فى فترة أخرى، فيرى به نقصاً يجب أن يكمل، والدكتور صادق بينه وبين نفسه حين لمس بعض هذا النقص فيما كتب، وكان عليه بالذات أن يعمل على تلافيه لا أن يعتذر عنه؛ إذ أنه كثيراً ما حمل العصا فوق رءوس الكرام من الكتاب لينعى عليهم العجلة، وليعدها عيباً خطيراً، وليطيل فى تسجيل هذا العيب وينحى باللائمة عليه . لقد أصدر الأستاذ الدكتور أحمد ضيف أول كتاب جاد عن الأدب الأندلسى فى هذا العصر تحت عنوان (بلاغة العرب فى الأندلس) وهو بحث يجب على الناقد أن يأخذ فى اعتباره أنه أول تاريخ منهجى لهذا الأدب، وأن هذه الأسبقية تتسع لغفران ما به من

---

(٤) قبض الريح ص ٤٥ .
(٥) قبض الريح ص ٤٥ .

الخطأ، ولكن الدكتور طـه يجرد الكتاب من حسناته ويقول عنه فى إسراف [٦] :

« وأحسبنى لا أخطىء ولا أتجاوز القصد إن قلت إن السبب الأساسى الذى يحول بين الأستاذ وبين الإجادة اللائقة فى كتبه هو أن نفسه سريعة الحركة، مسرفة فى هذه السرعة لا تكاد تعرض للشىء فتتثبت له حتى تقتله بحثاً ودرساً وتنضجه فهماً وتفكيراً.. وإذا كانت الأناة شرطاً أساسياً للإجادة والإتقان فى كل شىء مهما يكن نوعه، فهى الشرط الأساسى الوحيد للحياة العقلية المنتجة، وربما لم تكن المناهج العلمية شيئاً إلى جانب الأناة العلمية، ذلك لأن المناهج العلمية المنتجة على قيمتها ولزومها ليست فى حقيقة الأمور إلا نتيجة طبيعية للأناة العلمية، وان هذه النتائج الباهرة ليست إلا آثاراً لجهود طويلة بطيئة شاقة ذهبت فيها القوى وأنفقت فيها لا أقول الأشهر ولا أقول الأعوام ولا أخطىء إذا قلت القرون» .

هذا بعض ما قاله الدكتور آخذاً به زميلاً كبير القدر، بارز المكانة! فإذا كان المازنى دعاه إلى أن يترك التسرع حتى يكمل الناقص، ويتم الخديج فقد دعاه إلى ألاّ يأمر الناس بالبر وينسى نفسه.

ثم تعرض المازنى لمسألة فنية هى تقليد الأثر الأدبى وسهولة احتذائه، أتكون هذه السهولة مدعاة اعتزاز أم مدعاة هوان؟ إن

---

(٦) حديث الأربعاء جـ٣ ص ٨٢.

الدكتور يرى فى كثرة المقلدين لأسلوبه ما يعتده موضع زعامة قائدة، والمازنى يقول إن الأساليب التى يسهل محاكاتها أخلى الأساليب من المياسم الشخصية والمميزات الخاصة التى يختلف بها كاتب عن كاتب، أو بعبارة أخرى التى لا تنطبع عليها صورة بارزة مؤكدة من شخصية أصحابها، فالمتنبى مثلاً ينطق شعره باسمه، وينسب نفسه له دون أن يحتاج إلى نسبة، وما من مطّلع على الأدب الانجليزى يعنيه أن يفطن إلى أسلوب كارليل وإن لم ينسب إليه؛ لأن الأسلوب صورة من النفس، ولكل ذهن التفاتاته الخاصة، وطريقته فى تناول المسائل وعرضها، وكلما كانت هذه الخصوصيات أوكد وأعمق كانت المحاكاة أشق، والإخفاق فيها أقرب، فهى لا تهمل إلا بحيث يكون الأسلوب خالياً من الخصائص التى ترجع فى مرد أمرها إلى النفس وما ركبت عليه وانفردت به (٧).

وهذا كلام ذكره طـه ورد عليه المازنى بعد صدور الطبعة الأولى من حديث الأربعاء، وإخالنى أزعم أن الدكتور طـه حسين لهذا الوقت لم يكن له تلاميذ يقلدون تعبيره الأدبى التصويرى، وإنما قلده المقلدون فى إنكار الروايات القديمة، ومحاولة الشك فى بعض الآثار الفنية من شعر ونثر نسباً للجاهليين والأمويين، والدكتور طـه فى هذه الناحية بالذات تابع غير متبوع. وقد تحدث الباحثون عن قضية الانتحال بما يرجع بأصولها الواضحة إلى محمد بن سلام ومن تلاه، وإخالنى سلسلت تطور هذه القضية فى كتابى (موقف النقد الأدبى من الشعر الجاهلى) بما أستريح له وأرتضيه.

---

(٧) قبض الريح ص٣٨.

ويمضى المازنى فى الحديث عن أسلوب طـه حسين فيرى أنه يخطب ولا يكتب، وأنه لو كان قد ألقى مقالاته بدل أن يكتبها لما جاءت إلا كما هى الآن، فإن مزايا الكتابة قد تجردت منها لأن صاحبها يمليها ولا يتعهدها بتهذيب وتنقيح، ولو فعل لبرئت من كثير من عيوبها، ويزيد المازنى فيزعم أن مقالات الدكتور، مع أنها خطب مدونة فى رأيه ــ قد خلت من مزايا الخطابة لأنه يمليها على أنها مقالات، وكما تفقد كثير من الخطب مزاياها حين يقرؤها الناس، فإن مقالات الدكتور قد فقدت هذه المزايا أيضاً (٨).

ويمضى المازنى فيرى أن أظهر عيوب الدكتور فى أسلوبه الأدبى هو التكرار والحشو وما هو منها بسبيل، وعلة ذلك راجعة إلى أن الدكتور يُملى ولا يراجع، وقد تورط المازنى فى هذا المجال فى أشياء ما كان أحد يودّها له حيث تعرض إلى علة الدكتور الزمنية، وأثر العمى فى أسلوبه، وكرر ذلك تصريحاً وتلميحاً، ولا أدرى كيف نسى المازنى مروءته النفسية وهو ينزلق فى هذا المهوى! إن علة الدكتور تحسب له لا عليه، فقد جعل من نقصه الجسمى باعث همة عالية.. اثمرت خير الثمار إذ تبوأ بهذه الهمة عمادة الأدب فى عصره، وكل ما ذكره المازنى عن عمى بشار وأبى العلاء مقارناً بعمى الدكتور طـه لا داعى له فى موضوعه، وكان عليه أن يبحث عن الشاعرين فى سياق آخر غير هذا السياق!. قد يكون المحلل النفسى للدكتور طـه محتاجاً إلى إيضاح أثر آفته فى إنتاجه، ولكن المحلل الأدبى يجب عليه ألا يسرف فى الحديث عن هذه الناحية كما أسرف المازنى، وقد

---

(٨) قبض الريح ص ٢٧.

أحسنت الطبعة الأخيرة أو أحسن القائمون عليها فى دار الشعب حين حذفوا كثيراً مما قاله المازنى بصدد هذه الآفة، ودوّن فى الطبعة الأولى، وهذا ما نبهنى إليه صديقى الأستاذ محرز أحمد خفاجى الموجه الأول للغة العربية بالمنصورة؛ لأن الإنسانية شرط فى سمو النقد، وفقدها عامل فى انحداره! ورأيى فى سمو المازنى ورقة إحساسه لا يتغير، ولكنه هنا يشذ عن قاعدته المطردة، وليته استقام.

وقد كان المازنى منصفاً للدكتور طــه حسين أكبر الإنصاف حيث تحدث عن كتاب الشعر الجاهلى إبان صدوره، وقد قام الرعد العاصف فى المحيط الأدبى بسببه، ولو كان المازنى يبتغى التشفى المغرض من صاحبه، لتزعم حملة الهجوم، ولكن المازنى هو المازنى فى أصالته، فقد تحدث عن الكتاب بما يعتقد، تحدث عنه مقرظاً وعائبا، قرظ اتجاه الدكتور فى نفى بعض الروايات المنحولة شعراً ونثراً فى هذا الزمن البعيد، وقال فى شجاعة مخلصة: «ولم يأخذنى الدكتور على غرة بهذا الكتاب فما أعرفنى قرأت شيئاً من أخبار هذه الجاهلية أو شعرها أو خطبها إلا نازعنى فى أمره شك ضعيف أو قوى، وإلا حكت فى صدرى منه أشياء كثيرة أو قليلة، وأشهد أن الدكتور كان بارعاً فى بسط رأيه، وفى إبراز الشبهات التى تحوم حول هذا، وتضعف الثقة بنسبته إلى الجاهليين، وفى تأكيدها أيضاً، ومن واجب كل متأدب أن يطلع على هذه الرسالة التى جاءت ــ على خلاف عادة الدكتور ــ خالية من كثير من حشوه المألوف، ونحسب أن الاختلاف ضرورة فى هذا البحث، مهما تكن النتائج التى يخرج بها المرء. وإن من الحماقة أن نسترسل فى الاستنامة إلى ما جاء فى الكتب القديمة وإن كان كل شىء يدعو إلى الريب ويغرى بالنقد.

ومضى المازنى فى إتجاهه حتى خلص إلى نقد ما رآه موضع المؤاخذة، فذكر أن الكتاب لم يبرأ من السقاط، وأن أوله خير من آخره، وصدره أمتن من عجزه؛ إذ أنه فى المجال التطبيقى لم يأت بشيء ذى قيمة، وهو يرفض قصة ويقبل مثيلتها دون ترجيح، والموقف واحد، ويذكر معانى الابتذال والغرابة والإيناس فى غير مكانها الأدبى. ثم ختم المازنى مقاله بقوله: «لقد أطلنا جداً والصحيفة لا تتسع للإفاضة، ولذلك نختم كلامنا بأن الباب الثالث من الكتاب أشبه بتخبط الطلبة منه بأبحاث الأساتذة، فليته استغنى عنه، وإن الدكتور ليحسن جداً إلى نفسه إذا تحاشى الخروج من النقد العام الذى يسهل مع التحصيل إلى النقد التطبيقى أو الدراسات الفردية» (٩).

وبعد، فلا يمكن لقارىء المازنى أن ينسى هذا الفصل البديع الساخر الذى كتبه تحت عنوان (طــه حسين فى ميزان التشكيك) وجمعه مع فصول (قبض الريح) ثم شاء القائمون على طبعة هذا الكتاب فى دار الشعب أن يحذفوه جميعه مع ما حذفوا من فقرات الكتاب؟. ولا أدى كيف تم هذا البتر الشنيع لأقوى موضوعات الكتاب. وليس به ما يشير إلى أسباب ما يوجب هذا البتر، والمقال بموضوعه وشكله ومغزاه آية الآيات فى بابه، وقد أوحى به ما كتبه الدكتور طــه حسين عن مجنون ليلى حين ذهب إلى إنكار وجوده لتضارب ما روى الرواة عنه من أنباء وبناء على التناقض فى بعض الروايات التى دفعها الدكتور جميعها ليقول بأن المجنون شخصية

(٩) قبض الريح ص ١٥٨.

خيالية! وقد قال المازنى فى مطلع المقال إن الأستاذ العقاد قد تساءل فى بعض مجالسه عن أى شيء يسفر البحث يا ترى لو نسجنا على منوال الدكتور فى الذى كتبه عن المجنون، أفيبقى من طـه شيء كما لم يبق هو من المجنون شيئاً؟ وقد راق المازنى تساؤل العقاد فتولى هو كتابة الإجابة عن التساؤل فافترض أن يأتى باحث فى القرن الثالث والعشرين ليتناول حياة الدكتور بمثل ما تناول به حياة المجنون، وستكون النتيجة كما خطها المازنى حين قال(١٠): «ويزعمون أن رجلاً اسمه الدكتور طـه حسين عاش بمصر فى أوليات القرن العشرين، وأنه صاحب هذه الكتب المختلفة التى نسبوها إليه ونحلوه إياها، ولكن كل ما اطلعت عليه مما يعزى له يحملنى على التردد بين رأيين، أحدهما أن يكون هناك أناس كثيرون يسمون (طه حسين)، وثانيهما أن يكون هذا اسماً استعاره فرد أو عدة أفراد لما كتبوه ونشروه، ذلك أنه على ما روى أزهرى النشأة، والأزهر هذا جامعة إسلامية كبرى يلبس طلابها الجبة والقفطان والعمامة أو ما يماثل ذلك من ثياب العامة، فهو على هذا شيخ، ويقولون إنه كان فى صدر أيامه هذه يكتب فى صفحة يومية اسمها الجريدة، فألفيت أحد أدباء هذا العصر واسمه عبد الرحمن شكرى يسميه طـه افندى حسين، وهو ما لا سبيل إلى حمله على الخطأ أو زلة القلم؛ لأن الفرق بين الشيخ والأفندى كان من الوضوح والاختلاف فى التعليم والنشأة والزى، بحيث لا يعقل أن يخلط بينهما، وأحرى بالمتهاجين أن يعرف كل منهما صاحبه».

ويمضى المازنى متعرضاً إلى مفارقات فى حياة الدكتور ليضرب

---

(١٠) مجلة الزهراء ــ المجلد الثانى ص ٦١٢.

بعضها ببعض حتى ينتهى إلى قوله: «ويظهر أن هناك أكثر من دكتور طـه حسين واحد، ففي بعض المقالات المعزوة إلى المتسمى (الدكتور طـه حسين) تنويه بأن كاتبها كفيف، وفي بعضها الآخر ما يفيد أنه مبصر (قرأت ورأيت وشاهدت) وما إلى ذلك من الألفاظ الدالة على الرؤية، مثال ذلك بعض رسائل بعثها من فرنسا وفيها

يصف مناظر البلدان، ومقالات عن روايات شهد تمثيلها ولم يقتصر في كلامه عنها على تناول القصة بل جاوز هذا إلى التمثيل والأداء،

ومما يؤكد هذا التعدد أن لأحد هؤلاء الدكاترة ـ فإنهم على ما يبدو كثير ـ أبناء يسميهم أسماء أفرنجية، وأن الصحف المحفوظة في دار الكتب مختلفة فبعضها يقول الشيخ طـه، والبعض يذكر الدكتور طـه، وواحدة تزعمه أستاذاً في الجامعة، وأخرى تراه صحفياً، ومعروف أن قوانين العصر لا تجيز أن يكون المرء موظفاً في جامعة أميرية، وأن يكون صحفياً في الوقت عينه، أضف إلى ذلك أن الشيخ طه حسين كان ذا لحية، وأن دكتور الجامعة كان أفندياً حليقاً. فالأمر كما نرى لا يعدو إحدى اثنتين: أن يكون هناك أشخاص عديدون بهذا الأسم، وهو غير محتمل، أو أن يكون هذا الاسم مستعاراً وهو الأرجح».

هذا بعض ما جاء في المقال، وهو محاكاة ساخرة لما قاله الدكتور طـه عن المجنون وعن بعض شعراء الجاهلية، إذ أنكر وجودهم لمفارقات لحظها في تاريخهم، وكان على الباحث أن يستقرىء حلقات هؤلاء لينظمها في سلك مطرد، لا ليحكم بأن أصحابها غير حقيقيين، وقد أثبتهم خيال الرواة دون واقع تاريخي! لقد بلغ المازني

باتجاهه الساخر أكثر مما بلغه باحث مترصن لا يعمد إلى الفكاهة فى نقده الحاسم الصريح.

ظل الدكتور طه يحاسن المازنى، ويتعرض له بالثناء إذا عنت المناسبة، حتى وقع معه فى حوار ساخن حين تعرض المازنى لنقده؛ إذ كتب الدكتور طـه حسين مقدمة أدبية لديوان (أنات حائرة) الذى نظمه الأستاذ عزيز أباظه فى رثاء زوجته، فلم تصادف موضع الارتياح من المازنى وبادر بنقدها فى صحيفة البلاغ نقداً واضحاً قال فيه بعد التمهيد: «توكلت على الله، فقرأت التصدير الذى كتبه الدكتور طـه حسين بك فقلت لنفسى: لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا طـه حسين يخسره الأدب ولا تكسبه الحكومة، فما خلق لها بل للأدب، وإنه ليضيع نفسه فى هذه المناصب التى تشغله وتستنفد جهده ووقته، فإذا كتب جاء بماذا؟ جاء بمثل هذا الكلام الذى لا محصول وراءه، ولا أعرف له رأساً من ذنب، فلماذا لا يستقيل ويريح نفسه من هذا العناء الباطل، ويتفرغ للأدب؟ ماذا يفتنه من هذا الغرض الزائل؟ كيف يستطيع أن يواظب على التحصيل وتغذية عقله ونفسه ـ وهو مالا غنى لأديب عنه ـ؟ وكيف يتسنى له التجويد حين يكتب؟ وهو مشغول فى ليله ونهاره بهذا الذى لا آخر له من شئون الوظيفة واللجان وما إليها.. وهو يتولى أعمالاً كل واحد منها كاف للإرهاق، فمن جامعة فاروق إلى منصب المستشار الفنى لوزارة المعارف، إلى عشرات من اللجان يشارك فيها، وتأبى له كرامته أن يكون صفراً، ولو اقتصر على الجامعة لكان خيراً، ولو نفض يده من هذا كله لكان أفضل».

هذا بعض ما قال المازنى، وهو صادق فيما بينه وبين نفسه؛ لأنه

ترك التعليم بالوزارة ليتفرغ إلى الكتابة سياسية وأدبية، إذ رأى أن الكاتب المرموق أعظم من أكبر موظف، فهو حين نصح الدكتور بالتخلى عن المناصب واللجان لا يقول غير ما يعتقد، بل إنه دعاه إلى الاكتفاء بمنصبه الجامعى لعلاقة هذا المنصب بشئون البحث العلمى والإنتاج الأدبى، وما قاله المازنى هنا بالذات لا قسوة فيه، وكان الظن بالدكتور أن يتقبله فى يسر هين لأنه إذا تقبل الحجارة الثقيلة فيما مضى صامتاً، وقد آلمته أعنف الإيلام فى شخصه وعلمه، فمن اليسير أن يتقبل غباراً خفيفاً تهب به الريح لحظة ثم يصفو الجو، ولكن رواسب الماضى قد انتفضت فجأة من أعماق الدكتور بعد أن كبلها بالأغلال حقبة طويلة وهى تقاوم ما استطاعت، حتى قدرت أن تحطم الكبول وأن تدفع صاحبها المتبصر المتماسك إلى رد حاسم يصرخ به فى وجه المازنى قائلاً:

«أؤكد للأستاذ المازنى أنى آسف أشد الأسف لأن الأستاذ عزيز أباظة لم يطلب إليه هو كتابة هذا التصدير، إذن لكان له المحصول كل المحصول، ولكان له رأس كقمة الجبل، وذنب كالذى خوف به المنجمون المعتصم، حين هم بفتح عمورية، وآسف أشد الأسف لأن الحكومة لم تكل إلى الأستاذ عملى فى وزارة المعارف وفى جامعة فاروق، إذن لكسبته الحكومة والأدب جميعاً، والأستاذ المازنى يعرف أن لأبى العلاء قصة مع الشريف المرتضى، وأظنه يأذن لى فى أن أسرد من هذه القصة شيئاً، فالسرقة فى الأدب مباحة، ولا سيما حين تكون فى العلن لا فى السر، وهى حينئذ أشبه بالسطو، ولست أسرق قصة أبى العلاء أو لست أسطو منها إلا بمقدار، فأنا أرجو أن يقرأ الأستاذ سورة الفلق، وأن يقرأ مطولة لبيد، ومطولة طرفة، وعينية

سويد بن كاهل التى مطلعها :

بسطت رابعة الحبل لنا فوصلنا الحبل منها ما اتسع

ورائية الأخطل التى مطلعها :

ألا يا أسلمى يا هند هند بني بدر وإن كان حيانا عدى طيلة الدهر

ولامية المتنبى التى مطلعها :

بقائى شاء ليس هموا ارتحالا وحسن الصبر زموا لا الجمالا

إلى عبارات أخرى لا تخرج عما جاء فى هذا الكلام .

وقد تعرض الدكتور زكى مبارك إلى تسجيل هذا الحوار بالعدد ٥٢٧ من مجلة الرسالة [١١] ، ومن مقال المبارك اقتبست ما استشهدت به من كلام الأديبين الكبيرين ، إذ من المتعسر على أن أرجع إلى مجلدات البلاغ فى مخبئها السحيق ، وقد عهد الدكتور مبارك للحديث بما يكشف بعض خوافيه ، ثم شاء أن يحل للقراء ما ألغز به الدكتور فى رده حين أشار إلى نصوص أدبية لها مغزاها الذى يعنيه ، فقال الدكتور مبارك :

« ونسارع فنذكر أن الإشارة إلى سورة الفلق منصبه على آية (ومن شر حاسد إذا حسد) . وأن الإشارة إلى مطولة لبيد تتجه إلى هذين البيتين :

فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علامها

وإذا الأمانة قسمت فى معشر أوفى بأعظم حظنا أقسامها

---

(١١) المجلد الحادى عشر ص ٦٢٦ من مجلة الرسالة .

وأنه يريد من مطولة طرفة هذين البيتين :

فلو كنت وغلا فى الرجال لضرنى   عداوة ذى الأصحاب والمتوحد
ولكن نفى عنى الأعادى جرأتى   عليهم وإقدامى وصدقى ومحتدى

ومن عينية سويد بن كاهل أشار الدكتور إلى هذين البيتين :

رب من أنضجت غيظاً قلبه   قد تمنى لى موتاً لم يطع
ويرانى كالشجا فى حلقه   عسرا مخرجه ماينتزع

وأراد من رائية الأخطل هذين البيتين :

تنق بلا شىء شيوخ محارب   وما خلتها كانت تريش ولا تبرى
ضفادع فى ظلماء ليل تجاوبت   فدل عليها صوتها حية البحر

ومن لامية المتنبى أراد هذين البيتين :

أرى المتشاعرين غروا بذمى   ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مراً به الماء الزلالا

ثم يقول الدكتور زكى « وما أردت تبليغ هذه التعاريض إلى الأستاذ المازنى، وإنما أردت منفعة القراء، والشر يتسم بالخير فى بعض الأحايين » .

أحسب أن الكلام قد امتد إلى حد بعيد، وأن استعراض ما كان بين الأديبين الكبيرين لم يشمل كل ما كان، بل شمل ما أمكننى الاطلاع عليه، وقد يكون لدى غيرى ما يكمل به ما بدأت، فما أحسب

إلا أن الرجوع إلى أمثال هذه المناوشات مما يعطى الدروس القوية لناشئة اليوم، كى يدأبوا أشد الدأب ليبلغ بعضهم ما بلغ الكبار من أمثال طـه حسين والمازنى وغيرهما من أعلام الأدب الحديث.



أديب يتعاظم

[ياقوت الحموى يتوجه إلى مسجد الخضر فى آمد، ويقابل شيخ أدبائها على بن الحسن بن عنتر بن ثابت الشهير بشميم الحلّى. ويدور بينهما الحديث التالى:]

ياقوت: السلام عليك يا سيدى الجليل.

شميم: عليك السلام ورحمه الله، من أنت؟

ياقوت: أنا ياقوت الحموى، جئت إلى آمد اليوم، فوجدت حديثك على كل لسان، وسمعت المدح ينثر عليك بدون حساب، فرأيت أن أحظى بمقابلتك، وأنهل من معينك الفياض.

شميم: كأنك لم تسمع بى إلا حين جئت إلينا اليوم، مع أن مؤلفاتى العديدة قد تناقلها الناس فى الآفاق، وذاع حديثها فى أنحاء حلب وبغداد وخراسان..!

ياقوت: لا يا مولاى فقد سمعت الكثير عن أدبك وإنتاجك، ولكنى حين نزلت آمد، ولمست إعجاب الناس بك، تذكرت ما أعرفه عنك، وهرعت إلى لقائك، راغباً فى الاستفادة والتوجيه!

شميم: إننى كما تعرف، متنوع الثقافة، متشعب المعارف، ففى أىّ فن تريد أن يجرى الحديث؟

ياقوت: لقد شغفت بالأدب ورواية الشعر والتاريخ، وإننى لأرجو أن أنقع لديك الغليل.

شميم: أنظر أمامك، فهذا صوان ضخم ملىء بالكتب الأدبية التى ألفتها من ذاكرتى دون أن أستعين بمؤلفات أحد، فهل شاهدت فى رحلاتك المسهبة من له هذا القدر من التأليف؟.

ياقوت: هذا مجهود كبير يا مولاى، ولكنه غير مستغرب من أديب كبير عكف على الأدب والشعر حقبة من الزمن، ولعلك تخبرنى عن طريقتك فى التأليف، وكيف تختار المواضيع التى تدبج فيها القول، حتى اتفق لك هذا التراث الثمين.

ــ: أنا لا أطرق الأبحاث الهينة المريحة، التى يعمد إليها جمهرة المؤلفين، ولكنى أعمد إلى المعجز العصى من آثار السابقين فأعارضه بما أراه، فتكون معارضتى ماحقة ساحقة وأنت تعلم ما ذاع عنى من المقدرة والإبداع!!

ــ: لقد قرأت بعض معارضاتك، ولكن اختلاف الأيام قد أفسد الذاكرة وشتت الانتباه، فهل لى أن أعرف منك من عارضتهم من البلغاء لأسجل ذلك فيما بين يدى من أوراق؟.

ــ: لقد رأيت الناس يعجبون بأبى تمام وهو حقير فدم، إذا قيس بى، سمعت بعض الثناء على حماسته التى جمعها من أشعار الناس، فأردت أن أخمله بحماسة جمعتها من

شعرى الخاص، ولم أستجد الشعراء الآخرين كما فعل ابن أوس الذليل، فجاءت حماستى ضرباً من السحر الحلال.

ــ: هل لك أن تسمعنى بعض خرائدها الجياد؟

ــ: حماستى مشهورة معروفة فسل عنها الناس، وأظنك ستتجاوز حدود الأدب فى السؤال!

ــ: معاذ الله أن أتجاوز الحد معك أيها السيد الجليل، ولكنى ظامىء إلى المعرفة والعلم، وقد قدمت بلدتك من أجلك وحدك، فكيف أخرج منها خالى الوفاض؟

ــ: أعرف تماماً أنك جئت إلى آمد لتزورنى، فليس بها من تشد إليه الرحال سواى، ولن أسد فى وجهك الطريق فسلنى عما تشاء.

ــ: سأترك الكلام فى أبى تمام كيلا تغضب على، وأحب أن أسألك عمن عارضتهم من الشعراء سواه.

ــ: لقد عارضت الكثيرين غير حبيب، فأبو نواس قد نظم فى الصهباء قصائد عامرة سارت مسير الشمس، وظن الناس أنه لم يدع شيئا لغيره، فتصديت له معارضاً، فأسقطت معجزته من يده، ونظمت فى الخمر عقوداً بديعة، تحلّى بها الزمان، فلو عاش ابن هانىء لاستحيا أن ينظم شعراً بعد الآن.

ــ: أخاف أن تتهمنى بفساد الذوق، إذا طلبت بعض خمرياتك أيها الطائر الصداح؟

ـ: لن أقول لك شيئاً بفمى، فأنا أعظم من أن أنشد الناس، ولكن خذ هذه الصحيفة واقرأ ما بها من الخمريات.

[ياقوت يتناول الصحيفة ويقرأ:]

امــزج بـــســبــوك اللــجين ذهــبــاً حــكــتــه دمــوع عــيــنــى
كـــانـــت ولم يـــقـــدر لــشـــى ءٍ قـــبــلــهـــا إيجــاب كــون

[يقاطعه شميم فيقول:]

ـ ما رأيك فى هذا القريض به.
ـ أحسنت يا مولاى غاية الإحسان!
ـ (فى انفعال) ما عندك غير الاستحسان!! تباً لهذا الزمن الجاحد، أنا مخطىء إذ أسمع البهائم أشعارى الجياد
ـ معذرة أيها السيد، فقد اعتدت أن أقول لمن ينشىء الشعر الجيد: أحسنت، وها أنذا قد قلت، فماذا أصنع لأعبر عن إعجابى بشعر مولاى؟!!
ـ نعم، تقوم وتصنع مثل ما أصنع «ثم يقوم من مكانه ويدور فى المسجد ويصفق فى تيه وإعجاب».
ـ لقد تعلمت منك ما يجب أن يصنعه المستحسن!! ولكن الضحك يأخذ على سبيل الكلام، فهل أضحك يا مولاى؟.
ـ لِمَ تضحك أيها الأحمق فى مجلسى الوقور؟.
ـ كنت سمعت عنك نادرة ظننتها مختلقة عليك، وهأنذا أصدقها الآن.

ـ ماهى النادرة يا مجنون ؟!

ـ حدثنى أبو البركات سعيد الهاشمى أنك جئت قديماً إلى حلب، فقدم عليك فى ملأ من صحبه، فأنشدتهم بعض قصائدك فاستحسنوها غاية الاستحسان، فغضبت كثيراً، وقمت إلى أحد أركان المنزل ونمت على ظهرك، ثم رفعت رجليك إلى الحائط، فلم تزل ترتفع شيئاً فشيئاً حتى وقفت على رأسك، وقلت: هكذا تشكر النعمة، بأن يقف الإنسان على رأسه لا على قدميه، وأمرت الحاضرين بأن يصنعوا ما صنعت!!

ـ نعم، فعلت ذلك لأفهمهم طريقة الاستحسان.. ثم ما هى المناسبة التى جعلت أبا البركات الحقير يحدثك بهذه النادرة، وقد مضى عليها الزمان؟

ـ لقد كنا بحلب، ومرت بعض الجنائز، وبها نسوة يلطمن الوجوه، وينُحن بكلمات حزينة. ويأتين بحركات عجيبة قال القوم: إن هذه الحركات منقولة عن مولاى، وإن نواح النائحات قد ألفه سيدى شميم!! وخاض الناس فى غرائبك البديعة، فذكر أبو البركات نادرته عنك، وهى تحفة بديعة ستدور فى الأسمار.

ـ هذا الكلب صادق فيما قال، وقد نسى أن يسمعك النواح العجيب الذى صنعته واخترت له رويا محكماً، ووزناً مرناً، وإذا رجعت إلى حلب مرة ثانية فسل عنه الأدباء.

ـ أعجب كيف شغلت نفسك بالنادبات النائحات وأنت غارق فى أبحاثك دون أن تجد الوقت لهؤلاء!

ـ لقد كنت مع تلاميذى ذات صباح بحلب، فمرت بنا جنازة يندب

فيها النساء فى حرارة وحسرة، كما يجب أن يكون، فأخذتنى الحمية، وأمرت من معى من التلاميذ، فوقفوا صفّين حولى، ولطمت خدى، فلطموا خدودهم مثلى، ووضعت نواحاً يرتلونه، فأذن الله وتناقلته النادبات فى جميع البلاد!

ـ أنت يا مولاى مبدع فى كل أمورك، وأخشى أن يبتعد بنا الحديث عن الأدب والشعر، فهل تكمل حديثك مع أبى نواس؟

ـ إن فضلى على هذا.. واضح بين، فإنى لم أذق الخمر طيلة حياتى، ووصفتها بما أعجز المدمنين العشاق، أما.. أبو نواس فقد عب من الخمر دنانا مترعات، وكان شعره هراء إذا قيس بشعرى الممتاز.

ـ إذا كنت لا تشرب الخمر، وأجدت فيها القول، فكيف بك لو تكلمت فى الزهد والحكمة كأبى العلاء، مع أنك اصطليت بما للزهد والحكمة من ضرام؟.

ـ من ذلك... الأعمى الذى تذكره فى مجلسى الآن، إن المعرى لا يوزن بنعلى، فكيف تطمع أن أعارضه بشعرى الخلاب!.

ـ [ياقوت مندهشاً]: المعرى... حقير! سبحان الله يا مولاى! لقد ذكرتنى بأبى نزار ملك النحاة.

ـ هذه جريمة ثانية، إذ كيف أذكر برجل كل صناعته النحو، أما أنا فكاتب شاعر راوية أخبارى محدث لغوى مؤرخ! هل غرب عنك عقلك يا مجنون؟.

ـ ذكرتنى به لشىء واحد يا مولاى، فقد كان لا يذكر أمامه نحوى

مثله إلا قال عنه ما قلت فى أبى العلاء، وقد خاض ذات يوم فى ذكر زملائه النحاة فجعلهم جميعاً كلاباً، فقال له بعض الحاضرين: إذن أنت زعيم الكلاب لا النحاة، فكأنما ألقم بحجر فاه!.

ـ ملك النحاة معذور فى سبه الناس، فقد ابتلى بمخالطة الأوشاب والرعاع فوصفهم بما يستحقون. دعنا منه، وتكلم فيما جئت من أجله دون انتظار.

ـ لم أجىء إلا لأسألك عن مؤلفاتك، وقد ذكرت لى معارضتك لأبى تمام وأبى نواس، فن غيرهما من الذين نكبوا بمعارضتك على غير ميعاد.

ـ لقد رأيت استحسان الناس لجناس البستى، فألفت كتاباً فى التجنيس، أسميته «أنيس الجليس» وخذ هذه الصحيفة واقرأ ما يقع عليه بصرك دون اختيار.

[يتناول ياقوت الصحيفة ويقرأ:] ـ ليت من طول بالشام نواه وثوى به!

جعل العودة للزوراء من بعض ثوابه

ـ [يقاطعه شميم ويصيح]: اسجد الآن، اسجد الآن!

ـ لماذا أسجد يا مولاى؟.

ـ هذا موضع من مواضع السجدات فى الشعر، وأنا أعرف الناس بتلك المواضع فلا تخالف أمر مولاك.

ـ [يسجد ياقوت ثم يلقى الصحيفة ويسأل]: ومن غير أبى تمام

وأبى نواس وأبى الفتح البستى قد نكب بمعارضتك أيها السيد الجليل ؟

ـ هل سمعت الخطباء يرددون على المنابر خطب ابن نباته فى دمشق وحلب وبغداد ؟ .

ـ نعم يا مولاى .

ـ لقد عارضت هذا المتشدق بخطب قوية مدهشة ، فليس للناس حديث غيرها الآن .

ـ معذرة ! فلم أحظ بسماعها . ولعل لديك سفراً يجمعها وأسعد بقراءته ردحاً من الزمان .

[يمد شميم يده ويعطيه ديوان الخطب ، فيقرأ ما وقعت عليه عينه ويسمع صاحبه قوله :]

« الحمد لله فالق حب الحصيد بحسام سح السحب ، صابغ خد الأرض بقانى رشيق العشب ، محيى ميت الأرض بإماتة كالح الجدب ، لابتسام ثغر نسيم انفاح الخصب ، أحمده على ما منح من موضح بيان بما ألب فى سوداء لب » .

[ويلاحظ شميم تلكؤ ياقوت فى القراءة فيصيح منفعلاً :]

ـ ما للبهائم والأدب ؟ دع السفر أيها الأعجم البليد ، هل مررت على الموصل فأخذت منها البلادة والغباء ؟ .

ـ معذرة يا مولاى ، فقد ثقلت التراكيب ، ولم يجد اللسان نافذة للاسترواح فتعثر به المنطق .. وضل الإجادة فى الإلقاء .

ـ قلت لك هل مررت على الموصل فأخذت منها الفهاهة والبلادة؟ فلم أظفر بجواب!

.

ـ أنا مضطر لمخالفتك الرأى فى أهل الموصل، فهم ـ كما أعتقد ـ ألبة أذكياء.

ـ وما معرفتك بالذكاء واللب؟ لقد ناقشتهم وخبرتهم، فعجبت.

ـ للمرة الثانية تذكرنى بأبى نزار زعيم النحاة!.

ـ ولأى شيء ذكرتك به الآن؟.

ـ أنت تسب أهل الموصل، وهو يسب أهل الشام، وكلاكما لا يعترف بإنسان، فجميع الناس... رعاع.

ـ لى العذر إن شتمت جميع الناس، فهم لا يفرقون بين الدر والبعر، وزعيم النحاة معذور أيضاً، وإن كان يخاف الناس فلا يجاهر بسبهم كما أفعل الآن.

ـ هو مجاهر مثلك يا مولاى، وقصته مع نور الدين زنكى قد عرفها كل إنسان يقطن بلاد الشام!.

ـ لم أشغل ذهنى قبل الآن بأبى نزار فأعرف قصته مع نور الدين، ومع ذلك فأسردها على بإيجاز.

ـ لقد خلع نور الدين عليه حلة سنية، ومر فى طريقه فرأى حلقة بها تيس يدربه إنسان، فقال المدرب لتيسه: إن بحلقتى رجلاً عظيم الشأن، نابه الذكر، فأين مكانه، فشق الحيوان الحلقة ووضع يده

على زعيم النحاة، فلم يتمالك نفسه وخلع عليه حلة نور الدين، وعلم بذلك فعاتبه، فقال النحاة: إن بهذه المدينة أكثر من مائة ألف تيس فما عرف قدرى غير هذا الحيوان فخلعت الحلة عليه فى ارتياح.

ـ أصاب زعيم النحاة، فأهل الموصل كأهل الشام فى...، وقد كنت أشرح لهم القاعدة العلمية وأقرأ النص الأدبى موضحاً محللاً فما يستفيدون شيئاً منى، فمن ذا يلومنا على احتقار الدهماء!.

ـ كلامك رفيع يا مولاى، فالموصليون معذورون إذا لم يفهموه.

ـ اسمع يا بنى، ليس فى الوجود إلا...

ـ [ياقوت ينظر إليه مندهشاً].

شميم: هذا كلام لا تفهمه أنت ولا العامة، ولكنك لا تنكر مقدرتى على خلق الكلام.

ـ أعفنى من هذا الحديث يا مولاى، فلست من علماء التوحيد فأعلم من الذى يخلق الكلام.

ـ إذا لم تسر المناقشة كما أريد، فلن أتحدث معك فى علوم الأدب على الإطلاق!.

ـ لن نتحدث فى الأدب كما تريد يا مولاى، وسأسألك سؤالاً يتعلق بك، فأنا رجل محدّث، وإن لم تكن بالمحدث جرأة مات بغصته، فهل تأذن بالجواب؟.

ـ أذكر السؤال أولاً، ولى الحق فى قبوله أو رفضه كما أشاء.

ـ لم سماك الناس « شميا » مع أن اسمك الحقيقى على يا مولاى .

ـ لقد مكثت مدة من عمرى لا آكل غير الطيب ، لأخفف الرطوبة ، وأقوى الذاكرة ، وكان الرجع يمتنع عنى بضعة أيام ، فإذا جاءنى كان أشبه ببندقة من الطين ، فكنت آخذه وأقول لمن يجلس معي : « شمه ، شمه » فإن له رائحة طيبة ، فكثر ذلك حتى غلب على ولقبنى الناس بشميم .

ـ حسبك يا مولاى ، فأنا أريد أن أسجل جميع ما سمعته منك ، ولو طال بنا الحديث لعجزت عن حصره ، وستكون تسميتك هذه مسك الختام !! .

ـ لقد أمتعتك بحديثى ، وهو لا يباح لكثير من الناس ، فاشكر ربك على فضله ، فالأمر كما قال أبو العلاء :

وكـم عين تـؤمـل أن تـرانـى   وتـفـقـد عند رؤيتى الـسـوادا

* * *

أحمد محرم يرثى والدته

أصبحت الجزالة عيباً شائناً لدى بعض من يتعرضون لنقد الشعر هذه الأيام، فهم يقرءون القصيدة الرصينة ذات الخواطر الصادقة والتعبير القوى ثم يشفعون قراءتها بابتسامة هازئة، فإذا سألتهم عن علة ذلك قالوا إنها الجزالة، فإذا استزدتهم إيضاحاً صاحوا بك تقليد وترديد لميراث قديم. وهكذا أصبح كل قصيد قوى السبك متين الأسر صلب العود تقليداً متكرراً للعصور البعيدة فى تاريخ الأدب، مهما حوى الخاطر الصادق وكشف عن الشعور الصحيح. ثم تراهم لا يعدمون بعد ذلك تعليلاً يلفقونه للناس إذ يزعمون أن البارودى حين رجع بالشعر إلى ديباجته الناصعة فى أزهى عصور الأدب إنما صوب اهتمامه الكبير للشكل دون المضمون، ثم أعقبه تلاميذ طريقته من أمثال شوقى وحافظ ومحرم والجارم وعبد المطلب فنهجوا نهجه على أبعاد متقاربة تختلف فى اللون لا فى النوع، إذ يصدرون جميعاً عن الجزالة الرصينة وما هى غير استرجاع لما تدخر الحوافظ من معان متكررة فقدت الجديد فى أكثر ما تقول: وبعض سامعى هذا الكلام أو قارئيه يقع فى حيرة مضللة لما يجد من تعليلات تأخذ طابع النظر والاستدلال فى الظاهر، إذ يهجم أصحابها على التراث الأدبى هجوماً مغرضاً يتصيد بعض الشواهد من هنا وهناك لتدعيم قضية زائفة لا ترتكز على منطق صحيح، وإذا كانت الشواهد فى كل تراث أدبى شرق أو غرب مما تضم الزائف والصحيح فإن هؤلاء يخدعون الكثيرين حين

يقصرون استشهاداتهم على الزائف وحده، وكأنه الطابع المميز لمدرسة البارودى، ولهم بعد ذلك أن يصبوا سخطهم على الجزالة فهى الداء الأصيل.

قال لى أحد هؤلاء: أنه يشعر بحب صادق للأدب العربى شعره ونثره، وأن هذا الحب الصادق هو الذى يدفعه إلى تحريره مما يسمى بالرصانة والجزالة، لأن الشعور الصادق الدقيق لا يمكن أن يرتسم فى أنماط متوارثة يرتبط فيها اللفظ بأخيه ارتباطاً يجعله صاحب المقام الأول فى الأسلوب، والقارىء المعاصر يريد من الشعر إحساساً ونبضاً، لا وزناً وإيقاعاً، وجل أنصار الجزالة لا يصدقون عن خوالجهم الدقيقة، وآية ذلك أن الجديد لديهم من الشعور يختنق فى زحام من حاشد الرث القديم، ثم طلب منى ناصحاً موجهاً أن أعاود النظر فى حيدة وتجرد لأهتدى إلى الحكم الصحيح.

وحين رجعت إلى منزلى وجدت من نفسى نشاطاً لقراءة بعض الدواوين الجزلة فمددت يدى إلى الجزء الأول من ديوان أحمد محرم، وهو شاعر عرف بالاهتمام كل الاهتمام بنصوع الديباجة، وقوة الجزالة، وقد نشر الجزء الأول من شعره قبل أن يعدو الخامسة والعشرين من عمره أى وهو فى مرحلة من حياته أدنى إلى التقليد منها إلى التجديد، فاحتمال التكرار المزعوم حينئذ أقوى وأشد! وقد قلت فى خاطرى أن شاعر الجزالة هذا فى يافع عمره الشعرى لن يأتيك بجديد، أو هو أحرى ألا يأتى بالجديد إذا صح ما يردده خصوم الديباجة الناصعة، فلتقرأ بعض ما قال لترى عن عيان! ولما كنت أميل دائماً ـ لشجى أعهده فى نفسى ـ إلى قراءة شعر الرثاء، فقد اخترت رثاء محرم لوالدته الراحلة وطفقت أقرأ فماذا قرأت؟

لقد بدأ الشاعر المفجوع، فتحدث بعد المطلع الجزل عن وقع الفجيعة فى نفسه وأسرته فقال:

لعلك لم تشهد غداة ترجحت	بنا الأرض حتى أوشكت تتحول
وسد علينا كل فج فما لنا	عن الهوى منأى أو عن الخطب مرحل
وحتى ظننا البعث قد حم يومه	وحان الذى يغشى النفوس فتذهل
غداة وقفنا للوداع نفيضها	قلوباً جرت من حولنا تتسيل

ولعلك تقول إن الرجل يتحدث عن شعور سائد عام، فكل مفجوع بالموت يتصور أن الأرض ترجحت به وأن الدنيا قد سدت فى وجهه وأن القيامة قد قامت! ولكن على رسلك وتأمل معى، أتريد من الشاعر أن يصور إحساسه جميعه أم تريد منه أن يتصيد المعانى البعيدة، فإذا أردت جميع إحساسه فهناك اشتراك عام بين جميع المصابين أو بين أكثرهم فى بعض الأحاسيس الإنسانية، فإذا اندفع الشعراء إلى تصوير هذا الحس المشترك، فليست الجزالة هنا تقليداً، ولكنها قيثارة ترسل لحنا صادقاً يعزف على أوتار القلوب مهما ترددفى الأسماع. وتلك ملاحظة أولى ننتقل منها إلى قول الشاعر الشاب ناهجاً نهج غيره من عشاق الحكمة الشعرية ذات المثل السائر.

أحاجيك ما قدر الحياة نريدها	على الكره ما فيها لنا متعلل
أرى المرء فى الدنيا كمروة[1] قارع	تشقق من أطرافها وتحلل
تصارعه فيها الخطوب وإنه	لمستسلم يوماً لها فمجندل
يحاول أسباب النجاة ودونها	قضاء بإفناء النفوس موكل

(١) يقول أبو ذؤيب.

حتى كأنى للحوادث مروة	بصفا المشقر كل يوم تقرع

ستضرب كفاً بكف وتقول منتصراً هذا هو التقليد بعينه، فالصخرة التى تشقق من أطرافها وتحلل مما استهلكه الناس منذ أبى ذؤيب الهذلـى إلى عصرنا هذا تقول ذلك وتنسى أن الشاعر يمهد به. إلى الحديث عن عواطفه الخاصة، ولو أنه ساق هذه الحكم السائرة وسكت ما كان الشاعر المبدع الذى نخصه بالحديث، ولكنه ينتقل سريعاً إلى مشاعره الذاتية فيتساءل كيف يغادر الراحلة العزيزة بفلاة موحشة تزحم بالقبور، وقد خلا جانباها من النضرة والبهاء، مع أنها لو سكنت روضة يانعة من الرياض لكان الابن المفجوع ضنينا على الروضة الغناء بعزيزته المفداة، تأمل صديقى الطرافة فى هذا الإحساس. ثم يتساءل كيف تنفرد الأم بمكانها البعيد فلا يسمع أحباؤها حديثها الشهى، ولا يملئون برها السخى، ولا يطالعون وجهها السنى. إن ذلك ما يدعو إلى الذهول ذهولا لا ينفع فيها عذل أو ملام، بل إن العذل لينقلب إلى طرفة الآخر حيث يظن الابن المسكين أنه عذل على التصبر والتجلد لا عذل على الجزع والهلوع، اسمعه يقول:

حرام علينا أن نغادر قبرها	بموحشة فيها المقابر همل
ولو ضمنتها روضة لوجدتنى	أضن بها حتى عليها وأبخل
اتفرد فيها لا نملأ برها	ولا يزد هينا وجهها المتهلل
ولا نسمع القول المشهى تقوله	فنطرب ما شاء النعيم ونجذل
كأنى وقد زالت وغيب آلها	أخو جنة مما أقول وأفعل
ويعذلنى صحبى فأحسب أننى	لإمساك نفسى أن تصدع أعذل

أقرأت يا أخى هذا الشعر الحى فما عسى أن تقول فيه؟ ثم تعال معى نستعرض هذا المشهد الباكى الذى رسمه محرم لطفلها الصغير

وقد انطلق يريدها مقلبا عينيه حائراً دهشاً، وكأنه يلتاع للدار الموحشة حين أقفرت من وجهها. إنه ينظر فيرى أخته الكبيرة تشق ثيابها صارخة ناحبة ثم تقبل عليه لاثمة تحدثه فى انفعال مر، والطفل لا يعى ماذا تصنع وتأتى إلا أنه يستشعر حزناً لا يدرى حقيقته على حين قد دراه الشاعر ووعاه. لن يجدى هذا التلخيص المبتور شيئاً أمام قول الشاعر:

وما ها جنى إلا ابن خمس يريدها	وقد غالها ما غال فالدمع مرسل
يقلب عينيه ويسأله ماله	يرى الربع منها وهو قفر معطل
وما بال من قامت تشق إزارها	وتنحب لا تألو ولا تتجمل
وتذكره فعل الحفى وتنتحى	تكلمه حينا وحينا تقبل
خرجت به ألهوه عنها وإنه	ليأبى فما يلهو ولا هو يغفل
كلانا سواء فى التفجع والأسى	ولكننى أدرى المصاب ويجهل

هذا هو الصغير. أما من فوقه ممن درى حقيقة المصاب، فقد أخذ يعاجلها التوديع، ولكن الموت كان أعجل منه فاختطفها غير عابىء بوداعه، ولا مكترث بلهفته حين أبصر عينيها يغيض سناهما وسمع حشرجة روحها تعلو وتسفل فى حلقها، ثم راعه أن تسكت فجأة فهوى صارخاً يبكى بين النوادب وينوح.

وآخر لم يملك من الحزن نفسه	يعاجلها التوديع والموت أعجل
دعاها وعيناها يغيض سناهما	وقد حشرجت فالروح تعلو وتسفل
فلما رأى أنفاسها قد تصرمت	هوى صارخاً بين النوادب ينكل

وقد تكون الصورة موجزة إذا قورنت بصورة الطفل، ولكنه الإيجاز

الموحى المليء بشتى الانفعالات الحافل بمختلف الأحاسيس؛ إيجاز لا يترك قارئه دون أن يفجر فى نفسه من ضروب الشجى وألوان التأثر ما يجعله يستعرض الأبيات الثلاثة، وكأنه يستعرض صفحات هائجة تمور وتصخب! وقد كان محرم دقيقاً لبقاً حين تحدث عن والده فقال:

وأشيب صافاها وصافته حقبة ... وللحب فى قلبيهما متغلغل
يقاسمها نعمى الحياة وبؤسها ... وينهض بالعبء الذى هو أثقل
يناشدها الرجعى غداة تحملت ... لطيتها والقلب بالوجد مشعل

أجل .. كان الشاعر دقيقاً حين أوجز حديث والده الأشيب ملماً إلمامة الطائر بحبه المتغلغل فى أعماقه ونهوضه بعبء العيش وإنه لثقيل. ثم مناشدته إياها الرجعى. ألا ترى أن محرماً قد أحسن الرزانة والتعقل فى هذه المناشدة كما أحسن تصوير الهلع والفزع فى البنت الصارخة الجزاع؟ معبراً عن كل موقف بما يقتضيه، وتلك هى الحاسة الدقيقة التى تحبب لنا الكبار من الشعراء وقد عاد الشاعر إلى نفسه فصور عواطفه الملتاعة حين سار بها الموكب إلى آخر مثوى فقال:

أماه هل تدرين ما صنع الأسى ... بنفس عناها الخطب فهى تململ
وهل أبصرت عيناك أية عبرة ... شرقت بها والنعش خلفى يحمل
تسير اليتامى والمساكين حوله ... فمن هالك يبكى وآخر يعول
سخوا بالدموع الغزر ينهل صوبها ... سخاءك بالعرف الذى كان يبذل
فإن يك ما أثنت عليك دموعهم ... جزيلاً فما أسدت يمينك أجزل

وقد يقول قائل إن هذا مما يقال فى كل مشهد تشييع، وأنا أرد

على ذلك بأنه يقال فى كل مشهد تشييع لأنه شعور مشترك عام لاتكرار يلقى به دون قصد، والقارىء يستعرض نفسه حين يقرأ غيره، فيطرب له كل الطرب، إذ يجد ما يعبر عن شعوره فى بعض المواقف سارة كانت أم حزينة، وذلك يرتفع بالشعر ولا ينخفض به مادام يحمل من التأثير قوة تنتقل كهرباؤها قوية من نفس إلى نفس سريعة دون إمهال.

على أن المشهد لم ينته عند هذا الحديث المتداول بل تطرق الشاعر إلى إحساس خاص تفرد به تفرداً هو فيه السابق المبرز، إذ ذكر أن الأموات قد فرحوا كثيراً بمقدم هذه الزائرة الجديدة، فخفوا لاستقبالها مرحبين مهللين إذ كانت رحمة من الله تؤنسهم فى مضاجعهم الموحشة، وإذا كان الحى منها محروماً على أرضه فقد سعد الميت فى باطنها بما عز على سواه أن ينال، هذا إحساس طريف بادهنا به الشاعر حين قال:

لقد علم الموتى ثواءك بينهم	وإنك فيهم رحمة الله تشمل
فبات لهم من حول قبرك ضجة	كما ضج من عال أجش مجلجل
فيا أعجب الأقسام يرزق ميت	ويحرم حى حبله بك يوصل

وقد فطن القارىء لامحالة إلى أننا نقصد بالطريف فى القصيدة الطريف من الشعور الحى والإحساس الصادق، أما ما يوحى به التكلف الذهنى والاصطياد العقلى من طرافة خادعة فلن تفلح كثيراً فى استثارة المشاعر لدى القارىء، وما هى فى مجال الشعر غير بروق خلب وسراب لا ينقع، وقد أجاد الشاعر الحديث عن نفسه إذ يقول:

أكنت سوى الدنيا فولى نعيمها　　　وقد كنت فى أفيائها أتنقل
لأقبل مما كنت أحذر مدبر　　　وأدبر مما كنت آمل مقبل
ولو صدق الظن التقينا فسرنا　　　تجدد عهد شاقنا منه أول
إذ الدهر سلم لا يهم بفاجع　　　وإذ نحن لا ننأى ولا نتزيل
فجعنا بها كالشمس سال شعاعها　　　بفيض الهدى والخير أو هى أفضل
لئن جنها بيت من الترب موصد　　　لقد جننا ليل من الحزن أليل

أصدقائى خصوم الجزالة

هذه قصيدة شاعر جزل قالها فى دور التقليد، ولم تمنعه الجزالة الرصينة فى فترة المحاكاة الأولى أن يصور إحساسه الصادق وشعوره المتقد، وقد تجدون فى بعض المقابلات بين إقبال المحذور وإدبار المأمول وبين البيت الموصد والليل الأليل ما تعدونه ترديداً، ولكن ألم يفصح الرجل عن نفسه إفصاحاً مبيناً فنقل عن خاطر مفجوع وفؤاد حزين مالا يستطيع كثير من أصحاب التهويم والرمز أن يبلغوه فهم عنه بعيدون ؟

أرى أنه أفصح فحالفه التوفيق .



الحبّ بعد فوات الشباب

ليس للحب سِنٌّ يقف لديها، فالطفلُ والصبى والشاب والكهل والشيخ، كل أولئك يحبّون، دون أن يفترق الحبّ لديهم فى جوهره، وإنما اشتُهر عهدُ الشباب بالحبّ، لأنه عهدُ الأمل المورق، والرجاء الواعد، كما أنّه عهْد الفورة المتطلعة، والعزيمة المتقّدة، وللشباب صراحةٌ تعلن المستتر، وتكشف المكنون، أمّا بعْدَ الشباب فإن الهدوءَ يسيطر لا ليُخفِي الحب، بل لينأى به تحت أطباقٍ متراكمة، فإذا استطاع دخانه أن يتغلّب على ما فوقه من رماد، فإنّه ينبعثُ فى الجو رقيقاً متطقّعاً، وكأنه يمشى على استحياء، ينبعث متعقّلاً، لا يُرسلُ الخاطرَ العابر دونَ فلسفةٍ شارحة، ولا يبعثُ الدمعة المترقرقة دون اعتذار، والفرق بين حديث الشابّ وحديث الشيخ.. فرقُ ما بين الرجاء واليأس، لأن الشيخ لا ينسَى فى هول مأساته أنه يسبحُ فى وجه التيّار، وأنه فى أطوائه لا يجد العُذرَ الصريحَ لنفسه، فكيف يقتنعُ سواه بمسلكه! بل إنّه ليطيل النظر إلى من يَخطرون فى ميعة الشباب متسائلاً كيف عجّلتْ به الأيام دُون أن تنتظر؟ وإذا كانَ من الطبيعى أن تُعجّلبه، فكيف لم تَعْصِف بِعَوَاطِفِه المتطّلعة، وهواتفه الظّامئة. ولعل شوقى قد صدَق فى تصوير احساس الشيخ، حين قال على لسانٍ من أحبّ فى شيخوخة دونَ أن يملَك رصيد الحبّ، فانقلبَ هواه إلى حَسدٍ مرير، وَشَكّ قاتل، يقولُ شوقى فى مسرحّية كيلوباترة، على لسان الشيخ اللهيف:

ويخشى أمِنْ بعد السنين | وقد مَرَرْنَ بلا عَدَدْ
تجنّى الحسان علىّ ما | لم تجن قبل على أحدْ!
لم ألق رأساً فاحماً | إلاّ حملتُ له الحسد

ووجدت لآفِحَ غيرة | بين الجوانح بِتّقد
فكأنّ ظلمة شعره | فى مقلتّى هى الرمد
وكأنما سَرقت ذوائبه | الشباب المفتقد
ولو أنّ لى ولداً فا | ت لما بكيت على الولد
حذراً وخوفاً أن يكو | ن بها تعلّق أوْ وَجد
شكٌّ يعذب مهجتى | إن المشكّلة فى كبد

والقلوبُ الكهلةُ أعمقُ من أنْ يَسبر غورها متأمّل، لأن تجاربَ الحياة قد أحْسَنتْ مِراسها على الكتمان، وأتقنتْ مِرانها على الصبر، فمها تحدّث الكهلُ أو الشيخ عن لواعجه فهو يُخفى أضعافَ ما يُعْلن، ولا كذلك الشابّ حين يندفع فيصف ما كان، بل ربّما دفعته أحلام اليقظة إلى أن يخلطَ بين الواقع والخيال، فيتحدثَ عما تخيَّل وكأنّهُ واقعٌ لا شكّ فيه، ودواوين الشعراء تمتلىءُ بصبواتِ ذوى الوجوه النضرة والشعرِ الأسود، فإذا تغضّنت الوجوه، وابيضّ الشعر فإنّ الغزلَ الآمل ينقلُب إلى حنين يائس، هذا الحنين يجدُ مكانَه فى النفوس، لأنه يحمل لُعنصَر الصدق الخالص، ولذَع الألم الواخز، وسنحاول أن نُلم بأحاديث نفر من الصابرين كابدُوا الحبّ فى الغروب، بعد أن نعموا به فى الشروق، فلم يعتصموا بالسكوت، وكيف؟! والبوْح تنفيسٌ، والكتمان دمار.

(اسماعيل صبرى)

كان أستاذُ الشعراء اسماعيل صبرى باشا.. رجَل مُروءةِ وتصوّن، وقد عَبَر فتراتِ الصبا والشباب دون أن يَعرف برْحِ الحب، حتى إذا جاوزَ الخمسين وصارَ مُحافظاً للاسكندرية لَفتَ نظرهُ ما للأميرة السكَنْدَرة من صِيتِ مُدوّ، فى عوالم الجمال والجاه والثقافة، فهى وريثة مجد ارستقراطى هَيأها لأن تحوزَ لقب الإمارة، وهى صاحبة ثقافةِ ألمعَية تعددَتْ روافدها مِن الفرنسية والإيطالية والعربّية، ثم هى تُدير مجلتين ذات لغتين، تصدرُ إحداهما بالفرنسيّة والأخرى بالعربّية، ولها صالونٌ أدبّى يزخر بأعيان الفكر والسياسة والثروة، ولهَا رحلاتٌ فى الشتاء والصيف إلى أنبه العواصم شرقاً وغرباً، وقد رأى الشاعر المحافظ أنْ يكتب فى مجّلة (أنيس الجليس) التى تُصدرها، كما أَجبر كبرياءه على أنْ يتعهدها بالزيارة المتصّلة، على غير عادته مع الناس! وإذ كانَ أصحابُ ندوتِها من العلية يُشاركون فى توديعها حين نهمٌ بالسفر، فإنّ الاكتفاء بالتوْديع الصامت لا يَشفى ظمأ يعتلج فى نفسه، فلابدُ وهو الشاعر العاطفى أن يُترجَم إحساسه مَهما وَشِىَ بسريرته، وماذا يصنعُ والحبُّ كالزهر من شأنه أن يفوح، وكالنجم من شأنه أن يومض! وصبرى فى فنّه الشعرى لا يقول القصائد إلاّ فى الأغراض العامة، أمّا أحاسيسُه الذاتيّة فيوجزهَا فى مقطوعاتِ لا يتكّلف معانيها، ولكنّه ينقل عن خاطره المباشر، إنّه ليخشى أن يفتضح وجدُه ساعة الوداع حين يخذله قلبه فيهوى غير متماسك. ومَن هُو؟ إنه إسماعيل صبرى الذى رفضَ فى إباءِ مصافحة العميد البريطانّى صاحب الحكم فى مصر حينئذ، ولكنّه لا يَرْفضُ أن يسألَ قلبه حائراً خائراً:

أتُرى أنتَ خاذِلِى ساعةَ التّو	ديع باقلبُ فى غدٍ أم نصيرى
وبكَ قلْ لى: متى أراكَ بجنْبى	راضياً عن مكانك المهجور
لستَ بعضَ الحداة بل أنتَ بعضى	قف قليلاً، فلستَ بالمأجور
ساعة البيْن قطعةٌ أنتِ قُدّت	للمجبنّ من عذاب السعير
لايحيني رُوحى الفداء لِمَاحيك	غداً من صحيفة المقدور

وبتوالَى الرحيل والإياب، فيكرّر الشاعر هتافَه الوجدانى، وقد منَعه توقُّره أن يَسق، بل حافظَ على كرامته، مستشعراً عدم الجدوى من حّبٍ غير متكافىء، وقد رحمهُ ربه حين انتقلَ من الاسكندرية إلى وكالِة الحقّانية بالقاهرة، رَحمه رَدْحاً ما، قَدْرَ مايكفِّفُ آهاته، ويجفّف دموعه، ولم يدر أنّ قلب الشاعر أخْضر ُأنْضَرُ.. مهماً تقدم به الزّمن، وإذا كانت الثقافةُ والشبابُ والجمال أكثَر ماجَذبه إلى الأميرة السكندرة، فقد هيأتْ له معشوقةً أخرى، أنضر َشباباً، وألمع ثقافةً من أختها، وإن لم تَصِلْ إلى محتدِها الارستقراطىّ، أتيح له أن يعشِقَ الآنسة مىّ، وهو فى سِنّ الستّين، وهى فى الخامسة والعشرين، وكانتْ زينةَ المحافل الأدَبية فى زمنها، يتّهافتُ على ندوتها الشيوخ والشبابُ معاً، فمن الشيوخ نجد أحمد لطفى السيد وشبلى شميل ويعقوب صروف، ومن الشباب نجد عباس العقاد ومصطفى عبد الرازق وأنطون الجميل ومنصور فهمى، لقد حاوَل شيخ الشعراء أن يُسكت خوالجَه فما استطاع، كما حاولَ أن يكتفى بالحبّ الصامت كما فعلَ يعقوب صروف وشبلى شميل وغيرهما، ولكنَّ الفرق واضحٌ بين شاعرٍ وعالمٍ، فالعالمُ يملك من وجدانه مالاَ يملكه فنّان تتردّد أنفاسه بشعره، وان لم ينطق، لقد لَحَظِت الآنسة مى مواجدة، فكانت تخصّه بلقاءٍ خاص مجاملةً لسِنّه ومكانته، أما هو فكانَ يترقب يومَ الثلاثاء

ترقب الظامىء للماء العذب، وهو لا يقدرُ أن يحبسَ أشواقَه بل يصيحُ مُصرِّحاً غير مجمجم.

رُوحى على دِور بعضِ الحىّ هائمةٌ كظامىء الطير توّاقاً إلى الماء
إنْ لم أُمتّع بمَىَّ ناظرىَّ غدا أنكرتُ صبحكَ يا يومَ الثلاثاء

وفى مَيٍ قال اسماعيل صبرى أجمل ماقاله من الشعر، لأنّ الغزل الوجدانى كان فنَّه الأول فى دنيا القريض، وكانت مقطوعاتُ مىّ فى حرارتها اللآفحة، ويأسها المرير، ووصفِها الدقيق .. أجملَ ما جرى به قلمُ شيخ الشعراء، وطبيعىٌّ أنه لم يكنْ لينسى أنه شيخ! وأنّ فاتنته الأديبة الرائعة لا تفتأ تذكّرهُ الشباب فيذكره آسياً، وقدْ سجّلَ ذلك حين قال:

تُمِسى تذكرنَا الشبابَ وعهدَهُ حسناءُ مُرهفُة القوام فنذكر
تثب القلوب من الصدور إذا بدت وتطل من حدق العيون وتنظر
وتبيتُ تكفر بالنحور قلائد فإذا دنتْ من نحرها تستغفر

ومن إكبار إسماعيل فى ملئه، أن أصدقاءهَ، وتلاميذه جميعاً كانوا.. يعرفونَ مكمنَ لوعته، ثم لا يجرءون على مواساتِه تهيبّاً، حتى إذا انتقل إلى جوار ربّه اتسع المجال لحافظ إبراهيم كى يقول:

فياويح قلبك ماذَا ألحّ عليه من الداء حتى انفطر
أيخفق تحتَ الدّجى وحده لذكرى أليفِ سلا أو هجر
فكمْ لكَ شكوى هوىً أو أسىً لها نفثاتٌ تذيب الحجر
هتفتَ بها مّرةً فى الهجير فكاد يدُبّ إليك الشجر

عباس محمود العقاد

ووَقَعَ الشاعر العملاق عباس محمود العقاد فى الشّرك، لقد ذاقَ حلاوةَ الحب فى شبابه، وكتب عنه أروعَ قصائده، ثم تقلبتْ به شجونُ السياسة فانتَحى معتَزِلاً فترةً من الزمن، وإذا ذاكَ هبط عليه الحبّ بعد الخمسين ليعّوضه من لَجب المُخاصمة، وعراك السياسة.. ما يُنعشُ الجديّب فى صمته الراكد، لقْد أحبّ ممثلةً حسناء فى مقتبل الشباب، وأوحتْ له من الخواطر ما سجّله فى بادىء أمره مُعْتزًّا فخوراً، ولكنّ الأمورَ لا تَدوُم على حال، فبِقدْرِ ما هَلّلَ للوافِد الجديد، وبِقدْر ما بذلَ من شعوره وأعصابه وكرمِه سعيداً محبوراً.. كانَ وقعُ الصدود على قلبه، فَوقعَ الحجر الثقيل مِنْ رأسِ عصفورٍ صغير، لقدْ بكى العملاقُ وصرخ، وإن شقاء ًأن يبكى العملاق.

على أنّ الرجل الكبير لم يشأ أن يجعل حبّه الغريب موضع سخرية بين المتندرين، فانطلقَ يكتب بقلم الباحث المحلّل، والناقد المفكرّ، عن دواعي الحب فى سِنّ الكهولة، موضّحاً أنّه مما لا غبار عليه، بل هو شيء ٌطبيعٌّى لمن جاوزَ مرحلَة الصخب والضجيج، وانتهى إلى مرحلة التأمّل العاقل، والبحث الوئيد، وقد أسعَفه اطلاعه المديد على تواريخ الأشْباه من رجال الفكر فى الشرق والغرب، فاسْتشهد بتُوماس هاردى، وجيته الألمانى، إذ وَقع كلاهما فى شَركَ الصبابة بعد الثمانين، وكلمةُ الثمانين فى هذا المجال مهولةٌ مرعبة، ولكنها كانتْ عكّاز العقاد الذّى اعتمد عليه فى تبرير الصبابة لا عندَ الكُهول فحسب بل عند الشيوخ، وهو يعلم تماماً قول من يقول:

وَلاَ كَهوىَ الشيّوخ إذا أحَبوا ... وليس وراء غيرتهم بلاء

إن العقاد ينقلُ عن توماس هاردى قوله « أنظرُ إلى المرآة فأرىَ هذه البشرةَ الذابلة تنقبضُ ، فأتوجّه إلى اللهُ مبتهلاً إليه: أسألك يارب إلا ما جعلتَ لى قلباً يذبل مثل هذا الذبول » .

فماذا يُوحى قولُ توماس ، إنه يُوحى بَفزعِهِ المرعب من حبّ غير متكافىء ، وأقولُ غير مَتكافىء لأن الحبَّ لم يهبطْ على شيخ فَيسوقُه إلى عجوزٍ مثلَه أبداً ، ولكنّه يسُوقُهُ إلى ذواتِ النّضارة ممّن يَمشْنَ حالماتٍ فى بُرد الشباب! وهنا تقعُ المأساة ، لأنّ الشابة الحسناء إذا استجابتْ إلى صبابة شيخ فإنّها حين تستجيبُ تعطفُ ولا تُحبّ ، وإذا كانَ الحبّ عطفاً فلن يدوم ، لأنه صدقةٌ تمنح ، ولا يعيشُ إنسانٌ محترَم على الصدقات!

أمّا جيته فقد سلَقه العقاد بلسانِ الملام حين كَتبَ عنه وهو فى سّن الأربعين ، يلومُهُ أن عشِق فى سّن الشيخوخة ، وقد مرّتِ الأعوام على العقّاد لتُنذرهُ بمأساةِ كمأساة جيته ، بل لتجعله يُقدّم العذرَ للشيخ الكبير ، على ما أفرطَ من ملامٍ لا مبرّر له فيقول :

يا صَديقى القديم جيتى اعتذراً	لكَ من سوء ظنّتى وملامى
كنتُ أنْعى عليك حبَّك فى الستيـ	ـن بنتَ العشرين ، فاغفْر
إن عَشِقْنا كما عشقَت وأوْفَيْنا	عليها ، انتقمتَ خير انتقام!

وأعجبُ ما اضُطرّ إليه العقاد فى بلواه هذه أنّه اضُطّر إلى أن يتنازَل عن حقوقِه كعاشق ، فقد كانَ فى زهو الشباب يُحاسب صاحبَته أشدّ الحساب دوَن أن تُذنب شيئاً ، وهو الآن يرىَ الذنب الواضح فيضطرّ إلى التغاضى عنه دون حساب ، بل هو يضطر إلى قبوله فيقول :

أعفيك من حلية الوفاءْ   إنك أحلَى من الوفاءْ
خُونى فما أسهلَ التقضّى   عندى، وما أسهل الجزاءْ
وليس بالسّهل فى حسابى   فقدك يا زينةَ النساء

وإخالُ العقاد يقول أمثال هذه الخواطر فى ساعاتِ الضيق الكارب، حين تنسدُّ أمامه الأبواب ويقفُ حائراً لا يعرف كيف يجتازُ طريقه إلى الفضاء الفسيح، لأنّ مثله فى شموخِه وكبريائه قَدْ عَانَى إعصاراً رهيباً ضغطَ عليه، حتّى هوَّن عليه أن يكتفَى بما لا يكتفى به المحّب الغيور، هذا الإعصار الرهيب أحسَّه العقاد، وشكا أمره إلى الناس حين قال:

تحديتُ الحياةَ فهل جزتْنى   بهذا الحبّ عن هذا التحدّى
أعودُ إلى الحياة لكى ألاقِى   همومَ المستعيدِ المستقّدِ!

(أحمد محرم)

أحمد محرم كان الثانَى بعد شوقى لدى كثير من النقّاد، لأنّه يفوق حافظ إبراهيم مبنى ومعنى، وقد عاشَ عمرَه الطويل محروماً من الجاه والمنصب، وإن رُزق من الشّهرة فى جيله حظًّا طَار به إلى آفاق العالم العربى، وأعجب ما نراه فى سيرته... أنهُ لم يشتغلْ بغير القضايا الاسلاقية والوطنية والاجتماعية فى أغراضِه الشعرية، أمّا الغزلُ فلم يَعْرف غير نمطه التقليدى يسوقّه فى إفتتاح القصائد جرياً على سنة الأقدمين، واحتذاءً لأستاذ مدرسة البعث محمود سامى البارودى، حتّى رُمِى فى سنّ الستين بُحبٍ عاصفٍ لا حيلةَ له فيه، إذ هامَ بمدرّسة شابّة بإحدى مدارس دمنهور، وهو هيامٌ يائس عَصفَ بشيخ

بائس، لا يملكُ قوت يَوْمه.. إلاّ بجهيد جاهد، وقد كشفَ الدكتور محمد ابراهيم الجيوشى عن مأساةِ هذا الغرام فى كتابه عن محرم، كما حدّثنى الأستاذ عبد المعطى المسيرى صاحبُ القهوة الأدبّية بدمنهور.. التى كانتْ لعهده ندوةَ الأدباء. أن غَرام الشاعر قد ظلَّ شُغل الندوة الشاغل، لأنّ الشاعر كان يترفَّع عن مجالسة كثيرٍ من المنتسبين للأدب ادعاءً، فانتهزُوا محنةَ قلبه ليجعلوه موضَع التّهكم، إذ يحكون عن الشاعر أنّه كان ينتظرُ صاحبتَه ليحملَ حقيبتها مودّعاً إياها، حين تسافر، ومستقْبلاً، حين تعود، وقد سافَر إلى بلدتها (ميت غمر) فى الإجازة الصيفّية ليحظَى برؤيتها من بعد، وكان يرحلُ من دمنهور حين تتأزّم مشاعره فراراً من تَجوالِهِ الاضطرارى حولَ مدرستها دوُن موجب، وكأنّه سَجل ذلك حين قال:

عَصف الهوى بجوانح المشتاق	وهَفَا الحنينُ بقلبه الخفاق
ما يفعلُ القلْب الطروب إذا الهوى	بلغ القرار وجال فى الأعماق
يا صاحبى فيم المقامُ على الأذى	سِـرْ فالبلاد فسيحة الآفاق
ما كُنتُ أوثر أنْ أفارق موضعى	لولا القضاءُ وحكمة الخلاّق

وقد اشتعلتِ الحرب العالمية الثانية أثناءَ صبابته الدامية، فلم يخصّها بقصائد ثائرةٍ كما فعل عند اشتعال الحرب العالمية الأولى، ولكنّه اتخذ شُبوبَ هذه الحرب باباً للحديث عن حربِ هواه، فهى أعظمُ هولاً، وأسوأ عاقبة، فقال:

النارُ نارُ الحبّ لا نار الوغى	لكنّ من جهل الهوى لا يعلمُ
كمْ من دمٍ يجرى بمعترك الهوى	ما مثلهُ فى ساحة الهيجا دم

ما القتلُ عند ذوى المعارف والنهى   إلا حَـبـيـبٌ من حبيب يحرم
يـاربّ كُنْ لأحبتى و(لـرفـقتى)   فـالـعيشُ إن وقـع الـفراق محرم

هؤلاء ثلاثةٌ من أعلام الشعر.. لم نشأ أن نتجاوزهم إلى شيوخ أخر من غيرِ الشعراء، كابدُوا فى ثلوج الشيخوخة برحَ الهوى، ثم كانت العاقبة أنْ أثاروا الثائرةَ عليهم دُون أن ينالوا بعض ما يرتجون! ولعلّ العقاد كان أشدَّ وجيعةً حين نقل للقراء قولَ توماس هاردى، إذ رأى غضونَ وجهه الجهْم وبياضَ رأسه الأبيض: (أسألكَ يارَب أن تجعلَ لى قلباً يذبل، كما ذُبل وجهى).. وهيهات! فليست الوجوه كالقلوب.

* * *

غلامٌ صَغيرٌ بالصّعيد
يَسْتَقبلُ سَفِيراً فى منزله

للنبوغ علاماتٌ تَلوحُ بشائرها فى سماتِ النابغ الصغير، إذ يدّل الهلال النّامى فى ليلته الأولى على ما يُؤَمّل فيه من إشراقٍ زاهر حين يصيرُ بدراً مكتملاً، وقد تختفى هذه العلاماتُ، إذا لم تُتح الفرصة لظهورها، ولكن تكمنُ فى الأعماق، كما يكمنُ الجمرُ تحت الرماد، حتى إذا سنحت الفرصةُ المناسبة توهجت الجذوة توهجاً ساطعاً، وقد أَلِفَ الناس أن يخْصروا النبوغ فى الإبداع علمياً وفنيّا، ولكنه فى حقيقته يمتُّد إلى السلوكِ الشخصى، لأنّ المواقف الإنسانّية تُظِهرُ فى كثير من الأحيان فنوناً من النبوغ تقفُ جوارَ المتعارف من فنونه الإبداعية الأخرى، فيكونُ لهَا من الروعة ما يملك النفوس ويأخذُ بالألباب، وحديثُنا الآن عن غلام نابغة لم يتجاوز العاشرةَ من عمره إلاّ بعام واحد حمل إليه سفيرٌ كبيرٌ رسالةً ذات شأن، فأبدى من بشاشة اللقاء واتّزان التّصرف، وبلاغة الأخذ والرد، ورصانةِ الاستقبال والتوديع، ما كانَ موضع الإعجاب الزائد من السفير الزائر، حين قَرن هذا السلوكَ الممتاز من الغُلام الناهض بما يلحظُ من حداثة سنّه، وطراوةِ عوده، فكتب عنه صفحاتٍ رائعة فى مذكّرات أَذَاعها بين قَوْمه، هذَا الغلام الناهض هو علّى رفاعة الطهطاوى نَجْلُ المصلح التربوّى الأشهر رِفَاعة الطهطاوى، وقد صارَ فيما بعد أحدَ رجالات مصر المعدودين، إذ تركَ المؤلفات النافعة، وتَولّى وكالةَ نظارةِ المعارف، وَانْحازَ للثّورة العرابّية عن إيمانٍ بمبادئها الدّستورية، ثم أحيل

للمعاش انتقاماً لمسلكه الوطنى، فعكف على الإنتاج العلمى.. مواصلاً رسالة أبيه، واستعاض عن منصبه الرسمّى، تقدير المنصفين، وإجلالَ العِلْية شرقاً وغرباً من المفكرين، وذلكَ إجمالٌ يحتاج إلى تفصيل.

(لمحة تاريخية)

لا نريُد أن نُؤرّخ لرفاعة الطهطاوى، فأكثرُ مايُقال فى تَرجمته تَحصيلٌ لحاصل، لأنّ تاريخ هذا النابغة الألمعى من الذّيوع والسيرورة، بحيثُ لايُضيف الكاتبُ جديداً ذا بال، ولكنّى أشير إلى بعضِ الملابسات الخاصّة برحلتيه إلى السودان، لصلتِهما الوثيقة بما نُريده من الحديث عن ولده النابغة، لتكتمَل الصّورة فى إطارها الجميل.

لقد كانَ رفاعة رائدَ الثّقافة فى مفتتح هذا العصر، وقد أشرف بعد رجوعه من فرنسا على مدارس الطّب والهندسة والحربيّة إشراقاً علّمياً دعاهُ إلى ترجمة كتبٍ كثيرة تتنوع ولا تتحد، وعلى يده تخرجَ أفذاذُ النّهضة العلمية الأولى فى شتّى اتجاهاتها، وكلّهم يدينُ له بالفضل، ويُسجّل استاذيته، فى مقدمِات ما يُخرِج من المطبوعات، ثم تجلَّتْ همّته الكبرى حين اقترح إنشاء مدرسة الألسن لتنتقل أوربا إلى مصر، بدلَ أن يَذهب نفْر محدودٌ من تلاميذ مصر إلى أوربا فلا تمتّد الفائدة إلى مدى فسيح، بل تنحصرُ فى آحادٍ لاعشرات، وقد آتتْ مدرسةُ الألسن أكلَها الطّيبُ فى شتّى فروعِ المعرفة لأنها أدّتْ رسالَة كليتى الآداب والحقوق معاً. إذ قامتْ على تدريسِ اللّغات الأجنبية، وأدب اللّغة العربية والتاريخ والجغرافية والتّشريع الإسلامى

وبعض القوانين الوضعيّة، وأغذت نخبةً من رجال مصر الذين حرروا الصحافة المصرية إبانَ نشأتها، وألّفوا الكتب العلمية ـ والأدبية ـ ودَرّسوا فى المدارس العالمية، ووقفُوا على نشر المخطوطات العربيّة، وترجموا المؤلفات الأوربية، ولو اطّرد أمرُ هذه المدرسة على نحو ما رَسم لها رفاعة من خُطّةَ لتقدمت النهضة العلمية والأدبيّة على وجهِ سريع، ولكنّ عباسَ الأوّل تولّى حَكْم البلاد، وفى نيته أنْ يُوصد المدارس، وقد صدق المؤرخ الإيطالى (سامارکو) حين قال عنه «إنّ أظهر ما تتّسِمُ به حكومةُ عباس الأول هو عداوُه الوحشّى للحضارة الغربيّة، وكُرهُه العنيفُ لجميع الأعمال التى كوّنتْ مجدَ جدّهِ محمد على، فبذلَ كلّ الجهد فى تحطيمها شيئاً فشيئاً» مع ملاحظة أنّ إغلاق المدارس ليسّ إعتداءاً على الحضارة الغربية.. قَدْر ما هو اعتداءٌ على الحضارةِ الإسلاميّة، والتّربية العربيّة، وطبيعّى أن ينقَم على رفاعة لأنّه رمز الثقافة وأستاذُ النهضة العلمية، ولم يجدْ جُرماً واضحاً يؤاخذه به فاهتّدى إلى نَفْيه مع نخبة من أساتذة مدرسِة الألسن، إلى السّودان، ليقومَ على إنشاء مدرسة ابتدائية بالخرطوم، ولكَ أن تعجبَ لمن يُوصد المدارس بمصر، ويُصرُّ على فتح مَدْرَسّة بالسودان، لا ليدرّسَ بها من تَخَرجوا من مدرسة الألسن، بل ليدّرس بها أساتذةُ المدرسة وعميدُها ويُخيّل إلىّ أنّ مثل رفاعة لا يخلُو من خصوم يتملّقون عباّساً حين يَعرفون هدفَهُ التدميرى، فَيُوحُونَ إليه أنّ رفاعة أساس النّهضة العلّمية فى مصر، وقد استنتج المؤرِّخُ الكبير الأستاذ عبد الرحمن الرافعى أنّ كتاب (تلخيص الإبريز) كان من أسباب نفيْه إذ تحدّث رفاعةُ بإفاضةِ عن الدستور الفرنسى، وعن مجلسى البرلمان، وحقوق الأمّة فى مُحاسبة الحكومة ومراقبتها، وعن المساواة بين جميع الأفراد

فى الحقوق والواجبات، ورفع الدعوى الشرعيّة على الحاكم إذا صَدر منه ما يُخالف العدل، معَ قيامه بالتنفيذ الفوريّ لما صَدر ضدّه من أحكام، كما بيّن حرّية النشر، وانطلاقَ الآراء الصريحة ومُجانبة الظلم، بحيثُ لم يسمعُ ولم يقرأ فى باريس عن أحد تَظَلّم من الضرائب! واستنتاجُ الرافعى سليمٌ لاشبهة فى صحّته، إذْ لا يُعقل أن يُطيقَ عباسٌ من سطّر هذه الأفكار فى كتابِ طُبع مرتين، وذاع أمره بين القارئين، وحُفظَت نُسخُه فى مكتبات مدارس الطبّ والهندسة والحربيّة والألسن.. لتكونَ فى متناول الأيدى، وتحت عيون الطّلاب، وقد عجبتُ للأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم حين رأىَ أنّ من المحتمل أن يكونّ لعلى مبارك يدٌ فى نفى رفاعة، ليأخذَ مكانَته إذا بعُد، لأنّى قرأتُ ما كَتبه على مبارك فى الخطط التوفيقّية عن رُفاعة فرأيتُه يرتفعُ به إلى مستوى رائع، ويشيدُ بمَآثره إشادةَ المعجب الفخور، فكيفَ يَسْعى لنفيْه ليأخذ مكانته! وأىّ مكانة ستَبقى لمثله فى مضمار التربية والتعليم، والمدارسُ موصدةٌ، والمثقّفون مضْطَهدون، لو أنّ مدرسة الألسن على الأقل قدْ بقيتْ وأبعِدَ عنها رفاعة لجازَ للدكتور عزت عبد الكريم أن يَفرض هذا الاحتمال، ولكن الميدانَ قد أقفر فأىُّ منافسةِ تُتاح، وكِلا الرائدين مُصاب؟

الرحلة إلى السودان

سافر رفاعة إلى السودان مع نخبة من أكابر علماء مصر، لينشىء مدرسةً ابتدائية بالخرطوم، فَتجَرع المذّلة صابراً ولكنّه كان مثلَ الجندىّ الذى يُوجّه إلى المعركة، لا يُهمهُ أن يكونَ فى السّاقة أو المقدمة أو القلب، فأخَذ للأمر سبيله الموفق، وأدهشَه أن يرىَ فريقاً من تلاميذه

بالخرطوم ، وهُم الذين اختارهم محمد على عند رحلته إلى السودان ليكُونوا طلبةً بكلية الألسن ، تحت رعاية رُفاعة ، ثم رَجعوا إلى الخرطوم ليعملُوا فى وظائف الدولة ، وإذا كانَ رفاعة أزهريَّ النشأة ، فقد آثَرَ أن يجمع نفراً من طلاب العلم خارج المدرسة الابتدائية ليقرأ معهم كُتبَ الأزهر، وهو يقول عن ذلك فى كتابه ـ مناهج الألباب المصّرية ـ « ومعَ أنّ الإقامة بتلك الجهات كانت لمجرد الحرمان من النفع الوطنى ، فقد اقتضت الحكمَة الآلهية أنّ سفَرى لم يَضعْ هباء منثوراً ، فقدْ تعلَّم فقهاء ، الخرطوم ممّن معى من المشَايخ القرّاء ، تجويَد القرآن الكريمِ ، وعلْم القراءات حتى صاروُا ماهرِين فى ذلك » .

ولا أدْرى لماذا يحاوُل بعضُ الأفاضل أن يتجاهُلوا أثر رَفاعة فى النهضة العلمّية بالسودان ، لا لشىء سوى أنه كانَ ناظراً لمدرسة ابتدائية ، بل امتدّ هذا التجاهُل إلى الأثر المصرى بنوعٍ عام ، مع أن طلبة العلم بالسودان قد أخذوا يؤمون الأزهر الشريف منذ ظهرت سلطة (دافور) سنة « ٨٤٨ هـ » ، ومن بعدها مملكة القونج بسنار سنة « ٩١٠ هـ » ، ولا يزال رواق السنارية بالجامع الأزهر يحمل هذا الرسم إلى عهد قريب . قبل أن تُنشأ مدينة البعوث الإسلاميّة ! وفى دواوين الشعراء السودانيين قصائد جيدة فى تكريم الأساتذة المصريين وقضاة الشرع ممن وفدوا إلى الخرطوم ، فكانوا منارة توجيه ، ومنبع تثقيف ، وفى طليعتهم محمد مصطفى المراغى ، ومحمد شاكر ومحمد الخضرى وعبد الوهاب النجار وعثمان زناتى ، فهل هتف هؤلاء بتكريم أساتذهم دون تعبير عن واقع ملموس ! مهما يكن من شىء فقد أدّى رفاعة واجبه ، ولكن الذى ضاءل من قيمته هو ما قام به من الشكوى المتكرّرة استياء لما حلّ به حين أنزله عباس عن قدره ، وأشعره بالنفى

المجحف، دون ذنب، وقد رأى رفاقه يتساقطون صرعى لعدم احتمالهم حرّ السودان، ولإحساسهم أيضاً بالاغتراب فى غير ميدان، إذا لو كانت الرحلة للتدريس فى مرحلة عالية، لاستهانوا بكل شيء، ولكنّهم أجبروا على السّفر، ليؤدوا وظيفة فقيه الكتاب أو معلم الصف الأول من المدرسة الابتدائية، وقد تعلموا فى فرنسا ليكونوا قادة الشباب، لا ليعلّموا الأبجدّية، ومسائل الجمع والطرح للأطفال.

ولم تـزل قلّة الإنـصاف قـاطعة بين الـرجال وإن كانُوا ذوى رحم

لقد ردّد رفاعة شكواه نثراً وشعراً، فتوجّه بقصيدةٍ ضارعةٍ إلى حسن باشا كتخدا مصر، وكان صاحب حظوة لدى عباس الأول يقول فيها:

ومـا خِـلْـتُ العزيز يريد ذلّـى ولا يــصــغـى لأخـصـام لـداد
لـديـه سـعـوا بـألـسـنـة حداد فـكـيف صغى لألـسنة حداد
مـهـازيل الـفـضائل خادعـونى وهـل فـى حربهم يكبو جوادى
وزُخْـرُفُ قـولهـم إذ مـؤّهـوه عـلـى تـزيـيـنه نادى المنادى

كما رأى من الخير أن يشغل نفسه بعمل أدبّى جاد، فنهض بترجمة القصّة الفرنسية الشهيرة «تليماك»، وقال فى المقدّمة التى بدأ بها:

« وإنى قد توجهت بالقضاء والقدر إلى بلاد السودان، وليس مما قضاه الله مفر، أقمت برهة خامد الهمّة، جامد القريحة فى هذه الملمة، حتى كاد يتلفنى سعير الجحيم الفائر بحرّه وسمومه، ويبلعنى فيل السودان الكاسر بخرطومه، فما تسليت إلاّ بتعريب (تليماك) وتقريب الرجاء بدور الأفلاك».

السفير الأمريكي

كان الاستاذ (بايارد تيلور) شاعراً كاتبا من نوابغ الأمريكيين، وقد عين سفيراً للولايات المتحدة في برلين لمدة طويلة، ولكنّ حب الرحلة قد ملك عليه نفسه، فجال كثيراً في بلاد الشرق والغرب، وكتب عن رحلاته أسفاراً ممتعة، ومنها رحلته إلى السودان، حيث التقى برفاعة الطهطاوي، وانعقدت أواصر الصداقة بينهما، وقد خصّه بفَضل قيّم في كتابه عن السودان ومصر، تَرْجمَهُ الأستاذ عبد اللطيف النشار إلى العربيّة، وفيه يذكر أن رفاعة رافع الطهطاوي من ذوي الثقافة العالية، والذكاء المتوقد، وقد أحزنه كثيراً أن يُنفى عن بلده إلى مكان تنتشر فيه الحمّى القاتلة، وكان يخضع لرقابة شديدة من مصر تفرض عليه ألاّ يتسلم خطاباً إلاّ عن طريق الحكومة، وهي بدورها تفض الرسائل وتقف على بابها، وقد اكتَسَبَ محبتي وعطفي؟! إذ كنا نسهر كثيراً في منزل القنصل الأمريكي، وإذا ذاك يطمئن إلى خلو المكان من الرقباء، ويفيض في ذكر آلامه دون تحفظ، وقد علم برحيلي إلى مصر عن طريق النيل، فأسرّ لي في مكان خال أنه يريد أن يبعث معي رسالتين إحداهما إلى ولده الصغير بطهطا، والأخرى إلى المستر موري القنصل الانجليزي بالقاهرة.. ذاكراً أنه لا يستطيع أن يأتمن البحارة المصريين، إذ ربما أذاعوا الأمر فيبقى في المنفى دون رجوع.

غلام ممتاز

يقول الاستاذ (بايارد تيلور) نقلاً عن ترجمة النشار ببعض التصرف:

وبعد تحريات قليلة وصلت إلى منزل رفاعة، ولم يؤذن لى سريعاً بالدخول لأن السيدات المصريات لا يسمح لهن باستقبال الأجانب، فجلست فى قاعة واسعة مفتوحة الأبواب، ريثما ذهبت خادم لتأتى بنجل رفاعة، وما لبث أن جاء، وكان عمره أحد عشر عاماً، ولكنه أطول قامة ممّن هم فى مثل عمره، وقد ابتسم حين رآنى ابتسامة عذبة، ولولا إلمامى ببعض عادات هذا الشعب، لمددت إليه يدى مرحبًا فى احتفال، وطوّقت خصره بذراعى محتضنا، ولكنّى صبرتُ حتى رأيته يحيّينى فى وقار وجلال كما لو كان رجلاً كبيراً له سمت وأبهّة، ثم تناول يدى فأدناها من قلبه، ثم شفتيه ثم جبينه وجلس بجانبى، وصفّق طالباً القهوة، ثم سألنى: كيف صحتكم يا صاحب السعادة؟ فقلت: بخير والحمد لله فقال: هل لديكم أوامر لى؛ مرُوا تُطاعوا..

قلت: أشكر لك لطفك، وليس لدىّ إلا تحيات أحملها من أبيك مع خطاب طلب أن أسلمه إليك يدا بيد. ثم دفعت الكتاب إليه فوضعه على قلبه، ثم قبّله، وفضّ غلافه ليقرأ، وبعد انتهائه توردت وجنتاه، وسطعتْ عيناه، وسأل:

هل معكم كتاب آخر يا صاحب السعادة؟ قلت نعم.. وسأسلّمه إلى صاحبه، قال أَصَبْت؟ ومتى تصلون إلى القاهرة؟

قلت: الأمر يتوقف على حالة الريح مع السفينة، وأظن المدة لا تتجاوز سبعة أيام، ورأيت الصبى ينظر إلى معلّمه، فدنا فأسّر إليه بكلمات، لم يلبث أن جاء بعدها بشراب لاشيء فيه سوى عصير الليمون المحلّى بالسكر، ثم جىء بالرمان فأكلّت، وسألنى الصبى أن

أشّرفه بالبقاء لديه هذا اليوم، ولولا أنى كنت أرى وجهه وهو يحدثنى، لظننت أننى أحادث رجلاً، فقد كان هذا الصغير من الجلال والقوة، كأنه من عظماء الرجال!

وتجمع الناس حولنا فرحين، كأنهم اعتادوا أن يروا هذا النضوج المبكر من الأطفال، وكنت مضطراً إلى أن أتخذ حياله من الاحتشام والكلفة كما لو كان حاكم المدينة، على أن ذلك لم ينقص محبتى إياه وبعد ساعتين أو ثلاث عدت إلى السفينة التى جرت فى بطء إلى الشمال، وقد نهض الصبى عند نهوضى ومشى إلى جانبى إلى آخر حدود المدينة، والناس من ورائنا يسيرون فى أكمل نظام، حتى إذا بلغت السفينة حيّانى مودّعاً كما حيانى مسلّما، وقال: أسأل الله أن يجعل رحلتكم سعيدة يا صاحب السعادة وأنهى السفير حديثه بقوله: لقد بدا لى أن منظر استقباله ووداعه، والوقت الذى قضيته معه، كان قطعة من مشاهد ألف ليلة وليلة، ولو نسيت فلا أنسى تلك الذكرى الجميلة بالنسبة إلىّ».

مَنْ الغلام

أما الغلام الناهض فهو على رفاعة رافع باشا فيما بعد، وقد تقلَّبت فى المناصب حتى بلغ وكالة المعارف فى عهد ناظرها عبد الله فكرى، كما رأس تحرير روضة المدارس، وألّف من الكتب عدة آثار ذكر منها الزركلى فى الأعلام كتابى (١) قدوة الفرع بأصله، وحب الوطن وأهله، وهو نفحة من روضة أبيه (٢) رقم العَلَم فى رسم القلم، كما أن له رسائل أدبيّة منها ما بعثه إلى صديقه عبد الله فكرى بالإضافة

إلى شعر رائع بالنسبة إلى زمنه، توجُد قصيدةٌ منه، فى خاتمة الآثار الفكرية، ولا أدلّ على شدّة حيائه، من موقفه من رثاء والده، فقد انتقل رفاعة إلى رحمة الله، وولده قائمٌ على تحرير مجلّة روضة المدارس، فآثر أن يكتبَ عنه ما نشرتْه جريدة الوقائع المصرية فى تأبينه، ليكون الرائى سواه، فلا يظنّ أحدٌ به مبالغةٌ إذا تحدّثَ عما يعلم، وكمْ بذل من جهد نفسى فى كظم لواعجه نحو أبيه، مع أنّ الناس جميعاً يعرفون مَن رفاعة؟ وأى مصلح كان.

فى الثورة العرابية

انضم على رفاعة إلى صفوف الثائرين تحت زعامة أحمد عرابى، وخطب وكتب وراسل وجادل فى تأييد الثائرين، وقد كان وكيل النظارة فى وزارة البارودى، ثم أحيل إلى التقاعد عقاباً له بعد إخْفَاق الثورة، وكان محمد سلطان باشا قد ألحّ عليه أن ينضّم إلى جماعة الخديو فأبى وأنكر أن يبوء بهذا الإثم، ثم انطفأت الثورة بتأثير الخيانة، وقابله محمد سلطان ساخراً ولكن فى مداعبة شعرية.

يقول أحمد تيمور باشا فى حديثه عن محمد سلطان بعد أن ذكر دوره فى الارتماء فى أحضان الانجليز، ثم اشمئزازهم منه بعد ذلك:

«حدثنى على رفاعة باشا نجل رفاعة بك الشهير قال: كَانت بينى وبين سلطان باشا وحشة، ازدادت حين جُعلت وكيلاً للمعارف إبان الثورة العرابية» ثم عزلت من هذا المنصب بعيد الثورة وقصدت السفر إلى بلدتى (طهطا) فلقيته بالقطار، فلما وقعت عينه علىّ، قال: إيه يا على بك لقد أجاد الشاعر فى قوله:

برغم شبيب فارق السيف كفّه وكانا على العلاّت يصطحبان

فقلت نعم أجاد ، وأجود منه قول الآخر:

إنى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير، ولكن لا أرى أحداً

وسلطان يريد بشبيب أحمد عرابى ، فرد عليه على رافع بما يدّل على أن من بقى بعد الثائرين هباء لا قيمة له! فهو يفتح عينه على أشباه الرجال فحسب ، أمّا الرجال فقد ذهبوا منذ انطفأت الثورة بعد اشتعال . والبيت الأول للمتبنى ، والبيت الثانى لدعبل ، وكلاهما هجّاء .



أبو نواس يحج

شغل الحسن بن هانيء أذهان معاصريه، فقد كانت سيرته ذائعة شائعة يتناولها الظرفاء متندرين معجبين، ويتناقلها الزهاد لائمين ناقمين، وهو لا يفتأ يضرم النار ويشعل الوقود بما ينظم من شعر ماجن يتردد صداه فى كل ناحية ويترنم به الحداة فى كل ركب، وكثيراً ما يشفع القول بالعمل فيلجأ إلى الديارات الخليعة ويتصدر الأندية الداعرة، يعب الخمر وينادم المرد، ويقود الأسراب الطائرة إلى منابع السكر، حيث تتجاوب الأوتار، وتدور الكؤوس، ويترأس أبليس الحفل، فيفتح باب الغواية على مصراعيه، ويوسوس لكل ماجن بما يسيء المروءة ويغضب الخلق الكريم.

وشاعر هذه نشأته وسيرته لا يمكن أن يفكر يوماً من الأيام فى الحج، بل ربما نفر منه ودعاً إلى حربه، حيث لا يعود عليه بفائدة مما يبتغيه. وإذا كان شعراء الغزل فى الدولة الأموية قد وجدوا فى هذا الموسم الحافل معرضاً فسيحاً للجمال الفائق، فخفوا إلى التمتع ببدائعه الفاتنة، فإن الحسن لا يجد به مآدبه المشتهاة، ففيم السير إلى مكة؟ وعلام يتحمل الشاعر فى سفره المشاق؟ بل إنه سئل عن موعد حجه فقال مستهتراً كعادته «إذا نفدت لذات بغداد[1]» وهيهات أن تنضب موارد اللهو فى دار السلام!

---

(١) قال أبو نواس:

وقائل هل تريد الحج قلت له ... نعم إذا افنيت لذات بغداد

ولكن الثابت فى التاريخ ــ على رغم ما تقدم ــ أن أبا نواس قد حج البيت المكرم فطاف مع الطائفين، ولبى مع الملبين، وقد غمره شعور سماوى هيمن على عواطفه فأنطقه بتسابيح خالدة، تستمد نغمها الحلو من قيثارة فاتنة. فكيف ينبع فى الصحراء الموحشة نهر دفاق «مليء»؟ سؤال يتطلب رداً مقنعاً، ولعل الإجابة تظهر فى تاريخ الرجل، فقد كـــان من حظه العاثر أن يهيم بجارية تمقته وتزدريه، وترسل قذائفها المحرقة فوق رأسه وهو سليب العقل، طائر الفؤاد، يسير وراءها أنى سارت ويبعث خلفها الرسل يستعطفون منها قلبا جامحاً، لا ينبض برحمة لهالك، ولا يستشعر حناناً لمدنف. ولقد كان هذا عجيباً منه أى عجيب! فقد اشتهر طيلة حياته بمجانبة الغيد، فكيف يتورط إذن فى هذا الحب الجديد؟

كانت «جنان» جارية عبد الوهاب الثقفى ساحرة فاتنة، ذات وجه أزهر صبيح، إذا تأملته تعاظمك الإقرار أنه من البشر ــ كما يقول عنه الحسن ــ تجمع إلى دل الحديث وسحر الملامح ذكاء وقاداً، وفهماً عميقاً للشعر الرفيع، ورواية واسعة للأدب، وقد خطرت ذات عشية أمام الحسن فأخذت عقله من مكمنه، ونقشت صورتها فى مهجته. فترك عصابته الماجنة وسار يتعقبها فى كل مكان تحل به، فإذا كان فى البصرة عرس واجتمعت النساء خرج يتلمس صاحبته فى اهتمام بالغ، فإذا وقعت عينه عليها لم يطق أن يسارقها النظر بعض الوقت، فينخفض رأسه حزيناً باكياً إلى الأرض، ويهيم فى آفاق خياله فيعقد موازنة شعرية بين «جنان» وعروس الحفل، وطبيعى أن يحكم بتفوق صاحبته فى مضمار الحسن والملاحة، ثم لا يكتم ذلك، بل يعلنه على الناس إذ يقول:

شهدت حلوة العروس جنان | فاستمالت بحبها النظارة
حسبوها العروس حين رأوها | فإليها دون العروس الإشارة

وإذا قام في البصرة مأتم حزين وهرعت العذارى إليه كعادتهن، ترك الشاعر ما يملأ سمعه من النواح والعويل وأخذ يتلمس صاحبته في موقفها الدامع، ويسبح في آفاق تفكيره، فلا يوازن بينها وبين عذراء ممن شاهدهن كما فعل يوم العرس، بل يجعل الموزانة بينه وبين الميت الفقيد. ولا غرو فقد قتله الحب فهو جدير بأن تبكي عليه صاحبته كما تبكي الآن على الراحل النازح، ثم هو يبلغها ذلك في شعر رقيق هادىء. يقول فيه:

يا قمرا أبرزه مأتم | يندب شجوا بين أتراب
يبكي فيذري الدر من نرجس | ويلطم الورد بعناب
لا تبك ميتا حل في حفرة | وابك قتيلاً لك بالباب

وكانت «جنان» تعتقد أن أبا نواس غير صادق في حبه لأنها تعرف عنه خلاعته وادعاءه، فكانت تسبه وتؤذيه وتطعنه في رجولته، وتنال من كرامته كل منال، ولم تصف له غير حقبة يسيرة مرت في حياة العاشق مرور الطيف، وتركت وراءها طوفاناً جارفاً من السهد والدمع. وكأن الله ـ عز وجل ـ أراد أن يؤدب الحسن بهذا الحب، فقد خلع كبرياءه وغروره وترك وقاحته وهجره، ثم هام كالمشدوه على وجهه، فإذا سأل عن جنان قوبل بما يكره من الأنباء الصاعقة والأخبار الفاجعة، وهو في كل دقيقة يتجلد ويتبصر. وقد يدق شعوره فيتصور سبابها المقذع تكريماً جليلاً لشخصه لأنها تذكر اسمه لا محالة، وفي هذا غنم كبير يساق إليه بلا حساب، اسمعه يقول:

أتانى عنك سبك لى فسبى | أليس جرى بفيك اسمى فحسبى
تشابهت الظنون عليك فى ذا | وعلم الغيب منه عند ربى

وليت شعرى: لم يذكر اسم ربه الآن وقد نسيه قبل ذلك؟ أيكون الحب قد جذبه قليلاً إلى روضة الإيمان، أم أنه الضعف البشرى يتسلط على المرء فيلجئه إلى الاستعانة بربه إذا تقطعت السبل، واستبهم الطريق.

ولقد تطايرت الأنباء إلى العاشق المدنف أن «جنان» ستحج مع مولاها إلى مكة، وذهب الحسن يتأكد من النبأ ويستوثق من مصادره العليمة، فعرف أنه حق لا مرية فيه. ومن ثم فقد أعد العدة؛ وأعلن لأصحابه أنه سيخف إلى مكة فى قافلة صاحبته، ولم يدهش البصريون لحج الشاعر، فهم يعلمون أنه يقصد به غير وجه الله. ولقد كان يتتبع صاحبته فى كل مكان بالبصرة؛ فلا عليه إذا واصل مراقبته الدقيقة فى مكة مهما كلفه ذلك من صحته وماله والطريف أنه لا يقبل أن يترك الناس فى حيرة من حجه المفاجىء، بل يكشف اللثام عن باطن سره إذ يقول:

ألم تر أننى أفنيت عمرى | بمطلبها ومطلبها عسير
فلما لم أجد سبباً إليها | يوصلنى وأعيتنى الأمور
حججت وقلت قد حجت جنان | فيجمعنى وإياها المسير

وأنت لو قارنت بينه وبين بشار بن برد لأدركك العجب من ثبات بشار وخفة الحسن، فقد خدع الأعمى قومه حين زعم أنه سيحج تائباً إلى ربه، واتجه فى أيام الحج إلى «زرارة» وأقام بها مع أحد

أصحابه، ثم رجع مع العائدين من مكة فى يوم واحد، وجلس يتقبل التهانى، ويقص الأحاديث المسهبة عن زمزم والحطيم. دون أن يفضح نفسه بكلمة واحدة، حتى أماط صديقه القناع، فكشف أمره أمام الناس فى أبيات فاضحة[1]، أما أبو نواس فهو لا يريد أن يلبس على القوم حقيقته، فيتستر بالورع والنسك، ويدجل بالطواف والتلبية، بل يذيع شعره الصريح على الناس فى جرأة واستخفاف. ومتى اهتم الحسن بالجمهور، وقد جانب المحجة، وخلع العذار!!

ولقد ظهرت براعته العجيبة فى مكة حيث عرف فتاته فى الحج فى لجج طاغية من الزحام الحاشد، فجعل يتبعها خطوة ويتعقبها فى طوافها تعقبا يدعو إلى الغرابة والدهشة وقد شاهده فى هذا الوضع المريب محمد بن عمر الجماز فصاح به: «ويحك! أمالَكَ فى هذا الموضع زاجر، ولا يمنعك خوف الله، ولا يردك حياء من الناس؟»

فقال له الحسن «يا أحمق وهل حسبت قطع المهامه والسباسب إلا للذى حججت له، وإليه قصدت» ثم شاء شيطانه الداعر أن يكشف حيلته للناس، فقال هذه الأبيات تزيداً كعادته حين جعل جنان تقاسمه هواه وهى فى حقيقة أمرها كارهة نافرة:

فاشتفيا من غير أن يأثما ... كأنما كانا على موعد

---

(١) قال سعد بن القعقاع صاحب بشار فى رحلته:

ألم ترنى وبشار حججنا ... وكان الحج من خير التجاره
خرجنا طالبى سفر بعيد ... فمال بنا الطريق إلى زراره
فآب الناس قد حجوا وبروا ... وأبنا موقرين من الخسارة

لولا دفاع الناس إياهما لما استفاقا آخر المسند
ظللنا كلانا ساتراً وجهه مما يلي جانبه باليد

ومع هذا فقد تيقظت مشاعر الحسن فجأة فى طوافه وتلبيته، فلم يكد يسمع الترانيم الشجية يصدح بها الملبون طوائف تتلاحق وتتابع، حتى حركت أوتار قلبه وأخذ النغم الساحر يسكب فى سمعه نشوة عميقة، فنسى جنان بضع لحظات وسحره الجمع الحاشد يصيح ويستصرخ، فلبى مع الملبين تلبية هى فى الواقع تغريدة عذبة صدح بها فنان موهوب، إذ يقول فى رنة حلوة وتوقيع جميل:

إلهنا ما أعدلك مليك كل من ملك
لبيك قد لبيت لك وكل من أهل لك
لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك
والليل لما أن حلك والسابحات فى الفلك
على مجارى المنسلك ما خاب عبد أملك
أنت له حيث سلك لولاك يارب هلك
يا مخطئاً ما أغفلك عجل وبادر أجلك
واختم: بخير عملك لبيك إن العز لك
والملك لا شريك لك والحمد والنعمة لك

ولله ما أبدع أبا نواس هنا، فقد.. كان شاعراً قبل أن يكون عاشقاً؛ فهو يتأثر بالمنظر الرائع فيبرز صورته الجميلة فى مرآة شعره، وإن شغله بعض الوقت عن فاتنته، ولا يعقل أن ينقص هذا من حبه فى شيء لأن الشاعر حساس مرهف يتأثر بكل ما يرى ويسمع فيتغنى به فى سهولة ويسر، ولئن كان المجنون قد طاف مع الطائفين، وشاهد

ما شاهده الحسن ، فلم يخض كصاحبه فيا خاض فيه الملبون ، ومضى يتساءل عن ليلاه ويرسل زفراته الشعرية المحرقة ، فلأن قيسا كان عاشقاً قبل أن يكون شاعراً ؛ فهو على النقيض من أبى نواس .

وكثيراً ما يقف الأدباء أمام مقطوعة الحسن فى التلبية وما يشاكلها من أشعاره فى الزهد والتوبة حائرين مرتبكين ، حيث يستغربون صدور هذه النفثات الصادقة من خليع مستهتر بالشرع الحنيف ، ولقد فات هؤلاء جميعاً أن لكل نفس مهما غرقت فى الخلاعة والفسق سبحات خاطفة تصلها بالسماء فتندم على ما فرطت فى جنب الله ، وتتجه إلى الخالق مستغفرة باكية ، فلا عجب إذا أدركت الشاعر هذه اللحظات الخاطفة فى أبياته الزاهدة ، لا سيا والحسن برغم مجونه الزائد متصل السبب بالآثار الدينية والمواعظ الروحية ؛ فقد صحب فى صباه أئمة الدين ، وروى الحديث النبوى ، حتى عده الحافظ الذهبى فى ميزان الاعتدال من رواته ، وإن هجنه ووصمه بما يسقطه ويرديه ، كل ذلك يدعوه إلى الندم والحسرة ــ ولو بعض لحظات ــ على ما يرتكبه ويأتيه ، واعتقد أن شهرة الشاعر بالخلاعة قد جنت عليه أكبر جناية ، فقد طاب له أن يتناقل للناس نوادره وأشعاره وكلها طريف ممتع فى بابه ــ وخيل إليه أنه إذا انقطع عن غيه ، سكت الناس عنه فلم يلهج بذكره ذاكر ، وصاحبنا ــ كجميع الشعراء كلف بالشهرة مولع بالظهور ، بل إنه صرح بذلك لأبى العتاهية حين لامه فى تهتكه . وإذا كان الصيت الذائع فى رأيه لا يكون بغير الخلاعة الزائدة ، فليتطلبه من طريقها الشائن .. وهذا ما كان !

وكيفما كان الحال ، فقد رجع الشاعر من مكة كما ذهب إليها ، ولم يتقرب إلى الله بتوبة ترفع عنه سيئاته ، وحسبه أن وجد فى البيت

العتيق طريقاً يوصله إلى جنان بدل أن يوصله إلى الله! وليته ظفر بما يريد، فإن صاحبته مازالت برغم هذيانها تمقته وتزدريه، وعذرها فى ذلك أنها لم تصدقه فيما يدعيه، إذ جنت عليه شهرته السالفة، فحق لجنان الماكرة أن تعذبه بالحرمان.

وقد يئس الشاعر من صاحبته فى النهاية، فأكب على الشراب وحالف السكر محالفة تنسيه شواغل الوجد ولواعج الهيام، ثم ترك البصرة بما فيها من معارف وأصدقاء واتجه إلى مدينة السلام، فرأى البصرة لا تقاس بها فى الترف والمجون، فقد حوت من المتع والملاذ ما يستخف الوقور ويسبى الحليم، فغرق فى الخلاعة إلى أذنه، ونهز بدلوه مع الغواة، وبلغ ما يبلغ المرء بشبابه فإذا عصارة كل ذاك آثام!

عفا الله عن الحسن بن هانىء فقد حج إلى البيت العتيق حجا غير مبرور، ونظم فى الزهد والتوبة مالا ينهض بآثامه ومخازيه، ولكنه خدع من كتب عنه من المستشرقين فى دائرة المعارف الإسلامية، فزعم أنه تنسك وزهد، وما كان الشاعر طيلة حياته من الزاهدين، ولكنه قال قول الزهاد، وفعل أفعال المجان، فكان كصاحبة جميل تذبح العصافير فى قسوة، وتدمع عليها فى رحمة.

فلا تنظرى يا بثن للدمع وانظرى إلى الكف ماذا بالعصافير تصنع

* * *

مروءة عبده الحامولى

كنا فى مجلس المغفور له الأستاذ الزيات بدار الرسالة منذ خمسة وأربعين عاماً، وقد جرى الحديث عن أخبار الأريحية والمروءة التى ذخرت بها الكتب القديمة، فسأل سائل لماذا أجدب العصر الحديث من أمثال هذه الروائع الكريمة، فلا نجد لساناً يتحدث عنها أو كاتباً يشير إليها؟ فرد الأستاذ الزيات يقول: إن المروءة المعاصرة ذات أنصار وعشاق، ولكن طريقة التأليف الحديثة تمنع أن تحتشد هذه النوادر دون تبويب فنى مقبول، كما كان يكتب الجاحظ وابن قتيبة والتنوخى وصاحب العقد الفريد! والحق أن ما يصدر عن الكرام من أريحية ومروءة فى حاجة ماسة إلى تدوين يشتهر ويذيع، فيكون دروساً عملية فى الخلق الفاضل والسلوك الحميد، ولا ينفعنا أن نحبذ هذه الفضائل دون أن نذكر من رجالها المعاصرين من رأيناهم رأى العين يملأون النفوس إعجاباً وتقديراً، أو سمعنا من أساتذتنا عنهم ما شاهدوه من مستجاد الهمم، وروائع المأثورات.

أتفق لى أن سمعت عن الفنان الشهير عبده الحامولى قصصاً متواترة تنبىء عن أريحيته النادرة، وتشهد بأن الفنان الأصيل إذا أجاب هواتف الخير والحب والإنسانية فإنما يستجيب إلى مشاعره النبيلة ذات الهدف العبقرى، أما من يحيدون عن مآثر المجد من ذوى الفنون فإما شذاذ يمثلون الإستثناء، أو دخلاء يغرون الناس ببهارجهم

الخادعة! ومازالت رسالة الفن على إختلاف أنواعه رسالة الحق والخير والجمال.

كان عبده الحامولى قمة فى فنه الصوتى، ولسنا بصدد التحدث عن موهبته فقد يكون غيرنا أقدر على ذلك ممن تخصصوا فى دراسة الفن الغنائى وتاريخه المعاصر، وإذا كان لابد من سطور ضئيلة نقدمها لأبناء هذا الجيل فإننا ننقل هذه النادرة الطريفة التى رواها الأستاذ عبد العزيز البشرى لتشير من بعيد إلى روعة الرجل وتحليقه، والأستاذ البشرى من أقدر معاصريه على الحديث عن أصحاب الفنون حديث الموهوب المتذوق الطروب، فهو يقول عن الحامولى فى مجلة الرسالة العدد ٤٢ «ما برح عبده الحامولى يضطرب بين الليل والعين حتى قال الجبار «أدينى صابر على نارى» ولست بمستطيع أن أقول كيف قالها الرجل، ولا كيف صنع لأننى أنا نفسى لا أدرى ولا أحسب أحداً من الخلق درى كيف قال الرجل ولا كيف صنع؟ ولكنى أستطيع أن أقول إن طائفاً عنيفاً من الكهرباء سرى فى هذا الحشد لم يسلم منه أحد، جمد الناس جميعاً وتعلقت أنفاسهم وشل كل مناط للحركة فيهم، فما تحس منهم إلا أبصاراً شاخصة وأفواها مفغورة لو اطلعت عليهم لخلتك فى متحف يجمع دمى منحوتة لا أناسى يترقرق فيها ماء الحياة حتى القائمون بالخدمة لقد مسهم هذا الطائف فجمدوا ووقفوا، حتى ردف عبده، لقد جرى عليهم من هذا ما جرى على سائر الناس. وظلت هذه الحالة برهة وينفجر البركان الأعظم يتطاير عنه الحمم وترى الخلق يموج بعضهم فى بعض لا يدرى والله أحد أين مذهبه؟ ولا تسل كيف قدت الحناجر من الشهيق ولا كيف بريت

الأكف بالتصفيق، وخرج الأمر ساعة عن عرس مقام إلى مستشفى مجانين».

هذا بعض ماقيل عن الحامولى الفنان أما الحامولى الأريحى فسأخصه بهذا الحديث، لقد تمكن الفنان من قلب الخديو إسماعيل تمكنا جعله سمير روحانه ورفيق سفره حتى اصطحبه ذات مرة إلى الآستانة وقابل أمير المؤمنين فلقى الحظوة والإقبال وانتشر له فى بلاد الخلافة صيت جهير، وقد ضن عليه إسماعيل أن يغنى غيره من الوجهاء إلا بعد استئذانه، وكان الخديو فى ليالات السمر يجلس مع الفنان وفرقته الموسيقية على بساط من السجاد العجمى المذهب يملأ الصالة الممتدة، فإذا أبدع الحامولى فى غنائه أخذ إسماعيل يزحف نحوه ثم يضع يده بالأكياس الذهبية فى جبته، حتى اتفق له ذات ليلة أن يخرج من مجلسه ثقيلاً بطيئاً فأخذ يعد ما يحمل فوجد اثنى عشر قرطاساً بكل قرطاس مائة جنيه من الذهب الخالص، ففرق على رجاله قدراً كبيراً واحتفظ بما يبلغ النصف!! هذا الفنان الأريحى الشهم غنى إسماعيل ذات ليلة فبلغ الطرب بالخديو منتهاه ورجاه أن يسأل ما يشتهى، وقد توقع أن يطلب مبلغاً من المال يربو عما يستحوذ عليه كل حين! ولكن الحامولى نظر إلى الخديو نظرة عميقة، وسأله اتمنحنى يا مولاى ما أريد فبادر إسماعيل بالموافقة فى تلهف فقال الحامولى كل ما أريده أن تنقذ نشأت باشا مدير القليوبية السابق من محنته وتعيده إلى مكانته؟ ولم يكن الخديو الناقم على المدير يتوقع مطلبا كهذا فصاح فى غضب ولكنى أمقته وسأرديه. فرد الحامولى فى إباء لن أطلب غير ذلك. فالرجل حين رجانى كان يعلم أنى أهل للرجاء ولن يغنى عن إنقاذه ما آخذ من الذهب وإن كان

كالجبال .. فسكت الخديو برهة ثم نزل على إرادة مطربه فعاد نشأت إلى مكانته بعد أن كان من الموت على أمتار.

هذه الصلة الوثيقة بين الفنان وولى الأمر لم تكن لتحول دون الاصطدام فى مأزق خطير تجلت به همة الحامولى ورجولته، وكشف عن معدن نادر لا يكاد يوجد بين الناس إلا فى القليل، فقد تزوج الحامولى بالمطربة الشهيرة (ألمظ) وأعلن فى الناس أن زوجته منذ اقترنت به لن تغنى أمام أحد من الناس جل أو هان، وكان إسماعيل ممن يعشقون غناءها، ويقدرون موهبتها البارعة فى الترجيع والتطريب، فأشار باستحضارها على عجل فى أحد مجالس طربه، وأرسل قوة بوليسية لاستدعائها على الفور مهما قامت الصعاب، وقد أفهمه جلساؤه فى لباقة أن الحامولى قد حرم عليها الغناء تحريماً لا سبيل إلى تحليله، فاستهان الخديو بمشيئة الزوج وأرسل حملته المزعجة لاختطاف الزوجة، وفوجىء الرجل الشهم بالموقف الصعب، فتصدى للقوة وحده، وحال دون أمنيتها مستخفاً بالتهديد والوعيد. فلما تأزم الموقف أوصد باب المنزل ثم رمى بنفسه من شباك خلفى، واتصل سريعاً بإسماعيل باشا صديق وزير المالية وأفهمه أن ذهاب ألمظ إلى القصر لا يعنى غير انتحاره دون انتظار، وكأن الوزير قد أشفق على صاحبه فركب عربته إلى الخديو وأخذ يصور له نفسية الحامولى.. وتشدده حتى مال به إلى التسامح. فأمر بإحضار القوة البوليسية ورفع الحصار عن المنزل، ولكن أثر الحادث قد ترك عقابيله فى أعصاب الفنان الكبير فأسلمه إلى الأرق وهدده بالإعياء، وقد كان فى شجاعته هذه مثلاً يروى فى استهوال، إذ كان الخديو إذ ذاك حاكماً بأمره لا يقف أمامه وزير أو كبير. وكانت أحكام المصادرة والنفى

والسجن والقتل تصدر عنه فى تجبر لا يعبأ بحق أو يتقيد بدستور!!

أما مروءته السمحة فقد اشتهرت بين العامة إشتهاراً جعلها موضع العجب والإعجاب، إذ أنه كان يبدد جميع ما يحصل عليه من الهبات تفريجاً لغمة محتاج أو إستجابة لصيحة لهيف، وإذا كان الرجل قد كسب الثروة الهائلة من حفلاته المتتالية فإنه لم يبق منها على كثرتها شيئاً فى يده، وقد ودع الحياة وليس بمنزله من المال ما يفى بنفقة الجنازة ومحفل التشييع!! وأصحابه يذكرون أن بعض السائلين قد اعترض طريقه ذات يوم وليس فى جيبه ما يفى بمعونته من العطاء، فخلع خاتمه الذهبى ومنحه إياه، وكان منشورى الشكل تقدر قيمته بألف جنيه، ولكن همامته النبيلة لم تشأ أن يرجع السائل مجروح النفس فدفع إليه الخاتم عن مسرة وارتياح! وللجود مذاق هنىء لا يستمتع به غير نفر من طراز هذا الإنسان! ولن يستكثر أحد ذلك عليه أو يميل به إلى المبالغة والتهويل، فالحامولى يكسب مقداره فى مجلس واحد فلا عليه أن يجود.

وحادثته مع سليم سركيس أشهر من أن تذكر، فقد كان الفنان الكبير صديقاً للصحافى الشهير يصاحبه كثيراً فى مغداه ومراحه، وربما كان يحمله على إحياء كثير من حفلات الأعراس حسبة لوجه الإخاء، وللحامولى فى هذا المجال فتوة نادرة يتحدث بها عارفوه، حتى أنه صمم فى بعض السنوات أن يغنى مجاناً فى جميع الحفلات ليرتفع بالفن المبتذل إذ ذاك عن مستوى الكسب والإتجار، ولذلك خاض ميدان التجارة برأس مال قدره عشرون ألفاً من الجنيهات، ولكن الفنان المثالى لا يمكن أن يجلى فى ميادين الخديعة والاحتيال فما تصرم العام حتى خسر ماله جميعه. واضطر إلى الإرتزاق من موهبته

إضطراراً أحس له مضاضة محرقة وألماً كاوياً، وقد أتفق بعض الوزراء ذات ليلة مع الحامولى أن يحيى زفاف نجله بألف جنيه ذهب، ومهد لذلك فاستأذن القصر الخديو وأقام سرادقاً كبيراً يسع آلاف المشاهدين، وتحدثت القاهرة بما سيتاح لها هذه الليلة من إبداع الحامولى وتحليقه، وما أزف الموعد حتى تقاطر الناس من كل فج يتقدمهم علية القوم من الأمراء والوزراء وأرباب المناصب والوجاهات، فاحتلوا الصفوف الأولى وتركوا ما خلفها للجمهور المحتشد يموج بعضه فى بعض، ولم تمض لحظات حتى حضر الحامولى يتقدم فرقته وإلى جواره صديقه الأستاذ سليم سركيس، فامتعض أحد الوزراء لمرأى الصحافى إذ كان قد نقده فى صحيفته نقداً عده غير لائق بمستواه كما يزعم. فأسر إلى زميله صاحب العرس أن يبادر بطرد سركيس وإلا اضطر الوزير إلى الانسحاب، وقد ظن الرجل أن المسألة هينة، فتقدم إلى سركيس يأمره بمغادرة المكان، وشاهد الحامولى حرج صديقه فرمى من جيبه بالجنيهات التى أخذها مقدمة لأتعاب السهرة وأمر فرقته بالتأهب للانفضاض، فارتج المكان ارتجاجاً رهيباً، وحدث من الهرج والصياح ما جعل صاحب العرس يضرع إلى الحامولى أن يبقى فى مكانه على أن ينتظر معه سركيس فرفع الحامولى رأسه وقال فى اعتداد: وعلى أن يذهب سركيس فيطرد الوزير الشاذ من الإحتفال، وطارت الأنباء إلى المتغطرس الشموخ فانسحب متضائلاً قبل أن يواجه بالإبعاد، وكان ما أتاه الفنان درساً قاسياً صفع وجوه المستوزرين من أبناء الذوات!!

هذا الموقف الكبير يصور الحامولى فى اعتزازه وكبريائه أبهر تصوير وأحلاه كما يبرز تقديره الحى للوفاء، وحرصه النبيل على كرامة

الأصدقاء، وهو من هذه الناحية لم يدخر وسعاً فى الترويح عنهم، والتفنن في إسعادهم بما يريدون، فإذا وفق فى ذلك إلى بعض ما يريد كان سروره بالمحل الأرفع، كان الأستاذ خليل مطران يعانى هماً شاغلاً لنكبة ما حلت به، فزاره الحامولى فى الظهيرة ولمح ما يعتلج وراء إبتسامة من وجد، فاقترح عليه أن يذهبا معاً إلى حديقة الأزبكية ويغنيه وحده هناك! فوافق الشاعر ومضيا حتى إذا جلس فى ظلال بعض الغصون رفع الحامولى عقيرته يغنى بقول القائل:

ودواهـى الـعـيـون شر الـدواهـى	إيـقـظـتـنـا لـلـحـب وهـى سواهـى
واستعانت على القوى بهواها	فـاسـتـعـنـا عـلـى الهوى بالله

قال مطران: وكان الهجير مشتعلاً والبستانى يرش الماء، فخيل إلى لفرط التأثير من خلابة الصوت وعذوبة موسيقاه أن الحر زفرات عشاق وأن الماء دموع تتساقط. وطربت طرباً عظيماً، فلما شاهد الحامولى طربى وخلوصى بعض الوقت من الضيق كان ذلك أشهى لنفسه من أعظم أجر يتقاضاه.

ولا نختم هذه العجالة حتى نشير إلى طرفة بديعة ذكرها الأستاذ أحمد محفوظ فى كتابه (خفايا القاهرة) عن الحامولى، وهى فى رأينا تنطق بفكاهة الفنان وخفة روحه قبل أن تنطق بأريحيته ومروءته وشهامته، وترسم حبه للشعب وحدبه على الضعاف حدباً يشيع فى أحناء نفسه ويتغلغل فى طواياه.

قال الأستاذ محفوظ عن بعض معاصريه:

«كان الحامولى يعبر زقاقاً ضيقاً فى مدينة الاسكندرية فألفى

امرأتين تختصمان لأن إحداهما قد آذت الأخرى برش الماء فى الزقاق، لأنها اعتزمت أن تقيم حفلاً فقيراً لابنها فى مساء الغد، فهى تسكن التراب بالماء لتمهيد الأرض ولكن الأخرى لم يرضها هذا فصاحت فيها (يا شيخه هوستينا هو يعنى أنتى حاتجيبى عبده، فتقول الأولى (ما يبعدش على الله)، ويسمع الرجل الكريم هذا الحوار فتدفعه الأريحية إلى القدوم نحو المرأة الفقيرة الراجية ويدفع لها ثلاثين جنيهاً ذهباً لتعد العدة، لأنه سيحضر إليها عبده، فتجن المرأة فرحاً وتصدق الرجل وتقيم السرادق الفسيح.

ويجتمع عبده الحامولى بأصدقائه، ويعلن أنه سيغنى فى المساء فى (باب سدرة)، وتعلم الاسكندرية كلها هذا النبأ ويهرع الناس غنيهم وفقيرهم إلى هذا الحى الفقير، ويبر عبده بوعده للأم وتشهد الاسكندرية ليلة لم تشهد مثلها فى حياتها الطويلة.

وبعد أفتكون هذه المكرمات النادرة فى حاجة إلى تعليق؟



حسين فوزى
بين السندباد العصرى والسندباد القديم

كان الدكتور حسين فوزى مثلاً نادراً فى مواهبه ، فهو عالمٌ دقيق ، وفنّان أصيل ، وكاتبٌ متفرد ، ورحّالة متنقّل ، ولو قُسّمتْ مواهبه المتعددة على عدة رجال ، لافتخر كل رجل بما حازه من موهبة واحدة ، فكيف وقد تجمعت محتشدة ، فى كيان الدكتور حسين فوزى! لقد كنا نعجب حين نرى فى القديم إنساناً كعبد اللطيف البغدادى يجمعُ بين الأدب والعلم والرحلة ، ونظنه لايقدر التخصص حق قدره ، بل يأخذ من كل فن بطرف واحد ، وربما أكد بعض ناقديه أنه هاوٍ فى غير مادونه من رحلاته ، ولكن حقيقة الدكتور حسين فوزى التى نلمسها لمس الواقع ونراها رؤية العيان تؤكد أن الله ذو فضل لايحدّ ، وليسَ بمستكثر عليه أن يجمع العالم فى واحد.. ولعلّى أكونُ صريحاً حين أعلن أننى كنتُ أتتبّع كل ما أعثر عليه من آثار الدكتور حسين فوزى ، لالأنى أتفق معه فى كل وجهاته ، بل لأنى أخالفه فى الكثير من هذه الوجهات ، وليس ذلك بمستغرب لأن القارىء يجد المتعة كل المتعة مع كاتب يتيح له أن يفكر وأن ينقد وأن يرجح ، فهو يملأ عقله بمختلف الأفكار تصويباً وتخطئة ودفعاً وجذباً ، إذ يحس أنه شريكه فى موضوعه ، وليس مجرد آلة استقبال تتهيأ لآلة إرسال ، هكذا أكون فى كثير ممّا أطالع للدكتور حسين فوزى ، فله على منة وإنعام .

(السندباد العصرى)

إذا كان السندباد رحالة لايفتأ ينتقل من مكان إلى مكان ، فالدكتور حسين سندباد نشيط جاب أكثر جهات الأرض شرقاً وغرباً ، جاب هذا الأكثر بعين فاحصة ، ونفس مستوفزه، وعقل محلل ، فلم تكن رحلاته ترويحاً للنفس قدر ما كانت إجهاداً للعقل ، وشغلاً للقلب ، وتعباً للقلم ، ولم تقتصر الرحلاتُ على الحاضر، بل اندفعتْ إلى الماضى ، إذ يطالع ما دونه الرحالون من فريق السندباد ، على مر العصور، وهو أيضاً مع القدماء دائم التفكير كثير النقد ، متعب القلم ، يقرأ لينقد ويعلل ويستنبط ، وقد يرسل البسمة الساخرة حين يجد الابتسام مرفها عن شجونه ، وله جرأة محمودة على الهدم والتفنيد ، لأنه يعتقد أنه قد ورث أرضاً طيبة تحتاج إلى حرثٍ وحفرٍ وتسميد ، ولابّد أن يطرد منها الشوك والصخر، أو ما يعتقد أنه الشوك والصخر، ولا عليه إذا كان هذا الصخر فى منطق سواه رخاماً بلّلورياً ، أو كان الشوك سياجاً لزهرةٍ ناضرة ، فحسبه أن يعتقد أن الصخر صخر، وأنّ الشوك شوك ، ولابد من وصفها الصحيح .

وحين كان مديراً لمعهد الأحياء المائية ، تألفت بعثةٌ علمية من كبار الباحثين لدراسة الأحياء المائية فى المحيط الهندى والبحر الأحمر، تألفت من علماء الانجليز وعلماء مصر ، وطبيعى أن يكون الدكتور حسين فوزى مدير معهد الأحياء المائية عضوا مختاراً لهذا العمل الجادّ .. مع نفر من زملائه الجامعيين فى مصر ، وقد قضت البعثة فى رحلتها تسعة أشهر على ظهر الماء ، ووضع رجالها عدة بحوث علمية كشفت الجديد عنْ عالم البحر المستور وكانَ من الرائع أن تُحصى البعثة ألفاً ومائةً

وستين نوعاً من سكان الماء تنقسم إلى ثلاثة وخمسين قسماً، منها ثمانية عشر لم تُعرف من قبل، وقد اطلقت عليها أسماء علمية، من بينها اسم الدكتور فوزى واسم الدكتور عبد الفتاح محمد وأسماء أُخرى لعلماء الإنجليز والمصريين، كما قدّمَ أعضاءُ البعثة ورئيسها عدة بحوث علّمية كانت موضع الدراسة الجادّة في الدوائر العلّمية بالغرب، ومنها بحثٌ دقيق للدكتور فوزى، ولكنَّ هذه البحوث الرصينة الدقيقة انحصرت في حيز الدراسات الأكاديمية .. التى لا يعكفُ عليها غير المتخصصين، وقليلٌ ما هم ــ ولو اقتصرَ الدكتور فوزى على بحثه العلمي الدقيق، ما تَركَ هذا الصدى الرّنان الذّى تركه كتابه الأدبّى عن الرحلة وقد سمّاه «سندباد عصرى»، إذ صوّرَ خواطره وانطباعاته فى فصولٍ مثيرة تدلّ على لطافة الحسّ، وتوّهج الشعور، وقوّة الانفعال، وأقولُ قوة الانفعال لأنّ المؤلف خطّ كتابَه فى ريعان شبابه المتوهّج، وكانَ ذا ثورة مشتعلة على كِلّ ما بعده مظهراً من مظاهر التخلّف فى الشرق، ثورة دفعتْه إلى مجاهراتٍ عنيدة لا تُرضى أكثر القارئين، لأنّها لم تسلْك سبيلَ الحياد التّام بين اتجاه واتّجاه، بل جعلتْ تختارُ أرذَل ما تقعُ عليه العين شرقاً، لتَقْرِنهُ بأرْفع ما تقعُ عليه العين غرباً، والمنطقُ العلّمى، والحياد الفنّى معاً يقتضيان ألاّ نقتصر على ذِكر المساوىء فى ناحية، وذِكر المحاسن فى ناحية مقابلة، ثم نقول هــاؤم اقرءاا كتابيه! وقد شاء الدكتور فوزى أن يبدأ الصفحة الأولى من كتابه بقوله «دَرَجْتُ على حبّ الغرب والإعجاب بحضارة الغرب، وقضيتُ أهّم أدوارِ التكْوين من عمرى فى أُوربا، فتمكنتْ أواصر حبّى، وتقّوتْ دعائم إعجابى فلّماذا ذهبتُ إلى الشرق عُدْتُ إلى بلادى وقد استحال الحبّ والإعجاب إيماناً بكل ما هو غربى.

وهوَ ابتداء تقريرِّى لَيسَ فى مصلحته شخصيّا، إذ كانَ من الممكن أن يُتابع صوره الفنية وَومضاته الفكرية دونَ هذا التمهيد، وسيلُّم القارىء باتّجاهه من خلال انطباعاته، وطبيعِّى أنّه يدرك إعجابه بالغرب من خلال اللمسات القّوية التى يُجسُّد صُورها بين السطور، وهنا يكُون التأثير المنشود نتيجةً لأفكار تتعانق مؤيدةٍ بالمثال والشاهد، أمّا أن نفجأ القارىء العربى الشرقّى بما يصدم شاعرهُ بدءاً، فإنّه سيحترس احتراساً تاماً من صاحبِه، وسيبدأ الكتابَ مستوفَز الإحساس ليردَّ على كّلِ انحرافِ صغيراً كان أو كبيراً، وقد كانَ هذا الابتداء موضع الاعتراض من دُعاة الثقافة الغربية أنفسهم، فأنّا أذكر أنّ الدكتور طــه حسين قد ألَّف فى الحقبة التّى ظهر فيها كتاب (سندباد عصرى) كتابه الشهير (مستقبل الثقافة فى مصر). وفيه دعّا إلى المنهج الغربى تربويّا، ولكنّ الدكتور طــه حسين نفسه لم يسترِح لابتداء الدكتور حسين فوزى فى السندباد العصرى، إذ يقول عميد الأدب العربى فى نقده للكتاب:

«وما أكثَر الآراء التى لاأشارُك فيها الكاتب، ولكنَّ اختلاف الرأى ليس عيباً يعيب الكاتبَ ولا الناقد، فلستُ أَرى معه مثلاً أنّ كلَّ ما فى الغرب جميل، وما أظنُّ أن تَطْوافى فى الشرق إن أُتيح لى أن أطرف فيه يردُّنى إلى الإعجاب بالغرب فى غير احتياط، فقدْ يكون الغربُ خيراً من الشرق، وخيراً من الهند خاصّة فى أشياء كثيرة، ولكنَّ الغرب لَيسَ خيراً كلّه، ولم يخْلِق الله بعدُ حضارَةَ هى خير كلها» [1].

---

(١) يراجع مقال الدكتور طه حسين بالعدد التاسع من مجلة الثقافة، السنة الأولى (٢٨/٢/١٩٣٩)م.

هذا ماقاله الدكتور طه حسين، وهو حينئذ من دعاةِ الثقافة الغربية فى كتابه، أمّا الاستاذ سيد قطب فقد قَدَّر السندباد العصرى من الناحية الفَنيّة تقديراً ممتازاً، إذ عَرضَ بعض لقطاته التّصويّرية محبّذا ،ونقلَ مايمثّل منها المواقَف الشعرّية لفنّانٍ حَسَّاس يرتبطُ بالكائنات ارتباطاً عميقاً من حيوان وجماد، بلْ إنّه يبكى على مفارقة الجماد كما كانَ الشاعر البدوىَّ يبكى على الدّمِن والأطلال، ولكنّ سيد قطب ــ رحمه اللهـــ يجهر بأنه يخالف الكاتب فى الإعجاب بكّل ماهو غربى، وفى زرايته على الشرق وعاداته وأساطيره ودياناته، ويرجُو أن يكونَ المؤلف أوسعَ أفقاً، وأكثر عطفاً، وأعمق اتصالاً بروح الشرق الكامنة وراء هذه المظاهر والأوْضاع والروح الصوفّية المتسامحة المشرقة بنور الإيمان. إذ لاندعو إلى الروحانية السلبية، ولكننا ندعو فقط إلى فهمها والعطف عليها وتقديرها من الوجهة الإنسانية، فالغربى معذور حين يغلق حسه وفهمه دون الروح الشرقية الأصيلة، أما الشرقى فلا عذر له فى هذا الإغلاق،

هذه ناحية، أما الناحية الثانية، فهى إتجاه الشفقة المفرطة على الحيوان دون الإنسان، مع أن الرحمة كل لاتتجزأ. والرحمة للحيوان شعور نبيل يجب أن يتأصل فى النفوس، ولايمكن أن تكون موضع خلاف، ولكن الرحيم المشفق المتعاطف مع هرةٍ قضتْ تسعة أشهر على ظهر الباخرة دون قرين من جنسها يلبى نداء الطبيعة، لابد أن يرحم إنساناً قضى عليه أن يكون حصاناً يجر عربة (الريكشو) التى تحمل الأثقال الحجرية آنا، والكائنات البشرية آناً آخر، وقد رأى الدكتور الرقيق أن يركب (الريكشو) مع وجود عربات أخرى تجرها الحيوانات المختلفة، وكان من المنتظر أن يأسى الراكب لحامله البشرى،

وأن يجعل هذه الفرصة مثاراً لانفعالٍ راحم يُعلن السخط على البشرية التى يمتهن فيها الإنسان أخاه، فتكون عربة الريكشو مصدر نبع للحنان المتدفّق. ولكنّ الدكتور مع إعلانه الشفقة على إنسان الريكشو الّذى إنحطّ عن آدميته فأصبح فى مستوى الدابة، لا يكادُ يحفظ هذا الإعلان المبدئى فى أول الفصل حتى ينقلب إلى ضّده فى جميع السطور التالية، فهو الحمار الآدمى الخادع، الذى يصرخ الدكتور فى وجهه قائلاً بنصّ عبارته ص «٩»: «أسرع أيها الحمار، أسرع أيها الكلب الحقير، أيها الحيوان، ماذا غرر بك لتضيع وقتى هكذا». ثم يشتمه باللغة الانجليزية التى تعلمها من البحارة الانجليز على ظهر الباخرة، ويصل إلى درجة منفعلة من الحنق فيستنجد باللغة المصرية ليواصل السبّه، ويقول الدكتور مباهياً: ما كان أعظم دهشتى إذ كان لألفاظ السباب المصرية وقع البلسم على نفسى!!

فإذا قارن القارىء ماكتبت عن الحصان الآدمى المسكين الذى يأكل لقمة العيش بإتقان دور البغل والحمار، بما قاله حانياً مشفقاً عن القطة مشمشة التى ابتعدت تسعة أشهر عن القرين العزيز، فإنه يعجب لحنان متدفق يقف عند الحيوانات وحدها. ويتجلى فى مثل قوله الدكتور فوزى ص «١٤».

هذه الهرة أيها السادة تفضل عندى بنى الإنسان، وهى تذكرنى بأوضاعنا الاجتماعية التى تضطرنا إلى كبت واحدة من أهم غرائزنا، وأسوأ من كبتها الإمعان فى تحقير مظاهرها، حتى لتنظر إلى المرأة التى تعمل لها مخلصة نظرتها إلى المجرمين، هذه القطة التى تتأففون من موائها ليل نهار، أشجع من بنى آدم، فهى حين طلبت الإلف أعلنت

ذلك على رءوس الأشهاد بلا هوادة، وفى غير خجل ولا وجل.. ثم عادت مشمشة إلى مصر ضمن من عادوا إليها بعد تسعة أشهر، ونشرت صورتها على صفحات الجرائد فلم تزدها خيلاء، ولم تمكنها هذه الحياة ــ على ظهر السفينة ــ من انتقاء عريس صالح من هررة سيلان أو زنجبار أو الهند، بل عادت إلى مسقط رأسها فى السويس عذراء ذهبية الشعر!

لا أنكر ما فى هذه الخاطرة من إشراقٍ رائع، ولكننى أقرنها بحديث الآدمى المسكين الذى ألجأته لقمة العيش إلى أ، يكون حماراً أو بغلاً فأعجب للإفراط والتفريط، أعجب للسب بالانجليزية والمصرية معاً!

(تاج محل)

حصر الدكتور فوزى الشرق فى رحلته، فى نطاق محدود هو الهند وسيلان وما شابهها، فأتيح له أن يعرض أمثلة مؤلمة عن المنبوذين والجياع والعراة وعبدة البقر، وأرباب التناسخ، وذوات الرقص البدائى المنحرف، ولعل من سوء حظ الكاتب الكبير أن تكون الرحلة العلمية خاصة بهذه البقاع ذات التقاليد العتيقة، ولكنها فى مجموعها لا تمثل الشرق بحيث نقف بها وحدها أمامَ الغرب فى مجال المقارنة، وإذا كانَ لابد فى منطق الكاتب من أن تقف الهند [قبل ظهور الباكستان].. أمامَ أوربا فى مجال المقارنة، فلماذا لم يذكر الكاتبُ شعوره أمام عظمة (تاج محل) وقد مرَّ بهذا الأثر الضخم الرائع، واكتفَى بذكر الاسم دون أدنى إشارة إلى معناه الحضارىّ، ورمزه الإنسانى البليغ.

لقد تحدث السائحون شرقاً وغرباً عن عظمة هذا البناء الفخم (قصر الحب) الّذى سجّل أعظم مظاهر الوفاء الإنسانى، وقد تجلت فيه أبدع مظاهر الفن فى رسومه البديعة وفى الآيات القرآنية ذات الخط الرائع، والمعنى الأروع، وفى الحديقة الفينانة.. التى تزدحم بالشجر، وتفوح بالعطر لتكون سياجاً يحيط بالتاج، دع عنك الحوض المستظل الذى تتدفق فيه النافورات الفضية بأشعة الزلال العذب، والمقاعد الرخامية ذات الومض البللورى، والمنارات العالية ذات الرخام الأبيض المتموّج، والقبّة الرفيعة التى يزدان بها الأفق الفسيح وقد تألّقتْ كملكة رفيعة لما حولها من القباب، أما ضريحُ الملكة الرائعة (ممتاز محل) فأكبر من أن يحيط به الوصف، والزائرون الذين يرتمون عرايا مشوهين أمام هياكل الهندوسى، تجد بديلهم المشرّف الرائع فى ذَوى النظافة والطهارة من أصحاب الوضوء والصلاة وتلاوة القرآن: لماذا لم يتحدّث فوزى عن تاج محّل.. وكيف حكم على نفسه أن يكون (عتيدا) ملك السيئات، لا أن يكون (رقيباً) ملك الحسنات!

(السندباد القديم)

وإذا كان لى بعض الملاحظات على السندباد العصرى، فإن كتاب (السندباد القديم) وقد كَتبه الدكتور فوزى بعد قرابة ستة أعوام من سابقه، قد بلغ من الروعة والدقة والاستقصاء مالا مزيد بعده لمستزيد، لقد أراد المؤلف البحاثة أن يقومَ برحلة تاريخية خلال كتب الرحلات القديمة ليرصد ما ذكر فيها من غرائب البحار، مُحاولاً أن يجد التعليل العلّمى لما جاء عن عالم البحر فى كُتب القزوينى

والبيرونى والمسعودى وأضرابهم، مما يظنّه الناس خرافة مخترعة، وهى تحملُ بذور الصّدق الذى تُنوقلَ من كتاب إلى كتاب وهو فى كل موضع ينمو ويكبر كما تنمو البذرة فى الأرض نبة صغيرة فعوداً أخضر، فذات ساق ممتد وفروع وأغصان وثمار، وكانت نقطة البدء للباحث الكبير ما جاء عن عالم البحار فى كتاب (ألف ليلة وليلة) من قصص الماء التى تجمعُ أبطالها من طراز حسن البصرى وعبد الله البرى وعبد الله البحرى، والقرندلى الثالث، وطبيعى أن يمتّد الحديث إلى الغريب المُدهش فى الجزر البحرية وما يسكنها مثل التنين والرخ وشجرة الوقواق. وجزائر النساء وكنوز اللؤلؤ والدر والعنبر، حوريات الأسماك ذات الوجه النسائى والذيل الحيوانى أقولُ كان ألف ليلة وليلة مسرحَ الوقائع التى قام الباحث الكبير بتفسيرها.. مهتديا بما حصّله من غرائب العلم الحديث فى هذا العصر المزدهر محاولاً أن يصل إلى التصّور الأول لدى من تحدثوا عن هذه العجائب الخارقة، وقد كان موفقاً كل التوفيق حين قال:

«إن خِبرتى الشخصية بالأثر الذى تتركه فى النفوس بعض ظواهر الحياة البحرّية حتّى عصورنا المتقدّمة، عصور العلم والفرقان، وصلتى بالصّيادين فى أكثر من ساحل، وسماعِى بأخبار البحار وسكّانها من أفواههم، بلْ من أفواه بعض المتعلمين، واطّلاعى على أحاديث البحار، وفى كتب القدماء والمحدثين، كُلُ هذا عوّدنى أنْ أكون أكثر تسامحاً، وأقربَ فهماً لحكايات البحريّين فى القرون الوسطى، وسبيلى ألاّ أحكم على الأسطورة البحرّية بالكذب، ثم أنام هادئاً، إنما أضعُ نفسى موضعَ من رأى الحيوان، أو الظاهرة الكونيّة، وأنْ أكيّف عقلى تبعاً لعقّليته، فأستغرق (كذا) ما يَعرف، وأتجاهل

ما يجهل، ثم أحاولُ أن أتصوّر أثر المنظر الغريب فى نفس العربى أو الفارسّى بين أهل القرن التاسع، ذلك مجهودٌ ذهنى غير يسير، ولكنّه قليلٌ بالقياس لما أحصل عليه من نتائج حين أكشف الواقع خلف الأساطير.

والحّق إن محاولة تفسير غرائب (ألف ليلة وليلة) تفسيراً علمياً، لا يتيسّر إلا لذى موهبةٍ جبارة تسلّح معها بالعلم الفاحص، والبصر السدّيد، فإذا تركنا الجانب العلمى على عظمته المرموقة ـ إلى الجانب الفنّى، فإننا نجد دقة الفنان وسلاسةّ اطّراده، وجمالَ سرده.. فيما حاوله من كتابة القصص البحرية على نسقٍ متّصل، لا تفصمه الفجوات كما هى فى الأصل، بل تجىء القصّة وكأنّها من قلم كاتب معاصر يلتزمُ بأوضاع الفنّ النقدىّ، وللقارىء أن يطالع على سبيل المثال، قصّةَ عبد الله البرى وعبد الله البحرى، ليرى تسلسل الأحداث المطّرد منذْ جاعَ عبد الله الصياد ومرَّ بالخبّاز، وحمل الخُبْز دون نقد ليؤدى الثمن فيما بعد، ومُنذ أخذ يلقى شبكته يوميًّا دون جدوى، حتى تعلق بها بعد أربعين يوماً حملٌ ثقيل.. كان هو عبد الله البحرى، ثمّ ما تعَاهَدَ عليه الرجلان من مواثيق أفضتْ إلى الثّراء الباذخ حين حمل عبد الله البحرى كنوز البحر من درر وجواهر ومرجان وزمرد إلى صديقه البرّى، وطار الخبر إلى حاكم البلاد إذِا انْبهرِ بهذه الكنوز وأخَذ يسأل عن مصدرها، فأعلن الصياد بما كان.. وَلاَ استطيع أن أستمر فى التلخيص، ولكنى أذكر أن الدكتور فوزى قد خلص منه إلى تحليل علمى بارعِ يُبيّنُ دلالة القصّة على وصف المجتمع نفسيا وخلقيا واجتماعيا، كما يُوضّح أثر الدين فى الرضا والقناعة والوثوق بالانفراج مهما ضاقت الأبواب، ثم ختم الدارس تحليله الرائع بقوله:

«لامِراءَ إذنْ فى أن قصة (عبد الله البرىّ وعبد الله البحرى) من أولها إلى آخرها تختلجُ بروح دينى عميق تميزت به عقائد أهل الشرق عن عقائد عن أهل الغرب، هو روحُ استكانة المخلوق للخالق، واعتبار الخضوع لأحكامه صورةً مُثلى للإيمان».

(أسلوبان مختلفان)

من يوازنُ بين أسلوب حسين فوزى فى السندباد العصرى، وأسلوبه فى السندباد القديم يجدُ الفرق هائلاً متّسعاً فقد حُشر الكتاب الأول بكثيرٍ من الألفاظ المبتذلة دُون موجب، وهو أمر نكره الدكتور طـه حسين وصاحَ محذراً يقول «وأىُّ لذة يجدها كاتبٌ مثقف له ذوقه الصافى فى أن يصطنعَ هذه الألفاظ التى لا تُسمَع إلاّ فى أهون البيئات شأناً، وأقلّها حظّاً من رقى، دونَ أن تدعُو إلى ذلك ضرورة فنيّة، أو تدفَع إليه الحاجةُ إلى تصوير ما لا سبيل إلى تصويره إلاّ باصطناع الشّر، إنّ الكاتب قد تجاوزَ الحدّ، واعتدَى لا أقول على العرف، فأمر العُرف عندى ليسَ بذى خطر عظيم، ولكنْ على الذوق، وعلى ما ينبغى للفّن من الرقى والامتياز، وقد تسألنى عن أمثلة لهذا السخف والإسفاف، فما رأيك أنى أكره أن أمثّل لها فى هذا الفصل».

أما الكتاب الثانى فقد انتفع فيه الدكتور فوزى بوخزات الناقدين، فارتفعَ عن الابتذال، وأخذ سمتَ الأديب الجاد، ومازالَ الرجل الفنان يتابع صعودَه حتّى سلم من عثرات السندباد العصرى تماماً، وعاد موضَع الرضا من ناقديه، والحمد من قارئيه، فتركَ فراغاً هائلاً برحيله لا يقومُ بملئه واحد أو اثنان بل جمعٌ مستنير.

على الجارم يرثى ولده

كنت نشرت بإحدى المجلات بحثاً أدبياً تناولت فيه شعر المغفور له الأستاذ على الجارم ببعض المؤاخذة فى ضوء ما اهتدت إليه اتجاهات النقد المعاصر، ولم أكن فيما بينى وبين نفسى متجنياً على الرجل، ولا مباهياً بالهدم والتخريب وإنما هو رأى صادق ارتأيته.

ثم قابلت أستاذاً عزيزاً ممن أعرف لديهم براعة النظر وعمق الإدراك، وسعة المحيط، فذكر أنه لم يرتح لما ذكرت عن الجارم، وانى كنت من ضيق الأفق بحيث أردت أن ألزم جميع الناس بنمط معين من الشعر، مع أن القراء أولو مشارب ونزعات، وما يعجب زيداً من الناس قد لا يعجب سواه، وكلاهما ذو بصر وسداد! وأن ما نؤصله من قواعد الوحدة العضوية، والتجربة الذاتية، والصورة الشعرية أمر يروق كثيراً فى مجال التقعيد والتبويب، ولكنه يضطرب بعض الشىء عند التطبيق والاستشهاد. وآية ذلك أن الجارم ـــ رحمه الله ـــ كان يجد من الحظوة والاقبال لدى الكثيرين مالم نجده لكبار المجددين. وليس معنى ذلك أن الجارم مصيب وهم مخطئون إذ أن من المؤكد أنهم أبعد نظراً وأقرب سداداً ولكن معناه أن لكل طعام آكليه ومتذوقيه، ومن الشطط أن نلزم الناس جميعاً بطعام خاص.

ولا أدرى لماذا لم أجد لدَّى حينئذ ما أدفع به عن نفسى، فتركت

صاحبى يسترسل ويستفيض فيما يريد فاندفع يتحدث عن بعض ذكرياته مع الجارم، وكان فيما قال.

حين مات المؤرخ البحاثة الشيخ عبد الوهاب النجار ـ رحمه الله ـ أقامت جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة حفلاً رائعاً لتأبينه، وكان النجار وكيلاً لها وأحد دعاتها المجاهدين بالقلم واللسان والرحلة والمال فى سبيل الله! وقد حشدت الجمعية صفوة من المتكلمين ليوفوا الفقيد الكبير حقه من التمجيد، وكان من شعراء الحفل الأستاذ الكبير على الجارم. فاتجهت الأنظار إلى مقامه، وأخذنا نتابع الخطباء والمتحدثين، ونحن على شوق كبير لما سيهتف به الجارم بعد حين.

كان الشاعر مريضاً، فأناب من ألقى عنه قصيدته، وقد اختاره أحسن اختيار، وإن كنا نعرف أن القاء الجارم لا ينهض به سواه، فهو الصناجة المطراب، الذى يجعلك تحس إذ تسمعه أنك مع موسيقى تصدح، لا مع إنسان يتكلم.

حان موعد القصيدة فاتجهت الأنظار إلى المنبر، ووقف المنشد ليقول:

أقاموا بعض يوم واستقلوا ... فطار القلب يخفق حيث حلوا
مضت بهم النجائب مصعدات ... تمل بها الطريق ولا تمل
زوامل لم يعوقهن ليل ... ولم يثقل كواهلن حمل
رآها آدم وعدت بنوح ... وسار وراءه نسل فنسل
هوت أم الركائب كيف سارت ... وهل تدرى الركائب من تقل
أسائلها وقد شطت وقوفاً ... وأين من الوقوف المشمعل

طفقت أمد نحو الركب طرفي		فرد الطرف كثبان ورمل
ونـاديت الحبيب فعاد صوتي		وفي سبراته هلع وخبل
أصاخ له من الصحراء نجد		فردد، من الصحراء سهل

ومع أن أصحاب النقد الحديث يقولون إن هذا الكلام مما يصلح لكل راحل، وأنه شبيه بالمعروضات المحلية التي يشترى منها كل إنسان ويبيع، فإن السامعين ــ وكلهم من المثقفين ــ قد سيطر عليهم موقف الوداع، وجعلهم الشاعر يرون بخيالهم قوافل الموتى تقذف بها الدهر دون أن تمل المسير. وتساءلوا مع الرجل: كيف تسير الآلة الحدباء هكذا دون إبطاء؟ وهل تدرى الركائب من تقل من الأعزاء؟ كما شاركوه التجربة حين سألها الوقوف ثم أخذ يمد الطرف إليها فلم ير غير الكثبان والرمال، وجعل ينادى حبيبه فلم يسمع غير الصدى يتردد من سهل لحزن. أقول شاركوه التجربة حقاً فسأل كل سامع كما سأل، ورأى بخياله ما رأى ونادى ولم يستمع المجيب. وقد هيأ الجارم أذهان الناس لما يعتمل في نفسه من أسى لاهف. فجعلوا يترقبون القول على قلق وشوق، فإذا الشاعر يقتنص الحكمة الرائعة من بحار الأسى فيقول في أنة جريحة، ونغم لهيف.

هي الدنيا فليس لها بقاء		وليس لها على الأيام خل
إذا أعطت فقد أعطت قليلا		ولا يبقى القليل ولا الأقل
تروح فبين شيخ أسكنته		منيته وطفل يستهل
نعود إلى التراب كما بدأنا		فكل حياتنا نقض وغزل
إذ بدت الغزالة ثم زالت		علمنا أن هذا العيش ظل

قد نقول إن هذه مواعظ عامة تعود الناس أن يستمعوا إليها في

مثل هذا الموقف، ولكن قل لى بربك، أجاءت المواعظ العامة باردة الأنفاس جامدة الإحساس؟ أم أن الشاعر قد شحنها بكهرباء دافقة، رجت شعور السامعين، ولمسوا من ورائها حزناً قوياً يضطرم فى نفس القائل، كما أدركوا أن الجارم مقبل على الحديث عن مأساته الشخصية التى تعود أن يعطف عليها حين يؤبن الراحلين. فقد كان من محن الجارم أن يفقد نجله النابغة المتفتح وهو فى طليعة المبرزين من طلبة الجامعة، يرفل فى نضرة شبابه وتفتح مواهبه وارتقاب غده. فألجم الخطب الكارث فم أبيه، فلم يستطع أن يخصه برثاء مستقل. ولكنه كان يجد برد التنفيس حين يتحدث عنه فى مراثى الراحلين. لقد تحدث الجارم عن مأساة نجله فى مراثى أبى الفتح الفقى ومحمد أمين لطفى، وأحمد الإسكندرى. وها هو ذا يرثى الأستاذ عبد الوهاب النجار، ولكن وقدة الحزن فى حديثه وأنة الأسى فى نبراته تشيران إلى أن الشاعر متجه بكليته إلى الحديث عن فتاه. وإذن فقد تأكد عارفو الجارم أن الحديث عن الفتى الحبيب، سيهزهم بعد لحظات وأن الجارم سيعصر قلوبهم عصرا حين يقول:

بنفسى فى الثرى غصنا رطيبا ... يرف من الشباب ويخضل
تقبله لدى الأصباح شمس ... ويلثمه لدى الامساء طل
إذا اشتبهت غصون الروض شكلا ... فليس لقده فى الحسن شكل
يميل به النسيم كأن أما ... يميس بصدرها الخفاق طفل
كأن حفيفه نضرا وريفا ... بسمعى حلى غانية يصل
ضننت به وجدت له بنفسى ... وإن الحب تبذير وبخل
وكنت أشم ريح الخلد منه ... وأهنأ فى ذراه وأستظل
وقلت لعله يبقى ورائى ... بدوحته فما نفعت لعل

فسل عنه العواصف أى نوء أطاح به وأى ثرى يحل
نأى عنى وخلف لى فؤاداً يذوب أسى عليه ويضمحل
أشرتم بالرثاء فهجمتونى وتعذيب الذبيحة لا يحل
خذوا منى الرثاء دموع عين تكل المعصرات ولا تكل
بكى خير البرية خير طفل ودمع العين فى الأحداث نبل

لقد بلغ من حساسية هذا الشعر وروعة تأثيره أن أبكى أكثر الحاضرين فجعل كل سامع يتذكر شجاه ووجده. وكأن الجارم قد نكأ بكل صدر جرحاً داميا، ولم يكن الرجل كاذب الإحساس حين مهد لرثاء النجار بكل ما أنشد، حيث إن الأمر لا يخرج عن قوله:

أشرتم بالرثاء فهجتمونى وتعذيب الذبيحة لا يحل

والشاعر بما أبدع فى تصوير الجو الحزين قد مهد تمهيداً رائعاً للحديث عن الشيخ النجار. وقد يقول قوم إن الوحدة العضوية فى القصيدة منفصمة مبتورة، ولكنى أجزم أن الوحدة النفسية كانت قائمة صلبة كأعنف ما تكون الصلابة. بل إن هذا الجو الوجدانى الحزين هو الذى عطف بالشاعر فيما بعد إلى أن يكون حديثه عن صاحبه الراحل حديث تواد واسترحام، فلم يتحدث الجارم كثيراً عن بحوث الراحل ومؤلفاته، ولم يلم برحلاته ونشاطه بل انساب هادئاً إلى بعض الذكريات الحبيبة ذات الشجى الضارع، والأنين اللاهف، فتحدث عن زيارته إياه فى بعض الأوقات مسجلاً حديث الزمن على لسان صديقين خبرا الحياة وعركا الأيام، فقال فى هدوء وقور يخاطب روح صديقه الكبير.

أتـذكـر إذ تـمـازحنا لننسى	وقـد أدركـت أن المـزح ختـل
أتيت تزورنى فهرعت أسعى	إلـيـك ودمـع عـيـنـى يـستهل
وكـان عـنـاقـنـا لمـا الـتقينا	وثـــاقـــاً للـــمـــودة لا يحـــل
مشيت كأن رجلاً فى بساطى	تــسير بهـــا وفــوق الــقبر رجـل
تجـر وراءك الـسـبـعين عـامـا	وللــســبــعين أعـبـاء وثـقـل
ذممـت لـى المشيب وفيه حزم	وأطريت الشباب وفيه جهل
وأيـن الحـزم ويحك يا ابن أمـى	إذا مـا خـانـنـى علم وعقل ؟

وإلمام الشاعر بهذا الموقف المستسلم بين شيخين كبيرين عركا الأيام وخبرا الحياة يحمل من هزات اللهفة ، ومرارة التجربة ما ينسجم أتم انسجام مع روح القصيدة ، ولم يستطع الجارم أن ينسى فتاه حتى بعد أن خلص إلى القول فى صديقه ، لأن الأسى يبعث الأسى ، وكل القبور لدى الحزين قبر مالك . لذلك نجده يسأل صديقه وقد عبر الحياة إلى الضفة المجهولة سؤال من يحاول استشفاف الغوامض المستكنة تحت الستور المنسدلة فى عالم الغيب . فهو يسأل أهناك بريد إلى الدار الآخرة يذهب ويجيء بين الأحياء والأموات؟ أهناك من سبيل إلى تزاور الأرواح بعد الفراق ؟

أيظل الفتى فى عالم الغيب مشغولاً بأحبابه فى عالم الشهادة ، أيجد الشاعر مكانه بين من يهوى حين ينتقل إليهم فى عالم الخلود ، أتصل الدموع إلى الحبيب النازح فى مثواه؟ أيعلم حرقة الأشجان نجل يبكى عليه أبوه كل صباح ومساء؟

إن السؤال الأخير ــ فى رأيى ــ هو الذى هيج كل ما تقدمه من الأسئلة اللاهفة ، وهو الذى مهد الطريق إلى إبداع الشاعر حين

قال:

فديتك هل إلى الأخرى بريد ... وهل لتزاور الأرواح سبل
وهل يبقى الفتى بعد المنايا ... له بالأهل والأصحاب شغل
وهل لى بين من أهوى مكان ... إذا قوضت رحلى أو محلى
وهل فى ساحة الجنات نهر ... يزول بمائه حقد وغل
وهل تصل الدموع إلى حبيب ... ويعلم حرقة الأشجان نجل
لقد جل المصاب وجل صبرى ... عليك، وأنت من صبرى أجل

قلت لمحدثى بعد أن فرغ من كلامه ونظر إلى كمن يحاول أن يستشف من ملامحى موقع حديثه من نفسى، ولكن الجمهور قد أقبل ليستمع حديث الجارم عن صديقه النجار لا عن ولده النابغة الفقيد. فكيف جمح به الشاعر إلى غير ما يتوقع؟

فقال الأستاذ دون إمهال: اعلم أن الجارم من شعراء المنابر العالية، فقصائده للمحافل أولاً، ثم للقراءة ثانياً، وعشاق شعر المحافل يكتفون من الشاعر بالإثارة الوجدانية، وقد أفلح الجارم فى تهيجها، ثم ماذا كنت تريد من الشاعر أن يقول فى الراحل المؤبن؟ إن أبرز صفات الشيخ النجار كانت فى حججه الدامغة لدى النقاش العلمى سواء فى التاريخ أو الدين، كما كان الرجل خطيباً ذا تدفق وانصباب وإن لجأ إلى الاستطراد الواسع فيما يرسل من خطب ذات رنين، وقد عبر الشاعر عن مزايا صاحبه الفقيد حين قال.

مضى النجار والعلياء حصن ... عليه ـ بعده ـ باب وقفل
به جمع الحجا للعلم شملا ... فبدد بعده للعلم شمل
له حجج يسميها كلاما ... وما هى غير أسياف تسل

وآراء تـرى فيهـا ابـن بحـر ... يـصـول كما يـشـاء ويـسـتـدل
إذا فـاضـت يـنـابعه خطيبا ... علمت بأن ماء البحر ضحل
يـذل له شموس القول طوعاً ... ويـسـتـخذى لـه المعنى المدل
فـذاك الـفـضـل جل الله ربى ... ولـيـس يجد للرحمن فـضـل

إلى أن قال :

فقم واخطب بحفلك كم تغنى ... وهـام بـصـوتـك الرنان حفل
وذكـرنـا الـيـقين فـكـم عقول ... تـكـاد عـليك من شجن تذل
وقـل إن الـبـقـاء إلـى فـنـاء ... وإن زخـارف الأيـام بـطـل
وإن المـوت إطـلاق لـروح ... مـعـذبـة وان الـعـيـش غـل

فما عسى ينتظر السامع من شاعر المحفل أكثر من ذلك ؟ إن قصيدة الجارم قد جاوزت السبعين من الأبيات فإذا اختص النجار بثلاثين بيتاً منها ، ورفرف الجو الحزين على الباقى لمناسبة أخرى تتصل بالموت والدمع واللوعة ، فإن الشاعر حينئذ لا ينادى السامعين من مكان بعيد ، لقد قال الجارم قصيدته مساء ثم نشرتها الأهرام فى الصباح فطالعها مائة ألف قارىء هم قراء الصحيفة اليومية الطائرة الصيت . فهل اكتفى سامعو الجارم بنص الأهرام المطبوع ؟ لقد كان الجارم يومئذ عميداً لكلية دار العلوم بالنيابة ، وتلقى رسائل كثيرة ينبئه كاتبوها ــ وأكثرهم من علية الناس ــ أنهم حريصون على تدوين القصيدة بخط واضح فى صفحة كبيرة تحفظ كتحفة بارعة . وكان بكلية دار العلوم جماعة للخط العربى اختبر أعضاؤها من طلاب الصفوف الأربعة الذين اشتهروا بجودة الخط ، وجمال التنسيق الكتابى ، فشرعت الجماعة فى إبداع نسخ فنية للقصيدة تهادتها العلية

من المعجبين وعبر ذلك عن اهتمام فريد بشعر الجارم، لم يجزه أكثر المجددين «لك أن تقول إن الجمهور العام من السامعين لايعد استحسانه مقياساً والشعر الرفيـع أرستقراطي المشرب لايقدره حق قدره غير ذوي الثقافات العميقة، ولكن قل لي بربك أليس الجمهور العام من القراء بحاجة إلى شاعر رنان يوقد العاطفة بالتأثير، ويلهب الأكف بالتصفيق، لقد كان هذا الشاعر حافظ إبراهيم ثم كان على الجارم بعد حافظ؟ فهل تعصف بكل ماقاله رجال هذا النمط، ولهم عشاقهم الكثيرون. ذلك تحكم غير مستساغ؟ سكت صديقي الكبير، فوجدت لحديثه موقعا من نفسي وآثرت أن انقل خلاصته في هذه السطور فقد تكون مما يفيد، على أننا لاننسى في هذا المجال أن نعترف بأن الأستاذ الكبير على الجارم قد أفاد بشعره الجزل الرصين عشاق الديباحة الصافية والنسج الرصين، لأن الرجل كان دون نزاع من أعلام اللغة وأدبائها الفحول، وكان شعره فوق النقد اللغوى والنحوى والصرفي، بحيث يجوز أن تجد بعض السقطات اللغوية والنحوية لدى البارودى وتلاميذه من أمثال شوقي وحافظ ومحرم والكاشف، أما الجارم فمن دراسته اللغوية والقاعدية والأدبية في معقل منيع، وأذكر أن الأستاذ الزيات ــ رحمه الله ــ كان يقول إن دارسي اللغة العربية في حاجة إلى سماع صوت الجارم حين يلقي قصائده بالإذاعة المصرية، فهو أستاذ الإلقاء تجويدا وضبطا لمخارج الحروف، ومحافظة على بنية الكلمات، وذلك مانفتقده عند أكثر المتحدثين، وتحسن الإذاعة صنعاً ــ في رأى الزيات ــ لو دأبت على ترديد قصائد الجارم والدروس الدينية للأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغي لتضع النموذج الأعلى لجودة النطق، وضبط القواعد، وتجويد الحروف.

جميل صدقى الزهاوى وأدباء مصر

كان الشاعر العراقى الكبير جميل صدقى الزهاوى شعلة متقّدة لا تعرف الخمود، حيث شارك فى معارك فكرية كثيرة، أثارت غباراً كثيفاً، وجمعت حوله الأنصار، وألّبت عليه الخصوم، وهو على تقدّم سنه، ووهن جسمه دائب الحركة، ألدّ الخصومة، جَيَّاشَ الانفعال، وقد كانت صحف مصر ومجلاتها الأدبيّة، من ميادين نضاله الفكرى منذ اهتدى إلى موهبته الأدبيّة، إذ حفلت جرائد المؤيد واللواء والنظام ومجلاّت المقتطف والهلال والعصور والرسالة بثماره الأدبيّة نثراً وشعراً، وكانت الرسالة فى أخريات أيامه مجاله المفضل فى نشر قصائده إذ لم يكد يَخلو عدد من أعدادها حينئذ من قصيدة رائعة يقول الزيات إنها للشاعر الفيلسوف، ولم يجمع للآن كثير مما نشرته الرسالة، إذ طالعت ديوان الشاعر الذى صدر أخيراً فى بيروت فوجدته خالياً من بعض قصائد الرسالة، وقد زار الشاعر مصر للمرة الأولى فى فجر شبابه. وهو فى طريقه إلى الاستانة فأكد صلته بكبار مفكريها، واحتفل به الدكتور يعقوب صروف وجورجى زيدان، وشبلى شميل وولى الدين يكن وإبراهيم اليازجى، وأخذ المؤيد يطالع القراء بفرائد شعره، ومن أجمل ما نشره فى هذا العهد، قصيدة الغريب المحتضر، إذْ كان لها دوى رنان فى وادى النيل، عارضها الشعراء، وحللتها أقلام الأدباء، ومن فرائدها الجميلة قول الشاعر على لسان الغريب المحتضر:

غداة غديا لهف نفسي على غد — يتم على الأيدى إلى حفرة نقلى
إلى حيثُ لا شمس النهار مطلة — ولا الليل نظار بأعينه النجل
سلام على الدنيا، سلام على المنى — سلام على المأوى سلام على الأهل
سلامٌ على الشمس المضيئة فى الضّحى — سلامٌ على ريح الصبا، عقب الوبل
ألا ليت شعرى هل دجيل كعهده — وهل سمرات الرمل وارفة الظل
بلاد بها حزن وسهل تقابلا — فيالك من حزن و يالك من سهل

وسنعرض ــفى إيجاز يسيرــ إلى بعض علاقاته الأدبية بنفرٍ من أدباء مصر، لنرى كيف تجاوبت مشاعره مع قوم، وتنافرت مع آخرين، وهى صفحة من صفحات التاريخ الأدبى المعاصر تنفح بالجديد.

بين الزهاوى وولى الدين يكن

كان اتفاق الميول بين الشاعرين الكبيرين.. ولى الدين يكن وجميل الزهاوى قويا، فكلا الأديبين ناثر شاعر ذو نظرة واضحة فى الإصلاح السياسى والاجتماعى، وقد تعرض الزهاوى لنقمة الجماهير فى العراق فعزل عن وظيفته، وحددت إقامته فى منزله، وتلقى خطابات التهديد بالاغتيال.. حين كتب فى جريدة المؤيد مقالاً عن المرأة يؤيد فيه السفور ويخاصم الحجاب، ولم يجد الشاعر بدا من أن يعلن لبنى وطنه أن المقال مدسوس عليه، وأنه لم يكتب شيئاً مما نشره المؤيد، والحق أنه تنصل لم يقنع الجمهور فى شىء، إذ لم يعهد القراء فى جريدة المؤيد.. أن تنسب مقالاً لغير كاتبه، ولكنه أعطى حجة لوالى بغداد كى يخفف من عقوبة الشاعر.. فاكتفى بحرمانه من الوظيفة واعتقاله فى منزله، رحمة به أن يتعرض لسوء، وقد بلغت مصر

أصداء هذه النقمة فى بغداد، فكان ولىّ الدين يكن من أقوى الأصوات التى ناصرت الشاعر إذ أفرد المقالات وأنشأ القصائد فى مواساة صديقه، متعجباً أن تكون مقالة المؤيد مصدر هذه النقمة الثائرة، وكان مما قاله:

عفاءٌ على بغداد بعد جميلها ... إذا ربعة العمور أخلق دائره
تنادوابه والضغن ملء قلوبهم ... وقالوا وحيد مالنا لانكاثره
أخى وفجاج الأرض بينى وبينه ... أعيذك من هم تبيت تساوره
أعيذك من وجد يضيقك نازلا ... وأهوال ليل مظلم أنت ساهره
وإن فريق الظلم إن طال ظلمه ... سنمشى إليه بالسيوف نبادره

كما كتب الدكتور شبل شميل مقالاً يدافع فيه عن الزهاوى، فحرك ثوائر ولى الدين وأعقبه بمقال قال فيه:

«إن ينزل بالزهاوى نازل من الظلم، فتلك سبيلُ أبناؤكم سالكوها غداً، فإلاّ يحزنكم مصرعه، فإن فى مصارعِ أبنائكم ما يستدر جامد العبرات، إيه لكم قطعت الشعوب أشواطاً فى منازل الحياة ونحن إلى الوراء راجعون، لقد استجار المقطم بالوالى وبالرئيس. لك الله إنما تستجير من الرمضاء بالنار! لقد أسمعت لو ناديت حيّا».

وقد عرف جميل لصاحبه ولى الدين يده الحانية، فبكاه بقصيدتين حين انتقل إلى جوار ربه، وأشار إلى دفاعه عنه فى محنته فقال:

ولست أنسى انتصارات له صدقت ... فى محنتى، بل أنا بالفضل معترف
قد كان زينة مصر فى كتابته ... كأنما هو فى آذانها شنف

ما جاء وصف ولى فى مصاحبة   إلاّ وفضل ولى فوق ما وصفوا
يا كوكبا قد توارى بعد مطلعه   بمن تخفف عنا بعدك السّدف

(بين شوقى والزهاوى)

لم يكنْ من شأن شوقىٰ أن يدخل فى عراك قلمى مع أحد، وقصارى جهده مع خصومه أن يوعز لبعض أصدقائه من حملة الأقلام أن يردوا على مهاجيه، أو أن يفيضوا فى تحليل شعره موازنة وتقريظاً ليشبعوا رغبته فى الإطراء، ولكن الزهاوى كان يستشعر فى أعماقه انقباضاً عن شوقى، فقد ملأ عليه الأفق فى مصر وفى العراق أيضاً، ولابد لهذا الانقباض أن يجد متنفساً يتيح لجميل أن يخفف عن صدره بعض ما يحمل، ولسوء حظه أنه شاء أن ينازل شوقى فى موطن من مواطن قوته لافى موضع من مواضع ضعفه، فقد مات اسماعيل صبرى ورثاه شوقى بقصيدة من روائعه الفائقة، وقد أسهبت الصحف فى تمجيد الشوقية وقارنتها بمراثى الشعراء لاسماعيل فارتفعت بها عما قال الهراوى وحافظ والجارم وعبد المطلب والزين، بل ومطران أيضاً فى رأى بعض دون بعض، وطار الدوى إلى العراق، فامتشق جميل الزهاوى يراعه لينقد قصيدة شوقى، وطبيعى أن يلجأ إلى الافتعال والتمحل، لأن سبحات شوقى فى هذه المرثية من القوة بحيث لا يستطيع ناقد منصف أن يعصف بها فى مقال، وقد بدا الافتعال حين نقد الزهاوى المطلع التالى:

أجلٌ وإنْ طَالَ الزمانُ موافِ   أخلى يديك من الصديق الوافى

فقال الزهاوى إن المعنى مضطرب، لأننا لو أعربنا (أجل) مبتدأ،

ومواف خبر، فصلنا بين المبتدأ والخبر، ولو كان المبتدأ محذوفاً وأجل خبر فتكون (مواف) صفه للخبر، وهذا تشويش للمعنى؛ فماذا يقول القارىء فى هذا التعسف الجائر!؟ إذ لا تشويش ولا اضطراب!

وقال شوقى :

ذهب الشباب فلم يكن رزئى به دون المصاب بصفوة الآلاف

والبيت جيد، إذ أن فقد صبرى لدى الشاعر كان من الواقع فى نفسه بمنزلة فقد الشباب، ولكن الناقد يرى البيت قلقاً فى مكانه إذ لا يرتبط بما قبله! والارتباط أوضح من أن يخفى على شاعر كالزهاوى، فقد خلت يد الشاعر من صديقه وكان فراغها منه كفراغها من عهد الشباب!

ومضى الزهاوى فى نقد كهذا، لا يحتمل نقضه أدنى جهد، واشتط فألحق نقده بعيون رائعة مثل قول شوقى:

فجعت ربى الوادى بواحد أيكها وتجرعت ثكل الغدير الصافى
فقدت بنانا كالربيع مجيدة وشى الرياض وصنعة الأفواف

لم يذهب نقد الزهاوى دون صدى، فقد تعرض له الناقد العراقى الأستاذ محمد بهجت الأثرى بما هدمه هدماً، ولم يكتف الزهاوى بما نقد، بل أراد أن ينافس شوقى فى رثاء اسماعيل، فنظم قصيدة من بحر الشاعر وقافيته قال فى مطلعها:

ما الموت وهو يلم بالأخلاف إلا تراث جدودها الأسلاف

وقارىء قصيدة الزهاوى يدرك أن الشاعر يفكر برأسه ولا ينقل عن وجدانه، كما يدرك أن شوقى قد جمع بين العاطفة الصادقة، والمعنى الجليل.

وحين بايع شعراء العربية شوقى بإمارة الشعر قال الزهاوى:

قالوا لشاعر مصر إمارة الشعر تبنى
فقلت يا أهل مصر منكم أمير ومنا

وهو يتنازل بعض الشىء حين يجعل نفسه أميراً لشعراء العراق، ليكون شوقى أميراً لشعراء مصر! غير أنه لم يهدأ قليلاً، فقد ظهر الجزء الأول من الشوقيات، ونهضَ الزهاوى لنقده فى مجلة لغة العرب، ولجأ إلى التمحل كعادته، فقد بدأت بالقصيدة الأولى من الشوقيات ومطلعها:

همت الفلك واحتوا ها الماء وحداها بمن تقل الرجاء

فقال الناقد: لا أدرى أنزلت الفلك التى أقلت من فيها ساعة ركوبهم ليحتويها الماء؟ أم لم يكن محتوياً إياهم قبل أن تهمّ! ومضى فى أمثال هذا التمحل بما لا نطيل فيه.

على أن الزهاوى كان صريحاً حين سُئل عن رأيه فى إمارة الشعر فكان مما قال:

«شوقى من شعراء الماضى، وجهه إلى الوراء فى سيره إلى الأمام، أما إعجاب الأكثرين من الجمهور العربى بشعر شوقى فلكونه

يناسب مستواهم ويلمس أذواقهم، فإذا تقدم الجمهور فى المستقبل القريب، مات شعر شوقى إلا قليلا».

ومما يحمد للزهاوى أنه رثَى شوقى بقصيدتين رائعتين بعد وفاته، وفيهما اعتراف بزعامته الشعرية، يعفى على كل ما وجه إليه من نقد، وقد قال فيما قال:

خَرتْ لعزة شعرك الشعراءُ	فكأنهم أرضٌ وأنت سماء
ولقد خفيتَ على ظهورك مدة	عن أعينى ومن الظهور خفاء
قالوا سينبغ عبقرى مثله	قلنا: بلى، لو أنجب الآباء

بين الزهاوى ومحمد فريد وجدى

شاء الزهاوى أن يهجر العراق إلى مصر، معتزماً البقاء فيها مادامت له حياة، فقد كدّره أن العراق لم ينصفه، فلم يجد به منصباً مرموقاً كان يتمناه، كما أن أقلاماً تحرشت به مناصرة معروف الرصافي، ومقدمة مكانته الشعرية فوق مكانته، وقد احتفلت القاهرة بمقدم الشاعر الكبير. وأقام له شيخ العروبة أحمد زكى باشا حفلة تكريمية جمعت العلية من رجال السياسة والأدب والصحافة، وفسحت الجرائد اليومية، والمجلاّت الأدبية أبرز أمكنتها لقصائد الزهاوى، وأطلقت عليه «الشاعر الفيلسوف»، ولكن الزهاوى تورّط حين نشر قصيدة تحت عنوان «الدمع ينطق» بجريدة السياسة اليومية مال به إلى الإلحاد المادّى، وقد قال فيها:

وسائلةٍ هل بعد أن يعبث البلى	بأجسادنا نحيا طويلاً ونُرزَقُ

فقامت الثائرة عليه، وهاجمته بعض الأقلام، وآزرته أقلام مماثلة، وقد شاء الأستاذ محمد فريد وجدى أن ينتصر للحق فى أدب ملائكى، وسماحة نبيلة، والأستاذ وجدى مثل من أمثلة الخلق العالى، والثقافة الأصيلة والسلوك المثالى، فكتب ـ رحمه الله ـ إلى الزهاوى خطاباً على صفحات السياسة يقول فيه بعد مقدمة عاطفة مقرظة.. تدل على كرم وحنو:

«آنست من السيد ـ أيده الله ـ كلفاً شديداً ينشر ما يدل على فناء الإنسان بفناء جسده، فهل هذا منه عن بحث أعطاه حقه من الدخول فى مضايقه، والصبر على تكاليفه، إن كان الأمر كذلك، فهل للأستاذ أن يساجلنى البحث فى هذا الموضوع الخطير، فيعرض أدلته على نفى الروح، وأعرض أنا أدلتّى على إثباتها، ليشهد القارئون من هذه المعركة القلمية أجمل مشهد من مشاهد النضال العلمى بأسلحته الحديثة، ويكون فى مقدمة إلى مصر اليمن والبركة وإن لنا أسوة حسنة بالمستر غلا دستون والأستاذ توماس هكسلى إذ تناظرا فى مسألة الإلحاد والتدين.. فانتجا لأمتها أجمل صحيفة من صحف النقد العلمى».

ولكن الزهاوى، وقد أخذته الأصوات اللائمة من كل صوب، شاء أن يؤثر الصمت، وأن يعجل بالرحيل من القاهرة، كتب للعلامة الأستاذ محمد فريد وجدى رداً قال فيه بعد ديباجة مثنية شاكرة.

«وأكبر أسفى، هو أن الظروف لم تسمح لى وأنا نزيل مصر، بمصافحة تلك اليد البيضاء التى خدمت الأمة العربية بكتاباتها، وأود لو يسمح الدهر باجتماعنا فى يوم من الأيام لمداولة ما عندنا من الآراء

مستندين على ما أثبتته العلوم العصرية، خدمة للحقيقة، ولكن هيهات، فإني على وشك الإياب، أوبة من لا يسمح له الوهن والكبر بالرجوع إلى مصر، تلك التى كنت أنزع إليها فى بغداد، وأتغزل بحريتها.

حان عطفى إلى العراق الرجاعا   فـــوداعـــاً لمصر ثم وداعـــا

وحين مات الزهاوى كتب عنه الأستاذ محمد فريد وجدى بحثاً ضافياً بمجلة الأزهر، ناقش فيه آراءه المادّية، وذكر طرفاً مما كان يريد أن يقوله فى مساجلته، ولكنه ـ كدأبه فى أساليب الجدل العلمى ـ كان نزيه القلم، عف البيان، فسيح الجناب.

بين الزهاوى والعقاد

سئل الأستاذ العقاد عن الزهاوى، فكتب مقالا ينسبه فيه للعلماء، ويباعد بينه وبين الشعر والفلسفة، ولن يُعجز العقاد أن يؤيدّ رأيه بما يتراءى له من أدلّة يجدها طوع يده دائماً، ولكنّ الذى لاشك فيه أنه تحيف جيل صدقى الزهاوى تحيفاً ظاهراً حين باعد بينه وبين الشاعرية، ودع عنك الفلسفة، والزهاوى عند الناس جميعاً شاعرٌ أولاً وفيلسوف ثانياً وعالم ثالثاً، فإذا جاء العقاد ونأى به عن مجال اعتزازه وموضع فخره فلابد أنه يصيبه فى أعز شىء لديه، وللزهاوى فى العراق خصوم احتفلوا بقول العقاد وباركوه، فزادوا من هم الشاعر. وخلاصة ما قال الأستاذ العقاد ينتهى إلى قوله:

«إن الأستاذ الزهاوى صاحب ملكة علمية من طراز رفيع، وأنه يصيب فى تفكيره ما طرق من المسائل التى يجتزى فيها بالاستقراء

والتحليل ، ولا تفتقر إلى البداهة ، والشعور، فمن ينشده فلينشده عالماً ينظم أو يجنح إلى الفلسفة فهو قمين بإصغاء إليه ، وإقبال عليه فى هذا المجال وأن خير مكان له هو بين رجال العلوم ، ورادة القضايا المنطقية ، فهو لا يبلغ بين الفلاسفة والشعراء هذا المكان» .

والذى قاله العقاد ينطبق على مثل الدكتور شبلى شميل والدكتور يعقوب صروف ، فكلاهما يتكلف نظم الشعر أحياناً كثيرة ، ولكن بحوث العلم هى ميدانها الصريح ، وظلمٌ أىّ ظلــم أن نقرن بها شاعراً كبيراً كالزهاوى له سبحاته وإشراقاته ، وقد دهش الزهاوى لمنطق العقاد ، ونازله فى قوة وبراعة وصراحة سافرة فضرب الأمثلة بعدة قصائد من شعره .. تمتلىء بالعاطفة والخيال وتؤكد نصيبه القوى من الشاعرية وصارَحَ الأستاذَ العقاد بأنه ينسبُ إليه ما يجب أن ينسبه الزهاوّى للعقاد نفسه ، لأن صلة العقاد بالعلم فى رأى الزهاوى أكبر من صلته بالشعر، وكان الجدير به أن ينقد الزهاوى مستنداً على خياله وبداهته إذا صَدق انتماؤه للشعر بدل أن يرتكن على المنطق الذى هو فى الدرجة الثانية عند العقاد ، وذهب الزهاوى يقتطع كلام العقاد ليرد على كل فقره، وقد كلفه ذلك إرهاقاً كثيراً ، لأن العقاد صاحب منطق وحجاج ، وقد انبرى ثانيةً لتفنيد آراء الزهاوى ، بمنطقه الجدلى الذّى يسعفه دائماً لا باعتباره باحثاً ينشد الحقيقة ، بل باعتباره محامياً بارعاً ينحاز إلى قضيّة فرض عليه أن يدافع عنها بما يملك من البراهين . وقد رد الزهاوى على ردّ العقاد ، لأنّ من ديدن الشاعر الفلسوف أن يكون دائماً فى عراكِ وصيال وكان جريئاً بالغ القوة حين واجه العقاد برأيه فى شاعريته فقال :

« وما كانَ ردّى السابق عليه ، لأنّى حريص على لقِب الفيلسوف أو الشاعر كما تُوهم عبارته ، وهو ما لقّبنى به الناس من غير أن أدعوهم إليه ، وقد قرض الأستاذ مثلى الشعر، فلم أستخف بشاعريته ، على ما فيها من مآخذ ، وعلى أنّ رأيى فيه ليس بأحسن من رأيه فىّ ، وما ساءنى إلاّ ما أذاعه فى ردّه علّى من أنى لم أقدم للرد عليه إلا لأنى أحب أن يقال عنى فيلسوف شاعر، والحقيقة أنى لم أرد عليه إلا لأنه بنى رأيه فىَّ على دلائل لم تكن حكيمة ولا خليقة بأن يبنى حكمه عليها من يريد الحقائق » .

ويخيل إلىّ أن الزهاوى قد جَوف الأمر، وضخمه حين أظهر استياءه الصارخ من قول العقاد ،ولو سكتَ غير محتفل ما ترك للخصوم أن يشمتوا به ، على أنه انتقم لنفسه حين أصدر العقاد ديوانه فخصه بنقد متحامل عاصفٍ ، دون أن يمهره بتوقيعه الصريح ، وقد حاول العقاد دفع النقد ، دون أن يعرف أنه للزهاوى بل ظن أن صاحب المجلة الأب انستاس مارى الكرملى هو الناقد؛ لأنّ أكثَر الاعتراضات كانت من ناحية اللغة والنحو والتركيب الأسلوبى! فسلق الأب بعبارات قاسية وقد كشف الأستاذ الكبير عبد الرازق الهلالى عن دور الزهاوى فيما نسبه العقاد إلى الأب انستاس ، وجاء فى ذلك بالفلق المبين .

(بين الزهاوى والزيات)

الأستاذ أحمد حسن الزيات أديب رقيق الحسّ ، هادىء الطبع ، مسالمَ لا أنيابَ له ولا أظفار، لذلك جرى الود بينه وبين الزهاوى سَلِساً عذبا ، عرفه فى العراق حين انتدب للتدريس بدار المعلمين العالية

ببغداد، وهرع الزهاوى للقائه فى أول مقدمه، وجعل يشكو له ما أصابه من نقد الأستاذ العقاد، وكيف دفع بخصومه فى العراق إلى شماتة قاسية، وكان اللقاء الأول بين الأديبين كما وصفه الزيات فى قوله:

لم يدع لى الزائر الكريم فرجةً بين كلامه الدافق، أدخل عليه منها بالتحفيف والتسرية، فإن الزهاوى كما علمت بعد ديدنه أن يتكلم، كالبلبل خاصة أن يغرد، والزهر طبعه أن يفوح، فهو فى مجلس الصداقة شاكٍ أو شاكر، وفى مجلس الأدب محاضر وشاعـر، وفى مجلس الأنس مُفاكه أو محدث، كان الشيخ يتكلم أو ينشد، ونبراته الموَّترة، ولحيته الخفيفة، ووجهه المسنون، وعينه البراقة، وشعره الأشمط، تخيل لى أن طيفا من أطياف الجدود، أو نبياً من أنبياء اليهود، قد انشق عنه حجاب الزمن، فجاءنا فى هذا المكان الصامت».

أما حكم الزيات على شعر الزهاوى فقد صاغه لبقاً لطيفاً حين قال «الزهاوى شاعرٌ من شعراء الفكرة، له البصيرة الناقدة، والفطنة النافذة، وليس له الأذن التى تموسق، ولا القريحة التى تصنع، فاللفظ قد لا يختار، والوزن قد لا يتسق، والأسلوب قد لا ينسجم، ولكن الفكرة الحية تعج بين الأبيات المتخاذلة، عجيج الأمواج المزبدة بين الشواطىء المنهارة».

وهذا كلامٌ ينطبق على أكثر شعر الزهاوى لا على الكثير، لأن الشاعر يحتفل أحياناً، فيأتى تعبيره محكماً دقيقاً، أما إذا أسرع أو ارتجل، فالأمر كما قال أستاذنا الزيات، وقد تسرع الناقد الكبير حين

قال «إن له الوزن الذى لايتسق» فإن معناه أن البيت يجيء مكسوراً، وهذا ماينأى عنه شاعر كبير كالزهاوى، إلا إذا أراد الزيات أن الشاعر يرتكب من العلل والزحافات ماتجيزه الضرورات الشعرية على كراهية لاعلى تحريم.

وبعد، فحديث الزهاوى إذا كان بارعاً عند الزيات فإن الحديث عنه يحتاج إلى براعة.. قد لايملكها الكثيرون، ولكننا نتحدث عنه قدر مانستطيع.



من نوادر التصحيف

قرأت بمجلة الأديب الصادرة فى أكتوبر سنة ١٩٦٩ حديثاً يخص أستاذى محمد سعيد العامودى ــ رحمه الله ــ فكتبت إليه مخبراً عما قرأت، ولكن القلم سها فوضع كلمة الأدب مكان كلمة الأديب، ومجلة الأدب مصرية تصدر فى القاهرة، ومجلة الأديب لبنانية تصدر فى بيروت، فبحث الأستاذ عن مجلة الأدب فى مكة فلم يجدها فأرسل إلى القاهرة يدعوها، وحين تصفحها لم يجد شيئاً مما حدثته عنه، لأن التصحيف الذى أسقط حرف الياء من كلمة الأديب قد أحرج موقفى حين نقل المجلة من قطر إلى قطر، ولكنه مع ذلك أتاح لى الآن أن أتحدث عن هذا التصحيف الظالم عبر التاريخ.

لقد شكا العلماء والأدباء معاً من جراء التحريف الكتابى. وإذا ضاق الأدباء ذرعاً به فضيق العلماء أشد وأمض، إذ ربما أدى إحلال حرف مكان حرف فى لغة العلم إلى كارثة محققة، فقد ذكر الأصفهانى أن حنين ابن اسحق كان يحتاط فيما يبلغه من أسماء الأدوية فيفزع من الحرف ذى اللبس خيفة أن يقرأ على غير وجهه فمن ذلك أنه كان يكتب «الصعتر» ثم يضع بعدها حرف الصاد ويقول أخاف أن تقرأ (الشعير) فيصير الدواء داء ويموت العليل، وهى شكوى مريرة رددها أبو الريحان البيرونى حين قال فى كتاب (الصيدنة): «ولكن للكتابة العربية آفة عظيمة، هى تشابه صور

الحروف المزدوجة فيها، واضطرارها فى التميز إلى نقط المعجم وعلامات الإعراب التى إذا تركت استبهم المفهوم منها، فإذا أضيف إلى ذلك إغفال المعارضة، وإهمال التصحيح بالمقابلة، وذلك بالفعل عام عندما قومنا، تساوى به وجود الكتاب وعدمه، بل علم ما فيه وجهله». وما زالت الشكوى تتردد عبر السنين حتى جلجل بها أحمد فارس الشدياق فى مقدمة الجاسوس على القاموس، وحتى اضطر مجمع اللغة العربية أن يعرض جائزة قدرها ألف جنيه لمن يوفق فى تيسير الكتابة العربية إلى اقتراح مفيد.

ونقرأ فى تراجم القدامى من الأدباء تهوينا وانتقاصاً يوصف بالصحفى إشارة إلى أنه تلقى علمه من الصحف لا من أفواه الرجال فتعرض إلى خطأ محقق، وانتقل ذلك من النثر إلى الشعر فقال ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق:

وإنك لن ترى للعلم شيئاً ... يحققه كأفواه الرجال
فلا تأخذه من صحفٍ فترمى ... من التصحيف بالداء العضال

وقال آخر فى هجاء أبى حاتم السجستانى ــ على فضله الذائع وعلمه الغزير.

إذا أسند القوم أخبارهم ... فإسناده الصحف والهاجس

وقد ألح العسكرى كثيراً فى ترديد هذا المعنى فى كتابه (التصحيف والتحريف) فرأى «أن هذه الآفة لا يسلم منها إلا من افتن فى العلوم، وأخذ من أفواه الرجال، ولم يعول على الكتب الصحفية، ولم يؤثر شدة الراحة على تعب البحث والتنقيب».

وفى مجال التمثيل لما أنكروه من التصحيف، ومن أنكروه من المصحفين، تذكر عماد الزبرقان المقرىء الراوية فقد كان يصحف ألفاظا فى القرآن الكريم، لأنه حفظ القرآن من المصحف ولم يحفظه على شيخ، فكان مما يغلط فيه. وقد مهد بذلك السبيل لرأى خارجى متطرف أتى به أبو بكر محمد بن الحسن العطار، وكان من أحفظ الناس لنحو الكوفيين وأعلمهم بالقراءات وله كتب وتصانيف كثيرة، ولكنه تورط فيما حكاه عنه الأنبارى إذ قال «ومما طعن عليه أنه عمد إلى حروف يخالف الإجماع فيها فقرأها وأقرأها على وجوه، وذكر أنها تجوز فى اللغة العربية، وشاع ذلك عنه عند أهل العلم، وأنكروا عليه، وارتفع الأمر إلى السلطان فأحضره واستتابه بحضرة الفقهاء والقراء فأذعن بالتوبة، وكتب محضر توبته، وكتب جماعة من حضر فى ذلك المجلس بتوبته خطوطهم فيه بالشهادة عليه(١). وتصرف هذا الرأى الخارجى المردود يرجع إلى أنه قبل كل ما يوحى به التصحيف من معنى يحتمل سواء قرىء به أم لم يقرأ، وهو شطط منبوذ أوجب التوبة والاستغفار وقبل أن نضرب الأمثلة لبعض ما وقع فيه العلماء من تصحيف نروح عن القارىء ببعض النوادر الطريفة التى جلبها التحريف، فكانت مثار الفكاهة لدى المتأدبين، فمن ذلك ما حكاه القاضى أحمد بن كامل إذ قال حضرت بعض مشايخ الحديث من المغفلين فقال عن رسول الله ﷺ عن جبريل عن الله عن رجل قال فنظرت، فإذا هو قد صحفه، وحقه أن يكون «عن جبريل عن الله عز وجل».

---

(١) نزهة الألباء ص ٣٨٨ تحقيق الاستاذ أبو الفضل.

وقد روى ابن النديم فى الفهرست أن أحدهم قال مررت بشيخ جالس وبيده مصحف، وهو يقــــرأ إحــدى آياته ، فقلت وما معنى كذا؟ فقال هذا الذى ترى فقلت ما يكون التصحيف إلا إذا كان مثلك يقرأ بلا فهم ؟ إنما هو ميراث السموات والأرض فقال: اللهم غفرانا أنا منذ أربعين سنة أقرأ هكذا.

أما قصة الفرزدق مع تميم بن زيد القضاعى فمعروفة، وفحواها أن تميما حبس شاباً يسمى خنيساً فى سجنه ــ وكان والياً على بعض نواحى الهند مدة طويلة، فضاقت أمه صدراً بحبسه، وذهبت إلى قبر غالب بن صعصعة والد الفرزدق وأقامت باكية لا تريم، حتى علم الفرزدق بمكانها فأتاها فذكرت حبس ابنها، وكان تميم صديقاً للشاعر فكتب إليه يقول:

تميم بن زيد لا تكونن حاجتى بظهر فلا يخفى عليك جوابها
فهب لى خنيساً واتخذ منه منة لغصة أم ما يسوغ شرابها

فلما أتاه الشعر طى الكتاب لم يدر أجيش أم خنيس، وفى سجنه كلا الاسمين، فأطلقهما معا كيلا يفوته صاحب الفرزدق.

هذه طرفة ذائعة، وأدخل منها فى باب الطرافة ما يروى أن سليمان بن عبد الملك كتب إلى ابن حزم عامله على المدينة أن أحصى (بالحاء المهملة) من عندك من.. فصحفها كاتبه إذ قرأها اخصى من قبلك من.. (بالخاء المنقوطة) فدعا ابن حزم بهم فخصاهم وكانوا أكثر من سبعة أشخاص.

أما ما وقع فيه العلماء من التصحيف فنسوق بعض أمثلته، لا لننتقصهم في شيء، ولكن لنؤكد أنهم بشر كالناس جميعاً يصيبون ويخطئون، وأن من أبواب هذا الخطأ ما يدعى بالتصحيف، ترجم أبو البركات كمال الدين الأنبارى لأبى الحسن اللحيانى ترجمة موجزة كعادته فى كتابه «نزهة الألباء» فذكر أنه أحد كبار أهل اللغة وأحفظ الناس للنوادر عن الكسائى والفراء والأحمر ثم أتبع ذلك بقوله (١).

«وحكى أبو الحسن الطوسى قال كنا فى مجلس اللحيانى، وكان عازماً على أن يملى نوادر ضعف ما أملى، فقال يوماً تقول العرب «مثقل استعان بذقنه». فقام إليه ابن السكيت وهو حدث وقال يا أبا الحسن: إنما تقول العرب مثَقل استعان بدفيه تريد الجمل إذا نهض للحمل وهو مثقل استعان بجنبيه، فقطع الإملاء، فلما كان فى المجلس الثانى أملى تقول العرب هو جارى مكاشرى، فقام إليه ابن السكيت فقال أعزك الله وما معنى مكاشرى: إنما هى مكاسرى بمهملة أى كسر بيتى إلى كسر بيته، فانقطع الرجل عن الإملاء وما أملى شيئاً بعد ذلك: وكسر البيت جانبه. فكأن المعنى هو جارى ملاصقاً لا يفصل بينى وبين أحد، ومن يقدر روعة المفاجأة مرتين متتاليتين بين التلميذ الحدث والأستاذ المسن يعذر اللحيانى فى انقطاعه عن الإملاء، واستحيائه فى الحلقة من التلاميذ.

هذا بعض ما ذكره الأنبارى عن اللحيانى: وقد ذكر قريباً منه

---

(١) ص ٧٦ «نزهة الألباء».

عن الجوهرى صاحب الصحاح إذ قال ما نصه([1]) .

ومن أعجب ما فيه ـ في الصحاح ـ من التصحيف ، أنه صحف تصحيفاً مركباً قال : الجر أضل : الجبل فجعل الجر أضل كلمة واحدة بالجيم والضاد المعجمة وإنما هو الجر: أصل الحبل ، كما قال الشاعر:

(وقد قطعت وادياً وجرا) ثم قال وما في الصحاح من الغلط ما يرجع إلى أن مؤلفه مات قبل تبييضه ، والذى بيضه لم يقرأه عليه .

ولم يعف الأنبارى المفضل الضبى الكوفى ـ على جلال منزلته وعلو طبقته ـ من المؤاخذة ، فقد أخذ عليه أنه صحف قول امرىء القيس ([2]) .

نمش بأعراف الجياد أكفنا   إذا نحن قمنا عن شواء مضهب

إذ قد قرأها نمس بالسين المهملة لا بالشين المعجمة ، لأن المش مسح اليد بالشيء الخشن ، وفى رأيى أن رواية المفضل ذات احتمال مقبول ، والقول بتصحيفه تحكم ظاهر وإن أسنده الأنبارى إلى خلف الأحمر، إذ لا يمنع أن يكون المراد بالمس سرعة المسح لتعجل شيء آخر يريده امرؤ القيس:

ونخلص من المفضل إلى ابن الأعرابى ، فقد روى عنه الانبارى أنه روى قول الشاعر([3]) .

---

(١) ص ٣٤٥ .
(٢) نزهة الألباء ص ٥٦ .
(٣) ص ١٥٣ .

ولا عيب فينا غير عرق لمعشر كرام وأنا لا نخط على النمل

فنطق نخط بحاء مهملة لا بخاء معجمة وقال أن معناه إنا لا نحط على بيوت النمل لنصيب ما جمعت، وما أظن عاقلاً يتوهم إنساناً يتتبع بيوت النمل ليأخذ منها، وإنما الرواية لا نخط على النمل واحدتها نملة وهى قرحة بالجنب تزعم المجوس أن الخط عليها يشفى صاحبها، ومعنى البيت لسنا بمجوس نتزوج الأخوات.

وابن الأعرابى ممن صحف أكثر من مرة، وإن لم يذكر له الانبارى غير المثال السابق، فقد روت كتب التصحيف عن محمد بن عمر الجرجانى قوله: صحف ابن الأعرابى فى شعر الكميت وأنا حاضر فأنشد.

فبانوا من بنى أسد عليهم نجار من خزيمة ذى القبول

فقلت إنما هو باتوا بالتاء لا بالنون، فلوى شدقه، فقلت إن بعد هذا البيت قوله:

وقالوا بالأيا من منتماهم فيا بعد المبيت عن المقيل

قال لا يلتفت إلى هذا:

وما كان لابن الأعرابى أن يعدل عن الحق إلى غيره بعد أن وضح الدليل، إذ أن قول الكميت فى البيت الثانى (وقالوا) من القيلولة قد جاء فى مقابلة قوله (وباتوا) من البيات ثم كان الشطر الثانى نصاً جازماً لا يقبل الشك، إذ قال الشاعر (فيا بعد المبيت من

الميل:) وقد يعترى الضعف الإنسانى بعض العلماء فلا يذعنون للحق تكبراً ومغالاة كما رأينا فى موقف ابن الأعرابى من صاحبه، ولكننا نجد فى الجانب الآخر فريقاً يعتصمون بالخلق الكريم، فيرجعون للحق إذ يعرفونه، وأمثال هؤلاء جديرون بتسجيل مواقفهم الرائعة لتكون قدوة حسنة للمقتدين.

قال أبو الحسن الدارقطنى(١) حضرت أبا بكر الانبارى فى مجلس إملائه يوم الجمعة، فصحف أسما أورده فى إسناد حديث، إما كان حبان فقال حيان، قال أبو الحسن فأعظمت أن ينقل عن مثله مع فضله وجلاله وهم، وهبت أن أوقفه على ذلك فلما انقضى الإملاء تقدمت إلى المستملى، وذكرت له وهمه، وعرفته صواب القول فيه وانصرفت، ثم حضرت الجمعة الثانية، فقال أبو بكر لتلميذه: عرف الجماعة الحاضرين أنا صحفنا الاسم الفلانى لما أملينا حديث كذا فى الجمعة الماضية، نبهنا ذلك الشاب على الصواب وهو كذا وعرف ذلك الشاب أنا رجعنا إلى الأصل فوجدناه كما قال:

موقف رائع من أبى بكر يحفظ له فى مجال الخلق الرائع مكان المنصف النزيه فيزيد من مجده ويضاعف من خلوده، ولو شابهه موقف أبى جعفر النحاس من المنذر بن سعيد، لكان النحاس ذا قدر عظيم عند المنصفين ولكنه أشاح عن تلميذه المعترض وعرف الغضب فى وجهه إذ ناقشه، فمن حديث الرجلين أن المنذر بن سعيد حضر مجلس أبى جعفر النحاس فسمعه ينشد قول الشاعر:

---

(١) ص ٣٧٠ من نزهة الألباء.

خليلى هل بالشام عين حزينة — تنوح على نجد لعلى أعينها

قد أسلمها الباكون إلا حمامة — مطوقة باتت وبات قرينها

تجاوبها أخرى على خير زانة — يكاد يدنيها من الأرض لينها[1]

فقال المنذر أعزك الله يا أبا جعفر أنت تقول باتت وبات قرينها فماذا كانا صنعان فى المبيت، فنظر النحاس غاضباً ثم سأل المنذر وما تقول أنت يا أندلسى؟

فقال المنذر إن الرواية هكذا (بانت وبان قرينها) بالنون لا بالتاء، فسكت أبو جعفر وما زال يستثقل مكان المنذر فى درسه حتى أنه سأله كتاب العين لبعض ساعات فمنعه إياه.

وليس ابن الأعرابى وحيدا فى إصراره على خطأ التصحيف، فقد عرف التاريخ مايشابهه فى هذا الإصرار، ويزيد عليه أن يذهب إلى تأييده بالاختلاق الكاذب ليكسب نصراً مؤقتاً فى مجلسه المشهود، ومن ذلك ما روى أن أديباً متعجلاً قرأ أمام سلطان المغرب محمد بن اسماعيل كلمة الوخيذ بالذال المعجمة لا بالدال المهملة فراجعه السلطان فى تصحيفه، وكان القارىء ذا بديهة شاعرة فأصر على موقفه وارتجل لفوره هذين البيتين:

أقول لصاحبى لما ارتحلنا — وأشرعنا النجائب فى الوخيذ

تمتع من لذيذ شراب ليلى — فما بعد العشية من لذيذ

---

(1) هذه مقطوعة رائعة وقد اردت أن أزيد عليها هذا البيت من نظمى

(فلا تحسبا أنى جهلتُ مصابها — فإن حنينى فى اغترابى حنينها)

وبه يتم المعنى الشاعرى كما أكده صديقى الدكتور إسلام الصادمى.

ولعمرى لئن انقذ هذا المتعجل نفسه فى مجلس السلطان المغربى فكيف ينقذ خلفه من مؤاخذة التاريخ؟ إن تمسكه بالتصحيف أوقعه فى حرج ثقيل:

هذه نوادر مبعثرة وددت أن أجمعها فى مقال عابر للمعتبر، يكون من فائدته اللغوية نفع الدارس ومن عبرته الخلقية تهذيب المتأدب، ولا يخلو من طرفة تحكى ونادرة تقال.

* * *

أمجرم أم ثائر؟
(نوادر تاريخية ذات معنى جليل)

قرأت المقال التاريخى الحافل الذى كتبه صديقى الأديب المبين الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف بعدد يناير من مجلة الهلال تحت عنوان (على الدكش) ولم أعجب لما حفل به من غرائب، فأمثال على الدكش كثيرون، نعرف أشباههم فى القرى ممن ضاقت بهم سبل العيش فانحرفوا إلى بعض المثالب، ولكن نفوسهم تنزع إلى المروءة حين يجد الجد وتدق ساعة الخطر، إذ تأتى من نوادر الأريحية، وغرائب البسالة ما يحتاج إلى تحليل نفسى، يقوم به باحث متمكن يسبر أغوار النفس البشرية ويعرف أنها مزيج من الشر والخير، وأنها لا تدوم على حال، فقد تسف حيناً حتى تلتصق بالأرض ثم يدركها السمو فترتفع إلى أجواز السماء، وهكذا أسف على الدكش حين احترف السرقة، وتزعم عصابة اللصوص، وكأنه كان ناقماً على نفسه إذ ألجأته طبيعة حياته إلى هذا الجرم الشائن، حتى إذا وجد الفرصة السانحة إلى رد المغير، وصيانة الذمار كان الباسل المقدام!

لقد هال هذا الشجاع أن يقدم رعاع الاحتلال على اغتصاب الأموال والأرواح، فدبر الحيلة لكى يفتك بهم جميعاً فى حمية ثائرة، واستطاع الشجاع الأعزل أن ينهض بأعباء كتيبة ذات سلاح وعتاد إذ

أمكنته الحيلة أن يدبر المذبحة الناقة، وأن يجعل المحتل العادى يشرب كؤوس الحسرة متأوهاً، وأن يأخذ حذره من قوم يفقدون السلاح، ولكنهم يملكون الحفيظة الثائرة، والحمية ذات الانتقام! وإذا كنا لا نجد مفراً من مؤاخذة هذا الشجاع على انحرافه الشائن فيما امتهن من انحراف! فإننا نعرف أناساً من عظماء التاريخ جرت بذكرهم الألسنة، وكتبت فى تراجمهم المجلات وقد اقترفوا سراً وجهراً من جرائر الاغتيال والاثم ما تقشعر منه الجلود، وهم مع ذلك قادة دول، ورءوس أقوام، أفنعصف ببسالة هذا الشجاع لأنه انحرف فى بعض سلوكه دون أن نفسح المجال لتحليل الدواعى الباعثة، وتقدير الجبرية الاجتماعية التى ناءت بكلكلها على مجتمعه فرفعت قوماً وخفضت آخرين! أخشى أن يفهم قارىء أنى أحبذ الجريمة، إذ أنا أدعو إلى وقفات منصفة تقدر الأسباب وتزن المقدمات قبل أن تؤاخذ على النتائج، وهذا ما يقوم به كاتب الترجمة الدقيق.

ليس وحده

ولو كان على الدكش وحده فى مجال ارتفاعه وهبوطه لهان الأمر، ولكن صحائف التاريخ تعج بأمثاله بحيث لم يخل عصر واحد من نمطه! أجل لم يخل عصر واحد من انسان أو أناس قد انحرفت بهم مصادفات الحياة عن السنن الأمثل، وهم فى أعماقهم ذوو نوازع خيرة تهتف بالفضيلة، وكأنهم عرفوا أن الحياة مزاج من الشر والخير، وأنهم إذا اقترفوا ذنباً ما فعليهم أن يكفروا عنه بما يبدون من شمائل الفتوة، وغرائب الأريحية، ونبدأ بما تعرف عن صعاليك العرب كعروة بن الورد، والشنفرى! ألم تستفض الأنباء عن مظاهر بسالتهم النادرة،

واقدامهم على الأخطار دون تردد، ألم يكن الصلعوك فى أكثر أمره ذا أريحية نبيلة، وذا همة تدفعه إلى صيانة الضعفاء ورعاية المحتاجين، حتى ظفر مثل (عروة بن الورد) وكان يسمى عروة الصعاليك باعجاب معاوية بن أبى سفيان وعبدالملك بن مروان، فتحدثا عنه حديث المعجب الفاخر! فقد كان يجمع ضعفاء قومه ليقيهم المسألة ويتكفل بما يحتاجون من مشرب ومطعم وملبس ومأوى! وكان لا يغزو من قبائل العرب غير من يعرف عنهم الشح والأنانية والغرور! هنا تثور حميته، ويرى الانتقام واجبا يقوم به نحو قوم يسلبون الضعيف ماله ليتجبروا عليه بما يملكون من ثراء، ويجمعون من خول وخدم، أما الذين اشتهروا بمواساة المحتاجين واغاثة اللهفى فهم موضع تقديره، يدفع عنهم بجماعته كل شر، ويبذل جهده فى الذود عنهم بروحه، وهى كل ما يملك، إذ كان يقسم الغنائم الذى نالها بشجاعته وتدبيره ولا يبقى غير ما يقيم أوده، ويفى بالضرورى من حاجته.

يقول معاوية بن أبى سفيان ــ نقلاً عن الأغانى ــ «لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم». ويقول عبدالملك بن مروان (ما يسرنى أن أحداً من العرب ممن لم يلدنى قد ولدنى إلا عروة بن الورد) واعجاب هذين العاهلين بعروة ينبىء أن هذا الصعلوك قد جمع من مظاهر الفتوة ما سلب الألباب حقاً، وحسبه أن سعيه الجاهد لا يقف خيره عند نفسه بل يتعداه إلى سواه، وأنه كان صادقاً حين قال مخاطباً بعض معارضيه:

أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى	بجسمى جهد الحق والحق جاهد
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة	وأحسو قراح الماء والماء بارد

ويقول مخاطباً زوجته :

ذريتي ونفسي أم حسان إنني ... بها قبل ألا أملك البيع أشتري
فإن فاز سهم للمنية لم أكن ... جزوعا وهل عن ذاك من متأخر
وان فاز سهم كفكم عن مقاعد ... لكم خلف أدبار البيوت ومنظر

في بغداد

كان من بواعث الفساد الشائن ما عرف من تفاوت الطبقات في المجتمع العباسي، تفاوتاً شاسعاً يدعو إلى التذمر والحفيظة إذ نشأت عصابات كثيرة تحترف السطو والنهب، وترى في الاستيلاء على ما تغتصب من أموال الأغنياء مظهراً من مظاهر ارتجاع الحقوق إلى أصحابها، وزاد الطين بلة أن بعض الحاكمين من ذوي الأمر قد استعان بهذه العصائب لردع خصومه، واستظهر بها نصيرا يدفع عنه الغائلة، فتفاقم الخطب، لأن هؤلاء المستعان بهم قد أنِسُوا حاجة الرؤساء إليهم وعدوا أنفسهم من ذوي الأمر والنهي في الدولة! ولكن المتتبع لسير بعض هؤلاء يجد فيهم من يندم على موقعه ومن يحمل في أطوائه نفساً تتوق إلى الفضيلة وتبحث عنها في ظلال عيش آمن مستقر فلا تجد، وفي كتاب (الفرج بعد الشدة) الذي كتبه القاضي التنوخي من غرائب هؤلاء النادمين، ما يجب أن يكون موضع دراسة متأنية تقدر الملابسات تقديرها المستقيم. ونحن ننقل منه على لسان بعض هؤلاء الفتاك حين سأله بعض الوعاظ عن حقيقة أمره ودعاه إلى التوبة النصوح فقال:

«نشأت فلم أتعلم غير معالجة السلاح، وجئت إلى بغداد أطلب

من السلطان العيش فما قبلنى أحد، فانتظمت مع هؤلاء ــ يريد قطاع الطريق ــ فلو أنصفنى السلطان وأنزلنى بحيث أستحق من الشجاعة لانتفع بخدمتى وما فعلت هذا».

وقد ألم مؤلف الفرج بعد الشدة بحديث الشجاع الخطير (ابن حمدون) إذا كان شديد النقمة على الأغنياء يترصد القوافل ويهجم على التاجر، ويصب الفزع فى النفوس إذا جرى حديثه فى الناس، حتى ظن الجميع أنه معرق فى الشر لا ينتهى فيه إلى أحد، ولكنه بسط عذره الصريح حين قال مبرراً ما يأتيه.

يا هذا جزى الله السلطان الذى أحوجنا إلى هذا، فانه اسقط أرزاقنا، فاحتجنا إلى هذا الفعل، وليس فيما نفعل ارتكاب أمر أعظم مما يرتكبه السلطان، فإنه يصادر أموال الناس ويفقرهم حتى يأخذ الموسر المكثر فيخرج من حبسه وهو لا يهتدى إلى شىء غير الصدقة، فاحسبونا مثل هؤلاء.

ومنطق ابن حمدون يدعو إلى التمهل، فهو يوازن بين ما يقوم به حين يغتصب قافلة، وبين ما يقوم به صاحب الأمر حين يصادر مال تاجر بغياً دون حق، وحين يحبسه ظلماً فإذا خرج لم يجد باباً للإرتزاق غير أن يسأل الناس!! أى فرق بين مصادرة ظالمة يأتيها رئيس! وبين سطو ظالم يأتيه قاطع طريق؟

على أن أغرب ما حكاه التنوخى ما رواه عن قصة لص فاتك يسمى ابن سيار الكردى على لسان بعض من وقعوا فى أسره حيث قال: «كنت مسافراً ببعض الجبال فخرج علينا ابن سيار الكردى

فقطع علينا، وكان يزى الأمراء، فقربت منه أنظر إليه وأسمع كلامه، فوجدته يروى الشعر، ويفهم النحو، فطمعت فيه وعملت له أبياتاً مدحته بها، فطلب مني أن أنظم فى معنى ليختبرنى فصدعت بما أمر، فابتسم وسأل: أى شيء أخذته منك حتى أرده عليك، فذكرت بضاعتى فردها، ثم أخذ من أكياس التجار التى نهبها كيساً فيه ألف درهم ووهبه لى، قلت أأسألك وأنا آمن؟ فقال نعم قلت كيف تهب مالا تملك؟ فقال سريعاً: أما قرأت ما ذكره الجاحظ فى كتاب اللصوص عن بعضهم حين قال: (إن هؤلاء التجار لم تسقط عنهم زكاة الناس لأنهم منعوها، فصارت أموالهم بذلك مستهلكة، واللصوص فقراء إليها فإن أخذوا أموالهم. كان ذلك مباحاً لأن عين المال مستهلكة بالزكاة). وهذا منطق لا نؤيده، ولكن يجب أن نقف كثيراً عنده لنعلم أن نوازع الخير لدى هؤلاء اللصوص حاضرة غير غائبة وهى فى حاجة إلى من يعلو بها، ويوجهها الوجهة الصحيحة! ولن يكون ذلك إلا إذا صلحت الرعية واستقام الراعى.

فى مصر

وليست بغداد وحدها ذات القصص الغريبة فى هذا المجال، فقطاع الطريق فى مصر لهم منطقهم المماثل، وآراؤهم المطابقة مما يشكل ظاهرة اجتماعية تتطلب التحليل، وفى كتاب المكافأة لاحمد بن يوسف، نظير ما فى كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخى ونحن نروى منه هذا الموقف.

قال أحمد بن يوسف، حدثنى محمد بن يزيد قال: أطلق جماعة من حبس أحمد بن طولون كانت قد وقعت بهم الظنة بالتلصص فانى

عند بعض القوم إذ حضر من هؤلاء غلام أصفر خبيث المنظر متمكن من نفسه، فرحب به، وجلس عنده، وهنأه بسلامته ثم سأله عن حاله: فقال: خرجت من الحبس وما معى نفقة تبلغنى منزلى فقلت ما أسمك؟ فقال: مسافر فقلت له يا بنى، قدم الله فى أمورك ولا تعدل عنه فإن الراحة فى ظله فقال يا سيدى الحق ما قلته، والنفس هى النفس وهى أمارة بالسوء والتوفيق إلى الله دون خلقه، فقلت له ما يكفيك فقال دينار فأعطيته اياه.

ثم مضى شهر، وشاع أن رجلاً بالصعيد يتسلط على النفوس ويعترض المتاجر والقوافل، ولى ضيعة هناك فخرجت لقبض غلتها، فقطعنا اللصوص ووقع الخطب وأسرنا القوم وذهبوا بنا إلى رئيسهم فنظرت إليه فإذا هو صاحبى، فحين عرفنى أكب على يدى واحتفى بى، وقال لأصحابه ذلك سيدى وشيخى، فادفعوا له بضاعته: ثم مضيت فقابلت عامل ابن طولون على الناصية فحدثته بما كان فقال له بذلت الجهد فى القبض على هذا الرجل وجماعته فما استطعت فهل تسفر بينى وبينه فأومنه وأكرم جماعته لينتهوا عن غيهم، فطمعت فى صلاحه ورجعت إليه فأديت الرسالة فقال الرجل يا سيدى ما بينى وبينه ألا أنس الناس به ثم قال لأصحابه من يساعدنى على الخروج إلى الله عز وجل؟ فقالوا جميعاً نحن معك وأعلنوا توبتهم، ثم قال الرجل أدخل بنا فى زى الأسرى لتُعلن استسلامنا، فدخلنا إلى مقر العامل على المدينة والناس ينظرون إلى هؤلاء الفتاك فى زى الأسر متعجبين، كيف يقدر شيخ مثلى على سوقهم هكذا؟ وقد أعجزوا السلطان! ثم أعلنوا التوبة وعزموا على المسير إلى مكة حاجين!

فهذا شجاع فاتك! لاحت له فرصة التوبة فاغتنمها مع صحابته جميعاً ولو وجد من يسمون بالأشرار ناصحاً أمينا لأنقذ منهم العدد الكثير، وكفيت الشرور والأهوال.

أبو زيد الهلالى

وحديث أبى زيد الهلالى لا يخفى على أحد، فلو تجاوزنا قصصه الأسطورى إلى واقعه التاريخى لعرفنا أنه نشأ نشأة الاجرام والبطش فى قبيلة يقوم معاشها على السلب والنهب فى حملات منتظمة تداهم الآمنين فى أطراف الشام والعراق، ثم رحلوا إلى مصر حين اضطرتهم جيوش الدولة للمهاجرة، فنزلوا الوجه البحرى ليعيثوا به فسادا، حتى اضطر العزيز بالله الفاطمى إلى أن يطردهم إلى الصعيد، وما كان لهم أن يخلدوا إلى الأمن والسكينة، وقد قامت أسباب حياتهم على السطو فاستأنفوا ما ألفوا من البغى، وانتشر لأبى زيد صيت مدو حيث ترأس العصابات الباغية، ثم ثارت الثوائر على الخليفة الفاطمى فى بلاد المغرب، ففكر مستشاروه فى أن يجند هؤلاء البغاة من قبيلتى هلال وسليم، ليسيروا إلى المغرب العربى وكأنهم جنود للدولة يحمون ذمارها فى مواقعها النائية، فإذا تم لهم النصر فقد حققوا لمصر رجاءها فى استتباب الأمن بين قبائل زناتة وكتامة وصنهاجة وهم نفر من البربر يحاكون العرب قوة شكيمة وشدة بأس، وإذا كانت الأخرى وأصيبوا بالهزيمة. فقد استراحت منهم مصر، وكان ما انتشر صداه من وقائع دامية بين البربر وبنى هلال وسليم، حتى ألفت القصص الأسطورية تجوف الوقائع، وبلغت سيرة أبى زيد ثلاثة أجزاء كبار تتحدث عن النشأة الأولى فى منازل حمير بأرض اليمن ثم النشأة الثانية

فى حمى نجد وأطراف البادية مما يلى العراق والشام . وهذان الجانبان لا يهتم بهم القصص الأسطورى قدر ما يهتم بنزاع المغرب، وقد شاء المؤلف الخيالى أن يمد للقصص فى أسباب التشويق فاخترع حوادث الغرام بين من سماها سعدى بنت زعيم قبيلة زناته وبين أحد أصحاب أبى زيد، واشتعلت الغيرة بين القواد بسبب سعدى هذه، فانقسم معسكر الهلاليين إذ عارض دياب بن غانم أبا زيد الهلالى، ووقع بأسهم بينهم حتى ألفت فيهم الأساطير!

أن أمثال أبى زيد ودياب ومرعى لايخرجون فى صميم الواقع عن قطاع طرق ، التف بهم من يميل إلى سلوكهم المضطرب فراراً من قسوة العيش فى مجتمع آمن تتحكم فيه الأقلية ناعمة رافلة ، على حين تصطلى الأكثرية بنيران الفقر والبأساء! ولو وجد أشباه هؤلاء من يوجه مسلكهم الحيوانى توجيهاً مستقيماً لكانوا أبطالاً مرموقين يحاربون فى صفوف العدالة وسيظل أشباه هؤلاء فى كل زمن، ونحن نقرأ قصصاً كثيرة فى العصر المملوكى عمن يسمى بأحمد الدنف وبعلى الزيبق وهما من هذا الطراز، وفى سيرة الظاهر بيبرس تجد لهما بعض الأمثال .

عود على بدء

لنا أن نرجع إلى قصة (على الدكش) التى كتبها الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف لنحصى محامده جوار مثالبه، فنرى أنه كان يحمى القرية من اللصوص فلا يجرؤ لص أجنبى على اقتحام حماه، إذ أن سرقة أدنى شىء من قريته اهانة لا تغتفر بالنسبة إليه، فهو حامى الذمار كما كان يحمى عروة بن الورد أصحابه من الصعاليك ويطلق

عليهم ما يعرف (بأصحاب الكنيف) الذين استظلوا فى كنفه واستعصموا بحماه! ثم نراه ثانية يقاوم جيوش الاحتلال فإذا أعوزته الذخيرة الصائبة أمام سلاحه البدائى لجأ إلى الاحتيال الماكر حين يصطنع عُرساً موهوماً، ويأتى بالهوادج ويلبس الرجال لباس النساء ليغرى الانجليز بالصعود إلى الهوادج والاتصال بهن واحداً إثر واحد، حتى إذا انطلت الحيلة وصعد جندى وراء جندى إلى الهودج لقى حتفه من المجموعة المتنكرة فى ثياب النساء! وهذا بعض ما كان يقوم به ابن حمدون العباسى وابن سيار الكردى حين أعدا الحملات للسطو على التجار، وحين التمسا حجتها فى كتاب الجاحظ إذ يرى من روى عنهم أن هؤلاء التجار مذنبون يعصون الله بمنع الزكاة، ولست أشبه التجار بجيوش الاحتلال فالقياس بعيد، ولكنى أرى أن محاربة السلطة الحاكمة فى صميمها هى الاتجاه الجامع بين المقاتل المعاصر وأشباهه السابقين مهما اختلفت الدواعى وتنوعت الأسباب! على أن على الدكش أعظم مروءة وأقرب إلى الهدى من هؤلاء فقد اختص ببأسه بغاة حقيقيين، سلبوا الآمنين راحتهم ودهموا القرى ليأخذوا الحيوانات والدواجن والحبوب منحة خالصة، وكأنها حق مكتسب! على حين قد عجزت الدولة أن تفعل شيئاً وهى محتلة فى قبضة حديدية، ورؤساؤها من الزعماء والحكام يتطلعون إلى الخلاص، ومن ورائهم الشعب يبذل دمه فى مظاهرات تقابل بالرصاص الحاصد فى هجمات وحشية تصم انجلترا بالبغى الفاضح، والاجرام الشنيع! وأقل جزاء لمثل هؤلاء البغاة أن يحتال على الدكش على اغتيالهم المنتقم، فيشفى صدور قوم مسالمين؛ ان فى قصة الدكش لعبرة بالغة للمعتبرين.

الإمبراطورة أوجينى
بين حافظ ومطران

من ير الشمس الرافلة فى ضحاها البهيج وقد أئتلفت بالأضواء، واتشحت بالبهاء والروعة، يعز عليه أن يراها فى غروبها الشاحب، وقد دميت صفحتها الحمراء، ولاحقتها طيوف المساء فهى على وشك المغيب.

وقد رأت مصر الامبراطورة أوجينى فى شروقها الساطع حين كانت أجمل كوكب يتألق فى البلاط الأوربى، ثم رأتها فى أصيلها الغارب حين صارت عجوزاً عاطلة من حليتى الجمال والسلطان، فكان للمشهدين المتناقضين وقع غريب فى النفوس، وقد عبّرت أقلام الكتّاب فى صحيفة المؤيد عن الانطباع المتناقض بين عهد وعهد.. كما صوّر الشعراء هواتفهم فيما نظموه متفحّصين عِبر الدهر، ومحن الأيام.

(تاريخ حافل)

ولدت أوجينى فى أسبانيا ابنة لقنصل أمريكى، وقضت عهد الطفولة واليفاعة فى ربوع الأندلس ثم قدر لها أن تنتقل إلى فرنسا، وهى شابة فارسة تركب الخيل، وتملك عيون المشاهدين فى حفلات

الأنس بشبابها الأخاذ، وفتوتها الباسلة، فلفتت نظر نابليون الثالث إليها إذ ملكت عقله وقلبه معاً، ولم يلبث أن اختارها امبراطورة على عرش فرنسا، وهى المثقفة الدارسة ذات الرأى السياسىّ المنحاز إلى فريق دون فريق، فعرضت آراءها على الامبراطور، ومالت بهواه إلى حيث تريد، فصادق انجلترا ونزل مع أوجينى ضيفاً على المملكة فيكتوريا، واستقبلا استقبالاً رائعاً، ثم ردّت ملكة بريطانيا وزوجها الزيارة للامبراطور الفرنسى وصاحبته! وبدت أوجينى تسير دفة السياسة الفرنسية كما تريد، حتى صارت لدى كثير من المؤرخين مصدر تعاسة زوجها فيما انتهى إليه من حروب فاشلة. ولكن امتداد حكمها سبعة عشر عاماً قد ترك لها من الدوى الرنان ما جعلها أسطع نجمة فى سماء أوربا، وما جعل العواهل يحرصون على استرضائها، ويدعونها إلى زيارة عواصمهم فى احتفاء بالغ، ومن عجب أن تكون زيارتها لمصر ذات وقع جذاب فى نفسها إذ فاقت مظاهر الاحتفال بها فى ربوع الوادى ما رأته فى أمم الحضارة والتمدن حتى سجلت فى مذكراتها خواطرها الشاكرة نحو الخديو اسماعيل، وذكرت أن سرورها بما شاهدت تحت سماء مصر لا يعادله سرور تقدم أو تأخر، وأن أيام قناة السويس كانت أبهج الأيام.

(احتفال القناة)

كان من خطة اسماعيل أن يدعو ملوك الشرق والغرب إلى حضور الحفلة التاريخية لافتتاح المجرى العالمى بين العالمين المتباعدين، ولو حضرت الامبراطورة أوجينى فى الموعد الرسمى للاحتفال لكانت كسواها من كبار الزائرين والزائرات، ولكنها وفدت إلى القاهرة قبل

الافتتاح الرسمى بأربعة أسابيع، فتفرغ الخديو الولوع بالمجد إلى استرضائها، وأنزلها قصره الفخم بالجزيرة، وبذل من فنون الرعاية والاهتمام ما كان مضرب المثل فى الإسراف والتبذير، ولقد شاءت الامبراطورة أن تزور أبا الهول والأهرام الثلاثة، والطريق إليها حينئذ وعر شاق، فسخّر الخديو إمكانيات الدولة فى رصف الطريق الممتد سريعاً وفى نقل غرائب الأشجار لتقوم صفاً على جانبى الطريق، واستمر العمل الشاق ليل نهار دون راحة حتى أصبح الطريق جديراً بمسيرة الامبراطورة فى منطق اسماعيل، ورب ضارة نافعة، فقد أصبح الطريق من بعد متنفساً لأهل القاهرة والجيزة يتمتعون بظله الوارف، ويتخذونه متنزهاً يستروحون، به من عناء التعب! وكأنّ القاهرة لم تكف كى تذيق الضيفة الكبيرة أفاويق الراحة، وكؤوس الائتناس، بل شاء الخديو وشاءت معه الامبراطورة الحسناء أن تزور آثار الفراعنة فى أعلى البلاد بالأقصر وأسوان، فهيئت السفن لرحلة نيلية تنقل ملذات البر إلى مراكب البحر، وتنظم قطاراً حافلاً من السفن يحفل بكل ضروب المسرات والبذخ، وقد قام المستقبلون على الشواطىء فى عواصم الصعيد، يدقون الطبول، ويرسلون الأغاريد جيئة وذهاباً، وشمس مصر الصاحية تشرق على النيل فتحيله فضة فى الصباح، وذهباً فى المساء، وسحب الأفق البيضاء تتدافع فى السماء فى نسق مبدع لتكون الطبيعة شريكة فى الاحتفال، حتّى إذا انتهت الرحلة قصد الخديو مع حسنائه إلى الاسكندرية لترى عاصمة كليوباترة، وتعرف كيف صارت هذه البلدة درّة الشرق وعروس البحر! وإنها لمشاهد تتوالى وتتابع فى القاهرة والأقصر والاسكندرية لتختم بروعة خارقة.. تتجلى فى احتفال بورسعيد يوم القناة .

كان الأمراء والملوك يتصدرون (حفل القناة).. وفيهم امبراطور النمسا، وأمير هولندا، وولى عهد بروسيا وممثل انجلترا، وكلّهم يقفون فى انتظار التخت الامبراطورى الذى يحمل رئيسة الاحتفال، فأقبلت السفينة فى أبهى مظاهر العظمة، تسبقها مظاهرة ضخمة تهتف باسمها، وقد نزلت من (اليخت) يحف بها النبلاء والأميرات والوصيفات لتصافح المستقبلين من رؤساء الدول، على زعاريد الأهالى، ودوى المدافع، وصدحات الموسيقى ورفيف أجنحة الحمائم فى الأفق، حتى ذهلت أوجينى من روعة الاستقبال، وتلفتت تقول للملوك والأمراء يا إلهى لم أر فى حياتى شيئاً أجمل من هذا!

ثم تقدمت إلى الباخرة الأولى لتنطلق بها عابرة قناة السويس من بورسعيد إلى الاسماعيلية، ومن خلفها بواخر المدعوين من سراة الدول وأكابر القوم، حتى إذا بلغت الاسماعيلية، وقفت تحيى من هرعوا خلفها من الوافدين لتعلن انتهاء الاحتفال، ثم تنتقل إلى قصر كبير أقيم بالاسماعيلية ليكون موضع استراحتها وقد أدهشتها مظاهر الروعة التى اكتنفتها طيلة اليوم، فما كادت تستريح حتى ركبت جوادها، وانطلقت إلى منزل إسماعيل غير بعيد، لتشكره من خالص قلبها على ما وجدتْ من أسمى مظاهر الاحتفاء، قائلة: إنّ مرور الأيام مهما احتشد بالمباهج لن يغطى على روعة ما شاهدت اليوم منذ وقفت. فى الصباح ببورسعيد إلى أن انتقلت إلى الاسماعيلية. وأن عواطفها الدافقة قد حالت دون انتظارها إلى الغد. فقدمت تهتف بالشكر لعاهل النيل، وفى المساء أقيمت حفلة رائعة لتوديع الامبراطورة، اتخذت مظهر السهرات الغربية من رقص وموسيقى وتمثيل، وظلت هاتفة بالنغم مدوية بالتصفيق حتى مطلع الفجر.

انتكاس مفاجيء

لم تكن الامبراطورة تعلم أنّ حفلة القناة قد جمعت أبهج مظاهر الروعة لتكون خاتمة أيام السعادة بالنسبة إليها، فقد وصلت إلى باريس لتجد الأمور تتأزم بين فرنسا وبروسيا، وتبحث الامبراطورة أسباب الأزمة مع زوجها نابليون الثالث، لتزيد النار اضطراما، ولتعمل على إشعال الحرب بدل أن تبحث وسائل السلام! وقد عقدت مجالس الرأى فى قصر التويلرى، واجتمع الامبراطور بمستشاريه، يتباحثون فيما يجب أن يكون، ولكن أوجينى كانت تحبذ قيام الحرب تأديباً لبروسيا، وتعلن أن المعركة لن تستمر غير وقت قصير، وأنّ النتيجة مضمونة الانتصار، لترتفع مكانة الامبراطور، ولتأخذ فرنسا بزمام القيادة الأوربية بعد أن تهزم بروسيا، لا سيما وقد أصبحت صديقه لانجلترا، وبين الامبراطورة الفرنسية، والملكة الانجليزية من ذكريات الصداقة والود ما يجعل لمعاهدتها المعنوية بدأ فى الانتصار الفرنسى المنتظر! ولكنّ الأوهام الطائرة التى حلقت فى خيال أوجينى لم ترتكز على واقع مبين، فقد كان الجنود من الفرنسيين لا يقتنعون بضرورة الحرب، ويعلنون أن رغبة الأمبراطورة وحدها هى التى تدفع إلى إراقة الدماء، وقد ساروا إلى المعركة دون استعداد متكافيء، فاستطاعت بروسيا أن تكيل الهزائم لفرنسا، وتوالت الأنباء السيئة تعلن عن آلاف القتلى، وسقوط المدن الفرنسية، ثم ختمت هذه الأنباء بوقوع نابليون نفسه أسيراً فى يد الأعداء! فهاجت الخواطر فى باريس، وانتشرت الثورة فى كل مكان حيث يهتف المتظاهرون بسقوط أوجينى صاحبة الكارثة، وبخيانة الامبراطور الفاشل!

وتلاحقت الجموع فى حشود كثيفة مندفعة إلى قصر التويلرى حيث تقوم أوجينى بتصريف الأمور نائبة عن الامبراطور، فعقدت مجلس المستشارين فوجدت روح الهزيمة تسيطر على المجتمعين، وسمعت من أخبرها بأن الثائرين يريدونها هى شخصياً لأنها الداعية الأولى للحرب! وقرأت المنشورات التى جاء بها الحرس وكلها تدين الامبراطورة وتعدُّها مصدر الهزيمة الساحقة إذ كان نابليون لعبة فى يدها، والعجيب أنّها أصرّت على الثبات، وشاءت أن تفتح الأبواب لتقابل الثائرين فتهدىء من ثورة البركان المشتعل، واثقة أن الحاكم العسكرى بباريس ينتصر لها مع جنوده، وأن الجيش الاحتياطى يقف مع الامبراطور، ولكنها فوجئت بانضمام الجنرال ترشوه حاكم باريس إلى الثائرين، ووجدت الجنرال ملينى رئيس الحرس الامبراطورى يعلن أن المقاومة عديمة الجدوى، وأن فرنسا كلها نار تشتعل! ومع أن هذه الكوارث الحاطمة كانت جديرة بأن تنخذل الإرادة فى نفس الامبراطورة إلا أنها صممت على البقاء فى القصر لتواجه المندفعين إليه! وكان من رحمة الله بها أن توجه إليها فى أتعس أوقات الحرج سفير النمسا وإيطاليا ــ وكانا من أصدقاء القصر ــ ليبلغاها ما يتوقعانه من الكارثة، وقد دوّت الأصوات فى الخارج هاتفة بسقوط الامبراطور، ولم تبق غير لحظات حتى يقتحم القصر، وسمعت أوجينى ورأت، ثم رأت أن تستسلم فى النهاية، فقادها السفيران متنكرة إلى منزل طبيب لا تتعلق به الأنظار، وعملا على تهيئة هروبها إلى انجلترا لتنزل ضيفة على صديقتها الملكة فيكتوريا، وما كادت تخرج متنكّرة، حتى اقتحم الثائرون قصر التويلرى وبحثوا عن الامبراطورة فى مكانها ليفتكوا بها كما توقع السفيران! وكانت فكتوريا عند حسن الظن بها،

فقد آوت الامبراطورة فى مكان أمين ثم رحبت بنابليون الثالث حين أطلق سراحه، لينفى مع زوجته بعيداً عن الناس، ويطول النفى بأوجينى ولكنها تخضع لمشيئة قدر عليها.

أيام رتيبة

ظلّت الحياة تسير بالإمبراطورة رتيبة بطيئة. وقد ازدادت وحشتها بعد وفاة زوجها ونجلها الوحيد، فرأت أن ترحل إلى بعض العواصم التى شاهدتها من قبل ــ غير باريس ــ لتغيّر من رتابة الزمن، وتستقبل وجهها مناظر غير ما تعهد، فزارت أسبانيا والنمسا، ورأت أن تأتى إلى مصر لتنزل فى فندق سافوى ببورسعيد، ولعل اختيار بورسعيد كان مقصوداً، ففيها ترأست حفل افتتاح القناة من قبل، وفيها توافد العلية من الزعماء والرؤساء لتحيتها! ولا أدرى ماذا كان إحساسها وهى تشاهد أناسا غير أناس، ووضعاً غير وضع! إن زيارتها المفاجئة للمصريين قد أوحت لجريدة المؤيد أن تقترح على الشعراء أن ينظموا فى هذه المناسبة ليقارنوا بين عهد وعهد، وبين زيارة امبراطورة وأمرأة من سواد الناس! وكان من الذين شاعت أبياتهم فى هذه المناسبة شاعر النيل حافظ ابراهيم، إذ تحدّث عما فى صدور العامة دون أن يجهد خياله فى تصوير إحساس بعيد، أو تدبيج خيال مبتكر، بل قال فى عفوية واضحة:

أين يومُ القناة يا ربة التا	ج ويا شمس ذلك المهرجان
أين مجرى القنال أين مميت الما	ل أين العزيز ذو السلطان؟
أين ذا القصر بالجزيرة تجرى	فيه أرزاقنا وتخبو الأمانى؟
فيه للنحس كوكب مسرع السير	وللسّعد كوكب متوان

خطر الليث في فنائك يا قصر | وقد كنت مسرحاً للحسان(١)
إن أطافت بك الخطوب فهذى | سنة الكون من قديم الزمان
ربّ بانٍ نأى وربّ بناءٍ | أسلمتْه النوى إلى غير بان
تلك حال الإيوان يا ربة التا | ج فما حال صاحب الإيوان
قد طواه الردى ولو كان حيّا | لمشى في ركابك الثقلان
كنتِ بالأمس ضيفة عِند مَلْكٍ | فانزلى اليوم ضيفة في خان
واعذرينا على القصور كلانا | غيّرته طوارىء الحدثان

وصاحب الإيوان في القصيدة هو الخديو اسماعيل! ولو كان حيّا ــفي إحساس الشاعرــ لقابلها اليوم بما قوبلت به من الأمس! ولكن الوضع تبدل بمصر وفرنساً معاً.. فلا ملام.

وكأنّ القدر شاء أن يبدع مشهداً رائعاً يتخذ مجالاً للعبرة، إذ وفدت إلى مصر حينئذ أميرة ملكية انجليزية هي الدوقة أوف كونت وقرينها الدوق أوف كونت، وقد شاء الخديو عباس حلمي أن يحتفل بالأميرين في مجمع باهر يُدعى له العلية من الرؤساء وسفراء الدول، وفيمن دُعي نزيلة مصر الامبراطورة السابقة أوجيني، وقد جلست بين الجموع ترى العيون متجهة إلى الدوقة والدوق دُونها، وفي نفسها شجون شاء الكاتب الشاعر الكبير الأستاذ خليل مطران أن يفصح عنها في مقال تحليلي رائع قال فيه:

«كانت الامبراطورة أوجيني بملابس الوقار العاتمة التي هي آخر

---

(١) صار مكان القصر حديقة للحيوان بالجيزة كما هي الآن.

زينات الكساء، كما أن آخر زينات الرأس من الشعر أحياناً تكون بياض المشيب».

أمّا الدوقة كونت فإنها كانت رافلة فى حلّة بهية كما شاء لطف الذوق. فى مثل هذا المقام لأميرة ثابتة فى منصب الإمارة زائرة للقطر من قبل ملك جليل، مملكة ضخمة الجيوش والأساطيل.

كانت الامبراطورة جالسة على عرش من العزلة والانفراد [أين العرش يا خليل!!] بين عامة الناس؟ ولا يقف آنا فآنا إلاّ نفر من أتباع ثروتها، أو أمير مصرى ذاكر للقدم مستحى من التقصير! أما الدوقة البريطانية فيلم بها جميع مَن يسمو بهم الجاه والشرف إلى مخاطبتها، وكانت بخلاف الملكة الجالسة بين السوقة تضحك بوجهها الوضاء، وعيونها الزرقاء، للأمل الضاحك والفوز السعيد.

كذلك كانت هاتان المرأتان فى تلك الحفلة البهيجة إلى أن أنتهت، وآذنت إشارة الدوقة بالمسير، فمشت يحف بها الأميران زوجها وعزيز مصر.. ويتبعها جميع النبلاء والكبراء، وتعزف الموسيقى لها، ويرفع الجنود السيوف تسليماً، ويكشف الناس الرءوس تعظيما.. حتى إذا امتطت مركبتها وسارت فى ذلك الموكب المهيب الحافل نظر ناظر إلى تلك الامبراطورة فى عزلتها فأنس على وجهها شبه ابتسامة، ورأى فى شعاع نظرتها إلى البعيد من الزمن ملكة فتانة، طويلة القامة، رشيقتها، هلالية الجبين، ناصعة البياض، قرمزية الشفتين، ساحرة اللفظ والحركة، مستوية مركبتها بالقرب من ذلك المكان، وقد وقف إلى جانبها أعاظم ملوك الأرض واتسق وراءها سلك من الأمراء

الحاكمين ، وتسللت تجاهها الجنود من ركبان ومشاة إلى مدى العين ، وكأن الدنيا قد بسطت من الخضرة حواليها آمالاً ، ورفّقتْ سير النيل بين يدها إجلالاً ، وأطلعت الشمس لها ولطّفت النسيم مجاملة وإجمالاً » .

هذا بعض ما قاله مطران ، وفيه عبرة وبلاغ .

خاتمة المطاف

وقد أذن الفرنسيون للامبراطورة بعد أن بلغت التسعين (وياله من عمر مديد) أن ترجع إلى باريس لتكون مواطنة فحسب ! فاشترت بيتاً أمام قصر التويلرى الذى كانت تشرق فيه من قبل ، وجعلت تنزل كل أصيل إلى حديقته الكبيرة ، وقد صارت متنزهاً للعامة من بعدها بعد أن كانت خاصة بها وبحاشيتها ، وقد أخذتها سنة عند الغروب فنامت على المقعد ، فتقدم إليها البستانى جاهلاً من هى ؟ ليهزّ كتفها فى عنف ويصيح : هيّا يا شيخة ، سنقفل الأبواب الآن ! هيا اذهبى ، فنهضت العجوز متثاقلة لتقول للحارس : اسكت يا ولدى فسأذهب !! ثم مضت .

أما لو أن الامبراطورة كانت تقرأ العربية ، وتعرف القرآن لتلت قول الله عز وجل : «قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع المُلك ممن تشاء ، وتعزّ من تشاء وتذل من تشاء » .

* * *

خواطر عن طاهر الطناحى

كانت مجّلة الهلال شغلاً شاغلاً لطاهر الطناحى مدى أربعين عاماً من حياته، وإننى لأشبح بعين الخيال فأتصوره فى عالم الغيب لا يزال مشغولاً بها للآن، فهو يترقب صدورها، ويطالعها بشغف وحنين كعهده من قبل. ويغلو بى الوهم فأتصوره متسائلاً عنى لماذا لم أكتب عنه حتى الآن.

أجل، أشرف الطناحى على مجلات أسبوعية فى دار الهلال فترةً ما من فترات حياته، ولكن أشواقه الدافعة كانت تجذبه دائماً إلى الهلال، وأذكر أنى قلت له: لقد احتل كتاب الهلال وروايات الهلال بعض فراغك، لتشغل عن مجلتك حيناً من الزمن، فأشرقَ وجهه بابتسامة معبّرة وقال، هما ولدان للهلال، أرعاهما من أجل أمهما الرءوم.

وأكثر خلطاء الطناحى يعلمون أنه بدأ عمله الصحافى فى دار الهلال، ويعدون هذه الدار موطنه العملى منذ اتجه إلى هذا المجال، أما الحقيقة فتنطق بغير ما يعلموه، لأنه التحق بالأهرام وهو طالب بمدرسة القضاء الشرعى، وقد جذبه الأستاذ داود بركات إلى عالم الصحافة بما لمسه عن قرب، من جده الحازم، وصبره الدءوب، لأن الكاتب الكبير كان يقرأ يومياً ما يقع فى يده من افتتاحيات الصحف العالمية، ليجد الزاد المتواصل لقرائه، كما كان يغادر مكتبه بين

الساعة والساعة إلى مطبعة الأهرام ليرى بعين الصقر دولاب العمل فى كدحه الجاد، مع عطفٍ وتسامح وسعة صدر، وطاهر الشاب يلمس الكهل الصبور لاينى عن العمل قراءةً واستقبالاً وتأليفاً وتفتيشاً وتوجيهاً، فيعرف أن العرق وسيلة النجاح، وأن وراءه فى مضمار السبق الصحفى سبحاً طويلاً ليصبح رجلاً ذا شأن، ولم ينس أن يعترف بفضل أستاذه فيقول عنه فى مقال تحت عنوان (علمتنى الحياة).

«صاحبت الأستاذ داود بركات رئيس تحرير الأهرام الأسبق فى مفتتح حياتى الصحافية، فتعلمت كيف يكون الصحفى النزيه، الذّى لايفكر إلاّ فى المصلحة العامة، والذى اتخذ الصحافة خدمةً للجمهور، وفناً نزيهاً يعملُ لرقى الثقافة ورقى المجتمع، ورفع مستواهما على الدوام، ووجدت فى خلقه وسلوكه خير مثل لخلق الصحافى الكبير، وسلوك الرجل العام الذى يحبه الجميع، ويقدرونه على اختلاف هيئاتهم وأحزابهم».

(نشأة أدبيّة)

فى دمياط الجميلة بين البحر الأبيض وبحيرة المنزلة ونيل مصر إلى امتداد النخيل الأسمر الفارع المتشابك فى العقود الأولى من هذا القرن كأنه الغابة الشجراء، وقد تراخت ذوائبه الحمر والصفر والخضر تحت سماءٍ صافية تلوح فيها السحب البيض كأنهن راياتُ سلام وأمن، فى هذا البلد المؤمن ذى القباب المرفوعة والمآذن العالية والمتاجر الآهلة والمصانع المتنوعة، نشأ طاهرِ الطناحى ليتعلم فى مدرسة الشاعر الكبير على العزبى وكان حينئذ جهير الصوت يمتد إبداعه فى المؤيد

واللواء والدستور والجريدة إلى ربوع العالم العربى، ويُراسل زملاءه الكبار من أمثال حافظ وأحمد محرم وإمام العبد، ولصاحب المدرسة أناشيدُ وطنية وحماسية، يفرضها على التلاميذ فيرددونها كل صباح، ثم يقيم الحفلات فى مواسم الهجرة والمولد والإسراء، لتلقى الخطب من الكبار والصغار معاً، فنشأ من أبناء العزبى جيل ممتاز نذكر منه محمد الأسمر وطاهر أبا فاشا وطاهر الطناحى وطاهر الجبلاوى ومحمود عماد ومحمد مصطفى الماحى وحسن كامل الصيرفى وعبد اللطيف النشار وسواهم .. ممَّن ألفوا الكتب ونظموا الدواوين، وملأُوا الصحف، وقد تحدث الطناحى عن أثر العزبى فى نشأته الأدبية فى رسالة بعث بها إلى الأستاذ نقولا يوسف فنشرها بمجلة (الأديب أغسطس سنة ١٩٦٧) حيث أنّه غرس البذرة الأدبية فى نفسه التى خلصت للأدب والشعر منذ بدأت تخط الحروف الأولى فى المدرسة الابتدائية، ثم حفظ القرآن والتحق بالمعهد الدينى بدمياط، وجاء إلى القاهرة ليتصل بمدرسة القضاء فمدرسة دار العلوم، ولذكرياته بهذين المعهدين حديث يطول، حيث تزعم الفريق الدرعمى الذى نادى بترك الزى الأزهرى ونشر مقالاتِ عن اتجاهه فى جريدة البلاغ، ولأمر ما ترك دار العلوم قبل أن يظفر بشهادتها العلمية، لأن عمله بالأهرام فدار الهلال قد اتجه به إلى الفضاء الطلق ما دام يملك الموهبة المسعفة والقلم المبين.

فى دار الهلال

من غير المعهود أن يتقدم ناشىء شاب لدار كبرى مثل دار الهلال، فيحرز ثقة ذوى الشأن بها لأول عام يبدأ به، لاسيما والأستاذ

أميل زيدان من الحنكة والاحتياط والتريث بحيث لا يمنح ثقته عفواً دون أسباب أكيدة، وكم عرفنا من أدباء كباراً، وأوساطاً التحقوا بدار الهلال وقتاً ما، ثم جد من الخلاف ما جعل الأسباب تنقطع لأمورٍ يقدرها أصحاب الدار تمام التقدير، وقد بدأ طاهر الطناحي عمله بمجلة المصور، وتطلب ذلك منه أن يجرى التحقيقات الصحفية مع كبار المسئولين من وزراء وسياسيين، وإذا كان الحديث الصحفى مع أدباء نابهين مثل أحمد لطفى السيد ومنصور فهمى ومحمد حسين هيكل ومصطفى عبد الرازق لا يكلف الصحفى عناءً فى تحرير الإجابة لسلامة ما يبدون من الآراء من الناحية الأسلوبية، فإن اجراء الأحاديث مع رجال السياسة والاقتصاد والأعمال الحرة يتطلب جهداً واعياً فى اختيار التعبير المناسب كما يتطلب دقة أمينة فى تحديد المراد على وجه لا يسمح بالاختلاف اليسير بين الشكل والمضمون، وقد أجرى الشاب المتحمس لأول عهده أحاديث سياسية واقتصادية واجتماعية مع كبار المسئولين، فنقلها أجمل نقل، وصاغها أنور صياغة، فنالت تقدير المتحدثين أنفسهم قبل أن تنال تقدير المسئولين عن النشر فى دار الهلال، وزاد من مكانة طاهر الطناحى فى داره الصحفية الواسعة النشاط أن فريقاً من الكبار من أمثال الأمير محمد على والأمير عمر طوسون واسماعيل صدقى وطلعت حرب، وحسين سرى وأحمد حسنين وغيرهم ممّن يتساوون معهم فى المكانة العالية. كانوا يصرّون على أن يكون طاهر الطناحى وسيلة دار الهلال إليهم، بل ربما يكون من العجب أن بعض من سبقوا طاهراً فى هذا المجال بدار الهلال يقابلون بالاعتذار، والسياسى الكبير منطقى مع نفسه حين يرحب بالطناحى لأنه ينظر فيجد حديثه المتناثر قد صيغ فى أجمل سياق، كما

يرى براعة نادرة من طاهر الطناحى تتجلى فيما تقدم به الحديث من لوامع كاشفة تضيء جوانب هامة من شخصية المتحدث الكبير كما تشير إلى أدوار حياته. بإيجاز شاف لا يضر به الاختصار، ولعلّ الاستاذ الكبير حافظ محمود قد لمس هذه الحقيقة حين كتب ذكرياته عن الطناحى بمجلة قافلة الزيت صفر ١٣٨٩ هـ فقال:

«أذكر يوماً كان فيه زملاء الطناحى المشتغلون بالقلم يتلهفون على الظفر بحديث من شيخ القضاة عبد العزيز فهمى لكن عبد العزيز فهمى أصر على ألا يدلى بهذا الحديث إلاّ إلى طاهر الطناحى، كما أذكر فى مناسبةٍ أخرى أن كان الطناحى فى حوار دقيق مع الكاتب الكبير المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل باشا، وقال الطناحى إنه سينقل ما دار بينهما إلى القراء بعد أن يطلعه على ما سيكتبه، فابتسم هيكل قائلاً: لو كان غيرك لصممت على أن أطلع على نص الحديث قبل نشره، أما أنت فلك أن تصنع بهذا الحديث ما تشاء، لأنى «واثق من أمانة فكرك».

(النظر البعيد)

كان طاهر الطناحى بدار الهلال أشبه بسفير سياسى لبلاده فى دولة كبرى، فهو يتمتع بدبلوماسية حاذقة، تريه أدق الخوافى المستترة فى الظواهر المرئية. وتمنحه من بعد النظر وسلامة التقدير ما يجعل حدسه المتخيل موضع الإصابة المحققة، فهو ينتخب الصفوة من الكتاب، والبارع من الموضوعات، والدقيق من الأحداث، ليقرن الموضوع بمن يناسبه ويختار من الأسئلة ما ينفذ إلى الصميم دون حجاب، ويكون هو فى أكثر الأحيان صاحب الحديث الذى يستل

الأسرار من الضمائر بأخفى مايكون من التمهيد، والذى يواصل الطرق فى ابتسام وتؤدة حتى يحوز ارتياح من يستوضحه الرأى فى المشكل الغامض، لذلك استطاع أن يقنع كباراً من أعلام السياسة والفن والأدب بكتابة مذكراتهم، وبتأثيره الشخصى نشرت سلسلة كتاب الهلال مذكرات عبد العزيز فهمى وإسماعيل صدقى وأحمد لطفى السيد، ومحمد على علوبة ونجيب الريحانى. وباحتياله البارع أقنع العقاد أن يكتب قصته عن سارة مفرقة فى إحدى مجلات الهلال قبل أن تطبع فى كتاب خاص به وهى مجلة (الدنيا) الأسبوعية، كما جعله يكتب تاريخ حياته فى سلسلة كتاب الهلال تحت عنوان (أنا) و(حياة قلم). وإن رجلاً يبلغُ هذا المبلغ القوىّ لدى قادة السياسة والفكر لذو موهبة لاتنكر، كما أنَّ ذاكرةَ الطناحى القويّة كانت إحدى مميزاته الكبرى إذ صاحب شوقى وحافظ ومطران وقى والكاظمى والمازنى والعقاد وطـه حسين ومحمد فريد وجدى والرافعى ومنصور فهمى، فعرف الدقيق الخافى مما يجهله الكثيرون عن هؤلاء، وقد أصدر كتابه الكبير (حياة مطران) فى مجلد واسع فاجأ الناس بما يجهلون من حقائق أدبية نقلها الطناحى عن الشاعر الكبير، وكان فى نيته أن يصدر مجلداً حافلاً عن الآنسة مىّ إذْ كان من أخلص أصدقائها فى محنتها الأخيرة حين تخلى عنها الهائمون بها وتركوها مرتعشة فى ثلوج الوحدة والجمود، وقد سافر طاهر إلى لبنان فى مأساتها المشتهرة ليقف بنفسه على مايحاك هناك من دسائس لاتستطيع الخلاص منها، وقد قدرته الكاتبة حق التقدير، وكشفت له عن أوهام كانت عند الناس بمنزلة الحقائق، وأذكر أن الطناحى ــ رحمه الله ــ حدثنى ذات يوم عن خيالات غرامها الموهومة التى ألصقت بها

إلصاقاً، فكان مما قال: إنّ مىّ قد اعترفت له أن قلبها لم يتفتح لمحبة أحدٍ غير جبران خليل جبران، وكان حباً أشبه بالخيال، لأن الحبيبين لم يتقابلا وجهاً لوجه، ولكن البريد كان رسول الشوق المتردد، ولعل هذا البعد البعيد بين الجسدين النازحين كان أهم عوامل الحب المتقد، أما مايذكر عن هوى الرافعى والعقاد وصبرى والجميل وولى الدين يكن، فقد كان يقف عند حدود الصداقة البريئة من ناحيتها، وإن فهم على غير وجهه لدى من يتخيلون فيحكمون، ومن طرائف الطناحى أنه كان يحتال على اصطياد بعض الرسائل العاطفية بوسائل ماكرة، فقد بعث للمازنى بعدة خطاباتٍ ممهورة باسم حسناء تعشقه، وتلهف المازنى على الرسائل فرد عليها فى شوق جارف، وبقى الأمر مستتراً حتى مات المازنى، ونشر الطناحى الرسائل بمجلة الهلال ثم جمعها بين فصول كتابه الشهير (ساعات من حياتى) وللأدب ربٌّ غفور.

(حساسيّاتٌ بالغةٌ)

كان الطناحى فى أكثر أحواله صاحب الرأى المختار فى شئون التحرير بدار الهلال، لأن ثقة الأستاذ أميل زيدان بكفايته وإخلاصه لا تُحدّ، هذا ماكان يبدو على السطح لمن يرى الظواهر اللائحة فلا يبحث عن مكنونها المستتر، أما الحقيقة التى خفيت عن الكثيرين، فقد نفّس عنها طاهر ذات مساء، حين ذكر لى أن عمله بدار الهلال قد عاقه أن يبدى بعض النقدات الهادفة، وجعله يخضع لمشيئة لا ترغب الإثارة مهما كانت ذات نفع علمى مؤكد، ومما يرويه الرجل فى مجال التمثيل، أنه بعد رحيل أحمد شوقى توالت مقالات الإطراء

مقدرة مكانته الشعرية وزعامته الأدبية، فكتب طاهر مقالات تحت عنوان (شوقي والمتنبي في ثوب) .. حيث عرض موازنة بين قصيدتين للمتنبي وشوقي كان احتذاء أمير الشعراء واضحاً ملموساً لمن يطالع الأصل والفرع، وتقدم بالمقال، فرفض الأستاذ أميل نشره قائلاً إن جمهرة القراء ستتهم الهلال بمعاداة شوقي الفقيد، في ظرف كثر فيه الباكون والمادحون، فقال الأستاذ طاهر، ولكن الهلال قد اتسعت من قبل لنقد مماثل، فقال الأستاذ أميل، إنك موظف بدار الهلال، ولست كاتباً من الخارج فموقفك غير موقف من تأتي مقالته بالبريد، وقد اضطر طاهر أن ينشر بحثه في مجلة أبولو حين أصدرت عدداً خاصاً بشوقي في ديسمبر سنة ١٩٣٢.

هذه واحدة، أما الثانية فقد كتب الأستاذ طاهر الطناحي نقداً تاريخياً فنيًّا لفيلم (دنانير) الذي مثلته أم كلثوم وكتب أحداثه أحمد رامي سنة «١٩٤٠م»، ونشر النقد بمجلة الثقافة منعاً لإحراج دار الهلال، وكان النقد يتجه إلى تخطئة المؤلف في أحداث تاريخية غيرها عن واقعها دون ضرورة فنية، وفي الاحتيال على أن تملأ أم كلثوم المساحة بأغانٍ لا تنم عن روح العصر العباسي، كما كان المخرج مخطئاً حين جعل سليمان نجيب وعباس فارس يمثلان الرشيد وجعفر البرمكي وبينهما عشرون عاماً، مع أن الرشيد رضع مع جعفر من ثدي واحدة، وقد ولدا في عام واحد، وقد تأثر الأستاذ رامي والآنسة أم كلثوم (حينئذ) بما كتبه الطنّاحي، واتصلا بدار الهلال. واضطّر الأستاذ أميل لارضائهما، ثم واجه الطناحي بأنه أمام الناس يعبر عن دار الهلال، وإن كتب نقده في مجلة الثقافة ونشره الأستاذ أحمد أمين، ثم طلب منه ألاّ يعود! ولديّ أحداث سياسية تتجه هذا الاتجاه كممت

دار الهلال فم طاهر عن أن يبدى رأيه الصريح كما يريد.

هذا هو بعض الحرج الذى أعنيه حين أقول إن طاهر الطناحى قد تعرض لحساسيات بالغة عاقت قلمه عن الطيران فى أجواء النقد النزيه، وهو بعد صاحب الرأى المسموع فى شتى شئون الدار، وقد صدق الكاتب الكبير الأستاذ فكرى أباظه حين قال فى معرض رثائه بمجلة المصور!

«خير مايقال فيه أنه طار بمجلة الهلال كل مطار، فصعد بها شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً بالكيان العربى، ثم شقّ بها الحدود فعبر البحار إلى أمريكا الجنوبية، فدخلت كل بيت من بيوت المهاجرين العرب، واندلع الفقيد بأعداده الخاصة (نحن العرب) نفس الاندلاع.. وكان لايعرف المستحيل، وكم انعقدت جلسات ثائرة بيننا وبينه ذات ضجيج وعجيج، ولكن إيمانه بما استقر فى ذهنه، وفرط حماسته لواجبه، وعزيمته الماضية، كان هذا وذاك هو سلاحه الماضى الذى أجهز به على المستحيل.

(على فراش الموت)

أصدر الطناحى عدّة مؤلفات هامة مثل (أمير قصر الذهب) و(على ضفاف دجلة والفرات) وقد سماه فى طبعة ثانية (معارك السيف والقلم) و(حياة خليل مطران) و(ساعات من حياتى) و(شوقى وحافظ) وهى مؤلفات متداولة شهيرة، وستقف عند أثرين فذين من أحسن ماكتب، هما كتابه (على فراش الموت) وكتابه (حديقة الأدباء).

أمّا كتاب (على فراش الموت) وقد طبعه مرة ثانية تحت عنوان (الساعات الأخيرة) فهو مزاج من صحائف الأدب والتاريخ والأخلاق، حتى ليصعب على الناقد أن يميل به إلى ضرب خاص من الفنون، فهو كتاب أدب لدى من يرى المؤلف يحاكى أساليب من يتحدث عنهم، ويعيش فى أجوائهم مصّوراً حلقات حياتهم فى يُسر لا يرهقه التحليل، ولكنه يقدم الخصائص الفكرية، والوقائع السياسية والأحداث الاجتماعية فى سهولة تجعل التحقيق حواراً بين سميرين لا مناقشة بين باحثين، كما أن براعة الطناحى تتجلى فى تفحص شخصية من يتحدث عنه روحاً وأسلوباً، فكأن الكاتب هو المتحدث عنه تماماً. وأضرب المثل بحديثه عن المنفلوطى والبكرى، والأول ذو سلاسة وعذوبة، والثانى ذو سجع واقتباس، وقد مات المنفلوطى يوم شغلت مصر بحادث الاعتداء على سعد زغلول، فنسيت وداع الكاتب الكبير متأثرة بحادث الزعيم الخطير، فصوَّر الطناحى هذه المشاعر بقوله مقلداً المنفلوطى:

«لكأن هذه الحمائم الساجعة فى رياضها، وهذه الأزاهر الباسمة على أفنانها. وهذه الآرام الراتعة فى فيافيها، وهذا النسيم المختال فى خطراته، المدل بلثماته، وقد سمعت بموته فوجمت الحمائم، وذوت الأزاهر، واعتقلت الفجيعة فيه الآرام فسقطت شجية بخطبه يوم شغل الناس عنه بإصابة سعد، فنسوا كل شىء حتى هذا المصاب العظيم، وحملت الهول عنهم تلك الطيور الوفية التى ناجاها، وتلك الأزهار الندية التى طالما استوحاها، وتلك الظباء الرشيقة التى تحاكى رشاقة أسلوبه وبالغ سحره.

فإذا تحدث عن توفيق البكرى صاحب صهاريج اللؤلؤ فإنه يقول محاكياً طريقته الفنية: «يا ياما أحلى الوحدة والريف، وذلك المشتى والمصيف، والجو السجسج والظل الوريف، مالى وللناس، ولأميرهم العبّاس، وقد مارستهم أشد مراس فلقيت منهم الغل والباس».

هذا من الناحية الأدبية، أما الناحيتان التاريخية والخلقية فبارزتان للعيان.

(حديقة الأدباء)

من يوم أن أصدر الأستاذ عبد العزيز البشرى صور المرآة، وكثير من الكتاب يحاولون محاكاته، ومن بين هؤلاء محمود تيمور فى (ملامح وغضون) وطاهر الطناحى فى (حديقة الأدباء)، حيث تحدث عن عشرين من الشخصيات البارزة فى العالم العربى، وآثر أن يرمز لكل شخصية بما يناسبها.. فأحمد لطفى السيد نسر، والعقاد عقاب، وإبراهيم ناجى سنجاب، ورامى فراشه، وبنت الشاطىء بطة، وقد عجبت لاختيار الطاووس رمزاً لميخائيل نعيمة، وهو كاتبٌ وديع هادىء لا يعرف زهو الطاووس، ولعلّه لو اختار الطاووس لزكى مبارك لكان أوفق، ومما بدا للعيان بمجرد القراءة العابرة أنّ عين الرضا عن كل عيب كليلة، فلم يكن هم الطناحى وتيمور غير رصد المحاسن فحسب، بحيث لا يمكن أن ترى فيما كتباه بعض ما تراه عند البشرى حين تحدث عن أحمد زيور وإبراهيم وجيه وإسماعيل سرى وأبى الفضل الجيزاوى، إذ كان الساخر الكبير ناراً تشوى، وسوطاً يلهب، أمّا الطناحى فكان هبة نسيم تمر كثيراً على الروض فترجع منتشية

بالعبير، وجعل الرمز سبيلاً إلى تحليل الشخصية الإنسانية مما يحتاج إلى مهارة فى الاختيار، ودقة فى المقارنة، وغوِص فى الأعماق، ولعل المؤلف قد بلغ فى هذا النطاق كثيراً مما يريد. هذا وقد كان الطناحى شاعراً تضمّ مجلاّت الهلال ديوانَه المتناثر على مدى الأعوام الطوال، وهو بذلك قد زاول البحث والقصّة والقصيدة والمقال، ـ رحمه الله ـ

* * *

محاكمة قضائية لشاعر معاصر

قدّم الأستاذ الكبير كمال النجمى حديثاً رائعاً ممتازاً عن المدرسة القنائية بالعدد الأخير من مجلّة الهلال. وقد أشار فيه إلى الشاعر الوطنى المعاصر عبدالحليم المصرى، إذْ أقام بقنا فترة من حياته، وهى إشارة ذكّرتْنى بهذا الشاعر المطبوع الذى جهله الكثيرون من أبناء هذا الجيل، وقد كان فى مطلع هذا القرن نابه الاسم، معروف المكانة، وقد انتقل إلى (قنا) مغضوباً عليه.. إثْر محاكمةِ قضائية ظلّ دويّها يتردّد فى المجتمع المصرى قرابة عاميْن، وكانَ من قضاتها ومحاميها وشهودها فئةٌ ممتازةٌ من أعلام مصر، ولولا أنّ الشهرة الأدبيّة حظٌّ مقدور، لتناقلت الكتب الأدبية ما كان من أمر هذه المحاكمة، فأضافت صفحات من السياسة والتاريخ والأدب والقانون جديرةً أن تكون موضع الالتفات، ولا أدرى لماذا تذكرت هذه القضية حين قرأت مقال الأستاذ النجمى، الأنه ذكر انتقالة إلى هذا البلد الكريم، فتداعِت المعانى لدّى لأتذكّر باعثَ هذا الانتقال، بْل لأعجب كيف تناساه الرواة، ولا أعلم أحداً سجّله بأمانة وتدقيق كما سجله الشاعر الكبير الأستاذ محمد مصطفى الماحى فى دراسته الأدبيّة عن الشاعر، وقد كانَ زميلَه فى عمله الرسّمى، وصاحب سّره فى موقفه الحرج، فهو أمين مأمون..

(عبد الحليم المصرى)

تشابهتْ نشأة عبد الحليم المصرى بنشأة حافظ ابراهيم ، إذ عشق الشعر صغيراً ، والتحق بالمدرسة الحربية ، وسافر إلى السودان ضابطا ثم أعيد مغضوباً عليه ، وكل ذلك قد تم على وجه المطابقة الكاملة لحافظ ابراهيم من قبل ، وإذا كان حافظ قد بلغ أوج الشهر بما قال من الشعر ، فلم يكن عبد الحليم عند نفسه بأقل من حافظ ، وقد خلب شاعر النيل ألبابَ قارئيه بما نظم فى السياسة ، وسامعيه بما جود فى الإلقاء ، فأحرى بعبد الحليم أن يسلك مسلكه ، وقد اجتهد واحتفل ، فسار له اسم ، وسارعت صحف مصر إلى تزكيته ، فكانت قصائده تنشر فى صدور المؤيد واللواء والأهرام ! وكان يفوق حافظاً بشبابه الفارع ، ووسامته البارعة ، وربما اجتمعا فى محفل واحد فنال من التصفيق قدر مانال شاعر النيل ، وقد ظهر حافظ على شوقى فى المحافل بجودة إلقائه ، وها هو ذا عبد الحليم لا يقل عنه براعة تأديه ، وعذوبة ترنيم ، وليس المهم لدى الشاعرين معاً أن يبلغا رضا الشعب وحده ، فقد بلغاه عن موهبة واقتدار ، ولكنَّ طيف القصر قد ملك عليهما السبيل ، وفى اعتقادهما أنّ شوقياً لم يأخذ مكانة الريادة إلاّ بإنتمائه لعباس حلمى ، وكيف السبيل إلى الخديو! ومن دونه شوقى !؟ لا حل إلا أن يكون التزلف لشوقى أقرب باب للوصال ! فهل سينفرج الطريق عن وثبات سريعة تفضى إلى الأمل ! أو أن من يجعل الضرغام باباً لصيده تصيّده الضرغام ؟

ثلاثة شعراء

خطر لحافظٍ وعبد الحليم أن يبلغا باب القصر عن طريق شوقى ،

على حين شاء أحمد الكاشف أن يصل إلى الباب دون واسطة، إذ كانتْ لديه عزةٌ شامخة ترتفع به عن أن يتزلف إلى زميل، ولم يتحقق للثلاثة ما يرتجون، أما حافظ فقد مَدحَ الخديو بعدّة قصائد ضمنّها الثناء على شوقى، ليستلينَ منه قناةً صليبةً. ولكنّه بعدَ أن كرّر الزلّفى تأكّد أن مجهوده ضائع، فأتى بمدحة جديدة يُهاجم فيها شوقيًّا علناً، ويَرْميه بالحسد والضغينة فى قوله:

يا عيدُ ليت الذى أوْلاكَ نعمته	بقرب صاحب مصر كان أولانى
شَكَا عُمانُ وضجّ الغائصُون به	على اللآلىء، وهاج الحاسد الشّانى
كمْ رام شأوى فلمْ يُدرك سوى صدفٍ	سامحتُ فيه لنظّامٍ ووزّانِ

وأما الكاشف فقد أكثر من مدائح العباس حتى كادَ يقصر فنّه عليه وعلى مديح السلطان، ثم انفجرَ موقفه صارخاً، حين تقدم فى مناسبة يوم الجلوس بقصيدة يتساءل فيها عمّا يسره فى هذه المناسبة، وهذا هو الخديو لا يُقرّب إلاّ شاعراً واحداً، ولا يلتفت إلى الأنداد، وقد صَبر الكاشف مُسِرًّا شكايته الكظيمة.. حتى لم يجدْ بدا من أن يتحول السر إلى رعدٍ قاصف، إنّها لحمّية رائعة تتجلّى فى قوله:

عيدٌ وماذا سَرّنى فأُنادى	ذهب الرجاء مُن الحبيس الصادى
مالى إذا لم ألْق عندك موضعاً	وهذه الأعلام والأجناد
قرّبتَ شاعركَ الجليل فما اقتدى	بك واحدٌ من أهل هذا الوادى
مازلتَ للأشعار تكرمةً وما	لك غير ملتفتٍ إلى الأنداد
لم يُغْن إسرارى إليك شكايتى	وقد انتهيتُ بها إلى الإرعاد

ومثل الكاشف حين يعلن هذه الاحتجاجات الدامغة، لا يرقب

أملاً بعدُ، ولعلّه وجد اليأس إحْدى الراحتين، أمّا عبد الحليم فكانَ حريصاً على مواصلة الطّرْق الملّح على باب شوقى، يطرُق ويطرُق دونَ يأس، وقد خصّه بمدائح مستقلة لا تجىء عرضاً فى سياق المدائح الخديوية كما فعل حافظ، بل جعَل مديحه مستقلاً يعترف فيه بأستاذيته، وبأنّ البلاغة العربية تفخرُ بالشوقيات ـ وياها من مبالغة!! ـ ثم يصعدُ به الخيال فيتوهّم أن شوقيًّا وهو ملكُ البيان قد استوزره، وأكبر منزلته حين أصغى إلى شعره، وأنه يتغاضى عن هناته الشعرية، حناناً وعطفاً يتوجهان من أستاذ إلى تلميذ، بل من أب يرعى البنوّة ويكلؤها بجناحه! لقد استكثر الشاعر من شوقى أن يُصغى لمديح قيل فيه، وعدَّ ذلك حناناً أبويّا! ومَن أدْراهُ أن شوقيًّا كان يُصغى عاطفاً حانياً، لا مجاملاً متحمّلاً! أفكانَ ينتظر منه أنْ يقول له: لنْ أسمع مديحاً وجّهته إلىّ! ليعرفَ أنّه قد أشاح بوجهه، وكيف يشيحُ شوقى عمن يقول فيه:

ذلّلتَ آبيةَ البلاغة فاغتدتْ	تمشى بطِرسِكَ مِشية المتدلّل
قربتنى حتّى إذا استوزرتنى	أكبرتَ منزلتى بصدر المحفل
ولبثت تجرى فى سماعى صافيا	من عذب شعرك كالرحيق السلسل
حتى إذا اسكرْتَنى استنشدتْنى	ما سطّرتُه فى مديحك أنملى
لتغض طرفكَ تارةً عن عثرتى	وتُقيلها طوراً بغير تدلّل
فإذا تبينت أمراً فأنا الذى	يرعى الأبوة فى الزمانِ الحوّل

ويضيقُ المجال عن تسجيل ما تزلّفَ به عبد الحليم، اذكر ر الزّلفى خالصةً حينا، وحاملةً مرارة العتاب والألم حيناً آخر، حتى إذا جبهه اليأس القاتل، لم يجدْ بدّا من الانفجار الأزْعن، ونقول الأزعن لأنّه لم

ينفجر، بحممه النارية فوق شوقى فحسب! بل فوق أمير البلاد، وحاكم مصر، انفجاراً قدّمه إلى القضاء العاجل، وطرده من وظيفته، ومنع الأصدقاء أن يلوذ بهم فأعرضوا متباعدين.

(قصيدة الهجاء)

يُخيل إلىّ أن الشاعر الناقم لبث وقتاً طويلاً يفكر فى حيلة دقيقة تمكنه من أن ينشر هجاءه الصارخ فى جريدة الأهرام الذائعة، دون اعتراض، فهو يعرف جيداً أنْ لا سبيل إلى نشر الهجاء الصريح فى أية صحيفة.. مهما كانت تشيح عن سياسة القصر الخديو، لأنّ للأصول المرعية، وللمساءلة القانونية تقديرهما الذى لا يغيبُ عن رؤساء التحرير، لابدَّ إذنْ من التلميح دون التصريح. ولنْ يكون التلميحُ إلاّ بالتستر وراء أشخاصٍ يختارهم الشاعر من سجّلِ التاريخ، ولنْ يُعجزه أن يجد فى صفحاته أمير المؤمنين وحاكم الولاية وشاعر الأمير، فإذا كانَ خليفة المسلمين فى تركيا هو أمير المؤمنين. وعباس حلمى الثانى هو حاكم مصر فى ظِلّه، وأحمد شوقى هو شاعر الأمير، فما أسهل أن يأتى الشبهُ القريب من التاريخ العباسى الزاهر، حيثُ يكون هرون الرشيد أمير المؤمنين، ويكونُ أحمد بن الخصيب والى مصر، ويكونُ ابن هانىء (أبو نواس) شاعر الخصيب، وقد زار أبو نواس فعْلاً مصر ومَدحَ الخصيبَ بقصيدة قال فيها:

إذا لم تزرْ أرض الخصيب ركابنا فأى فتى بعد الخصيب تزور

هذا ما اهتدى إليه عبد الحليم المصرى، إذْ نظمَ قصيدةً طويلة بلغْت ثمانين بيتاً من جيّد الشعر، قَدَّمها بديباجة قال فيها إنه رأى فى

منامه رجلاً طويلاً حسنَ الوجه، يُوقظه من نومه، ويقّدم له هذه القصيدة راجياً أن ينشرها بعد اليقظة فى جريدة الأهرام، وابتدأت القصيدة بالغزل التقليدى على النهج العبّاسى المشتهر، ثم انتقلت إلى هجاء الخصيب وهجاء شاعره!! والسؤالُ المحيّر حقًّا هو هذا؟ كيف غَفلَ رئيس تحرير الأهرام الأديب البارع الأستاذ داود بركات عن المغزى المراد، وهو من الوُضوح بحيث لا يحتمل الالتباس؟ إننّا نعرف أنّ الأستاذ داود بركات مع ضلاعته الكتابيّة فى أفانين السياسة، والتعقيب على المشكلات العالمية فى عصره، كان ذا حِسّ أدبى ناقد، وله فصولٌ أدبية عن شوقى وحافظ ومطران وأحمد محرم وولى الدين يكن والآنسة مى.. وأمين الحداد وجبران خليل جبران، ومصطفى لطفى المنفلوطى. أفيمكنُ أن يقرأ القصيدة دون أن يلتفت إلى ما وراء الستار؟ أكبرُ الظنّ أن ثقته فى أدب عبد الحليم المصرى قد دفعتْه إلى نشر القصيدة دونَ أن يستمر فى قراءتها، لاسيّما أنّها بتقديمها المموّه تنتقل إلى عصر بعيد، فهى إذن ضرب من الشعر التاريخى الذّى أخَذَ يجد طريقه فى الظهور، وهذا ما أكّدته جريدة الأهرام حين داهمها الخطر بَعْد توزيع الجريدة، وَحَمْلة جريدة المؤيد عليها، إذْ أعلنت أنّها تبرأ مما تطوى فى لفائفها من رموزٍ تنكر مدلولها كل الإنكار، وتَرى الشاعر يستأهل التأديب إذا صَحّ أنّه يقصدُ ما كانت تجهلهُ الجريدة، حين سمحت بنشر هذا الافتراء! لقد أصبحت الأهرام فى موقفٍ لاتُحسد عليه، واضطرت إلى تأكيد براءتها المرة بعد المرة لتسكت السنة من أخذوا يتهمونها بنبذ الولاء. أمّا الشاعر نفسه، فقد رَمى الخديو بالجشع، والطمع، وسلْب الأوقاف، واصطياد الثراء من شتّى الوجوه، كما جَعله نظيراً لفرعون أخيه حين

تجبرَّ واستبد. وقال ما علمت لكم من إله غيرى، فالأرضُ أرضى. وهذه الأنهار تجرى من تحتى، يقول عبد الحليم المصرى:

قل للخصيب إذا ما جئت سدّته ... عليك بالدين فالدنيا لمقَات
يا حاملاً نشب الدنيا على كتفٍ ... أنت المسافر فانصت للنهايات
تمضى عجولاً بما جمّعته طمعاً ... فى غيره، فاسترخ بين المسافات
إن قيل منجمُ تبر فى الهواء رمتْ ... بك الأمانىّ أوهام اللبانات
فاجلسْ على عرش فرعون أخيك وقُل ... أنا الإلهُ ولى حق العبادات
النيلُ من فِضّتى، والأرضُ من ذهبى ... والشمسُ دارىَ، والآفاق داراتى
نعم الأمينُ على مصرٍ وساكنها ... لَوْ يُؤمَن الذئبُ فى المرعى على الشاة

هذا بعضُ ما قيل فى عباس! أما شاعرُ الأمير، الذى غالَى به الخصيب مغالاةً لا تجد المبرّر من عاقل، إذ منحهُ من الإحسان ما أفْسده، حين مَدّ له أسباب الغواية! هذا الشاعرُ المدلّل قد أضَرّ بِهِ الجاهُ، وأتلفه العزّ، إذ أنّ أرومته سيئةٌ لا تصلح بغير الإذلال والمهانة، ولكنه وحده يشرب ماء النيل عذباً صافياً دُون الخلق، على حين يقف أنداده ظامئين لا تروى حلوقهم قطرةٌ من ماء! وقد بطر واستعلى حتى جاز له أن يدعى الملك ما دام مشمولا بعطف الخصيب ورضاه! يقول المصرى:

ما للخصيب يُغالى بابن هانئة ... ما أعرف المين إلاّ فى المغالاة
يدٌ بعارفة الإحسان يصرفها ... إليه كانتْ سبيلاً للغوايات
قد يفسد العِزُّ من ساءت أرومته ... ويصلحُ الذلُ أرباب الإساءات
أشاعرُ النيل دون الخلق يشربه ... بينا يشقّ الصّدى منّا المرارات
لِيَدع المُلكَ إن يرضَ الخصيب فما ... يبقى عليه سواه فى اللذاذات

مهما يكن من شيء، فقد أحدثت القصيدة دوياً رناناً، دفع ذوى الأمر إلى محاكمة الشاعر الجرىء على الفور فعقدت المحكمة فى جو عاصف، وصار أحب الناس للشاعر لا يملك أن يدفع عنه الاتهام، حيث تطوعٍ بعض من ائتمنهم عبد الحليم على سرّه بالشهادة ضدّه، فذكروا أنه اعترف لهم صراحةً بسوء قصده، وصال رئيس النيابة مقرّراً فداحة الجرم، واستأنست المحكمة بشهادات كبار الأدباء والشعراء فلم ينكروا أن الخديو هو المقصود بالذات، وقد اعتذر المتهم عن الحضور لمرضٍ طارىء تزكيه شهادة الطبيب، وترافع الدفاع طويلاً دون جدوى، حيث صدر الحكم غيابياً بحبس الشاعر ثلاثة أشهر، فعارض فى الحكم الجنائى الغيابى مستأنفاً، وحُدّدت الجلسة على وجهٍ سريع.

فرقعة الهلباوى

أىّ بطلٍ مغوار كان الهلباوى!! لقد جنت عليه مأساة دنشواى جناية طمست بريقه الساطع عن العيون، وهو بعد مدره القانون الجرىء، الذّى واجه المحكمة مواجهةً محرجة، حيث تقدم زميله الأستاذ الكبير وهيب دوس بالدفاع القانونى مُستنداً إلى نقاطٍ تحتمل الأخذ والرد، أمّا الهلباوىّ تلميذ جمال الدين وزميل محمد عبده وسعد زغلول، فقد واجه المحكمة بما لم يخطرْ لها على بال، حيثُ أكدّ أنَّ القصيدة ليست نصاً فى هجاء عباس، وأن رئيس التحرير، وهو الأديب الألمعى الأستاذ داود بركات لم يفطن إلى ما استنتجه المستنتجون، وقد اعترف المتهم بأنه لم يقصد الخديو بهجائه، وأنه يتحدث عن واقع تاريخى، فإذا رأت المحكمة أن تُلزمه بمالم يعترف به،

فكأنما تقرر أن الهجاء صحيح، وأن سموّ الخديو تلوح صورته من خلاله، وما أظن وطنيّا مخلصاً فضلاً عن قاضٍ عادل يتلمس الهجاء تلمّساً لُيلصقه بأعلى رأس فى البلاد! إننّا نعرف بُعْدَ الخديو عمّا جاء فى القصيدة من هجوم، وأن الشاعر قد أقسم أنّه لايقصده، فهل تريد المحكمة أن تقول له إنّ قولك ينطبق على سيد البلاد! أمْ أنّ الأكرم للمحكمة أن تُقرر أن الخديو أسمى من أن يهجى هذا الهجاء الشنيع! إن عهد الخديو أرفع من أن يثبت فى سجل تاريخه هذا الحدث الشائن الذى أنكره من نسب إليه، فلتحكم المحكمة بالبراءة فهذا أجمل بها وبصاحب الأمر، وبقانون مصر. وبالشاعر المتّهم!
وكانت النتيجة أن صدر الحكم بالبراءة دون إبطاء.

على أنّ ديوان الأوقاف قد فَصَلَ الشاعر فصلاً تأديبياً، لما جاء فى قصيدته، فاستأنف الشاعر مستظهراً بحكم المحكمة، فقضى المجلس بتعديل الحكم، وبنقله إلى قنا، ورأىَ الشاعر أن يُهادن، فاستأنف المدائح الصادقة، ثم جاءت الريح بما يحب فذهب عهد، وجاء عهد، وأقيم السلطان حسين كامل سلطاناً على مصر فأرجعه إلى القاهرة، وأتاح له أن يتّصل بالقصر بعد رحيل شوقى إلى منفاه بالأندلس، وأخَذَ عبد الحليم مكانتَه بيْن كبار الشعراء، وقد أقيمت احتفالاتٌ شعريّة تُخلّد أبطالَ الإسلام، وتُلْقى بقاعة الجامعة المصرية، فأنشد حافظ ابراهيم قصيدة (العمرّية) عن الفاروق عمر، وجاء دور عبد الحليم المصرى فأنشد قصيدة (البكرّية) عن الصديق بعد وقت قريب، ثم أنشد محمد عبد المطلب (علوّيته) عن على ــ كرم الله وجهه ــ فى وقت تالٍ، ولم يكن أحدٌ يتوقع أن الموت سيُهاجم عبد الحليم فى عنفوان شبابه، فماتَ فجأةً فى سن الخامسة والثلاثين،

وبكاه عارفو فضله من الكتّاب والشعراء ، ورحل عن الدنيا تاركاً آثاره الأدبية ، وأظهرها ديوانه الشعرى فى ثلاثة أجزاء ... وإذَا جهله الكثيرونَ من أبناء هذا الجيل فما أحْرى الدارسين بالرجوع إلى آثاره الفكرّية محُللّين ناقدين ، ليأخذَ مكانه المستريح فى سجّل الأدب الحديث ...



الشعر العباسى
بين رفيق العظم وطه حسين

أما الدكتور طه حسين فما أظن أحداً يحتاج إلى أن يُعرَّف به، وأما المؤرخ البحاثة العالم الأديب رفيق العظم، فقد كان أحد أعلام السياسة والأدب والتاريخ فى الجيل الماضى. كتب مقالاته السياسية والتاريخية فى أمهات الصحف اليومية، وشارك مشاركة فعالة فى الحركة العربية بماله وقلمه ونفوذه، حتى هاجر من بلده إلى مصر ليجد متنفساً قوياً لنشر أفكاره بعيداً عن سيطرة المتحكمين، وقد ترك آثاراً علمية حافلة فى الأخلاق والتربية والسياسة والتاريخ والإجتماع، كتب عنها السيد محمد رشيد رضا بحثاً ضافياً فى المنار والمقتطف «نوفمبر سنة ١٩٢٥». ومن أشهر كتبه وأكثرها رواجاً وذيوعاً كتابه الحافل.

(أشهرها مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة) وهو خاص بعهد الفتوح الإسلامية.. فى عصر الخلافة الراشدة، ولم يقتصر مؤلفه على نظراته التاريخية، بل توسع فى مسائل العمران والاجتماع والسياسة، إذ قصد تربية الشبيبة الإسلامية بإحياء ذكرى السلف المناضل من ناحية، وبتوضيح نتائج أعمالهم الباهرة وصفاتهم الخلقية الممتازة من ناحية أخرى، ليكونوا أسوة الشبية فى سلامة الإتجاه وسمو الهدف وعزة الحياة. ويالها من مُثُل نادرة.

الشعر العباسى فى نقاش جاد

كان المرحوم الأستاذ رفيق العظم شديد المتابعة لكل ما يكتبه الباحثون فى مسائل الأدب والتاريخ، وقد رأى الدكتور طه حسين فى أوائل العشرينيات يفرد الصفحات الطوال أسبوعياً فى جريدة السياسة اليومية متحدثاً عن شعراء العصر العباسى من الذين يميلون إلى التحلل الخلقى أمثال بشار.. وأبى نواس والحسين بن الضحاك، ووالبة بن الحباب، وحماد عجرد، ومطيع بن إياس، ليقول إن هؤلاء المتحللين هم صورة العصر الأدبية والإجتماعية، وهم لسانه الناطق عن أخلاقه وعاداته.

وهو إتجاه تردد فى دوائر الاستشراق قبل أن يذيعه الدكتور. ثم شاء باحث أن يتسع فيه ويمتد على نحو يخالف الحقيقة الأدبية، ويسيء إلى تاريخ دهر نعتز به، حين يجعل العصر كله عصر تحلل وشك ومجون.

ولأسلوب الدكتور سطوة تجذب قارئه، وتدفع الشباب إلى استيعابه، دون بصر بخوافيه ومراميه، وقد وجد من الناقدين فى مصر من عارضوه معارضة قوية جادة، فكشفوا أخطاءه فى صرامة حادة، ولكن الأستاذ رفيق العظم كان ممن جادل بالتى هى أحسن، وقد بلغ بالرفق مالم يبلغ غيره بالعنف والشدة والجزء الثانى من حديث الأربعاء يشمل بعض هذه البحوث بعد أن هذبها الدكتور وطرد عنها كثيراً مما صدم الأسماع.

رأى الدكتور طـه حسين فى الشعر العباسى

يقول الدكتور طه حسين فى حديث الأربعاء ولكن إذا أردت أن تتخذ من هذا العصر صورة صادقة تحكم بها عليه حكماً صادقاً، فأنت مضطر إلى أن ترجع إلى هؤلاء الشعراء والكتاب أكثر من رجوعك إلى الفقهاء والمتكلمين والرواة، لأن الشعراء والكتاب يمثلون الجماعة حقاً، ويعبرون عن أهوائها وميولها، ويصفون ما تضطرب فيه من ضروب الحياة، أفتظن أن شاعراً كأبى نواس يبلغ ما بلغ من الشهرة حتى يفتن به الناس فى بغداد، وغيرها دون مدن العراق؟ بل فى الشام ومصرحين ذهب إلى الشام ومصر، فيحفظون شعره ويتناشدونه، ثم يضيفون إليه كل ما أعجبهم من شعر فيه هزل ومجون وليس له قائل معروف، ثم لا يكتفون بذلك، بل يروون عنه الروايات وينتحلون له القصص، ويتحدثون عنه فى اللعب واللهو بالاعاجيب، أتظن أن الناس يتخذون أبا نواس مثالاً للذة والنعيم فيكلفون به هذا الكلف إذا لم يكن أبو نواس لسانهم الصادق ومرآتهم الصادقة!؟

كلا ليس من شك من أن صلة حقيقة قوية كانت تصل بين هؤلاء الشعراء وبين طبقات الناس المختلفة، وتجعل هؤلاء الشعراء تراجمة صادقين، لما يخطر لهذه الطبقات من خواطر، وما يضطرب فى نفوسها من عواطف فى حين كان الفقهاء ورواة الحديث عاكفين على الفقه يستنبطونه، وعلى الكلام يمحصونه وعلى الحديث يروونه، وكانوا فى ذلك لا ينطقون بلسان أحد. ولا يجرون على رأى أحد، ولا يمثلون إلا العلم الذى.. يصفون به ويعكفون عليه.

مثل معاصر يرد على الدكتور

وقبل أن أتى برد الأستاذ رفيق العظم على هذا الإتجاه، أقول إن افتنان العباسيين برواية أشعار أبى نواس وحديثهم عنه فى حلة وترحاله لايدل على أن المجتمع العباسى يسلك طريقه، ويتابعه فى انحداره فى شيء ولنلق نظرة واحدة إلى شهرة المطربات والمطربين، فى عصرنا الراهن، فنحن نجد الإذاعات المرئية والمسموعة والمجلات الأسبوعية.. والصحف اليومية، تتحدث عنهم فى أكثر ممالك الشرق العربى والغرب الأوربى.. دون أن يكونوا الصورة الحقيقية لأخلاق شعوبهم، بل إن الذين يفردون عنهم المؤلفات الخاصة، ويصدرون الأعداد الدورية من المجلات حافلة.. بأبنائهم ليعرفون بعدهم عن قيم المجتمع ومثله، ويعلمون أنهم فى أوسع.. أمورهم يكونون مصدر ترفيه وقتى لبعض الشبيبة بما يأتون من معريات لا تكون موضع الاقتداء. فهل يقول قائل إن مطرباً فناناً أو مطربة مغنية أو ممثلة أو راقصة هى صورة سيدات المجتمع وربات الأسر؟ وإذا أجرؤ أحد أن يقول ذلك فهل يكون لقوله قيمة حقيقية لدى الدارسين !؟

ثم من قال إن علماء الإسلام من أمثال أبى حنيفة والشافعى ومالك وأحمد بن حنبل كانوا منكفئين على أبحاثهم دون أن يسمع بهم أحد، وهم الآن ملء السمع والبصر؟ فكيف يكونون فى العصر الذى عاشوا فيه !؟

وعلماء اليوم صورة من علماء الأمس، فهل انصرف مجتمع اليوم عن حسن البنا ومالك بن نبى ومحمد المتولى الشعراوى ومحمد أبى زهرة ومحمد الغزالى وأبى الحسن الندوى وأمثالهم فى شتى ربوع الإسلام !؟

إن أحد هؤلاء كان لا يحاضر فى مكان ما حتى يجد الإزدحام الحاشد، والجمع المتقاتل على السبق وتقدم الصفوف. وفى الحاضر صورة الماضى لأن الناس هم الناس.

من رد الأستاذ رفيق العظم

بدأ الأستاذ العظم فشك فى صحة ما يروى من أخبار المجون، وقال إن الحقائق التاريخية ولا سيما فى تاريخ الإسلام تشبه الدرر الملقى بين الأشواك .. يحتاج مزيداً استخراجه إلى أناة وروية ونظر فى وجوه السلامة من أذى الشوك. والأستاذ ـ يريد طه حسين ـ يعرف ما عاناه رواة الأحاديث ونقلة الأخبار النبوية فى تمحيص تلك الأخبار، وتنظيفها من شوائب الوضع المكذوب ونحن نقرأ فى التاريخ وفى كتب القصاصين عما أنتجه التنازع بين الشيع الدينية وما نسب إلى آل على وآل العباس من افتراءات، فلو سلمنا بكل ما جاء فى تلك الكتب والأقاصيص واعتبرناها أخباراً صحيحة، ليس فيها شائبة من شوائب الكذب والاختلاق والتلفيق لكان لنا أقبح مثال من أمثلة العصور الإسلامية الأولى التى نعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد. وقد غالى بعض الإخباريين فى إيراد أخبار المجون والتهتك والإنغماس فى الشهوات مغالاة تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق لما فيها من العبث بالأخلاق والتجرد عن معنى الأدب الذى أخذ منه الشعراء والأدباء المنسوبة إليهم بسبب كبير، ولا أظننى مخطئاً إذ قلت إنما نقل من هذا القبيل تلفيق قصصى.. يراد به أحد أمرين، إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين .. كالرشيد والمأمون، وإما سد نهمات العامة إلى أمثال تلك القصص المخزية والروايات الملفقة، على أنه

لوصح شيء منه لما كان لنا أن نتخذه دليلاً على شيوع الفحش والفجور والشك بين أهل هذا العصر، لأنه مجون لا يجوز أن يتعدى الماجن مهما تطاول إلى النيل من سواه باسم المجون.

ملحظ قوى

وقد لاحظ الأستاذ رفيق العظم أن الدكتور طه حسين قد أسرف فى الاستشهاد بقصائد أبى نواس الماجنة دون أن يتطرق إليه الشك فى شيء منها.. ولكن حين تعرض لما قاله ساعة احتضاره من شعر تائب يستغفر به ربه أخذ يشك فى صحة هذا الشعر، وصدق نسبته إلى أبى نواس، فانتهز الأستاذ العظم هذه البادرة ليقول: إن الذى جوز للدكتور طه حسين أن يشك فى صحة هذه القصة، يجوز له أن يشك فى أكثر القصص والروايات التى نقلت عن أبى نواس وغيره من شعراء المجون، ويثبت أنها قصص موضوعة ليس لها قيمة تاريخية، فلا يصح أن تتخذ مثالاً صادقاً لذلك العصر. وإذا قرئت فإنما تقرأ لأن فيها فكاهة وترويحاً للنفس لا لأنها أمثلة.. من تاريخ أمة كان عصرها ذاك عصر جد لا هزل، وعصر نهضة علمية بلغت فيه أقصى ما يمكن أن تبلغه أمة فى عشرات من السنين.

رد الدكتور طـه حسين

وقد رد الدكتور طـه على صاحبه رداً أعاد فيه ما سبق أن أبداه وقال: إن العالم الجليل رفيق بك العظم، وكثيراً من العلماء المعروفين فى الشرق يسبغون على التاريخ الإسلامى، صفة من الجلال

والتقديس الديني تحول بين العقل وبين النظر فيه نظراً يعتمد على النقد والبحث العلمي الصحيح فهم يؤمنون بمجد القدماء من العرب وجلال خطرهم ويصفونهم بجلائل الأعمال، ويرفعونهم عن صغائرها، وهم يتخذون ذلك قاعدة من.. قواعد البحث، فإذا أضفت إلى الرشيد شيئاً فليس هذا الشيء صحيحاً، إلا إذا كان في نفسه خليقاً بالرشيد يليق بمكانه، وليست هذه المكانة هي مكانته في نفسها، وإنما المكانة.. هي المكانة التي خلعها عليه القدم، وجلال الخلافة، أما النقد التاريخي من حيث هو نقد تاريخي، وأما النظر إلى الناس من حيث أنهم أناس ووصفهم بما يمكن أن يوصف به الناس، وتحليل أخلاقهم وعاداتهم فذلك شيء قلما يفكر فيه هؤلاء العلماء أو يلتفتون إليه.

ومضى الدكتور في ما يشبه ذلك ليعلن تمسكه بصحة ما رواه من أنباء أبي نواس وغيره من الماجنين.

والحق أن ما قاله الدكتور عن الأستاذ رفيق العظم وأمثاله مجانب للصواب فليس لأحد من الناس قداسة عند أحد، إلا بما تحقق صدوره عنه من جليل المواقف وصادق الأعمال، وقد كتب الأستاذ رفيق العظم كتابه الذائع 'أشهر مشاهير الإسلام.. في أكثر من سبعمائة صفحة، تتحدث عن أبي بكر وعمر وعثمان وأبي عبيدة وخالد بن الوليد والمثنى بن حارثة وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عامر، وعمرو بن العاص وغيرهم من أبطال الصحابة، وهم أقدم سلفية من هارون الرشيد وأعرق سابقة في أمجاد الإسلام فلم يكن الأستاذ العظم في حديثه التاريخي غافلاً عن إبداء الملاحظات

النقدية لما تختلف فيه وجهة النظر من الحكم على الأعمال. فالقول بأن الأستاذ العظم ومن يسيرون فى اتجاهه يخلعون قداسة على رجال التاريخ الماضى قول لايؤيده الواقع المشاهد، ولكن هؤلاء المحققين يتئدون فى أحكامهم ولايلتفتون إلى القصص المكذوبة ليتخذوا منها رواجاً صحفياً تتأثر به طائفة من الشباب، ترى فيما يعرض من شعر العبث ريّا لظمئها.. المتعطش! ولماذا لا نجل صنفاً من الناس قد أثبتوا بأعمالهم الواقعية مايبعث على الأكبار والإجلال، ألا نكون مجددين فى التأليف؟..

إلا إذا تنكرنا لصحف التاريخ الصادقة، وأخذنا نلهو بسير العابثين لا لنقول إنهم وحدهم العابثون. بل لنقول إنهم صورة صادقة لعصرهم الفسيح بجميع طوائفه وطبقاته. لو قال الدكتور إن طائفة من شعراء العصر العباسى سلكت مسلك المجون واستهوت بعض الناس ما خالفه أحد ولكنه قال إن هذه الطائفة كانت تمثل روح العصر وتصوره أدق تصوير، وفى ذلك شطط مسرف ينكره الواقع الصريح.

عود على بدء

لعلنا ــ إذا تتبعنا ما دار من النقاش ــ ندرك أن المجتمع العباسى كسائر المجتمعات الإنسانية كان يحفل بأنماط الخير والشر معاً، فإذا وجد به المتحللون من أمثال أبى نواس ومطيع وبشار.. فقد وجد به المؤمنون الملتزمون من أمثال الأوزاعى والثورى وابن المبارك وأبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل، فمحاولة الاقتصار على روايات أبى الفرج فى الأغانى وحدها دون نظر إلى كتب التراجم والطبقات

محاولة تعسفية. وإذا كان عصر هؤلاء المتحللين قد كان عصراً علمياً حضارياً زاهراً.. فمحال أن يكون كله لهواً صاخباً ومجوناً عابثاً، ومحال أن يكون له هذا النفوذ القوى فى الدنيا جميعها، ولن يعصف بجده الملتزم لهو جماعة من الشعراء بما ينسجون من أبيات المجون، فيرددها الشباب فى مجالس اللهو، ويرويها أمثال أبى الفرج الأصبهانى فى كتب الأدب والمسامرات.



شاعران سجينان

نحن الآن أمام شاعرين قذف بهما فى غياهب السجن، ورسفا فى القيود والأصفاد قدراً من الزمان، فلجأ كلاهما إلى القربض يبثه وجده، ويطارحه أساه!

والسجن رهيب موحش، ترتعد له الفرائص، وتقشعر منه الأبدان، وكما يفزع الأسد المكبل فى قفصه الحديدى، فكذلك يفزع الشجاع الصنديد حين يهاجمه الظلام فى بقعة لا يراوحها الهواء، وأفزع منه الشاعر المرهف، ذو العاطفة المشبوبة، والوجدان المضطرم، فهو من إحساسه فى عذاب أى عذاب! وانظر إلى الطائر الغريد يختطف من أيكته الملتفة، ويحبس فى الأسلاك المتشابكة، مقصوص الجناح، ثم ابعث عليه الحسرات.

ولن نفكر اليوم فى سجوننا المستحدثة بالقرن العشرين، فهما بولغ فى إيحاشها وتضييقها، فهى نظيفة محترمة تدرج فيها الشمس، ويمر بها النسيم، وليست كالسجون العباسية التى حبس بها الشاعران اللهيفان، إذ كانت نقمة من نقم الله، فهى لا تحتوى على منافذ أو مقاعد، ولكنها فى الغالب سراديب متوغلة ممتدة فى أعماق الأرض، يوضع فيها الأحياء كما يدفن الموتى فى اللحود وهى على ظلامها الدامس، حافلة بما يخيف من الأفاعى والهوام، وقد لا يجد السجين من المكان غير ما يسمح له فيه بالجلوس وحده! والويل له إن وقف أو سار! بل

قد يمكث السجين طيلة نهاره فلا يجيئه السجان غير دقيقة واحدة يقذف له بفتات الطعام وآسن الشراب، وهو مع ذلك يتلهف على لقائه، إذ هو رسول الأحياء إلى الأموات.

وقد قدر لعلى بن الجهم أن يكون نزيل السجون مدة طويلة فانقلب إلى الظلام الموحش، بعد أن نادم المتوكل فى قصر الخلافة أمداً طويلاً، ونهل من النعيم والمسرة مالا يقدر بثمن، وجلس على بساط السمر ينال ما لذ وطاب، وتلك حياة أشبه بالأحلام!

لقد كان ابن الجهم خبيث اللسان، فاحش الهجاء، وقد تعددت وشايته إلى الخليفة بأصحابه حتى تيقن افتراءه ودسه فعاقبه بالسجن ليرتدع، ونزعه من أفواف البهجة ومطارف النعيم، ونظر الشاعر فإذا ألسنة السوء تلوك حديثه فى كل مكان، فتزيد عليه ما يكابد من الغصص والأشجان. وقد استعطف المتوكل بقصائد باكية، فما ناله من قلبه المعرض أى منال، حتى توهم أن السجن قد أصبح مقره الدائم، أبد الحياة وأقوال الشامتين الساخرين تصل إليه فى معتقله فتمزق نياط قلبه وتخرق مسامعه فماذا يصنع لإسكات هؤلاء وقد صد عنه الخليفة أعنف صدود وأقساه؟ موقف محزن حقاً. وحالة تبعث الرحمة والإشفاق. وقد رأى ابن الجهم أن يظهر ارتياحه لمحبسه، وقبوله إياه، فى شعر يبعث به إلى الشامتين ليقصروا ألسنتهم عنه، فنظم هذه القصيدة التى تعرض لها الآن، ذراً للرماد فى الآماق، وتجلداً على نوائب الأيام.

ومضت الأيام وخرج الشاعر من السجن، وبقيت قصيدته عزاء يندى على المرزوئين بالسجون بعد ذاك، فكانت الأنشودة التى يترنم

بها هؤلاء المعذبون فى ظلماتهم القاتمة.. ثم رمى الدهر بعاصم بن محمد الكاتب العباسى إلى السجن فرأى من أهواله ما أقض المضجع، وأضرم الشجون، وقد كان يحفظ قصيدة ابن الجهم فرددها فى نفسه مرات ومرات، وأيقن أنها لا يمكن أن تعبر عن عواطف السجناء، فهى وإن حفلت بأساليب العزاء والإستسلام، تجافى الواقع الصريح أعنف مجافاة، فاندفع ينقضها بقصيدة تضع الحق فى نصابه أمام الناس. وها نحن أولاء نوازن بين القصيدتين. لنرى أى الشاعرين أصاب حظاً من التوفيق والإبداع. لقد كان ابن الجهم يعتقد أنه مقبل على أكاذيب فاضحة، فهو يدافع عن قضية خاسرة لاتجد الناصر المعين، ومن ذا يحبذ السجون من العقلاء؟ لذلك نجده يقمع عواطفه فلا يسمح لها بالظهور فى مطلع قصيدته، ويستهدى بعقله الناصح فيهديه إلى غرائب التشبيه. وفى التشبيه مجال فسيح للتلفيق والتنميق، حيث ينسى القارىء عادة ما بين المشبه والمشبه به من فروق، ويلهيه وجه الشبه الواضح عما هناك من أبعاد، وإذ ذاك يجد الشاعر الفرصة مواتية لما يريد أن يقنع به الناس.

إن الخيال الزاخر بالتشبيه ليحلق بابن الجهم فى أجوائه الشعرية فيرى السيف الصارم يغمد فى جرابه بعد التجريد، ويلمح الليث الواثب يربض فى غيله الأشب فلا يتردد فى الآفاق كما تتردد صغار الوحوش، ويشاهد البدر المتألق يحتجب وراء الظلام برهة محدودة ثم يمضى واضح القسمات. كما يعلم أن النار المضطرمة تكمن فى الحجر حتى يقدحها الزناد، والرمح القاتل تتناوله الأكف بالتثقيف وتلهبه النار حتى يستقيم، فإذا ما حجبه السجن بعد ذلك عن العيون، فله فى السيف والليث والبدر والرمح والنار عزاء أى عزاء. وأى عيب

على الرجل إذا كان كالليث الصائل، والنار المضطرمة والسيف البتار.

وهذا منطق، عجيب، وأعجب منه أن يقنع الشاعر بوجاهته وسلامته فيأخذ بتلابيبه ليقول:

قالوا حبست فقلت ليس بضائرى	حبسى وأى مهند لا يغمد
أوما رأيت الليث يألف غيله	كبرا وأوباش السباع تردد
والبدر يدركه الظلام فتنجلى	أيامه وكأنها تتجدد
والنار فى أحجارها مخبوءة	لا تصطلى إن لم تثرها الأزند
والزاغبية لا يقيم كعوبها	إلا الثقاف وجذوة تتوقد

فهل رأيتم ما فعل التشبيه؟ لقد كاد أن يجعل السجن أملا باسماً تحلم به العيون فى غفلات الرقاد، ولكنه لن يمحو الواقع الأليم، فالسجن جحيم لا يطاق.

إن عاصما الكاتب ليقرأ الأبيات ثم يقرنها بما يكابده فى السجن من ويلات، فيرى أن كلام ابن الجهم يحتاج إلى تصحيح صريح، ولن يكون هذا إلا من شاعر قادر يدحض الحجة ويقيم الدليل، فمن يكون ذاك؟

لقد اعتمد ابن الجهم على التشبيه، فليأته عاصم منه، لينازله بسلاحه فى حلبة البيان، وهنا يظهر الحق للعيان.

وسيقف القارىء على المناحة الصاخبة التى تولول فى أعماق عاصم حين يصرخ فى مطلع القصيدة بقوله:

قالوا حبست فقلت خطب أنكد　　أنحى عليّ به الزمان المرصد
لو كنت كالسيف المهند لم يكن　　وقت الكريهة والشدائد يغمد
لو كنت كالليث الهصور لمارعت　　في الذئاب وجذوتي تتوقد
تمضي الليالي لا أذوق لرقدة　　طعما وكيف يذوق من لا يرقد
في مطبق، فيه النهار مشاكل　　لليل والظلمات فيه سرمد
فإلى متى هذا الشقاء مؤكد؟　　وإلى متى هذا البلاء مجدد؟

لك أن تقرأ هذه الأبيات مرة ثانية، فستجدها تخاطب الشعور وتتجه إلى الإحساس، فتلتاع لها العاطفة، وسر ذلك ما تزخر به من الصدق والإخلاص، إذ كان الخيال الذى حلق به ابن الجهم ضعيف المنة، قصير الجناح، فالأسير الحبيس ليس كالسيف أو الليث في شيء، وإلا فكيف يغمد السيف لدى الكريهة النائبة، وما خلق إلا ليمزق الاشلاء، ويسفح الدماء؟ وكيف يغضى الليث عما ينوشه من الثعالب والذئاب، وهي التي ترهب سلطانه الجبار؟ هذا ما فطن إليه عاصم، فاندفع ينقض أبيات صاحبه ومعه الحق في دعواه.

ولكن لِـمَ لَمْ يستطرد الشاعر فينقض التشبه بالبدر والنار، كما نقض التشبه بالسيف والليث؟ وذلك حتم عليه فيما أرى، لأن الشاعر الناقض غير الشاعر المعارض، فإذا قنعنا من المعارض بالتصوير الكلى، فلن نرضى من الناقض بغير الاستقصاء والثبات، ومثل من يعارض في شعر تقوله كمن يبنى قصراً جوار قصرك، فهو لا يتقيد بأسلوبك ونظامك في البناء، وما عليه إلا أن يحدث بناء تشرئب إليه الأعناق، أما الشاعر الناقض فلا يبنى بيتا جوار بيت، ولكنه يهدم في صرح مشيد، فعليه ألا يترك بعض المقاصر شاخصة للأبصار!

ولقد تحدث عاصم عن ظلام السجن وتشابه ليله بنهاره فتأفف من غياهبه السرمدية، وشقائه المؤكد، وهو كلام لن تجد نظيره عند صاحبه، لأن الأول ثائر ناقم يذيع الفضائح والهنات، والثانى قانع راض يلتمس المحامد فى كل مجال.

ثم ماذا بعد ذاك؟

لقد لجأ ابن الجهم إلى الأسلوب الخطابى فى تدليله، ولا عليه، فهو شاعر يستحث العاطفة ويخاطب الشعور، وقد وجد السجين يلزم حبسه كما يلزم الكريم بيته، ويزوره الناس فى غياهبه دون أن يزور أحداً فى رحابه، شأن العظماء المترفعين، فلم لا تحمد السجون على هذا التكريم العجيب!؟ ذلك رأى يعلنه ابن الجهم إذ يقول:

والحبس مالم نغشه لدنية ... شنعاء، نعم المنزل المتردد
بيت يجدد للكريم كرامة ... ويزار فيه ولا يزور، ويحمد

وهذا كلام مردود لا يقره عاصم؛ وقد شهد فى محبسه كل مذلة وهوان؛ ومتى استراح السجين لزواره؛ وهم ما بين شامت يبدى التوجع؛ ويضمر السرور، وصديق يذرى الدموع؛ ويرسل الزفرات، وهذا كذاك؛ يوقد الشجى فى الضلوع، بزورته؟ وقد عرف عاصم ذلك فاندفع يقول:

ما الحبس إلا بيت كل مهانة ... ومذلة ومكاره لا تنفد
إن زارنى فيه العدو فشامت ... يبدى التوجع تارة ويفند
أو زارنى فيه المحب فموجع ... يذرى الدموع بزفرة تتردد

وواضح أن ابن الجهم يعترف بهذه الحقيقة فى أطواء نفسه ولكنه يلفق الأدلة الوهمية كبتاً للشامتين، ونحن نرفع قريحته حين نعلم أنه يتصيد المحامد للقفر الموحش؛ وذلك مسلك وعر تتعثر فيه القرائح الجياد؛ أما صاحبه فيصف ما يرى فى القفر الحديب من قسوة وجفاف؛ فهو يسير مع التيار؛ ولا يقف فى وجهه متحدياً العقبات والصعاب!

وقد تعجبت لعلى حين ينسى موقفه الدفاعى، وتطغى عاطفته على عقله، فيرجو الفرج القريب، ويأمل الرخاء بعد الشدة:

فلكل حال معقب ولربما أجلى لك المكروه عما تحمد

قد تعجب لذلك منه وتأباه، إذ أن المستريح فى محبسه لا يحب أن يفوه بما يشير إلى الضجر والسخط، ولكن الحق ظافر غالب، وقد عجز الشاعر أن يتنكر لعواطفه إلى آخر الشوط، فعمد إلى إرضائها والترويح عنها، وهو بذلك يلتقى مع صاحبه عاصم فى مأساة واحدة وخطب مشترك، فلا مجال للمناقضة بعد ذلك، وقد ذهبا معاً يتوسلان ويعتذران. عسى أن يصيبها حظ من الغفران. ولقد كان ابن الجهم بليغا فى اعتذاره، متفوقاً على صاحبه، فهو يدعو إلى النصفة والسداد، ويود لو اجتمع فى مجلس واحد مع خصومه أمام الخليفة ليدحض الحق بالباطل. إذ ليس من العدالة أن يتحكم الشاهد فى الغائب فيوغر عليه الصدور، وينهشه ما استطاع. اسمعه يقول:

أبلغ أمير المؤمنين ودونه خوف العدا ومهامه لا تنفد
إن الذين رموا إليك بباطل أعداء نعمتك التى لا تجحد
شهدوا؛ وغبنا عنهمو فتحكموا فينا؛ وليس كغائب من يشهد

لو يجمع الخصماء عندك مجلس | يوماً؛ لبان لك الطريق الأرشد
والشمس لولا أنها محجوبة | عن ناظريك لما أضاء الفرقد

والبيت الأخير ممتاز رائع؛ وهو فوق إقناعه السديد يدل على ما يعتقده الشاعر في نفسه من سمو وسموق، ونحن نستطرف قوله:

شهدوا، وغبنا عنهمو فتحكموا | فينا، وليس كغائب من يشهد

إذ ينبىء عن الظلم الفادح الذى لحق الشاعر.. بابتعاده عن مقارعة الوشاة؛ وقد ذيل البيت بحكمة صادقة تضمن له البقاء.

أما عاصم فقد نهج نهجه فى الزلفى؛ وراح يتحدث لسيده معتذراً معاتباً ويحوم على أفكار صاحبه إذ يقول عن وليه:

غذيت حشاشة مهجتى بنوافل | من سيبه وصنائع لا تجحد
عشرون حولا عشت تحت جناحه | عيش الملوك وحاجتى تتزيد
فخلا العدو بموضعى فى قلبه | فحشاه جمرا ناره تتوقد
فاغفر لعبدك ذنبه متطاولا | فالحقد منك سجية لا تعهد

وهذه أبيات لا تقرن بالأبيات الأولى فهى خالية من القوة والتأثير، وإن رافقتها فى بعض المعانى فضلاً عن الغرض العام. ولست أستطيب كلمة الحقد فى البيت الأخير، فهى أبعد ما تكون عن المقام؛ إذ لا يليق أن يوصف بها إنسان يعتذر إليه ويتزلف عنده، هذا إلى القوافى المستكرهة التى ألصقت إلصاقاً بالأبيات.

ولن نختم الحديث عن المقطوعتين قبل أن نجعل الموازنة بينهما فى أسطر محدودة. فنقرر أن أسلوبها سلس رقيق، وأن علياً رغم وعورة

مسلكه؛ وتحديه لشعوره وعواطفه؛ قد هدى عاصماً إلى ما نظمه من المعانى، وفتح عليه بما لم يكن يخطر له على بال، كما ارتفع عنه حين سارا معاً فى الاعتذار والعتاب فجاء بما لم يتطاول إليه عاصم؛ وإن كنا نأخذ على الشاعرين معاً ضيق الأفق، وقصر النفس؛ وسذاجة التفكير؛ رغم إتساع المجال؛ وفى ذلك بلاغ.



مراسلات أدبية
بين باحثة البادية والآنسة مى

شهد مطلع هذا القرن كاتبة مجيدة، أخذ نجمها يتألق فى الصحف المصرية ساطعا يرسل النور فى دفء وحنان، ويثير شتى العواطف المتباينة فيما يخط من أفكار تنحو منحى الإصلاح الإجتماعى للمرأة، إذا انطلقت الكاتبة الشابة ملك حفنى ناصف الشهيرة بباحثة البادية تؤدى دورها الأدبى فى تفرد باهر جذب إليها الأنظار، إذ كانت تعالج هموم المرأة فى أسلوب نابض حى يهز أوتار القلوب ويعجب به المؤيد والمعارض معاً، فأخذت أقلام الكبار تؤيده وتطريه، وجعل أحمد لطفى السيد وأحمد شوقى وخليل مطران وأحمد زكى، وهم من صفوة المبدعين فى هذا العهد يرسلون شواردهم الهاتفة بنبوغ الباحثة، فاقتعدت مكانها الأدبى فى ميعة الصبا ونضارة الشباب.

ولم يكد العقد الثانى من هذا القرن يتنفس عن عامه الأول حتى تألق نجم جديد آخر فى سماء الصحافة المصرية، كان نجماً متعدد الأضواء يرسل أشعته الرقيقة فى شتى الأنحاء، حيث لم يقتصر ضوؤه على الناحية الإجتماعية وحدها، ولكنه امتد إلى آفاق متعددة، فكتب فى الأدب والتاريخ والوجدان النفسى أعذب ما تفتخر به العربية من آيات نسوية بارعة، وكان لهذا النجم الصاعد من الومض والرفيف والحيوية والجمال ما جعل أثره خالبا جاذبا ذلك هو نجم الأديبة اللامعة ذات الصيت الرنان الآنسة مى.

(صداقة وطيدة)

ولم تنافس الغادة الغادة فتصطرعا فى عراك أدبى ، يصول به رأى على رأى ، استجابة لهواتف السبق المتفرد كما يحدث كثيراً بين من تمتلىء نفوسهم بحب الذات ، ولكن صفاء النفس الحساسة وأشواق الروح المترفعة ، ورحابة الصدر الحنون لدى الأديبتين الرقيقتين دفع بهما إلى السلام فالمصافحة فالعناق فالامتزاج ، دفع بهما إلى السلام حين أنس قلم إلى قلم فرأى صورة نفسه فيما يخط صاحبه ، وإلى المصافحة فالعناق حين سعت احداهما إلى الأخرى ظامئة متلهفة وإلى الامتزاج حين تكاشف القلبان عن أطهر الخلجات ، وأعذب المشاعر، فامتد الناظران إلى أفق فسيح توروده الأحلام الزاهية ، وتعطره الأنفاس الفواحة ، فهو على البعد مرفأ السابح ، وأيك الطائر النازح ، وكما دارت بينهما المراسلات على أوراق الصحف ، امتد بينهما السمر الأخوى فى حجرات اللقاء ، فرأت الفتاة النابغة أختها الواثبة ، تشعر بإحساسها ، وتنطق بلسانها ، وتسمعها صوتاً يحتبس فى قلبها ، ويتردد فى أنفاسها ، ليعلن كيف تتلاقى الأرواح ، وتتناجى القلوب .

بدأت مى بالتعارف ، ــ وهذا مما يذكر لها ــ إذ لم تتحمل وطأة الشوق الدافع ، فرأت أن تخرج به من سر الضلوع إلى فضاء البوح فكتبت مقالاً بديعا يكشف هذا السر إلى صاحبة وحيه ، كما يصور وقع مقالاتها فى نفسها المتلهفة على الصداقة المرتقبة . فهى تقول انها ترنمت باسم ملك قبل أن تعرف شخصها فاتخذت منها عنواناً لنهضة المرأة المصرية ، لأن أصوات الجمهور قد اتفقت فى الثناء على فضلها وتحت يديها منذ ثلاث سنوات مجموعة مقالاتها ، من يوم أن ارتفع فيه صوتها مرشداً هادياً .

تقول الآنسة مىّ فى رسالتها الأولى إلى ملك: «بالأمس لمست نفسك، وقرأت أفكارك، فعثرت على جراح بليغة وددت تقبيلها بشفتى وبروحى، وما أطبقت الكتاب إلا وأنا ألثم بنانى على غير هدى، ولم يكن ذلك إلا اجلالا لصفحات قلبتها وحبا لنفس استجوبتها وعرفتها، فيا من ارتفع قلبها إلى فكرها، وانحنى فكرها على قلبها، لماذا تصمتين؟ علاتنا مستعصية لا يشفيها إلا مريض يعرفها. والمرأة بعلة جنسها أدرى، فهى تستطيع معالجتها، ولدينا قلوب تحترق ولا ندرى أى نار تحرقها، وتلتهب شظا بما لا تعرف ماهيته، فعلينا يا باحثة البادية كيف نرشدها ونوجهها، ولدينا نفوس عزيزة تنمو فيها ميول مبهمة، ورغبات حارة، فارشدينا أى الأعشاب فاسد فنقتلعه، وأيها الصالح فنسقيه ماء الرعاية والحنان».

هذا بعض ما قالته مى فى خطابها، وكانت الباحثة حينئذ مريضة تشكو ألم الجسم، وعذاب الروح معا، وقد لاقت فى رسالة مى ما خفف بعض الشىء من آلامها، إذ رأت روحاً تهتف بها هتاف البصير المدرك، وهمت أن ترد سريعاً، فلم تستطع، فأوصت أختها (حنيفة ملك ناصف) أن تكتب بضعة أسطر تعلن وصول الرسالة، وتظهر جميل الشكر، وتعد بالرد الشافى حين تبرأ الباحثة من سقامها وقد أذن الله بالشفاء فكان أول ما صنعته أن كتبت الرد الشاكر تقول فيه:

(رد الباحثة)

تلقيت رسالتك وكنت بين مخالب الموت، فلم يكن فى وسعى أن أمسك القلم لأرد عليك، كانت رسالتك عزاء جميلا لى فى مرضى

الطويل ، وبلسماً ملطفاً لجراحى البالغة ، آلامى آيتها الآنسة شديدة ، ولكنى أنقلها بتؤدة كأنى أجر أحمال الحديد ، فهل تدرين يا سيدتى ما هولى؟ ليس لى ــ بحمد الله ــ ميت قريب أبكيه ، ولا عزيز غائب أرتجيه ، وليس لى حال سيىء أشتكيه ، ولكن لى قلباً يذوب عطفاً واشفاقاً على من يستحق الرحمة ، وهذا علة شقائى ومبعث آلامى ، أنى أحمل نفسى أعباء غيرها ، ولست بمسيطرة على هذا العالم ، ولكنى عاهدت نفسى على الأخذ بيد المرأة ، ويعز على أن أتخلى عن هذا العهد .

ومضت ملك ناصف تصور جهادها الاجتماعى فى أسلوب صادق رقيق يكشف أسرار نفس بنبله ، تضم فى لفائفها أنفس الجواهر ، وتحمل بين دمائها أعذب الأحاسيس .

(مراسلات أخرى)

تأكدت كل كاتبة من منزلتها لدى صاحبتها ، فكان ذلك مبعث هزة لطيفة يشعر بها من يعتقد أن صوته يجد المستقر اللذيذ فى أذن صديق ، نير العقل ، رقيق الوجدان ، وإذا كانت مى تميل إلى الأسلوب المترف الأنيق فإن تأثيرها اللاشعورى قد انتقل إلى أسلوب أختها الكبرى ، فصارت تعتمد الروعة الفنية اعتماداً فى أكثر ما تكتب ، لأن المقالات الأولى للباحثة كانت تهدف إلى اللباب الجوهرى دون أن تعنى كثيراً بأناقة الثوب ، ورقة الغلالة ، إذ أن ميدان الحديث عن اصلاح المرأةقد اتجه بالاسلوب إلى منحاه العلمى حواراً واستشهاداً ودفعاً ، على حين كانت مى تكتب فى مسائل الوجدان بأسلوب الشاعرة ذات الهمس الرقيق ، والخيال الحالم ! على

أن تأثيراً مقابلا قد اتجه إلى يراع مى، حين أخذت تعالج بعض قضايا الفكر، فخففت من طيرانها السابح فى الفضاء لتصل إلى الميدان بين ذوى النقاش المحتدم، والجدل المتصل! وهكذا اقتربت الكاتبتان تقاربا أدبياً حميداً، وقد تحدثت الباحثة فى بعض مقالاتها عن آلامها النفسية التى تساورها بين الحين والحين، حين تنظر إلى جهادها المتصل فتجد الطريق مديداً رحبا يحتاج إلى نضال لا تملك أسبابه، ويهولها أن يقصر خطوها عن الغاية فتشعر بلوعة اليائس، وتتمنى أن ترزق من القوة ما يطرد عنها ألمها النفسى لتواصل السير كما تريد. وقد بلغت بما كتبت فى هذا الصدد من شغاف مى مبلغاً كبيراً دفعها إلى أن تكتب لصاحبتها مشجعة مقدرة، كما أعلنت ما تلمسه من صدى الباحثة القوى فى نفوس القارئين والقارئات إذ يتلهفون على مقالاتها لهفة الظامىء إلى الماء النمير!

(من خطاب مى)

تقول مى لصاحبتها (أنى لأقبض على شجاعتى بيدى لأعترف بأنى أحب آلامك النفسية الشديدة من جراء شقاء الإنسانية وضلالها، وأتمنى من أعماق فؤادى أن تجد هذه الآلام منفذاً رحيباً إلى قلبك وأن يبقى ذلك القلب الكريم لينا يجرح لجرح الغريب، ويبكى لبكاء المظلوم، ويشفق على المتوجع أيا كان، بالاختصار ــ عفوك عفوك ــ أتمنى لك العذاب المعنوى لأنه النار المقدسة! أجل هو النار التى تطهر، النار التى تحيى، النار التى تلين، النار التى ترفع النفس على أجنحة اللهيب إلى سماء المعانى السامية والميول الرفيعة، والنهوض بالاجتماع نهضة تهتز لها القلوب حمية وطربا! أنى أسر إليك

أمراً وقفت عليه عندما شهدت صدى مقالاتك لدى القراء! رأيتهم جميعاً يتقبلون أقوالك بنظرة الفخر وابتسامة الاعجاب، وأن البذرة التى تزرعها اليوم يد الزارع تنبت سنبلة فى كيانها حياة الغد وعندما تخضر المروج بنضرة الرجاء تتماوج فوق حباتها نسمات الحياة)

(الساعة المفقودة)

فقدت الآنسة مى ساعتها الرشيقة الصغيرة، فكتبت مقالاً رقيقاً يتحدث عن الغائبة العزيزة ـ فالساعة كما ترى الكاتبة ـ صورة مصغرة للكون، مساحتها رمز الفضاء، وحدودها حدود الزمان والمكان، وثوانيها دقات القلب، إذ من الثوانى يتألف الزمان، ومن نبضات القلب يتم نسيج الحياة.

وبعد وصف شعرى رائع قالت الآنسة مى تخاطب الساعة الفقيدة:

«يا بنت أبيك الزمان، إنه يشفق بنا ساعة اللقاء، ويخوننا فى يوم الصفاء، ويهجرنا عند اللقاء فأنت غادرة خائنة هاجرة كأبيك الزمان».

لما أفنت قلبى الوحدة ضغطت بك على ساعدى قائلة: أنت الصديقة التى لا تخون، وقد كنت تعزيتى وكنت زمانى، فما لك تهجريننى الآن؟

إذا وقعت فى يد شرير، وقصد استعمالك ليؤذى أخا، فانقلبى أفعى لساعة، وأفرغى فيه سمك حتى يسقط قتيلاً.

(رسالة الباحثة)

قرأت ملك مقال الآنسة مى فى وصف ساعتها الفقيدة، فكتبت إليها خطاباً رقيقاً تعلن فيه اعجابها بأدبها الرائع، وتحليلها النفسى البارع، ثم قالت مداعبة:

«أني وجدت ساعتك المفقودة، والتقطتها، رأيتك ترثينها بحرقة، فجئت لأمسح دموعك إذ أحب دائماً أن أمسح دمعة المحزون فتعالى إلى لتأخذيها وتستغفريها من وصفك اياها بالغدر وعدم الإحساس فانها أحست بشوقى إليك فأتت إلىّ.

أنها تبث إلىّ ما كنت تشكينه من العواطف والآلام، عثرتْ علىّ وعثرت عليها، لنكفى قلبك شر الفناء من الوحدة، ولنؤكد لك أنك وجدت الصديقة التى لا تخون».

هكذا كانت الساعة الفقيدة وسيلة لزيارة مى للباحثة، إذ دعتها ملك فى لطف ودعابة ليتعارفا تعارفاً ذاتياً بعد أن تعانقتا روحياً! وصادفت الدعوة موضع الإجابة من مى، فخفت إلى لقاء صديقتها فى حلوان، ووصفت خواطر اللقاء وصفاً بديعاً قالت فيه:

«ذهبت إليها والشفق يضرم ناره فى قلب الأفق، والسحب قد انقلبت هنا لهيبا، وهنالك أنواراً، وهنالك ألواناً، أى نفس لا ترتعش اغتباطاً أمام جلال الغروب، والغروب فى مصر أبرع جمالاً منه فى أى قطر آخر على أن اغتباطى بمنظره لم يكن ليلهينى عما ينتظرنى من جديد، ولا ليحبس عن ذهنى أسئلة تتعاقب على فكر المرء قبيل

اجتماعه بشخص غريب، فإننا لا ننفك متسائلين على غير ارادة منا: ترى كيف هو؟ على أى قرار يوقع نغمة صوته وإلى أى الألوان يقرب لون عينيه، كيف يبتسم ويتكلم ويتحرك؟ بل كيف يفكر؟ وعلى أى الأساليب تأتى أفكاره؟ أسئلة إنما تنحصر الجواب عنها فى النظرة الأولى التى يتبادلها الغريبان! لقد تم اللقاء وكانت الباحثة ـ كما وصفتها مى ـ تضحك بسهولة، وفى صوتها رنين كرنين أصوات الأطفال، تضحك كمن يضحك من قلب لم يخالطه معنى الكآبة، ولم تنزل بساحته وطأة الهموم وما أشد ما يسر السامع بهذه الضحكة المملوءة طيبة وذكاء ولولا أن خيالات الفكر والكآبة تتماثل على جبهتها السمراء الجميلة لتساءل المرء: أهو فى حضرة امرأة ذاقت طعوم اللوعة والألم».

(محنة أليمة)

صدقت مى حين تحدثت عن ضحكات الباحثة فى مجلسها الأدبى، إذ لم تكن هذه الضحكات غير ستار لحزن أليم يقطع نياط قلبها، فهى تحاول أن تكتمه جهد المستطاع لتضفى على المجلس روحاً من البشاشة تنأى به عما يثير الكدر ومن أعنف ألوان الصراع النفسى أن يكبت الحزين أساه ليبدو مشرق الصفحة، ضاحك السن، أنه يعانى من آلام القهر، وضغوط الكتمان ما يفتت أحشاءه دون أن يقف على سره أحد، وهذا ما عناه الأديب الكبير الأستاذ على الجارم حين قال:

وأشد الآلام أن تلزم الثغر ابتساما والقلب رهن اكتئابه

لقد كانت باحثة البادية غير سعيدة فى منزل الزوجية ، إذ كانت وهى المتكلمة بلسان المرأة تعاني من ضروب البلاء ما يعصف بهدوئها الآمن ، لقد خدعها زوجها أولاً حين تقدم إلى الأسرة على أنه غير متزوج! ثم بنى بها وكان عقيماً لمرض انتابه فظن أن الباحثة مصدر العقم ، وتزوج ثالثة دون جدوى ، ولم يفسح لأسباب السعادة أن تجد منفذاً لزوجته ذات المشاعر النابضة بالحيوية والتوثب فكابدت من عناء حياتها الخاصة ، ما زاد أعباءها الأدبية ، بل ما أوقد الشجون فجعلت تتمثل بلاء المرأة حين تصاب بما لا تستطيع دفعه ، ثم غلى الضغط على قلبها الرقيق فانفجر فى أزهى سنوات العمر بعد مرض لم يطل أمده ، فروعت الأمة بفقد كاتبتها الأولى ، وسالت أنهار الصحف دامية تقطر دماً ، وامتد الشعور باللوعة امتداداً جازعاً عبر عنه حافظ ابراهيم حين قال فى رثاء باحثة البادية:

لا كان يومك يوم لا ... ح الحزن مختلف الصور
علمت هاتفة القصور ... نواح هاتفة الشجر
وتركت أتراب الصبا ... حزناً يقطعن الشعر
يبكين عهدك فى الصبا ... ح وفى المساء وفى السحر
لاوازع وقد انقضت ... ملك يقيهن الضرر

وجزعت مىّ على صديقتها ، فكتبت رثاءها الحار ، يوم رحيلها ، ونثرت دموعها فى حفلة الأربعين رائية مؤبنة ، ثم أصدرت عنها كتاباً خاصاً ، يحلل آراءها الإصلاحية ، ويصور جهودها الأدبية فأدت واجب الصداقة ، ولبت نداء الحب والوفاء .

(من رثاء مى للباحثة)

تقول الآنسة مى :

كانت عينا باحثة البادية مفعمتين ابتساماً كثغرها ، ولكن إذا أمعن المرء النظر فى أعماقها وجد بعد الغور والكآبة المقيمة وراء الابتسام مما يرى فى عينى المزمعين على الرحيل العاجل ، أولئك الذين لا تطول حياتهم أكثر من زهور الربيع فيذهبون تاركين الجو حولهم معطراً بالعبير.

لقد كان قلب الباحثة يتلظى مضطرما ، ولم تكن ألفاظها إلا شراراً من وميضه ، وبه اختبرت البيئة المصرية ، وهالها ما شهدت من ذل وتعاسة فغمست قلبها فى مداد هو سيال من قلبها النارى ، وكتبت فصولها الخالدات قطعاً متقدة تدخل القلوب وتمتزج بها حتى تصير جزءاً منها يأبى التفرق والانفصال فوداعاً أيتها الراحلة ، لئن نزل البلى بيدك الرطبة فإن الخلود نصيب ذكرك ، فأنت الآن حيث النور الشامل ، والجمال المقيم ، هناك يحيط بك أمثالك من الأرواح الكبيرة فى دار جعلت مقراً أبدياً للذكاء والنبوغ .

وأنا التى عرفتك وأحببتك ترينني جاثية أمام قبر ضم جسمك الثمين وعاشت مى تذكر ملك كثيراً ، ثم رحلت هى الأخرى بعد محنة قاسية لترفرف مع صديقتها حيث التقيا بعد غياب طويل .

إمام العبد الشاعر البائس

يدور حديث الأدباء عن إمام فى خفوت وهمس ، فأنت تجد من يذكر له النكتة الرائعة ، أو البيت الجيد ، أو الحادثة الغريبة ، دون أن يتعدى ذلك . فإذا أردت من يلم بدقائق أخباره ، وينشد بعض أشعاره ، ويحلل مواقفة الاجتماعية والأدبية أعوزك أن تهتدى إلى ضالتك المنشودة ، وخيل إليك أن إماماً شاعر قديماً نشأ منذ قرون بعيدة وسكتت عنه المراجع التاريخية ، فما جاد عليه أحد معاصريه بترجمة وافية تضمن لتاريخه البقاء ، مع أن شاعرنا البائس أديب معاصر ولا يزال يوجد بين أدبائنا من سامروه ، وحفظوا عنه وتندروا به ، ولكن بؤسه الذى صحبه فى حياته قد امتد إلى تاريخه ، فكاد يأتى عليه . والبؤس طاغية جبار ، يصاول الأحياء فى عنف وطغيان ، فإذا لفظوا أنفاسهم بين يديه ، عدا على القبور ، فمزق الأكفان وبعثر الأشلاء !

ولد إمام من عبدين رقيقين قد جلبا من السودان ، وبيعا لبعض الأثرياء ، فورث عنهما السواد والدمامة والبؤس ، ونشأ فى كنفهما يقتات بما يتساقط من فتات الموائد وبقايا الصحاف ، ولكنه منح القوة فى الجسم ، والسداد فى المنطق ، والخفة فى الروح ، فكان رياضيا ممتازاً يصرع أقرانه لدى الصيال ، وشاعراً مطبوعاً يحتكم فى القوافى والأوزان ، وخطيباً تعرفه الحفلات السياسية ، والأندية الإجتماعية ،

وسميرا يؤنس سامعيه بالملحة النادرة، والفكاهة العذبة، وقل أن يجتمع هذا كله لإنسان!!

وكان لونه الأسود موضع التندر بين زملائه وعارفيه، فقاسى من جرائه كثيراً من ألوان التهكم والاستخفاف، وهذا ليس بعجيب، فقد ابتلى كثير من الأدباء قبله ببلواه، فدافعوا عن أنفسهم أبلغ دفاع، وحفظ لنا الأدب قلائد جميلة لنصيب وعنترة والجاحظ، يلجمون بها من ينتقصونهم فى أمر لا يوجب النقيصة، بل وجد فيهم من فضل السواد على البياض، ودبج فى ذلك الفصول الطوال!!

وكان حافظ إبراهيم ـ رحمه الله ـ أقسى المتهكمين لهجة، وألذعهم، سخرية، وكانت فكاهته معه تأخذ طريقها إلى الألسنة فى سرعة فائقة، فما يكاد شاعر النيل يرسل تندره العابث بصاحبه، حتى يتقدم إماماً فى كل مجلس يغشاه، وطالما وقعت بين الشاعرين جفوات متقطعة لما يلوكه حافظ من حديث إمام، ثم لا تلبث السحب أن تنقشع، لما بينهما من صلات جمع بينها الشعر والبؤس والفكاهة وأكدها صفاء النفس، ونقاء الضمير، وقد اشتهر إمام بالشاعرية قبل صديقه، فكان حافظ فى صباه يعرض عليه ما يفيض به خاطره من بيان، فيقوم إمام بصقله وتجويده وتزكيته، ثم مضت الأيام فإذا شاعر النيل يطير بشعره فى آفاق الشرق العربى، وإمام البؤساء لا يجد من يروى قصائده غير حفنة يسيرة لا يمكن أن تلحق برواة حافظ، وينظر العبد إلى مكانه من صاحبه، فيوسع عشاق حافظ لوماً وتسفيها، كما يعلن أستاذيته له فى كل ندوة يدور بها الحديث عن الشعر والشعراء، وحافظ يرد عليه بنكاته العابثة، وفكاهته الساخرة! فينتصر عليه أى إنتصار!!

نظم إمام ... أبياتاً رائعة صادفت هوى فى الاسماع والقلوب، وأذاعتها الصحف مقرظة مادحة، وانتظر الشاعر من حافظ أن يوفيها قسطها من الاطراء والإعجاب، ولكن شاعر النيل يصيح فى ندوة حافلة بالسمار والأدباء إن مثل إمام فى الشعر كمثل «بخيتة فى المطبخ، إذا فى أفلحت هى تعمير «اللمبة» شاع عنها بين أهل الحى كله أنها سيدة الإماء، وكذلك يتلقى الناس أبيات إمام فيهللون له لأنه عمر «اللمبة» بنجاح !!

والواقع أن حافظاً كان مريضاً بمعابثة إمام، فهو لا يرحمه بالسكوت عنه مهما بالغ فى التودد إليه، وكان لا يقصر تندره على قصائده وأبياته، وهى أثمن ثروة يعتز بها الشاعر بل ينتقل إلى ملبسه ومأكله وهيئته، فيوسعه سخرية وعبثاً، لقيه ذات مرة يلبس «كرافتة» سوداء فصاح به: «أقفل قميصك أيها العبد، فصدرك الأسود يضجر الناس!». ووجده ذات مرة يكتب خطاباً، والمداد يتساقط من قلمه فقال «جنف عرقك يا إمام» !! وأمثال هذه المأثورات الحافظية متداولة مشهورة، وكان فى طوق إمام أن يؤدب صاحبه، ببأسه وصرامته، ولكنه كان فى بعض أحواله ينفق من جيبه ويقاسمه قروشه ومليماته مما يدعو إلى التسامح والإغضاء!

ولم يكن حافظ وحده يستغل سواد إمام فى تندره وسخريته، بل إن إماماً نفسه قد اتخذ منه مادة دسمة للحديث عن نفسه، فهو لا يفتأ يردده فى قصائده وأزجاله ويستلهمه كثيراً من المعانى فإذا تحدث الشاعر عن بؤسه وفاقته دار حول سواده ودمامته، وإذا لفحه الحب تذكر سواده الفاحم، فانتزع منه الخواطر المشجية، وهكذا يصبح

السواد مركب النقص لديه، يشعر به فى ألم ومرارة فيسلمه أزمة القوافى والأوزان.

إقرأ إن شئت ما بقى من غزله، تجده يدور فى أكثر قصائده على ما منى به من حلوكة دامسة، وهو فى كل مقطوعة يبتكر ويجدد، فهو تارة يقع فى حوار مع معشوقته البيضاء، فيسألها أن تسدل الليل البهيم على بدر الدجى الساطع، فترفض فى إباء واستعلاء، وتتعجب من عبد أسود يطمع فى غرام غانية عزت على الأحرار البيض، فيجيبها بما يثبت حريته واستقلاله ويصور ذلك إذ يقول:

عذبى القلب كما شئت ولا	تكثرى اللوم فمثلى لا يلام
وأسدلى الليلى على بدر الدجى	فحديث الشوق يحلو فى الظلام
همت بالوصل فقالت عجبا	أيها الشاعر ما هذا الهيام
لم ينل منا الرضا حرٌّ وما	رام منا سيد هذا المرام
أنت عبد والهوى أخبرنى	أن وصل العبد فى الحب حرام
قلت يا هذى أنا عبد الهوى	والهوى يحكم ما بين الأنام
وإذا ما كنت عبداً أسودا	فاعلمى أنى فتى حر الكلام

وهو تارة يعلن أن لونه لم يكن مسوداً قبل غرامه، ولكن لهيب الشوق أحرقه فى قسوة فأحاله من البياض إلى السواد، ولك أن تتصور الجسم الأبيض وقد اشتعلت فيه النار حتى تركته فحمة سوداء .. وهو تعليل طريف مستملح، ولكنه إدعاء فكه تضحك من الشاعر إذ يصيح به:

كتمت فأقصانى وبحت فلا منى	فهاج غرامى بين سرى وإعلانى
وما كان لونى قبل حبك أسودا	ولكن لهيب الشوق أحرق جثمانى

وكأن الشعر لم يتسع ببحوره الضافية لعواطفه « السوداء » فنظم كثيراً من الأزجال المرحة تحوم فى مجموعها حول سواده ودمامته ، وعشاق الزجل يعجبون ببراعته وخفته ، ويشيدون بقصيدة « الزنجية الحسناء » وفيها يقول :

الناس لها مذهب فى البيض ... ومذهبى حب السودان
مرجان متيم ببخيته ... وبخيته مجنونة بمرجان
مين اللى قال الحب عذاب ... ياناس وحق الله افتونى
الليل ومحبوبتى أصحاب ... إزاى عواذلى يشوفونى

ونلاحظ ونحن نطالع غزله المرح ، أنه كان مشبوب العاطفة ، صادق الصبوة ، فهو يغمرك بفيض من الإحساس الصادق ، ونحن لا ننتظر من شاعر مثله أن يثب مع الخيال أبعد وثوب ، فقد كان فى عهد يقتصر فيه أكثر الشعراء على التعبير الفطرى ، والإحساس الأولى ؛ دون جنوح إلى التأمل والاستغراق ، بل إن إماماً قد سلم مما ارتطم فيه معاصروه من الجناس المستنكر، والطباق الثقيل ، واندفع إلى التعبير عن خواطره فى سلاسة ونصوع ، وحسبك منه أن يسكر لسانك بحلاوة اللفظ ، ويطرب سمعك بعذوبة النغم ، فى مثل قوله :

أرى لوعة بين الجوانح لا تهدأ ... أهذا الذى سماه أهل الهوى وجدا
وما ذلك الواهى الخفوق بجانبى ... أهذا هو القلب الذى يحفظ العهدا

أو يقول :

كان هذا الغرام يجرى ورائى ... فى شبابى فصار يجرى أمامى
إنما الحب كهرباء عيون ... لعيون تسرى إلى الأجسام
ما خضعنا لدهرنا وهو ليث ... وخضعنا لنظرة الآرام

أو يقول :

أقام الهوى عشرين حولا بمهجتي — وسار، فمن أوحى له برجوعِ
كأن الهوى ما أكرمته ربوعها — وصادف إكراماً له بربوعي

ورغم هذه المقطوعات الجياشة بالحنين إلى المرأة، المتشوفة إلى ظلالها الوارفة، قد قضى الشاعر حياته عزباً لم يتزوج، ولسنا نحار فى تعليل ذلك؛ فتكاليف الزواج مرهقة لا يحتملها شاعر معدم، تتلوى أمعاؤه فى أكثر أوقاته جوعاً وسغباً، ويتحرق إلى مسكن ضئيل يقيه برد الشتاء وحر الهجير، وقد كان الأدب على عهده لا يغنى من جوع. أو يدفع من فاقة، بل يظل الأديب متردداً على الأندية والمقاهى دون أن يجد من يدفع به إلى باب يرتزق منه، وكانت الصحف السياسية والأدبية من القلة بمنزلة لا تهيىء لها النهوض بجملة الأقلام، وبخاصة إذا كانوا من طراز إمام ممن يتهالكون على الشراب تهالكاً يستنفد جميع ما لديهم من مال! وتلك حالة جديرة بالرثاء حقاً!. وقد نظر إمام إلى الزواج ككارثة مروعة تؤجج اللوعة والحيرة، وصور للقراء ما يعقبه من تبعات ومصاعب، ونعرض هنا جانباً من أبياته فى ذلك لنكشف عن بعض ما يتصوره من اضطراب وقلق إذا ارتطم بالزواج، وإن كنا نرجع باللائمة فى هذه النظرة إلى سلوكه المضطرب، وتربيته العوجاء، وزمنه الجحود.

قال الشاعر:

أيها العاقل المهذب مهلا — هل رأيت الزواج فى الدهر سهلاً
كل عام يزاحم الطفل طفل — ليتنى عشت طول عمرى طفلاً

ذاك يحبو وذاك يمشى وهذى فوق صدر؛ وتلك تنشد بعلا
ضاق صدرى من الزواج فمن لى بحياة الخصى قولاً وفعلاً
كان هذا الشقى جسماً فلما أنكهته الهموم أصبح ظلا

وهكذا يئس الرجل من الزواج فلم يطرق بابه، وقد ادعى فى مقطوعة أخرى أن لديه مانعا يحول دون زفافه، فهو كالليل الحالك، وكل حسناء شمس منيرة، واجتماع الليل والشمس من ضرب المحال (١)، وهذا إدعاء خطابى، فلكل ساقطة لاقطة كما يقال:

وتسألنى عما نظمه إمام البؤساء مصوراً فاقته وعدمه؟ والحق أنه أسهب فى تبرمه وتوجعه لحالته، وكان يحز فى كبده أن يجوع وتأكل الماشية. ويعرى وتكتسى الأضرحة، ولولا أنه كان يسرِّى عن نفسه بمجالس السمر ومطارح الفكاهة، لاحترق بما يشتعل فى صدره من جحيم، وقد كان ككل أديب بائس ـ يظن لديه من الحصافة والمرونة ما يؤهل له العيش الرغد، والنعيم المنىء، فإذا صدمه الواقع المرير بالبؤس والمتربة ثار على الوضع الحائر، وندب الحظ العاثر، وتطلب المكانة التى يصورها له خياله. وإنها لبعيدة عنه أشد ابتعاد. وقد كان من القسوة الغليظة أن يلقبه الناس بالعبد وهو الأديب الحر العيوف، وماذا يصنع فى لقب ورثه عن أبيه، ولازمه كالظل فما ينفك عنه أبد الحياة، إنه ليقابله بالعتب المرير، ويصيح كالساخر العابث؟

نسبونى إلى العبيد مجازا بعد فضلى واستشهدوا بسوادى
ضاع قدرى فقمت أندب حظى فسوادى علىّ ثوب حداد

(١) قال إمام.
أنا ليل وكل حسناء شمس فاجتماعى بها من المستحيل

وإذا كان السواد ثوب حداد على حظه الضائع، فإنه فى موضع آخر حداد على قلمه الكاسد.. هذا الذى لا يجر نفعاً لصاحبه، وهو أحرى أن يملأ يديه بالذهب النضار. لو عاش بين قوم يقدرون فضله، ويحترمون مواهبه، وقد تمنى الشاعر أن يكون قلمه سهماً مسدداً إلى فؤاده، فيريحه مما يكابد من عناء. وتلك أمنية ترمض الجوانح، وتدمى الجفون، ولكنها فى رأيه سبيل الخلاص. ومرفأ النجاة.

ها هو ذا يقول:

لبست لأجله ثوب الحداد	ودرت مع الزمان بغير زاد
أمد يدى إلى قلمى افتقارا	فيدفعنى إلى تلك الأيادى
فياليت اليراع يصير سهما	كما أبغى ويكتب فى فؤادى
سئمت من الحياة بلا حياة	وضقت من الرشاد بلا رشاد
وكيف يهيم بالدنيا أديب	تسربل بالسواد على السواد
إذا أكل الطعام فمن تراب	وإن شرب المياه فمن مداد
كأن الدهر يغضبه صلاحى	فأفقرنى ليرضيه فسادى

أو يقول:

وما قتلتنى الحادثات وإنما	حياة الفتى فى غير موطنه قتل
وما أبقت الدنيا لنا من جسومنا	على بأسنا ما يستقيم به الظل

وكأن الحظ قد سد أذنيه عن قلم إمام فلم يصغ لحظة واحدة، إلى صرخاته الفاجعة. ومازال يتقلب على أشواك الحرمان حتى دهمته العلة بعد خمسين عاماً من عمره الجديب، فطالما نفث بمداده السحر، وشنف بصريره الاسماع، فطفق يودعه فى حرقة وتلهف، وينشد

الرثاء الباكى الذى ناح به على نفسه وهو يكابد العلة القاتلة، ويصاول الداء الفتاك، ثم سبحت روحه إلى آفاقها الرحيبة، بعد أن ردد هذه الزفرات الأخيرة:

يراعى، لقد حان الفراق وربما ... أراك على العهد المقدس باقيا
لبست عليك الليل حزنا وليتنى ... لبست على نفسى الدجنة ثانياً
مضت بيمينى الحادثات جهالة ... فلما رأت صبرى مضت بشماليا
وكيف يطيب العيش والدهر مدبر ... وفى القلب ما يفرى الحسام اليمانيا

* * *

عبد الحميد الديب كما أراه

كتبت بالرسالة (٩٥٨) مقالاً عن الشاعر البائس المرحوم محمد إمام العبد وقد خطر لى أن أتبعه بمقال عن زميله البائس عبد الحميد الديب ـ رحمه الله ـ ومازلت أترقب فرصة الحديث عن الشاعر حتى سنحت اليوم وقد لاحظت أن الرجلين متشابهان فى أكثر من وجه، فكلاهما بائس معدم ضيّق الرزق ، يشتهى الحظوة والسعادة والجاه .

وكلا الرجلين شاعر ملهم يصوغ خواطره وأشجانه مستلهماً واقع حياته، وظروف معيشته، فتأتى قصائده حارة ملتاعة، تنطق بالكآبة، وتتسم باللوعة والقنوط .

وكلا الشاعرين ـ رغم فاقته المدقعة ـ كان مجالا للفكاهة والتندر، فتارة يبتدع النكتة المرحة، والملحة العابثة، وتارة تدور عليه القفشات البارعة ويتخذ منه أداة للترفيه، والترويح فى المجالس والمنتديات .

وكلا الشاعرين قد اضطر اضطراراً إلى التجارة بالشعر، فكان يكتب القصيدة فى أى موضوع يملى عليه، ويبيعها إلى المتشاعرين نظير مبلغ خاص يرتزق به، ثم تنشر فى الصحف بعد ذلك ممهورة باسم المشترى المحتال .

وكلا الرجلين ـ أخيراً ـ دميم الخلقة، عبوس الوجه، ممزق الثوب يحمل رائيه على السخرية والعبث به، لولا ما يرفرف فى أضالعه من روح عذبة لطيفة، تبعث فى محضرها أنواعاً مرحة من الخفة والبشر والابتهاج.

نشأ إمام فى كنف عبدين رقيقين، ونشأ عبد الحميد فى ظل أسرة متوسطة بإحدى قرى المنوفية، كان عائلها يتاجر فى القطن فأصاب ربحا جزيلاً منه، ثم اجتاحه سوء الحظ فتحول إلى المتربة والإدقاع، وتقلب فتاه معه فى حالتيه، فرفل فى مطارف النعمة والسعادة حينا، ثم احترق فى لهيب الفاقة والحرمان حيناً آخر. وقد كان هذا التناقض المفاجىء فى حياته ذا أثر هام فى شخصيته، فقد أورثه تناقضاً ملحوظاً فى طباعه، فكان سريع الغضب والرضا معاً، يضحك فجأة ويسخط فجأة، ويمدح ويشتم، ويتفاءل ويتشاءم، ويعصى ويستغفر، كل هذا فى آن واحد ومجلس واحد، مما جعل أصدقاءه يتقبلونه ويألفونه دون أن يجدو فيه موضعاً للمؤاخذة والعتاب.

وقد نشأ إمام العبد فى جيل لا يشجع الأدب والأدباء، فالأمية فاشية، والصحافة تسير بخطى متعثرة، والقراء هم الأدباء أنفسهم، إلا ما ندر من الأغنياء والموظفين، لذلك سدت أمامه سبل العيش ولم يجد فى الشعر والأدب متجراً رابحاً يدر عليه الرزق والمال!! ولكن عبد الحميد نشأ فى جيل يختلف عن جيل صاحبه، فقد كثر عشاق الأدب والصحافة، وأصبح الأدباء يرتزقون بثمرات أفكارهم، وأسلات أقلامهم. وهنا نجد أنفسنا نواجه سؤالاً هاماً عن عبد الحميد الديب:

أكان بائساً حقاً؟ أم أنه قد احترف البؤس احترافاً، وكان فى متناوله أن يصبح سعيداً محظوظاً، كأصدقائه من الكتاب والشعراء؟ لقد سمعنا كثيراً ممن يبكون عبد الحميد، يتحسرون على شبابه الضائع فى أمة لا تقدر الأدب.. ولا تعترف بالمواهب، فهم ينحون باللائمة على مجتمع يهمل النابغين، ويحتقر المواهب والكفايات!!

سمعنا ذلك، وقرأناه مرات ومرات، ولكنا قرأنا بمجلة الرسالة (٦٩٦) رأياً آخر للكاتب الفاضل الأستاذ عباس خضر، يتهم به الشاعر باصطناع البؤس واحترافه، ويدفع عن مصر ما ينسب إليها ـ ظلما ـ من إحتقار المواهب والنبوغ، وسننقل هنا خلاصة هذا الرأى الفريد، ثم نعقب عليه بما نراه؛ قال الاستاذ عباس خضر «إنما يأتى البؤس والحرمان من التعفف مع عدم القدرة على الارتزاق، وقد كان الديب على عكس من يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف إذ كان من العفاة السائلين، وكثيراً ما هيئت له أسباب العمل، فقد وظف عدة مرات فى التدريس بمجالس المديريات، وطالما دعى إلى التحرير بالصحف والمجلات، فكان يبدأ العمل، وينقطع عنه بعد قليل، وفى بعض الأحيان كان يحتال لأخذ المرتب مقدما ثم يذهب ولا يعود».

ويقول الكاتب الفاضل بعد كلام طويل يدور حول ذلك «وهذه هى الحقيقة فى حياة عبد الحميد كما يعرفها خلطاؤه، لا كما يحلو لبعض الناس أن يصورها، فلم يكن البؤس يأتى إليه قدراً لا يد له فيه، وإنما كان يصنع البؤس صنعاً، كان يحصل على المال فيبذره تبذيراً فى أدنياء الوجوه، وأقذر البيئات، ثم يجوع ويعرى، بصنيعه، وكانت تعوزه الكرامة والعزة والإباء والعفة، ليكون بائساً حقيقياً،

وكان لايتحرج من أى وسيلة للإستفادة المادية، ولايتورع عن أى شتم، ولم ينج من هجوه أحد ممن عرف سواء أعطاه أم منعه، فعلى الناعين على هذا الوطن جحوده وأهماله النابغين من أبنائه أن يلتمسوا المثال فى غير عبدالحميد الديب، ويعفو التاريخ من التزوير والتزييف».

هذا هو رأى الأستاذ عباس خضر. ونحن نخرج منه بنتيجتين، أولاهما أن المجتمع المصرى قد قدر الشاعر، وفتح له أبواب الرزق فسدها بيديه، وثانيها أن الدبب قد اصطنع البؤس اصطناعاً وكان فى مكنته أن ينعم بالمال والسعادة، لو سلك الطريق القويم.

ونحن نوافق على النتيجة الأولى، فنبرىء المجتمع المصرى من إحتقار المواهب ممثلة فى الديب، فقد مهد للشاعر سبيل الرزق، وأعد له الوظيفة اللائقة، ومنحه الزملاء والأدباء مايكفيه من المال لو اعتصم بالحكمة والسداد هذا حق لامرية فيه، وعلى الناعين على الوطن إهماله وجحوده أن يلتمسوا المثال فى غير الديب كما يقول الأستاذ عباس ـ كأن يلتمسوه مثلاً فى إمام العبد، الذى نشأ فى غير جيل عبدالحميد، فكابد من الجوع والحرمان ما أورثه التعاسة والشقاء.

أما النتيجة الثانية، فسنخالف فيها الكاتب مخالفة صريحة، فقد كان الديب ملتاث العقل، لايعى مايصنع، بل تضيق به نفسه، فيترك الوظيفة، ويهيم على وجهه دون أن يستمع إلى منطق أو تفكير سليم، وهذا الذى لايملك زمام نفسه، بل يهوى به الشرود والذهول

إلى هوة مؤلمة، فيمزق ثوبه وحذاءه، ويتراكم الغبار على رأسه الأشعث، ووجهه الشاحب، وأسنانه الصفراء، ثم يرسل الضحكات بلا مناسبة، ويرفع الصوت عالياً دون مبرر، ويبكى ويضحك فى آن واحد، هذا الذى يفعل ذلك كله، لا يكون متمتعاً بقواه العقلية كاملة تامة فيمتهن البؤس ويحترفه، وكل مايقال عنه أنه تائه شريد، لا يعى مصلحته، ولا يقدر نفعه، فهو - إذن - جدير بالرحمة والإشفاق.

لو كان الديب يصنع البؤس عامداً، ويتخيره عن روية وتفكير، ما دفع به الحظ التعس إلى مستشفى الأمراض العقلية. فيقضى شهوراً سؤلة بين عالمه المزدحم بالممرورين والمجاذيب. ولكنه جن جنوناً حقيقياً، فانحدر إلى هذا المهوى السحيق.

لو كان الديب يصنع البؤس عامداً ماقضى شهوراً مريرة فى السجن، تكتنفه الظلمات، وتتغشاه الغياهب، ويجاور السفلة من المجرمين والأوغاد، ويقول عنهم فى حنق وأسف:

بنو آدم من حولنا أم عقارب	لها فى الحشا قبل الجسوم دبيب
لقد كنت فيهم يوسف السجن صالحاً	أفســـر أحلاماً لهم وأصيب

لو كان الديب يصنع البؤس عامداً، ماقطع الليالى الباردة فى زمهرير الشتاء، هائماً فى الطرقات، تتقاذفه الشوارع والأزقة، وينهمر المطر غزيراً فوق رأسه، وترتعش أضالعه، وتصطك أسنانه كالمقرور، ولا يدرى أين يذهب ويلتجىء، حتى يسمع صوت المؤذن فى الفجر، فيعلم أن المساجد قد فتحت أبوابها للتائهين، فيهرع إليها محتمياً بجدرانها

من السيول الدافقة، ويجد نفسه مدفوعاً إلى الصلاة بدون رغبة سابقة، فيقول:

إذا أذنوا للفجر قمت مسارعا ... إلى مسجد فيه أصلى وأركع
أصلى بوجدان المرائى وقلبه ... وبئست صلاة يحتويها التصنع

لو كان الديب يصنع البؤس عامداً، ما ترك دار العلوم دون أن يتم سنواتها الدراسية، وقد كان قريباً من مؤهلها الذى يضمن له الهدوء والإستقرار، دون أن يتساقط على الفتات. لو كان الديب يصنع البؤس عامداً ما كابد هذه الشرور والأهوال، ولكنه ذو عقل ملتاث يدانيه من المخاطر، ويباعده عن الأمن والاطمئنان، وأمثاله كثيرون ممن تضج بمآسيهم الحياة ولا يجدون الراحة فى غير المقابر الحالكة، بعد أن يطوفوا طويلاً بالسجون والمستشفيات؟ أليس هو القائل:

جوارك يا ربى لمثلى راحة ... فخذنى الى النيران لا جنة الخلد

فماذا بعد الحنين إلى الموت والفزع من الحياة؟!

ولم يكن جنون الديب دائماً، بل كان متقطعاً يواتيه الفينة بعد الفينة، وبذلك استطاع أن ينظم الشعر الرائع، وأن يخلد ذكره بين الأدباء، كما خلد المجنون الأكبر قيس حديثه بين العشاق.

وقد كان للشاعر حالات صحوه التى يرى فيها الدنيا بعين اليقظ المتأمل وكأنه حينئذ يرقب ما أسلف من أقواله الهازئة وأعماله الساخرة، فيروعه أن يكون من الناس بمنزلة الشاكى الذليل المتكفف ويحاول أن يغير ما أشتهر عنه من الإنحدار والتهور، فيلبس الملبس

اللائق، ويجلس الجلسة المحتشمة وينشد أشعاره فى المثل العليا، كمفكّر فى هذا الوجود ويبشر بالخير والفضيلة، وقد تغلو به هذه الحالة إلى حد مضحك حيث ينسى واقعه المضنى وما أفرط من شكاية واتضاع، ويتصور نفسه إنساناً كريماً نبيلاً مترفعاً، يحصن كرامته بالكبر والفضيلة، ويتستر بين الناس بالتجمل والتعفف، ويقول معبراً عن تصوره الموهوم مخاطباً غرفة سكناه.

يا غرفتى ما عشت أحبوك الرضا	فلقد حجبت عن الورى أوصابى
ووقيتنى فى مدمعى وشكايتى	أذن اللئيم ونظرة المرتاب
قالوا استقام لك الزمان وإنما	أوهمت حسادى بلمع سراب
حصنت بالكبر العظيم كرامتى	وأنا النبيل الشهم بين صحابى
والناس إن لحو الغنى فى كائن	رفعوه فوق مراتب . . .

فهذه الأبيات حلم من أحلام اليقظة لدى الشاعر، إذ يعبر فيها عن صفات يحبها ويتمنى أن يتصف بها بين الناس، فهى من هذه الناحية صورة منعكسة لسخطه المرير على واقعه ومحاولة متعثرة للهروب من حياة شائهة يراها تضرب عليه الأسداد الحالكة من شمال ويمين! وهذا مايوحى بأن المريض المضطرب كان فى حاجة إلى معالجة نفسية طويلة ليستطيع أن يتخلص شيئاً فشيئاً من محيطه النفسى الكريه. ولكن أصدقاءه.. كانوا ذاهلين عن حقيقة مشاعره الأصلية وكأنهم رأوا فى اضطرابه المتقلب مادة للتندر والفكاهة، فحرصوا أن يبدو أمامهم بشذوذه ومفاجآته ليظل موضع السمر والتندر. وهم إذا قرءوا مثل هذه الأبيات المترفعة المتشوفة إلى عالم التعفف والتصون لم يفطنوا إلى منزعها الأصيل فى التعبير عن أشواق مكظومة، وأحلام

بعيدة يحاول الشاعر أن يتخطى وحله الوبيء إلى أفقها الحالم، بل رأوا فيها عنصراً آخر من عناصر الفكاهة لدى شاعر منحدر يقترف الموبقات، ويرتكب المآثم، ولا يرى في مزاولة التسول انحداراً يهون معه قدره لدى للناس، ثم هو بعد ذلك يقول:

حصنت بالكبر العظيم كرامتي وأنا النبيل الشهم بين صحابي

وكان أحرى بهؤلاء أن يقفوا من صاحبهم الديب تجاه مأساة لا ملهاة، لو فهموا منزعه الأصيل.. ونحن لا نستطيع أن نحكم على شعره حكماً صادقاً صريحاً، لأن شاعريته تجلت في أهاجيه المريرة اللاذعة، وهي لم تنشر على الناس في كتاب، ولا يسمح من يحفظها من أصدقائه بتدوينها في صحيفة أو كتاب، لبشاعة ما تحمل من التجني، والاسفاف، فكيف نحكم عليها وهي لا تزال في طي الكتمان. على أني قرأت كثيراً مما نظمه في بؤسه وحرمانه، فوجدته يتمتع بسلاسة اللفظ ووضوح المعنى، وصدق العاطفة، وكان يصور شجونه كما ترتسم في نفسه، دون أن تتعمق به الفكرة أو يطير بجناحه الخيال، بل يقتصر على الوصف الصادق، لشعره المتألم، وإحساسه الملتاع، كأن يقول:

أفي غرفتي يارب أم أنا في لحدى ألا شد ما ألقى من الزمن الوغد

فأهدأ أنفاسي تكاد تهدها وأيسر لمسي في بنايتها يردي

تراني بها كل الأثاث، فمعطفي فراش لنومي، أو وقاء من البرد

أرى النمل يخشى الناس إلا بأرضها فأرجله أمضى من الصارم الهندى

تحملت فيها صبر أيوب في الضنى وذقت هزال الجوع أكثر من غاندى

أو يقول :

أرى الحوادث آسادا مقذفة ... علىّ دون الورى تعدو وتقتتل
فكم تصوح عودى بعد نضرته ... وكم خبا فى دياجى عمرى الأمل
كأن حظى رحيق الدهر يشربها ... بكرا معتقة ، فالدهر بى ثمل
إذا تطلبت عيشى مت من كمد ... وإن تطلبت حينى يبعد الأجل
جوعان ، يامحنة أربت على جلدى ... كأن ليلى بيوم البعث متصل

أو يقول :

أذله الدهر لامال ولا سكن ... فتى تزيد على أنفاسه المحن
إذا سعى فجميع الأرض قبله ... وإن أقام فلا أهل ولا وطن
مهاجر بين أقطار الأسى أبدا ... كأنه بيد الأرزاء مرتهن
كأنه حكمة المجنون يرسلها ... بغير وعى ، فلا تصغى لها أذن

هذه بعض النفثات الحارة التى نفس بها الشاعر عن صدره ، وهى قريبة من نفثات إمام العبد التى نشرنا بعضها من قبل . والشاعران كما يلاحظ القارىء متماثلان فى الغرض والمعنى والصناعة ، ولكن بيئة إمام الشعرية لم تكن تسمح بالابتكار والتنوع ، كما سمحت بها بيئة الديب ، فقد وجد من شعراء عصره ونقاده ، عمالقة موهوبين ذهبوا بالشعر مذاهب مختلفة ، وفتحوا له آفاقاً رحيبة . وطبيعى أن يتأثر بما يقرأ ويسمع ، لذلك نجده يجنح إلى الشعر التحليلى فى قصائده التى نشرها بالمقتطف ، كما يميل إلى الشعر القصصى فينظم منه قصيدتيه : « أحزان الأسد » ، « ووفاة القمر » وفيهما طرافة وأناقة فى المعانى والأساليب . وقد وفق توفيقاً بارعاً فى قصيدته « غنى الجار » فجاءت

مثالاً جميلاً للتصوير الصادق، الموشي بحلة زاهية من الأناقة والسلاسة. وقد تغلغل الشاعر إلى أعماق جاره الشحيح فرسم كبرياءه وغروره، وصور اشمئزازه المفتعل، وتعاليه الوضيع، وأضفى على أولاده من البهجة والأنس أفوافاً ناضرة، ثم انحدر به إلى أسفل دركات الإنسانية.. حين جعله يجثو ذليلا ضارعاً، أمام دريهمات حقيرة، يستلها من جيب مفلس محتاج وقد بلغت خطراته الشعرية من الجودة مبلغاً رائعاً، وهي جديرة بأن تكون ختاماً طيباً لهذا المقال، قال:

على القرب مني كنز قارون ماثلا ... ولما أنل منه سوى حرقة اليأس
تكبر فالألفاظ منه إشارة ... كأن عباد الله طرا من الخرس[1]
وإن نطق الفصحى فمن طرف أنفه ... كنفخة ذي جاه رفيع من الفرس
له أسرة كالروض زهرا صوادحًا ... فمن شامها ألفى ملائك فردوس
بنون بنات كالورود ملابسا ... يمرون كالاصباح معتدل الطقس
يمر على سكناى في ذيل بيته ... مرور عيون الموسرين على الفلس
صحوت على قصف الرياح وصوته ... وما أحدث الطرق الشديد من الجرس
يطالبني بالأجر في غيظ بائع ... تصيده المحتال بالثمن البخس
وأسمعته صوت الدراهم فانحنى ... يقدم أعذار اليهود من الوكس
وأخضع فقرى كبره وثراءه ... وأي غنى للحر غير غنى النفس

(١) ألفت القراء إلى جمال التصوير في هذا البيت.

الدكتور عبد الكريم جرمانوس
شرقي لا مستشرق

يشعر قارىء المرحوم الدكتور عبد الكريم جرمانوس أنه مع كاتب شرقى لامع مستشرق مجرىّ، لأن الرجل الكبير منذ سعد بالإسلام أخذ يحس بإحساس الشرقى المسلم، فهو يكتب بروح الحب الخالص عن ثقافة العرب وفقة الشريعة وكتاب الإسلام وباحثيه حتى لتجده يتلمس شتى التبريرات قبل أن يؤاخذ، من يستحق النقد الصارم من مفكرى الشرق وأدبائه وشعرائه. وكنت أحس فى أعماقى أن نزعة الفن فى روح جرمانوس أقوى من نزعة العلم فى عقله، وذلك حين أجد بين سطوره رفرفة مجنحة، وتصويراً موحياً، لا يكونان لغير شاعر موهوب! ويزداد هذا الإحساس عمقاً لدى حين أطالع ما كتبه فى مولفه الخالد (الله أكبر)، حيث سجل قصة إسلامه بالهند، وطلبه العلم بالأزهر وطوافه بالبيت فى مكة باسلوب لا ينقصه غير الوزن والقافية حتى يكون شعراً نابضاً، وكدت أشعر أن جرمانوس عاشق عذرى، إذ أطالع ذكرياته، فهو يتحدث عن أمور وجدانية شديدة الوهج تتصل بسواه، ولكن من يتعمق إيحاءها الخاطف يشعر أن المتحدث عاشق هو الآخر، لأن الذى يبدع حديث الصبابة هذا الإبداع، إنما ينفس عن ذات نفسه حين يتحدث عن سواه، بل إنه ما كان ليطيل هذا الحديث إلاّ ليخفف أوارا يلتهب بين جوانحه، ويتطلب الذيوع الملّح ولو بغير طريقه المباشر، وما ظنّك بحاج يتحدث

عن عرفات والصفا والمروة ومنى والكعبة ، ثم ينتقل طائراً ليسجل مشاهد وجدانية عرفها عند من آنسوا صحبته وأكرموا وفادته من سراة المكيين ، وما تسجيله « فوتغرافيا » يرسم المشهد الظاهرى وحده ، ولكنه كان تسجيل من يتغلغل إلى أدق الخوالج محللا ، راصداً مكان اللوعة من الجرح الناغر، والقلب الملتاع .

فى فندق سميراميس

وقد اعتاد جرمانوس أن يشرفنى بلقائه حين يزور القاهرة منذ تشرفت بصداقته ، والرجل محدث بارع ينتقل من خاطرة إلى خاطرة كما ينتقل الطائر من غصن إلى غصن ، ومثله فى ثقافته المتشعبة ، ووجدانه الحسّاس وعمره المديد ورحلاته الكثيرة ، يجد من مشهيات الحديث ما يمتع جليسه مهما امتد الزمان ، لذلك كنت أوثر الاستماع إليه بحيث لا أتكلم إلاّ حين تتحتم الإجابة ، ولخير لى أن أقتنص المفيد من الحديث من أن أقف عائقاً دون الاسترسال . وكنت أتمنى أن يتطرق صاحبى إلى ذات نفسه ، فيتحدث عما ظننته من صبوته اللاهفة حتى جاءت المناسبة دون تمهيد! والله يعلم تلهفى الزائد على اجتلاء شغاف الرجل ، وما يستكن فى لفائفها من أسرار، فأتاح لى أن أبلغ مناى سهلاً ذلولا ، دون أن أطلب ما عساه يحرج صاحبى من استفسار، وكأن الثمرة قد سقطت تلقائياً من غصنها العلوى دون أن تمتد إليها يد سقطت بفعل الجاذبية وحدها ، لا أنسى مجلسى معه فى (سميراميس) قبيل الغروب فى الردهة الواسعة بالدور الأول ، وكان الرجل الكبير يسبح فى حديث رائع عن مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وقد دُعى إليه إذ

أنه عضو مراسل عن المجر، كان الرجل يفيض فى حديثه حين دخلت فتاة عربية تضع الخمار على وجهها بحيث لم يبد غير عينيها الواسعتين، وكان ثوبها الحريرى الأسود يظهر قوامها الرشيق فى أجمل مظهر، وقد عبرت أمامنا ففاح عطرها ساطعاً جاذبا، حتى لكأن الردهة قد تحولت إلى روضة وارفة وورود، وأخذت طريقها إلى السلم فى إيقاع مطرب رنّح عطفى صاحبى! فوجدته ينهض واقفا، ثم ينظر مشدوهاً، ويجلس فيما يكاد يستقر حتى يرمى ببصره إلى السلم. ويقول:

شبيهتها والله!! شبيهتها والله!! لكأنها هى بينها! شبيهتها والله!! ونظر إلىّ وقد اكتسى وجهه بحمرة ساطعة كادت تعيد إليه شبابه وهو ـ حينئذ فوق الثمانين ـ ثم جعل يدور بعينيه ويقول: ليست إياها! ولكنها شبيهتها فحسب!

كانت هذه الحركات المضطربة، والنظرات الحائرة موضع العجب منى، وقد آنست بين ألفاظه ما شجعنى على أن أسأله فى حياء.

ـ أتقول شبيهتها! فمن هى؟ ففاجأنى جرمانوس يقول:

ـ حبيبتى القاهرية! لقد كدت أموت غراماً بها! رأيتها عند استاذى الشيخ، وتكررت رؤيتى بها، وأظنها بادلتنى الحب! ثم حرمت منها! لقد كتب الأستاذ محمود تيمور قصة غرامى بها! ابحث عنها، وستجدها فى إحدى مجموعاته القصصية! ستعرف كل شىء!

ولم أجد من اللياقة أن ألح على صاحبى فأطلب المزيد بعد أن أحال على تيمور، فتشعب الحديث إلى موضوع آخر. وقد صممت أن أعرف السر لدى القصصى الكبير.

استقصاء وفحص

أخذت أجمع مؤلفات تيمور، وأقرؤها منقبا لأجد قصة جرمانوس، فلم أوفق إلى ما أريد، ثم راسلت صديقى العزيز الأستاذ نقولا يوسف، وهو صديق تيمور وجرمانوس معاً، فلم أظفر لديه بما يغنى، حتى كدت أيأس، ولكنى اطلعت مصادفة على مجلة (قافلة الزيت عدد ذى القعدة ١٣٨٩ هـ) فرأيت لمحمود تيمور مقالاً رائعاً بديعاً تحت عنوان (الدكتور عبد الكريم جرمانوس عاشق الشرق والعروبة والإسلام). وقد أجاد القاص الكبير وصف صاحبه وكان مما قاله عنه: «جرمانوس شخصية فذة بالغة الظرافة، فى إهابها تتلاقى ألوان مختلفة، فتصوغ منها مزاجاً لا يتوافر إلا للأقلين، إنه نموذج الرجل (الجنتلمان)، فهو محبب إلى الأندية الرفيعة، والمجالس الأنيسة، بما يحف به من ظرف ولطف ولباقة، وهو حليف درس وبحث وإكباب على المطالعة، وقدرة فائقة على اكتساب اللغات، وامتصاص ما تهفو إليه نفسه فيها من معارف وهو قبل ذلك وبعد، رجل جوابة مطواف فى أعماقه هوى الرحلة والطموح والمغامرة، لا يقنع فى ترحاله بالسفرة الخاطفة، والمرور العابر كما يصنع السواح، ولكنه يقيم اقامة رواد الكشف والتنقيب وطلاب التعرف والاستقصاء، فهو ابن بطوطة، أو سندباد العصر، ومن ثم أصبح معلمة جغرافية اجتماعية للجوانب البارزة، فى الدنيا عامة، وفى الشرق خاصة،

بدأ حياته محبا للموسيقى وعازفاً للكمان، وهواه للموسيقى أرهف من حسه، وأذكى من خياله، فصاحب ذلك كفاحه الدراسى فجمع بين العلم والأدب، بين الطاعة لنداء العقل والانجذاب إلى هتاف

الروح، بين الارتباط بالواقعية الكادحة، والتطلع إلى الرومانسية الحالمة» .

وهذا رائع من تيمور... ولكن الأروع منه لدىّ أن يذكر فى هذا المقال أنه استوحى من جرمانوس موضوع قصة سماها «المستعين بالله» قصة جوال سائح يأتى إلى القاهرة فيسكن حى الحسين، ويلتحف بعباءته البيضاء حين يطوف بالحى فى ملابسه العربية الفضفاضة، حريصاً على أن يصلى الفجر بالمسجد، وأن يترشف صوت المؤذن فى سكون الليل!

وإذن فقد عرف عنوان القصة وهو «المستعين بالله» وعلينا أن نبحث.

خلف اللثام

أعدت البحث ثانية فى المجموعات القصصية للكاتب الكبير، وقد وجدت طلبتى فى المجموعة التى سماها «خلف اللثام» إذ جاءت القصة الثالثة تحت عنوان: (المستعين بالله، الكابتن هاردى) . ولكيلا يتم القصاص عن صاحبه نميمة تامة، فقد جعل بطل القصة ضابطاً بالجيش الانجليزى، فهو إذن ليس مستشرقاً مجريا! ولكنه فيما عدا ذلك فحسب، هو الدكتور جرمانوس بعظمه ولحمه ودمه وقلبه وحبه! كان جرمانوس يسكن بحى الحسين وكان يطلب العلم بالأزهر، ويصاحب شيخاً كبير السن من علمائه.. يقرأ عليه قواعد اللغة العربية، وكتب التاريخ والتشريع، والأدب وله مجلس يومى فى دار الشيخ الأزهرى! وهى دار عتيقة ذات طابع تقليدى إذ يشد الخادم الحبل من الطابق

الثانى فينفتح الباب، ويدخل الضيف صاعدا أعلى السلم، حيث يسلم على شيخ فى السبعين من عمره هو أستاذ اللغة العربية، ومن العجائب أنه فى شيخوخته الواهنة، تزوج فتاة حسناء دون العشرين، هام بها الطالب المجرى هياماً صامتاً، وقد شغل نفسه برسمها فى لوحة دفعها إلى مكان عزيز فى غرفته التى يقول عنها تيمور:

« جعلت أنقل بصرى فى الحجرة أتفحص ما حوت، فوقعت عينى على صورة لم أكن قد لاحظت وجودها، صورة وجه نسوىّ ليس بالوجه المكتمل، وإنما هما عينان دعجاوان ينبسط تحتهما خمار أسود رقيق النسج يكاد يشف عن ملامح وسمات، فنهضت إلى الرسم أتوسمه مليا، وقد خلبتنى هاتان العينان بحورهما الساحر واهدابها الوطاف ».

هذه هى الصورة، ولابد للفنان المصرى من رؤية الأصل، وقد لاحق صاحبه استفساراً وملاطفة واحتيالاً حتى صحبه إلى منزل الاستاذ ذات مساء، فماذا وجد؟

لقد سطر تيمور بعض ذكرياته، هناك حين قال: كنا ندلف إلى حجرة الشيخ الغبراء المعتمة، فنجده غريقاً بين كتبه، تشرف عليها عمامته الحمراء الضخمة، رمزه العتيد الذى لا يتزايل عنه مهما جدّ من أحداث، ومهما تعاقب من أجواء، ولا نكاد نطمئن من مجلسنا إليه حتى يصفق بيدين هزيلتين صائحاً بصوته المختنق. القهوة يا نور!

وما هى إلاّ أن تحضر « نور العين » حاملة صينية عليها إبريق تحف به أقداح بلدية، وموقد يتوهج فيه الجمر، وتتعالى منه سحائب البخور، ثم تتربع عن كثب من الشيخ، وتبدأ فى صب القهوة، وتقديم

الأقداح مرة بعد مرة، وهى سمراء فوارة العينين مراحا وحيوية.

وتوالت الزيارات!! تيمور للإستطلاع، وجرمانوس للتعلم ظاهرا أو للإحتراق باطناً، وقد آثر التلميذ العاشق أن يشرح له أستاذه الشيخ شعر العباس بن الأحنف!..

فاستجاب الرجل:

يقول تيمور:

« وانطلق الشيخ ينشد شارحاً، مستشهداً بمقطعات دقيقة من شعر صاحب فوز، فكنا نسمع مأخوذين الطلاوة حديثه، ودقة بحثه، وبينما نحن فى نشوة السماع، إذ أحسست حفيف ثوب، فأرسلت بصرى.. نحو مصدر الحفيف، فطالعتنى على الفور عينان دعجاوان تحتهما لثام أسود هفهاف، فشعرت بهزة تنتظمنى، وألقيتنى اختلس النظر إلى الكاتب [يريد التلميذ جرمانوس] فوجدته مطاطىء الرأس، يعبث بأطراف عباءته، وقصدت نور العين مجلسها عن كثب، ووضعت الصينية بابريقها وأقداحها وجمرتها يتطاير منها عبق البخور، ثم شرعت تصب القهوة، وتوزعها علينا قدحاً بعد قدح، والشيخ ماض فى حديث العباس بن الأحنف، ينشد من غزله وهو يتابع أنفاسه فى جهد. وكنت فى الفينة بعد الفينة أرسل النظر إلى هاتين العينين الدعجاوين اللتين يخفق دونها الخمار الهفهاف فيخيل إلىَّ أنها عينان معلقتان فى الفضاء لا يتصل بها وجه ولا جسد، نبعان عميقان، يزخران بالأسرار الغامضة ويفيضان بالاحلام العذاب ولم أكن أغفل عن مسارقة النظر إلى صديقى الكابتن، فما رأيته إلا متجمعاً مسترخياً

فى جلسته ، يعتمد ذقنه بيديه فى إطراق ، وكأنه فى غيبوبة روحية يهيم فى آفاق مترامية هذه إذن فتاة جرمانوس ! لقد كان حبه عذرياً ! حيث اكتفى برسمها دون أن يبوح بشيء ! وقد ذكر تيمور فى خاتمة قصته أن صديقه قد مرض فجأة ونقل إلى المستشفى فى حالة مزعجة ، ورأى الصديق من واجبه أن يسهر على عناية المريض ليالى ذات عدد ، حتى إذا كاد يتماثل إلى الشفاء ، شاهد تيمور شيئاً تحت وسادته فمد يده إليه ، فوجده صورة « نور العين » ، إذ أصر المريض وحرص على أن تكون بجانبه على سرير المرض ، وحين رأى الصورة أخذها من يد تيمور ، ووضعها على قلبه مستروحاً منتشياً !!

تلك هى قصة جرمانوس العاشق ! قرأتها فى مجموعة « خلف اللثام » . فعرفت لماذا اضطرب قلب الشيخ الكبير فى ردهة الفندق .



فهـــرس



من إصدارات

النادي الأدبي الثقافي بجدة

١ ــ **قمم الأولمب** «شعر» للأستاذ محمد حسن عواد ــ (نفد).

٢ ــ **الساحر العظيم** «شعر» للأستاذ محمد حسن عواد ــ (نفد).

٣ ــ **عكاظ الجديدة** «شعر» للأستاذ محمد حسن عواد ــ (نفد).

٤ ــ **الشاطيء والسراة** «شعر» للأستاذ محمود عارف ــ ضم إلى مجموعة الشاعر الشعرية.

٥ ــ **من شعر الثورة الفلسطينية** «شعر» للأستاذ أحمد يوسف الريماوى ــ (نفد).

٦ ــ **أنين وحنين** «شعر شعبى» للأستاذ منصور بن سلطان ــ (طبع).

٧ ــ **محرر الرقيق** «سليمان بن عبد الملك دراسة للأستاذ محمد حسن عواد ــ (نفد).

٨ ــ **من وحى الرسالة الخالدة** «إسلاميات» محمد على قدس ــ (طبع).

٩ ــ **المنتجع الفسيح** «آداب وعلوم» للأستاذ محمد حسن عواد ــ (نفد).

١٠ـ **طبيب العائلة** ــ د. حسن يوسف نصيف ــ (نفد).

١١ـ **مذكرات طالب** (ط ٣) د. حسن يوسف نصيف ــ (نفد).

١٢ـ **شمعة على الدرب** «نثر» للدكتور عارف قياسة ــ (طبع).

١٣ـ **أطياف العذارى** ــ «شعر» للشاعر الأستاذ مطلق الذيابى ــ (طبع).

١٤ـ **كبوات اليراع** «تصويبات لغوية» للشيخ أبي تراب الظاهرى ــ (طبع).

١٥ـ **عندما يورق الصخر** «شعر» ــ للأستاذ ياسر فتوى ــ (طبع).

١٦ـ **ورد وشوك** «مطالعات» للأستاذ حسن عبد الله القرشي ــ (طبع).

١٧ـ **فى معترك الحياة** «مجموعة آراء» ــ للأستاذ عبد الفتاح أبومدين ــ (طبع).

١٨ـ **المجموعة الشعرية للأستاذ محمد إبراهيم جدع** ــ (طبعت).

١٩ـ **الوجيز فى المبادىء السياسية فى الإسلام** «نظريات إسلامية» للأستاذ سعدي أبوجيب ــ (طبع).

٢٠ـ **أوهام الكتاب** «تعقبات مختلفة» ـ للشيخ أبى تراب الظاهرى ـ (طبع).

٢١ـ **على أحمد باكثير حياته وشعره الوطنى والإسلامى** ـ دراسة للدكتور أحمد السومحى ـ (طبع).

٢٢ـ **نغم وألم** «شعر» ـ الشريف منصور بن سلطان ـ (طبع).

٢٣ـ **الكلب والحضارة** «قصص من البيئة» للأستاذ عاشق الهذال ـ (طبع).

٢٤ـ **شواهد القرآن** ـ للشيخ أبى تراب الظاهرى ـ (طبع).

٢٥ـ **التشكيل الصوتى فى اللغة العربية** ـ للدكتور سلمان العانى ـ (طبع).

٢٦ـ **أريد عمراً رائعاً** ـ «شعر» ـ للشاعر عبد الله جبر ـ (طبع).

٢٧ـ **ترانيم الليل** «المجموعة الشعرية الكاملة» للشاعر الأستاذ محمود عارف ـ (طبع).

٢٨ـ **حروف على أفق الأصيل** ـ «شعر» للأستاذ حمد الزيد ـ (طبع).

٢٩ـ **من أدب جنوب الجزيرة** ـ «دراسة» ـ للأستاذ محمد بن أحمد عيسى العقيلى ـ (طبع)

٣٠- **غناء الشادى** - «شعر» - للشاعر الأستاذ مطلق الذيابى - (طبع).

٣١- **الذيابى تاريخ وذكريات** إعداد الشريف منصور بن سلطان - (طبع).

٣٢- **محاضرات النادى** «القسم الأول» - (طبع).

٣٣- **محاضرات النادى** «القسم الثانى» - (طبع).

٣٤- **محاضرات النادى** «القسم الثالث» - (طبع).

٣٥- **المتنبى شاعر مكارم الأخلاق** للأستاذ أحمد بن محمد الشامى - (طبع).

٣٦- **هموم صغيرة** - «أقاصيص» للأستاذ محمد على قدس - (طبع).

٣٧- **أمواج وأثباج** «دراسة أدبية» - للأستاذ عبد الفتاح أبومدين - طبع (الطبعة الثانية).

٣٨- **الخطيئة والتكفير** - من البنيوية إلى التشريحية - للأستاذ الدكتور عبد الله الغذامى (طبع).

٣٩- **التجديد فى الشعر الحديث** - «دراسة أدبية» للدكتور يوسف عزالدين - (طبع).

٤٠- **التراث الثقافى للأجناس البشرية فى أفريقيا** - «دراسة علمية» - للدكتور عبد العليم عبد الرحمن جعفر - (طبع).

٤١ـ **فلسفة المجاز**ـ «دراسة لغوية»ـ للدكتور لطفى عبد البديع ـ (طبع).

٤٢ـ **بكيتك نوارة الفال، سجيتك جسد الوجد**ـ «شعر» عبد الله عبد الرحمن الزيد ـ (طبع).

٤٣ـ **مصادر الأدب النسائى فى العالم العربى الحديث**ـ للدكتور جوزيف زيدان ـ (طبع).

٤٤ـ **أحبك رغم أحزاني**ـ «شعر»ـ الدكتور فوزى عيسى ـ (طبع).

٤٥ـ **أبوتمام**ـ «دراسة»ـ للأستاذ سعيد السريحى ـ (طبع).

٤٦ـ **عبقرية العربية**ـ «دراسة لغوية»ـ للدكتور لطفى عبد البديع ـ (طبع).

٤٧ـ **أحاديث**ـ الدكتور محمد سعيد العوضى ـ (طبع) طبعة ثانية.

٤٨ـ **اغتيال القمر الفلسطينى** للأستاذ/ أحمد مفلح ـ (طبع).

٤٩ـ **التضاريس**ـ «شعر»ـ للأستاذ محمد الثبيتى ـ (طبع).

٥٠ـ **٤ صفر**ـ للأستاذة رجاء عالم ـ (طبع).

٥١ـ **علم اجتماع اللغة**ـ «ترجمة عن الانجليزية»ـ الدكتور أبوبكر باقادر (طبع).

٥٢ـ **أقضية وقضاة فى الإسلام**ــ للدكتور/ كمال محمد عيسى ــ (طبع).

٥٣ـ **علم الأسلوب**ــ للدكتور صلاح فضل ــ (طبع).

٥٤ـ **دليل كتاب النادى**ــ (طبع).

٥٥ـ **ديوان دمر**ــ «شعر» للأستاذ على دمر ــ (طبع).

٥٦ـ **أحبك.. ولكن**ــ «مجموعة قصص قصيرة» ــ للأستاذة مريم محمد الغامدى ــ (طبع).

٥٧ـ **مدخل إلى الشعر العربى الحديث**ــ للدكتور نذير العظمة ــ (طبع).

٥٨ـ **بقايا عبير ورماد** «شعر» للشاعر محمد هاشم رشيد، (طبـع).

٥٩ـ **محاضرات النادى**ــ الجزء الرابع ــ (طبع).

٦٠ـ **محاضرات النادى**ــ الجزء الخامس ــ (طبع).

٦١ـ **محاضرات النادى**ــ الجزء السادس ــ (طبع).

٦٢ـ **محاضرات النادى**ــ الجزء السابع ــ (طبع).

٦٣ـ **اللغة بين البلاغة والأسلوبية**ــ للدكتور مصطفى ناصف ــ (طبع).

٦٤ـ **جزر فرسان**ــ العقيد متقاعد صالح بن محمد بن مشيلح الحربى (طبع).

٦٥- **شواهد القرآن**- «الجزء الثانى»- للشيخ أبى تراب الظاهرى- (طبع).

٦٦- **الفكر السيكولوجى المعاصر**- للدكتور حمد المرزوقى- (طبع).

٦٧- **مُذَنَّب هالى**- للدكتور محمد عبده يمانى- (طبع).

٦٨- **مورفولوجيا الحكاية الخرافية**- الدكتور أبوبكر باقادر- (طبع).

٦٩- **طه حسين والتراث**- الدكتور مصطفى ناصف- (طبع).

٧٠- **ذاكرة لأسئلة النوارس**- «شعر» عبد الله الخشرمى- (طبع).

٧١- **قراءة جديدة لتراثنا النقدى**- «المجلد الأول»- والمجلد الآخر- (طبعا).

٧٢- **الوحوش**- للأصمعى- تحقيق الأستاذ أيمن محمد على ميدان- (طبع).

٧٣- **فى مفهوم الأدب**- ترجمة الدكتور منذر عياشى- (طبع).

٧٤- **محاضرات النادى**- الجزء الثامن- (طبع).

٧٥- **فى نظرية الأدب عند العرب**- الدكتور حمادى صمود (طبع).

٧٦ـ محاضرات النادى ــ الجزء التاسع ــ طبع .

٧٧ـ شعر حسين سرحان ــ دراسة نقدية أعدها الباحث أحمد عبدالله صالح المحسن ــ (طبع).

٧٨ ـ في النص الأدبي ـ دراسة أسلوبية إحصائية ـ للدكتور سعد مصلوح (طبع) .

٧٩ ـ حكم الله فى الصيد وطعام أهل الكتاب ـ للأستاذ مختار أحمد العيساوى ـ (طبع) .

٨٠ ـ محاضرات النادى ـ المجلد العاشر ـ (طبع) .

٨١ ـ خصام مع النقاد ـ د . مصطفى ناصف (طبع) .

٨٢ ـ أدبنا في أثر الدارسين ـ (طبع) .

٨٣ ـ ثقافة الأسئلة ـ الدكتور عبدالله الغذامي ـ (طبع) .

٨٤ ـ تهذيب اللسان وتقويم البنان ـ للاستاذ مختار العيساوى ـ (طبع) .

٨٥ ـ ديوان عمرو بن كلثوم التغلبى ـ تحقيق الأستاذ أيمن محمد على ميدان ـ (تحت الطبع) .

٨٣ ـ منهج الإسلام فى العقيدة والعبادة والأخلاق ـ د . أحمد عمر هاشم (تحت الطبع) .

٨٧ ـ الحركة التجارية في ميناء جدة في القرن الثالث عشر ، للدكتور مبارك المعبدى ـ (تحت الطبع)



طبعت بمطابع دار البلاد ـ جدة

ت : ٦٧٠٠٣٣٣ ص . ب : ٧٦١٤ جدة ٢١٤٧٢

قالـــوا ..

« هذه مقالات نشرت بعضها فى مجلة الرسالة ، وبعضها فى مجلة الهلال ، وبعضها لم ينشر فى هذه ولا تلك ، استحسنت أن أجمعها فى كتاب ، لا لانها بدائع أو روائع ، ولا لأن الناس ألحوا علىَّ فى جمعها فنزلت على حكمهم ، وأئتمرت بأمرهم ، ولا لأنها ستفتح فى الأدب فتحاً جديداً لا عهد للناس به ، ولكن لأنها قطع من نفسى أحرص عليها ، حرصى على الحياة ، وأجتهد فى تسجيلها إجابة لرغبة حب البقاء ، وهى مجموعة أدل منها مفرقة ، وفى كتاب أبين منها فى أعداد »

أحمد أمين